إيزابيل ألليندي

صورة عتيقة

رواية





الترجمة عن الإسبانية:
رفعت عطفة

الفهرس

القسم الأوّل (1862 ـ 1880) 9

القسم الثاني (1880 ـ 1896) 99

القسم الثالث (1896 ـ 1910) 213

خاتمة 313

إلى كارمن بالثليز ورامون هويدوبرو،

أسدين مولودين في يومٍ واحد، وحيين إلى الأبد.

لذا عليَّ أن أعود

إلى أماكن كثيرة قادمة

كي ألتقي بنفسي،

أتفحّصها دون توقّف،

دون ما شاهد غير القمر

أصفرُ بعدها فرحاً

وأنا أطأ حجارة وتراباً،

دون ما همّ غير العيش

ودون ما أسرة غير الطريق.

بابلو نيرودا

نهاية عالم (الريح)

القسم الأوّل

1862 ـ 1880

جئتُ إلى العالم ذات ثلاثاء من خريف 1880، تحت سقف جدّيَ لأميّ في سان فرانسيسكو. وبينما كانت أمّي تلهثُ في متاهة ذلك البيت الخشبيّ كمن يصعد جبلاً بقلب شجاعٍ جاهدةً كي تشقّ لي مخرجاً؛ كانت الحياة الوحشية للحي الصيني تمور في الشارع بالرائحة التي لا تتبدّل لمطبخه الغريب، والسيل المدوّي للهجاته الصاخبة، وحشوده التي لا تنضب من النحل البشري في رواح وغدوّ سريعين. ولدتُ فجراً، لكنّ الساعات في تشايناتاون (الحي الصيني) لا تخضع لقواعد، ففي هذه الساعة تبدأ حركة السوق ومرور العربات ونباح الكلاب الحزينة في أقفاصها بانتظار سكين الطبّاخ. جئت لأعرف تفاصيل ولادتي في زمنٍ متأخر من حياتي، ولكن الأسوأ من ذلك لو أنّني لم أكتشفها قط، فقد كان من الممكن أن تبقى طيّ النسيان. عند أسرتي من الأسرار ربما لن يكفيني الزمن لاستجلائها كلّها: فالحقيقة عابرة مغسولة بسيول من المطر. استقبلني جدّاي لأمّي متأثرين ـ رغم أنّني كنتُ حسب عدد من الشهود مخلوقاً مريعاً ـ ووضعاني على صدر أمي، حيث بقيتُ مستكينةً بضعَ دقائق، هي الدقائق الوحيدة التي تمكّنتُ فيها من البقاء معها. بعدها نفخ خالي «محظوظ» نَفَسَهُ في وجهي لينقلَ إليَّ حسنَ حظّه. كانت النيّةُ كريمةً والطريقةُ صائبةً، فهي على الأقل واتتني خلال هذه الثلاثين سنة الأولى من حياتي. لكن حذارِ، عليّ ألا أستبق الأمور. فهذه القصّة طويلة، وتبدأ قبل ولادتي بكثير، وتتطلّب روايتُها صبراً،

وسماعُها صبراً أكثر. وإذا ما ضاع الخيط في الطريق فلا يجب الوقوع في اليأس، فهو سوف يُستعاد بكلّ تأكيد بعد عدّة صفحات. وبما أنّ علينا أن نبدأ بتاريخ ما، فليكن في العام 1862 ، ولنقل بالمصادفة إنّ القصّة تبدأ بقطعة أثاث أبعادها غير معقولة.

سرير باولينا دِل بالْيِه أُوصي عليه إلى فلورنسا بعد عام من تتويجِ فيكتور إيمانويل حين كانت ما تزال تتردّد في مملكة إيطاليا الجديدة أصداءُ رصاص غاريبالدي؛ وعَبَرَ المحيطَ مُفكّكاً في عابرة محيطات جنوية، وأُنزِل في نيويورك وسط إضرابٍ دامٍ، ونُقِل إلى إحدى بواخِر شركة سفن أجدادي لأبي آل رودريغِث دِ سانتا كروث، التشيليين المقيمين في الولايات المتحدة. وكان من نصيب القبطان جون سومّرز استلام الصناديق المُعَلَّمَة بالإيطالية، وبكلمة واحدة: *نابادِس*. ذلك البحّارُ الإنكليزيُّ القويُّ، الذي لم يبق له أثرٌ غير صورة باهتة وصندوقٍ جلديٍّ متآكلٍ من كثرة ما عبر بحاراً، مليء بالمخطوطات الغريبة، هو جدّ أمّي، كما تحقّقتُ منذ زمنٍ قصير، حين بدأ ماضيَّ ينجلي أخيراً، بعد سنوات طويلة من الغموض. لم أعرف القبطان جون سومّرز، والد إليثا سومّرز، جدّتي لأمّي، لكنّني ورثت عنه نوعاً من النزوع نحو الصعلكة. وعلى كاهل رجلِ البحر هذا، الذي كان أفقاً وملحاً خالصين، وقعت مهمّةُ نقل السرير الفلورنسي في قاع سفينته حتى الطرف الآخر من القارّة الأمريكية . وكان عليه أن يتفادى الحصار اليانكي، وهجمات الكونفدراليين، ويصل إلى تخوم المحيط الأطلسي الجنوبية، يعبر مياه مضيق ماجلان الغدّارة، ويدخل إلى المحيط الهادي، ثمّ بعد توقّف قصير في عدة موانئ أمريكية جنوبية، يُوجّه مقدّمة سفينته نحو شمال كاليفورنيا، أرض الذهب القديمة. كانت لديه أوامر دقيقة بفتح الصناديق في ميناء سان فرانسيسكو، مراقبة النجار الموجود على متن السفينة، بينما يركّبُ هو الأجزاءَ وكأنّها أحجية، منتبهاً كيلا تُثلم النقوش المنحوتة، ولكي يضع فوقه الفرش وغطاء الدمقس الياقوتيّ، ويضعه في عربة ويرسله ببطء إلى مركز المدينة. وكان

على الحوذي أن يدور دورتين حول ساحة الوحدة، ودورتين أخريين وهو يقرع جلجلاً أمام شرفةِ خليلةِ جدّي، قبل إنزاله في المكان المرسل إليه: بيت باولينا دِل بالْيِه. وكان عليه أن يقوم بهذه المأثرة في أوج الحرب الأهلية عندما كان اليانكيون والقوات الفدرالية يتذابحون في جنوبي البلاد، وما من أحد يملك مزاجاً للمزاح ولا للأفراح. وزّع جون سومّرز التعليمات ساخطاً، لأنّ هذا السرير صار خلال شهور الإبحار يرمز لأكثر ما يكره من عمله: نزوات ربّة عمله باولينا دِل بالْيِه. عندما رأى السرير على العربة، تنهّد وقرّرَ أن يكون آخر عملٍ يعمله لأجلها: فقد مضى على وجوده رهن أوامرها اثنا عشر عاماً، ووصل صبره إلى أقصى حالاته الممكنة. ما زال السرير موجوداً لم يُمسّ. إنّه ديناصور خشبي ثقيل متعدّد الألوان، على القطعة الرأسية يتقدّم نبتون محاطاً بالأمواج المرغية والمخلوقات البحرية السفلية محفورة حفراً غائراً، بينما تلعب عند القدمين الدلافين وعرائس البحر. بعد ساعات قليلة استطاع نصف سكّان مدينة سان فرانسيسكو أن يبدوا تقديرهم لذلك السرير الأولمبي. لكنّ جدّتي العزيزة التي كان المشهدُ مُهدىً إليها، اختبأت حين مرّت العربة وعادت لتمرّ بجلاجلها.

ـ لم يدم انتصاري طويلاً ـ اعترفت لي باولينا بعد سنواتٍ طويلة، حين كنتُ أصرّ على تصوير السرير، ومعرفة التفاصيل ـ انقلبت المزحة. ظننتهم يسخرون من فِليثيانو، لكنّهم كانوا يسخرون منّي. أسأتُ حكمي على الناس. من كان سيتصوّر كلّ هذا النفاق؟. كانت سان فرانسيسكو في تلك الأزمان عشّ دبابير للسياسيين الفاسدين واللصوص والنساء سيّئات السيرة.

ـ لم يُعجبهم التحدّي ـ ارتأيتُ.

ـ لا. يُنتظر منّا نحن النساء أن نُعنى بسمعة الزوج مهما كان خسيساً.

ـ زوجك لم يكن خسيساً ـ دحضتها.

ـ لا، لكنّه كان يرتكب حماقات. في جميع الأحوال لست نادمة على السرير الشهير، فقد نمتُ عليه أربعين عاماً.

ـ ماذا فعل زوجك حين رأى أنّ أمره انكشف؟

ـ قال إنّه بينما البلد ينزف في الحرب الأهلية كنتُ أشتري أثاثاً من كاليغولا. طبعاً أنكرَ كلَّ شيء. ما من أحد لديه ذرّة عقلٍ يقبل الخيانة، حتى ولو أمسكوا به بين الملاحف.

ـ هل تقولين هذا عن تجربة شخصية؟

ـ حبّذا لو كان كذلك يا أَوْرورا! ـ ردّت باولينا دِل بالْيِه دون تردّد.

في الصورة الأولى التي التقطها لها، حين كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، تظهر باولينا في سريرها الأسطوري، متكئةً على وسائد الساتان المطرّز. في قميص مزركشٍ وعليها نصف كيلوغرام من المجوهرات. هكذا رأيتُها مرّاتٍ كثيرةً، وهكذا وددتُ أن أسهر عليها حين ماتت، لكنّها أرادت أن تذهب إلى القبر بزيٍّ الكرمليات الحزين، وأن يُقام القدّاسُ المغنّى لعددٍ من السنوات من أجل راحة نفسها. «لقد أثرت الكثير من الفضائح وآن الأوان كي أطأطئ رأسي» ذلك كان التفسير الذي قدّمته حين غرقت في حزن أيامها الأخيرة الشتوي. فحين رأت نفسها قريبة من النهاية خافت. أمرت بنفي السرير إلى القبو، ووضعت مكانه تختاً خشبياً مع فراش من شعر عرف الحصان، كي تموت دون ترف، بعد كلّ ذلك التبذير، فعسى يمحو القديسُ بطرس ما سبق، ويبدأ حساباً جديداً في كتاب خطاياها، كما قالت. لكن خوفها لم يسمح لها بالتخلّص من ممتلكاتٍ ماديّة أخرى، فقد بقيت حتى آخر نفسٍ ممسكةً بين يديها بزمام إمبراطوريتها المالية، التي كانت محدودة جدّاً بالنسبة إلى ذلك الوقت. لم يبق من صلف شبابها حتى النهاية إلا القليل، وحتى السخرية راحت تنضب، لكنّ جدّتي خلقت أسطورتها الخاصّة بها وما من فراشِ شعرِ عرف حصان، أو زيٍّ راهبة كرمليّة كان باستطاعته أن يُعكّر مزاجها. فقد شكّل السرير الفلورنسي، الذي

خطر لها أن تُنَزِّهه في أهمّ الشوارع لإزعاج زوجها، إحدى أكثر لحظاتها مجداً. كانت الأسرةُ في تلك المرحلة تعيش في سان فرانسيسكو، بِكنْية مستبدلة ـ كروس ـ؛ لأنّه ما من أمريكيّ كان باستطاعته أن يلفظ الاسم الرنان رودريغِث دِ سانتا كروث ودِل بالْيِه، وهذا أمر مؤسِف، لأنّ للكنية الأصلية الوقع القديم لمحاكم التفتيش. كانوا قد انتقلوا توّاً إلى حي نوب هيل، حيث بنوا بيتاً غير معقول، من أكثر بيوت المدينة بذخاً، جاء حصيلة هذيان عدد من مهندسي العمارة المتنافسين المتعاقد معهم والمطرودين كلّ اثنين من ثلاثة. لم تجمع الأسرة ثروتها من حمّى ذهب عام 1849 كما كان يزعم فِليثيانو، بل بفضل حدس زوجته التجاري الرائع، التي خطر لها أن تنقل منتجاتٍ طازجة من تشيلي إلى كاليفورنيا على حصير من ثلج قطبيّ. في ذلك العصر الصاخب كانت حبة الدراق تساوي أونصة ذهبية، وعرفت هي كيف تستفيد من هذه الظروف. ازدهرت المبادرة، ووصل بهم الأمر إلى أن ملكوا أسطولاً صغيراً من السفن المبحرة بين بالبارايسو وسان فرانسيسكو، وكانت تعود في العام الأول فارغةً، لكنّهم صاروا يشحنونها بعد ذلك بطحين كاليفورنيا؛ وهكذا أوقعوا بالإفلاس عدداً من المزارعين التشيليين بمن فيهم والد باولينا، أغوستين دِل بالْيِه المرهوب الجانب، الذي دَوّد قمحه في مخازنه لأنّه لم يستطع أن يُنافِسَ به طحين اليانكيين ناصعَ البياض. كما دَوّد كبده من الحنق. مع انتهاء حمّى الذهب، عاد آلاف وآلاف المغامرين إلى قراهم الأصلية، وهم أفقر حالاً مما كانوا حين خرجوا، بعد أن خسروا صحّتهم وروحهم، لاهثين خلف حلم، لكنّ باولينا وفِليثيانو بنيا ثروةً. واعتليا قمّة مجتمع سان فرانسيسكو، على الرغم من العائق الذي يصعب التغلب علِيه، ألا وهو النبرة الإسبانية. «الجميع في كاليفورنيا أثرياء جدد وأولاد حرام، بينما شجرتنا العائلية تعود إلى الحروب الصليبية» هكذا كانت تتمتم باولينا آنذاك قبل أن تُسلِّم بهزيمتها وتعود إلى تشيلي. ومع ذلك لم تكن ألقاب النبالة ولا الحسابات المصرفية وحدها من

فتح لهم الأبواب، بل ملاحة فِليثيانو، الذي أقام صداقاتٍ مع أقوى رجالات المدينة. بالمقابل كان من الصعب هضم زوجته، المتبجّحة، سيئّة الكلام، الصلفة والمتعسّفة. يجب أن نقولها: كانت باولينا توحي في البداية بمزيج من الإدهاش والرهبة التي يشعر بها المرء أمام عظاءة أمريكية؛ ولايُكتشف اندفاعها العاطفي إلاّ بالتعرف عليها جيّداً. في عام 1862 دفعت زوجها نحو الشركة التجارية المرتبطة بالسكك الحديدية القارّية التي جعلتهم أثرياء بشكلٍ نهائيّ. لا أعرف من أين جاءت هذه السيّدة بحدسها التجاري. فهي تتحدّر من أسرة من الملاكين التشيليين ضيّقي الأفق وفقراء الروح، وتربّت بين جدران بيت أبويها في بالبارايسو، وهي تصلي صلاة السبحة وتطرّز، لأنّ والدها كان يعتقد أنّ الجهل يضمن إذعانَ النساء والفقراء. لم تكن تُتقِنُ مبادئ الكتابة والحساب، فهي لم تقرأ كتاباً في حياتها، وكانت تجري عمليات الجمع بأصابعها ـ لم تُجْرِ عمليةَ طرحٍ قط ـ لكنّ كلّ ما كانت تلمسه يداها يتحوّل إلى ثروة. ولولا تبذير أبناؤها وأقرباؤها الطائشون لكانت ماتت ببهاء إمبراطورةٍ. في تلك المرحلة كانوا يبنون السكة الحديدية للربط بين شرقِ وغربِ الولايات المتحدة. وبينما كان الجميع يستثمرون في أسهم الشركتين، ويراهنون لأي القطارين سيمدّد الخطّ بسرعة أكبر، نشرت، هي اللامبالية بهذا السباق المحموم، خريطة على طاولة غرفة الطعام، ودرست بأناة الطبوغرافي خطّ القطار المستقبلي، والأماكن التي يتوافر فيها الماء. وقبل أن يدقّ العمّال الصينيون آخر مسمارٍ، رابطين خطوط القطار في بروموتوري، ويوتاه، وقبل أن تعبر أوّل قاطرة القارّةَ بقعقعة حديديها، وحزم دخانها البركانية، وصفيرها الصارخ كصفير السفن وهي تشرف على الغرق، أقنعت زوجهَا بأن يشتري أراضي في الأماكن المعلّمة على خريطتها بإشارات صليب حمراء.

ـ هناك سيؤسسون القرى لأنّه يوجد ماء، وسيكون لنا في كلّ واحدة منها مخزناً ـ وضّحتْ.

ـ هذا يحتاج إلى مالٍ كثير ـ هتف فِليثيانو مذعوراً.

ـ احصل عليه بالقروض، فلهذا وُجِدت البنوك. لماذا سنُجازف بأموالنا الخاصّة إذا كان باستطاعتنا أن نتصرّف بأموال الغير؟ ـ ردّت باولينا، كما كانت تتعلّل دائماً في مثل هذه الحالات.

كانا في هذا الأمر يتباحثان مع المصارف، ويشتريان الأراضي على امتداد نصف البلد، حين انفجرت قضيّة الخليلة. وهي ممثّلة تُدعى أماندا لويل، اسكتلندية تُؤكَل، حليبية اللحم، سبانخية العينين ودرّاقيّة الطعم، حسب ما كان يؤكّد الذين جرّبوها؛ تُغني وترقص بشكلٍ سيِّئ، لكن بهمّة؛ تُمثّل في كوميديات قليلة الاعتبار وتُحيي حفلات أعيانٍ. كان عندها أفعى ذات أصلٍ بنميّ، طويلة وغليظة ووديعة، لكنّها ذات مظهر مُرَوِّع، تلفّها حول جسمها أثناء الرقصات الغريبة، ولم تبدِ أيّ مزاجٍ سيّئ إلا في ليلة مشؤومة تقدّمت فيها بإكليل من الريش في تسريحتها، فخلط الحيوان بين التسريحة وببغاء غافل فأوشك أن يخنق صاحبته بإصراره على ابتلاعها. كانت لويل أبعد من أن تكون واحدة من آلاف «الحمامات المدنسات» في حياة كاليفورنيا الغرامية، فهي مومس أنوف، لا يمكن الوصول إلى معروفها بالمال فقط، بل وبالأخلاق الحسنة والسحر والتودد أيضاً. وكانت تعيش بفضل كرم حُمَاتها عيشةً حسنة، ويفيض عنها ما تساعد به شرذمة من الفنانات غير النبيهات. كان مكتوباً عليها أن تموت فقيرة، لأنّها تُنفِق عن بلدٍ بأسره، وتهدي الفائض. لطالما أربكت في زهرة شبابها السيرَ في الشارعِ بظرافة سلوكها وحمرةِ شعرها الأسدي، لكّن حبّها للفضيحة خرّب حظّها: ففي حالة هيجان واحدة تستطيع أن تُدمِّرَ اسماً وتقوض أسرةً. بدت المجازفة بالنسبة إلى فِليثيانو حافزاً إضافياً، فقد كانت له روح قرصان وأغوته فكرة اللعب بالنار كما أغواه وركا لويل الشامخان. أنزلها شقّةً في مركز المدينة تماماً، لكنّه لم يحدث أن حضر إليها علناً، لأنّه يعرف جِبلة زوجته أكثر من اللازم، فقد قطعت، في نوبة غيرةٍ، بالمقص سيقان وأكمام جميع بدلاته، ورمتها على باب مكتبه. وكان هذا بالنسبة لرجلٍ أنيقٍ يوصي على ثيابه خيّاط الأمير ألبيرت في لندن، ضربةً قاضية.

في سان فرانسيسكو، المدينة الذكورية، كانت الزوجةُ دائماً آخرَ من يعلم بالخيانة الزوجية. لكن هذه المرّة كانت لويل ذاتها من أذاعتها. فحاميها يكاد لايُدير ظهرَهُ حتى تُعلّم أرجلَ السرير بخطوطٍ، خطٍّ واحد عن كلّ عشيق تستقبله. كانت هاوية جمعٍ، لايهمّها الرجالُ لما فيهم من قيم خاصّة، بل عددُ الخطوط، فهيَ ترغب بتجاوز أسطورة لولا مونتِّثْ المذهلة، المومس الإيرلندية، التي مرّت بسان فرانسيسكو مثل نسمة عطر أيّام حمّى الذهب. راحت فضيحةُ خطوطِ لويل تنتقلُ من فم إلى فم، والفرسان يتشاجرون على زيارتها، لسحرِ الجميلةِ، التي كأن الكثيرون منهم يعرفونها بالمعنى التوراتي للكلمة، كما لتفضيلهم النوم مع صاحبةٍ واحدٍ من أشراف المدينة. وصل الخبرُ إلى باولينا دِل باليِه، بعد أن دار دورةً كاملة في كاليفورنيا:

ـ أكثر ما يهين هو أن تُركِّب لك هذه القحبة قروناً، وأن يمضي الجميع معلقين أنّني متزوّجة من ديكٍ مخصي! ـ وبَّخت باولينا زوجَها معنّفة بلغةٍ اعتادت على استخدامها في مثل تلك المناسبات.

لم يكن فِليثيانو رودريغث دِ سانتا كروث يعلم شيئاً عن نشاطات هاوية الجميع، وكاد الانزعاج يقتله. لم يتصوّر قط أن أصدقاء ومعارف وآخرين مدينون له كثيراً؛ يمكن أن يسخروا منه بتلك الطريقة. بالمقابل لم يُلقِ باللوم على العشيقة، لأنّه كان يقبل مذعناً نزوات الجنس الآخر، المخلوقات الرائعة، لكنّ الخالية من البنية الأخلاقية، والجاهزات دائماً للإذعانِ للإغواء. فبينما هنّ ينتمين للتراب، الدُبَال، الدم والوظائف العضوية، كانوا هم منذورين للبطولة، والأفكار العظيمة، والقداسة، وإن لم تكن تلك حالته هو. في المواجهة مع زوجته حاول أن يُدافِع عن نفسِه قدر استطاعته، واستغلّ وِقفةً ليرمي في وجهها القفلَ الذي توصد به بابَ غرفتها. هل كانت تريد من رجلٍ مثله أن يعيش ممتنعاً عن النساء؟ الذنب كلّه ذنبها لأنّها صدّته، تعلّلَ. موضوع القفل كان صحيحاً، فباولينا رفضت الهياجات الشهوانية الجموحة، ليس لعدم وجود الرغبة، كما اعترفت لي بعد أربعين عاماً، بل حياءً. صارت تشمئز من النظر إلى نفسها في المرآة، واستنتجت أنّ كلّ رجلٍ سيشعر بالشيء ذاته حين

يراها عارية. إنها تتذكّر تماماً اللحظة التي وعت فيها أنّ جسدها راح يتحوّل إلى عدوٍّ لها. قبل سنواتٍ، عندما عادَ فِليثيانو من رحلة تجارية طويلة إلى تشيلي، أخذها من خصرها وأراد أن يرفعها عن الأرضِ، بمزاجه الحسن دائماً، ليحملها إلى السرير، لكنّه لم يستطع تحريكَها.

ـ ويحك، يا باولينا! هل في سروالك حجارة؟ ـ ضحك.

ـ إنّه شحم ـ تنهّدت بحزن.

ـ أريد أن أراه!

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال. ومن الآن فصاعداً لن تستطيع المجيء إلى غرفتي إلاّ ليلاً والمصباح مطفأ.

مارسَ هذان الزوجان، اللذان أحبّ بعضهما بعضاً بلا حياءٍ، الحبَّ زمناً في الظلمة. وبقيت باولينا منيعة أمام توسلات وغضب زوجها، الذي لم يقتنع قط بلقائها تحت كومةِ الملاءات في عتمة الغرفة، ولا بمعانقتها بسرعة المبشِّر بينما هي تُمسِك بيديه كيلا يلمس لحمها. وكان الشدّ والرخيُ يتركهما منهكين، مستنفدي الأعصاب. أخيراً وبذريعة الانتقال إلى البيت الجديد في نوب هيل وضعت باولينا زوجها في الطرف الآخر من البيت، وأوصدت بابَ غرفتها. كان انزعاجها من جسدها ذاته يفوق الرغبة التي تشعر بها تجاه زوجها. اختفى عنقها خلفَ غَبَبِها المضاعف، وصار صدرها وكرشها بطنَ أسقفٍ وجيه، قدماها لا تقويان على حملها إلاّ لدقائق قليلة، ولا تستطيع أن ترتدي ملابسها، أو تشدّ أبازيم حذائها بمفردها. لكنّها شكّلت بثيابها الحريرية ومجوهراتها الرائعة، كما تظهر دائماً، مشهداً عجيباً. كان انشغالها الأعظم هو العرق بين ثنيات لحمها، وعادة ما تسألني هامسةً ما إذا كانت تصدر عنها رائحة كريهة، لكنّني لم أشمّ عندها قط غير رائحة الغاردينيا ومسحوق التالك. وبخلاف ما كان شائعاً جدّاً في ذلك الوقت من أنّ الماء والصابون يُتلفان القصبات الهوائية، فإنها كانت تقضي ساعاتٍ طافيةً في حوض حمّامها المعدني المطلي بالمينا، فتشعر من جديد أنها تعود بنفسها خفيفةً كما في شبابها. عشقت فِليثيانو

حين كان شابّاً وسيماً، طموحاً ومالكاً لبعض مناجم الفضّة في شمال تشيلي. تحدّت لأجل هذا الحبِّ غضبَ والدها، أغوستين دِل بالْيِه، الذي يرد اسمه في كتب تاريخ تشيلي المدرسية كمؤسّس لحزب يميني متطرّف ضئيل وبائس، واختفى منذ أكثر من عقدين، لكنّه يعودُ ليظهر بين حين وآخر مثل طائر عنقاء منتوف الريش مثير للشفقة. حبّها لهذا الرجل بالذات هو الذي ساعدها حين قرّرت منعه من دخولِ غرفةِ نومها وهي في عمرٍ كانت تطالبها طبيعتها فيه بالضمّ أكثر من أيّ وقت مضى. وعلى العكس منها كان فِليثيانو ينضجُ بملاحةٍ. صار شعره رمادياً، لكنّه بقي الرجل الضخم المرح، المولَه والطائش. كانت باولينا تُحبّ مزاجه السوقي، فكرة أن يكون هذا الفارس صاحب الكنتين المسيحيتين الصارختين من أصلٍ يهوديّ، وتحت قمصانه الحريرية يلمع وشم فاسق ناله في الميناء أثناء إحدى سكراته. كانت تتشوّق لسماع البذاءات التي كان يهمس لها بها في أذنها حين كانا ما يزالان يتقلبان في السرير والمصابيح مضاءة، وكانت تدفع أيّ شيء مقابل أن تضع رأسها على ذلك التنين الأزرق المحفور بالحبر الذي لا يمّحي على كتف زوجها. لم يخطر لها أنّه هو أيضاً يرغب بالشيء ذاته. فهي بالنسبة إلى فِليثيانو دائماً الخطيبة الجسورة التي هرب معها في شبابه، المرأة الوحيدة التي يُعجب بها ويخافها. يخطر لي أنّ هذين الزوجين لم يتخليا قط عن حبّهما لبعضهما بعضاً، على الرغم من المشاجرات العاصفة التي كانت تجعل كلّ من في البيت يرتعد. فالعناقات التي جعلتهما في الماضي سعيدين، انقلبت إلى معارك تُتَوَّج بهدنات طويلة الأمد، وانتقامات لا تنسى، مثل السرير الفلورنسي، ومع ذلك ما من إهانة هدمت علاقتهما، وبقيا حتى النهاية، عندما سقط هو جريحاً حتى الموت نتيجة داء السكري، متحدين بتواطؤٍ وَغْدَين يُحسدان عليه.

ما إن تأكّد القبطان جون سومّرز من أنّ قطعة الأثاثِ الأسطوريَّة صارت في العربة، وأن الحوذيّ يفهم تعليماته، حتى انطلق سيراً على قدميه إلى تشايناتاون، كما كان يفعل في كلّ زيارة

له إلى سان فرانسيسكو. لكنّ عزمه هذه المرّة لم يكفِه فاضطُرّ بعد كوادرتين أن يستدعي عربةً أجرة. ركب بجهدٍ، دلّ الحوذيّ على العنوان واستلقى في المقعد وهو يلهث. منذ عام بدأت الأعراض تظهر، لكنّها تفاقمت في الأسابيع الأخيرة، فساقاه لا تكادان تحملانه، ورأسه يمتلئ بالضباب، وكان عليه أن يصارع بلا هوادة ضدّ إغواء الاستسلام للامبالاة الهفهافة التي راحت تغزو روحَهُ. أُخته روز كانت أوّل من نبّهته إلى أنّ شيئاً ما غير طبيعي يجري، حين لم يكن يشعر بعد بالألم. كان يُفكّر بها مبتسماً: إنّها أقرب وأحب الأشخاص إليه، فهي بوصلة حياته الترحالية، أكثر واقعية في عاطفتها من ابنته إليثا، أو أيّ من النساء اللواتي عانقهنّ في ترحاله الطويل من ميناء إلى ميناء.

كانت روز سومّرز قد قضت شبابها في تشيلي، إلى جانب أخيها الأكبر جِرمي، لكنّها عند موته، عادت إلى إنكلترا، كي تشيخ في بلدها الأصلي. كانت تُقيم في لندن، في بيتٍ صغير على مسافة قليلة من المسارح والأوبرا، وهو حي أُفْقِرَ قليلاً، تستطيع أن تعيش فيه على هواها اللذيذ. ما عادت حاملة مفاتيح أخيها جِرمي المهذّبة، وصار باستطاعتها الآن أن تُطلِقَ العنانَ لمزاجها الغريب. اعتادت أن ترتدي ملابسَ ممثّلة مفجوعةٍ، كي تشرب الشاي في السافوي، أو ثيابَ كونتيسةٍ روسيّةٍ كي تُنَزِّه كلبَها. كانت صديقة الشحاذين وموسيقيي الشوارع الجوالين، وتُنفِق أموالها على الترهات والصدقات. «ما مِنْ مُحَرِّر مثل العمر» كانت تقول لنفسها وهي تَعدُّ تجاعيدَها بسعادة؛ فيردّ عليها جون سومّرز: «ليس العمرُ يا أختُ، بل الحالة الاقتصادية التي أشدتِها بريشتكِ». فقد كوَّنتْ هذه العازبة المحترمة ذات الشعر الأبيض ثروةً صغيرةً من كتابة القصص الخلاعية. أكثر ما يُثير السخرية، كان يُفكّر القبطان، هو أنّ روز حين صارت لا تحتاج للتخفيّ كما حدث حين كانت تعيش في ظلّ أخيها جِرمي، فقد كفّت عن كتابة القصص الخلاعية، وتفرّغت لكتابة الروايات الرومانسية بإيقاعٍ خانق وبنجاح غير معهود. ما من امرأة لغتها الأم هي الإنكليزيّة، بمن فيهنّ الملكة

فيكتوريا، لم تقرأ على الأقل واحدة من قصص *السيّدة* روز سومّرز. اللقب المميّز لم يفعل شيئاً آخر، غير أنه أضفى شرعية على حالة كانت روز قد اقتنصتها منذ سنواتٍ. لو أنّ الملكة فيكتوريا شكّت بأنّ كاتبتها المفضّلة، التي منحتها شخصياً لقب *سيّدة*، مسؤولةٌ عن مجموعة واسعة من الأعمال الأدبية الفاحِشة الموقعة باسم *سيّدة مجهولة*، لأصيبت بالإغماء. كان القبطان يرى أن الأدب الخلاعي لذيذ، لكنّ روايات الحبّ هذه زبالة. وقد أخذ على عاتقه نشر وتوزيع قصص روز الممنوعة من خلف ظهر أخيه الكبير، الذي مات وهو مقتنع بأنّها آنسة فاضلة لا مهمّة لها غير أن تجعل الحياة لطيفة. «اعتنِ بنفسك، يا جون، فكّر أنّك لا تستطيع أن تتركني وحيدةً في هذا العالَم. أنت تَنْحَل ولونك غريب» هذا ما كرَّرته روز يومياً حين زارها القبطان في لندن. ومنذ ذلك الحين راح تحوّلٌ لا يرحمُ يُحوّله إلى ضبٍّ.

كان تاو شيين قد انتهى من نزع إبره من أذني وذراعي أحد المرضى حين أعلمه مساعده أنّ حَميه وصل. وضع *الزهونغ ـ يي* الإبر الذهبية في الكحول الخالص بعناية، غسل يديه في حوض، ثم ارتدى سترته وخرج لاستقبال الزائر، مستغرباً أنّ إليثا لم تُبلغه بأن والدها سيصل في ذلك اليوم. كلّ زيارة من زيارات القبطان سومّرز كانت تُثيرُ الشجون. فالأسرة تنتظره بلهفة، وخاصّة الطفلان اللذان لا يتعبان من النظر إلى الهدايا الغريبة، ومن سماع حكايات مسوخ البحر والقراصنة المالاويين من ذلك الجدّ العملاق. وكان القبطان بالنتيجة رجلاً طويلاً، قويَّ البنية، مدبوغ الجلدِ بملحِ البحار، خشن اللحية ، له صوت رعدٍ قوي وعينا رضيعٍ زرقاوان وبريئتان، لكنّ الرجل الذي رآه تاو شيين جالساً على كرسيّ كبير في العيادة كان من الضمور بحيث أنّه لاقى صعوبة في التعرّف عليه. سلّم عليه باحترام، فهو لم يتخلّص من عادة الانحناء أمامه على الطريقة الصينيةً. كان قد عرف جون سومّرز في شبابه، حين كان يعملُ طاهياً في سفينته. «أنا تُناديني بالسيّد، مفهوم، أيها الصيني؟» هذا ماأمره به في المرّة الأولى التي كلّمه فيها. آنذاك كان شعرُ الاثنين

أسودَ، فكّر تاو شيين وهو يشعر بوخزةِ حزن أمام نذير الموت. انتصب الإنكليزي على قدميه، أعطاه يده وعانقه عناقاً قصيراً. تأكّد *الزهونغ - يي* الآن أنّه هو الأطول والأثقل.

- هل تعلم إليثا أنّك ستأتي اليوم يا سيّدي؟

- لا. أنت وأنا يجب أن نتكلّم على انفراد يا تاو. أنا أموت.

فهمَ *الزهونغ - يي* ذلك ما أن رآه. قاده إلى غرفة المعاينة دون أن ينطق بكلمة واحدة، وساعده هناك على خلع ملابسه والاستلقاء على سرير المعاينة. كان مظهر حميه العاري يثير الشفقة: الجلد سميك، وجاف، يميل إلى النحاسي، الأظافر صفراء، العينان محتقنتان بالدم، والبطن منتفخ. بدأ بالاستماع إلى دقات قلبه، ثم أخذ نبضه من رسغيه وعنقه وكعبيه كي يتأكّد مما كان يعرفه.

- كبدك ممزّق يا سيّدي، أمازلت تشرب؟

- لا تستطيع أن تطلب منّي الامتناع عن عادة العمر يا تاو. هل تعتقد أنّ باستطاعة أحدٍ أن يتحمّل مهنة البحار دون جرعة من حين لآخر؟

ابتسم تاو شيين. كان الإنكليزيُّ يشرب نصف زجاجة جِن في الأيام العادية، وزجاجة كاملة إذا كان هناك شيء يتطلّب الحزن أو الفرح، دون أن يبدو عليه أنه يتأثر أدنى تأثير، لا تشمّ عنده حتى رائحة المشروب، لأنّ التبغ القويَّ الرديء كان يملأ ثيابَهُ ونفَسَهُ.

- ثمّ إنّه تأخر الوقت كي أتوب، أليسَ كذلك؟ - أضاف جون سومّرز.

- تستطيع أن تعيش أكثر قليلاً وفي ظروفٍ أفضل إذا ما تركت المشروب. لماذا لا تأخذ استراحة؟ تعال لتعيش معنا مدّة معيّنة. وسنعتني بك أنا وإليثا حتى تتعافى - اقترح *الزهونغ - يي* دون أن ينظر إليه، كيلا ينتبه الآخر إلى تأثّره. كما حدث له مرّاتٍ كثيرة في مهنته كطبيب، كان عليه أن يُصارِعَ الإحساس بالعجز المريع الذي يُحاصره عادة حين يتأكّد كم هي قليلة إمكانات علمه، وكم هي هائلة معاناة الغير.

ـ كيف يخطر لك أنّني سأضع نفسي طوعاً بين يدي إليثا كي تحكم عليّ بالامتناع عن الشراب! كم بقي لي من العمر يا تاو؟ ـ سأل جون سومّرز.

ـ لا أستطيع أن أقول لك بالتأكيد كم. يجب أن آخذ رأيَ آخر.

ـ رأيك هو الوحيد الذي يستحقّ احترامي. فمنذ أن خلعت لي ضرساً في منتصف الطريق بين أندونيسيا والشاطئ الأفريقي، لم يضع طبيب يديه اللعينتين عليّ. كم مضى على ذلك؟

ـ قرابة الخمسة عشر عاماً. أشكرك على ثقتك يا سيّدي.

ـ فقط خمسة عشر عاماً؟ لماذا يبدو لي أنّنا نعرف بعضنا طوال حياتنا؟

ـ ربّما تعارفنا في حياةٍ أخرى.

ـ التقمّص يرعبني يا تاو. تصوّر أن يكون من نصيبي أن أصبح مسلماً في الحياة المقبلة. هل تعلم أنّ هؤلاء الناس البؤساء لا يشربون كحولاً؟

ـ بالتأكيد هذه هي كَرمَتهم. ففي كلّ حياة علينا أن ننهي ما لم نستطيع إنهاءه في الحياة السابقة ـ سخر تاو.

ـ أُفَضِّل الجحيمَ المسيحيَّ، إنّه أقلّ قسوة. حسناً، لن نقول لإليثا أيّ شيء من هذا. ـ ختم جون سومّرز بينما كان يرتدي ملابسه، مصارعاً الأزرار التي تملص من بين أصابعه المرتعشة ـ بما أنّ هذه الزيارة يمكن أن تكون آخر زيارة لي، فمن العدل أن تتذكّرني هي وحفيداي وأنا سعيد وسليم. سأذهبُ مطمئناً يا تاو، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك من يعتني بإليثا بشكلٍ أفضل منك.

ـ لا أحد يستطيع أن يُحبّها مثلي يا سيّدي.

ـ حين لا أعود موجوداً يجب أن يكون هناك من يهتمّ بأختي. أنت تعلم أن روز كانت مثل أمّ بالنسبة إلى إليثا...

ـ لا تهتمّ، فإليثا وأنا سوف نتابع أخبارها ـ أكّد له صهره.

ـ الموت... أعني... هل سيكون سريعاً وبكرامة؟ كيف سأعرف عندما تصل النهاية؟

ـ حين تتقيّأ دماً يا سيّدي ـ قال تاو شيين بحزن.

حدث هذا بعد ثلاثة أسابيع، وسطَ المحيط الهادي، في خلوة غرفة القبطان. لم يكد البحار العجوز ينتصب على قدميه حتى نظّف وجهه من القيء، تمضمض، بدّل قميصه الملطخ بالدم، أشعل غليونه وذهب إلى قيدوم السفينة، حيث وقف لينظر لآخر مرّةٍ إلى النجوم المتلألئة في السماء المخملية السوداء. رآه عدد من البحارة وانتظروه عن بعد وقبّعاتهم في أيديهم. حين انتهى التبغُ مرّرَ القبطانُ جون سومّرز ساقيه فوق حافة السفينة، وترك نفسه يسقط في البحر دون ضجيج.

تعرَّفَ سِبِرو دِل بالْيِه على لين سومّرز خلال رحلةٍ قام بها مع أبيه من تشيلي إلى كاليفورنيا في العام 1872، لزيارة عمّته باولينا وزوجها فِليثيانو، اللذين كانا بَطَلَيْ أفضل الأقاويل في الأسرة. كان سِبِرو قد التقى عمّته باولينا مرّتين خلال زياراتها المتفرّقة إلى بالبارايسو، لكنّه لم يفهم زفرات اللاتسامح المسيحي في أسرته إلى أن عرفها في جوّها الأمريكي الشمالي. فبعيداً عن الجوِّ الديني والمحافظ في تشيلي، وعن الجد أغوستين المغروز في كرسيّ شلله، وعن الجدّة إميليا بتطريزها المحزن وحقن بزر الكتّان، وعن بقيّة أقربائه الحسودين والأتقياء، كانت باولينا تدرك أبعاد أمازونيتها الحقيقية. في الرحلة الأولى كان سِبِرو دِل بالْيِه فتيّاً جدّاً كي يقيس قوّةَ أو ثروةَ هذا الزوج من الأعمامِ المشهورين، لكن لم تفته الفروقات بينهما وبين بقية قبيلة دِل بالْيِه. لكنه بعد عام من عودته فهم أنّهم يُعدّون من بين أغنى عائلات سان فرانسيسكو، إلى جانب أقطاب الفضّة، والسكك الحديدية، والبنوك والنقل. في تلك الرحلة الأولى وهو في الخامسة عشرة من عمره بينما كان يجلس عند حافّة سرير عمّته باولينا، المطلي بالمينا، وبينما هي تضع خطةَ استراتيجيّةِ حروبِها التجارية، قرّر سِبِرو مستقبلَ نفسه.

ـ عليك أن تُصبح محامياً، كي تُساعِدني في سحق أعدائي على أكمل وجه ـ نصحته باولينا، بين قضمتين من حلوى الفطائر وحلوى الحليب.

ـ بلى يا عمّتي. يقول الجدّ أغوستين إنّه في كلّ أسرة محترمة هناك حاجة لمحامٍ وطبيب وأسقف ـ ردّ ابن الأخ.

ـ أيضاً بحاجة إلى دماغٍ للتجارة.

ـ يعتبر الجدُّ أنّ التجارة ليست مهنة أبناء الحَسَبَ.

ـ قُل له إنّ الحَسَب لا يُطعِم، وليضعَهُ في مؤخرته.

لم يكن الفتى قد سمع هذه الكلمة الرذيلة إلا من فم سائقِ عربةِ البيت، ذلك المدريدي الهارب من سجن تِنِريف، الذي كان لأسبابٍ غامضة يتغوّط على الربّ والحليب.

ـ دعكَ من التدلل يا ولد، فجميعنا نملك مؤخرات! ـ هتفت باولينا وقد ماتت من الضحك حين رأت تعبير وجه ابن أخيها.

في ذلك المساء ذاته حملته إلى محل حلويات إليثا سومّرز. كانت سان فرانسيسكو قد بهرت سِبِرو حين لمحها من الباخرة: مدينة مشرقة قائمة في مشهد أخضر من الهضاب المزروعة بالأشجار التي تهبط متماوجةً حتى حافّة خليجٍ هادئِ المياه. من بعيد كانت تبدو صارمة، بالمخطط الإسباني لشوارعها المتوازية والمتقاطعة، إلاّ أنّه كان لها عن قربٍ سحرُ الشيءِ غير المتوقّع. ذُهِل الفتى المعتاد على مظهر ميناء بالباراييسو الناعس، التيَ ترعرع فيها أمام وفرة البيوت والأبنية المتنوّعة الطراز، الترف والفقر، والمختلطة كما لو أنّها أشيدت على عجل. رأى جواداً ميتاً يعلوه الذباب أمام باب مخزن أنيق تعرض فيه كمنجات وبيانوهات كبيرة. حشود متنوّعة الأعراق تشقّ طريقَها بين حركة الحيوانات والعربات الصاخبة: أمريكيون، هيسبانيون، فرنسيون، إيرلنديون، إيطاليون، ألمان، وبعض الهنود والزنوج، العبيد سابقاً والأحرار الآن، والمرفوضين والفقراء دائماً. قاموا بجولة في تشايناتاون، وبلمح البصر وجدوا أنفسهم في بلدٍ مسكون بـ *السماويين*، كما كانوا

يُسمّون الصينيين الذين يُبعدُهم سائق العربة بفرقعةِ سوطِهِ، بينما يسوق الحنتورَ إلى ساحة الوحدة. توقّف أمام بيت من الطراز الفيكتوري، بسيط إذا ما قورن بهذيانات الزخارف والحَفْرِ البارز والحلي المعمارية التي تُرى عادةً في هذه النواحي.

ـ هذا هو صالون شاي السيّدة سومّرز، الوحيد في هذه النواحي ـ وضّحت باولينا ـ. تستطيع أن تتناول القهوة أينما شئت، لكنّ من أجل كأسٍ من الشاي؛ عليك أن تأتي إلى هنا. اليانكيون يكرهون هذا المشروب النبيل منذ حرب الاستقلال، وقد بدأ ذلك حين أحرق المتمردون شايَ الإنكليز في بوسطن.

ـ لكن ألم تمضِ قرابة القرن على هذا؟

ـ هاأنتَ ترى يا سِيرو مدى التفاهة التي يسببها التعصب للوطن أحياناً.

لم يكن سبب زياراتِ باولينا المتكرّرة إلى تلك القاعة هو الشاي، بل محل حلويات إليثا سومّرز الشهير، الذي كان يغمرُ الداخلَ إليه برائحةٍ رائعةٍ من سكّرٍ وفانيلا. كان البيت، المستورد مثل الكثير من البيوت مع دفتر تعليماتٍ لتركيبه من إنكلترا، مثل أيام سان فرانسيسكو الأولى، مؤلفاً من طابقين متوّجين ببرج يُضفي عليه مسحةَ كنيسةٍ ريفية. فتحوا في الطابق الأول بين غرفتين لتوسيع قاعة الطعام، وكان هناك عدد من الكراسي الكبيرة ذات الأرجل المفتولة، وخمس طاولات مستديرة وصغيرة عليها أغطية بيضاء. في الطابق الثاني كانت تُباع علب سكاكر مصنوعة يدوياً من أفضل أنواع الشوكولا البلجيكية، وحلوى اللوز بالسكّر وعدة أنواعٍ من الحلوى الأوروبية الأصل في تشيلي، المفضلة عند باولينا دِل بالْيِه. وتعمل هناك مستخدمتان مكسيكيتان طويلتا الضفائر، شديدتا بياض المريول وغطاء الرأس المنشّا، توجّههما بالتخاطر السيّدة الصغيرة سومّرز، التي لا يكادُ يُحَسُّ بوجودها بعكس حضور باولينا القوي. كانت موضة الزنار والفساتين الواسعة المموجة تليق بالأولى بينما تُضاعف من حجم الثانية، ثمّ إنّ باولينا دِل بالْيِه لم تكن توفّر في القماش، والحواشي وخصل الصوف والكشكش. وهي

تمضي في ذلك اليوم مزيّنة مثل ملكة النحل، بالأصفر والأسود من رأسها وحتى قدميها، مع قبّعة تنتهي بريش وصدارة مقلّمة. كانت تغزو القاعة، فتبتلع كامل الهواء وترتجّ الفناجين مع كلّ نقلةٍ، وتئنُّ جدرانُ الخشبِ الهشّة. حين رأتها الخادمات تدخل هُرِعن إلى استبدال واحدةٍ من كراسي الخيزران بكرسيٍّ أكثر تماسكاً، تكيّفت فيها السيّدة بظرافةٍ. كانت تتحرّك بحذرٍ، لأنّها تعتبر أنّه ما من شيء يُعيبُ مثل السرعة؛ كما كانت تتفادى صخب الشيخوخة، فهي لم تسمح قط أن يفلت منها لهاثٌ، سعالٌ، طقطقةٌ، أو زفرات تعبٍ في العلن؛ تقولُ: «لا أريد أن يكون لي صوت بدينة» وتتمضمضُ يومياً بعصير الليمون مع العسل كي تُحافِظ على نعومة صوتها. إليثا سومّرز، الرقيقة والمستقيمة مثل سيف، بتنورتها الزرقاء الداكنة وبلوزتها البطيخية اللون المزررة عند الرسغين والعنق مع طوق لؤلؤ محتشم يشكّلُ زينتها الوحيدة، تبدو شابّة بشكل ملحوظ. تتكلّم إسبانيةً صدئةً من قلّة الاستخدام، وإنكليزيةً بلكنة بريطانيةٍ، قافزةً من لغة إلى أخرى في الجملة الواحدة، تماماً كما كانت تفعل باولينا. ثروة السيّدة دِل بالْيه ودمها الأرستقراطيّ كانا يضعانها في مستوى اجتماعي أرقى بكثير من الأخرى. إنّ امرأة تعمل برغبةٍ منها لا يمكن أن تكون إلاّ مسترجلة، لكنَّ باولينا تعرف أن إليثا ما عادت تنتمي إلى الوسط الذي ترعرعت فيه في تشيلي ولا تعمل برغبة منها، بل بدافع الحاجة. وقد سمعت أنّها تعيش مع صيني، لكنّ طيشها الماحِق لم يصل قط حدّ أن تسألها عن ذلك بشكل مباشِر.

ـ تعارفنا أنا والسيدة إليثا سومّرز في تشيلي عام 1840؛ كانت في الثامنة وأنا في السادسة عشرة من عمري، لكنّنا الآن في عمر واحد ـ وضّحت باولينا لابن أخيها.

بينما كانت المستخدمات يُقدّمن الشايَ، كانت إليثا سومّرز تُصغي إلى ثرثرة باولينا التي لا تكاد تنقطع إلا لتلتهم لقمة أخرى. نسيهما سِبِرو حين اكتشف على طاولة أخرى فتاةً رائعة تلصِق صوراً مطبوعةً في ألبوم على ضوء مصابيح الغاز وسطوع زجاج النافذة الناعم، الذي كان يُضيؤها بوميض ذهبي. إنها لين سومّرز،

ابنة إليثا، المخلوقة ذات الجمال النادرِ الذي حمل بعضَ مصوّري المدينةِ آنذاك على أن يستخدموها موديلاً؛ وصار وجهها يشغل بطاقات البريد، وملصقات وتقويمات ملائكة وحوريات لعوبات في غابات من حجارة كرتونية وهي تعزف على القيثار. كان سِبِرو مايزال في عمرٍ البناتُ فيه لغز يكادُ يكون منفّراً بالنسبة للفتيان. لكنّه استسلم للفتنة؛ تأملها، وقف بجانبها فاغرَ الفم دون أن يدري لماذا يؤلمه صدره ويشعر برغبة بالبكاء. أخرجته إليثا سومّرز من حرجه داعيةً الجميع لتناول الشوكولاتة. أغلقت الصغيرة ألبومها دون أن توليه انتباهاً، كما لو أنّها لم تره ونهضت رشيقة طافية. جلست أمام فنجان شوكولاتة دون أن تلفظ كلمةً أو ترفع نظرةً، مذعنة لنظرات الفتى الوقحة، الواعي تماماً إلى أنّ مظهرها يفصلها عن بقيّة البشر. كانت تحمل جمالها كما لو أنّه عاهة، آملةً في سرّها أن تزول مع الزمن.

بعد أسابيع أبحر سِبِرو عائداً مع والده إلى تشيلي، حاملاً في ذاكرته اتساع كاليفورنيا، ورؤيا لين سومّرز مغروزة بثبات في قلبه.

لم يعد سِبِرو دِل بالْيِه لرؤية لين إلا بعد سنوات عديدة. فقد رجع إلى كاليفورنيا في نهاية عام 1876 ليعيش مع عمّته باولينا، لكنّه لم يبدأ علاقته مع لينٍ إلا ذات أربعاء من شتاء 1879، وكان الوقت قد تأخّر عليهما معاً. في زيارته الثانية لسان فرانسيسكو، كان الشابُ قد بلغَ طولَه النهائي، لكنّه ما يزال ناشز العظام، شاحباً، غير رشيقٍ في مشيته، ويمضي غير مرتاح في جلده، تفيضُ عنه مرافقُ وركبٌ. بعد ثلاثة أعوام حين تسمّر أمام لين بلا صوت، كان قد أصبح رجلاً كامل الرجولةً، له تقاسيم أسلافه الإسبانية النبيلة، وبنية مصارع ثيرانٍ أندلسي مرنة، وصبغة طالب لاهوت نسكية. لقد تغيّرت حياته كثيراً منذ أنٍ رأى لين لأوّل مرّة. صورة تلك الفتاة الصموتة، التي لها كسل قطٍ مسترخٍ، رافقته خلال سنوات المراهقة، وآلام الحداد الصعبة. فوالده الذي كان يعبده مات مبكّراً في تشيلي، وأمّه المحتارة أمام ابنها الذي كان ما يزال أمردَ، إلاّ أنّه نافذ

البصيرة وقليل التوقير، أرسلته إلى مدرسة كاثوليكية في سانتياغو. لكنهم سرعان ما أعادوه إلى البيت مع رسالة تبيّن بعبارات فظّة أنّ تفاحةً فاسدة في برميلٍ تُفسِد ما عداها، أو شيئاً من هذا القبيل. وعند ذلك قامت الأمُّ المتفانية برحلة حجٍّ على ركبتيها إلى مغارة للمعجزات، حيث وشت لها العذراء، البارعة دائماً، بالحلّ: أن ترسله إلى الخدمة العسكرية كي يأخذ رقيبٌ مسألته على عاتقه. قضى سِبِرو عاماً مع القوّات، تحمّل الصرامةَ وتفاهةَ الفرقة، وخرج برتبة ضابط احتياط، عازماً على ألاّ يقترب في حياته من ثكنة أبداً. ولم يكد يضع قدمَه في الشارع حتى عاد إلى صداقاته القديمة وإلى نزوة استعداده التصعلكي. في هذه المرّة لعب أعمامه دوراً في العملية. اجتمعوا في مجلس في غرفة طعام بيت الجد أغوستين، بغياب الشاب وأمّه، اللذين لم يكن لهما صوت على الطاولة البطريركية. في هذه الغرفة ذاتها، وقبل خمس وثلاثين سنةً، تحدّت باولينا دِل بالْيِه برأسها الحليق الذي تعلوه عمامة من الماس رجالَ أسرتها لتتزوّج من فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث، الرجل الذي اختارته هي. هناك يُقدّمون الآن البراهين ضدّ سِبِرو أمام الجدّ : يرفض الاعتراف وتناول الخبز المقدّس، يخرج مع بوهيميين، واكتشفت في حوزته كتباً تنتمي إلى اللائحة السوداء؛ وبكلِمات مختصرة، كانوا يشكّون بأنّه قد جُنّد من قبل الماسونية، أو ما هو أسوأ من ذلك من قِبلِ الليبراليين. كانت تشيلي تمرّ في مرحلة من الصراع الإيديولوجي الذي لا يعرف المصالحة، وكلّما اكتسب الليبراليون مواقعَ أكثرَ في الحكومة، ازداد غضب المحافظين المتطرفين المشبعين بحماس الخلاص، مثل آل دِل بالْيِه، الذين كانوا يريدون أن يفرضوا أفكارهم بالحرمان والرصاص، وسحق الماسونيين والمعادين للإكليروسية، والقضاء مرّةً واحدة وإلى الأبد على الليبراليين. لم يكن آل دِل بالْيِه مستعدين للتسامح مع خارجي ينتمي إلى دمهم وفي حضن الأسرة ذاتها. فكرة إرساله إلى الولاياتَ المتحدة كانت فكرة جدّه أغوستين: «اليانكيون سوف يشفونه من رغبته بإثارة الشغب» تكهّن. أركبوه بالسفينة إلى كاليفورنيا، دون أن يأخذوا رأيه، وهو في لباس الحِداد وساعة المرحوم والده الذهبية في جيب صدارته،

ومتاعٍ عادي يتضمن مسيحاً ضخماً متوّجاً بالشوك، ورسالة مختومة لعمّته باولينا وفِليثيانو.

كانت احتجاجات سِبِرو شكليّة خالصة، لأنّ هذه الرحلة تنطبق تماماً مع مُخطّطاته، ما كان يثُقِلُ عليه هو فقط ابتعاده عن نيبيا، التي كان الجميع يرغب بزواجه منها ذات يوم، حسب عادة زواج أولاد العمومة عند الأوليغارشية التشيلية الحاكمة. كان يختنق في تشيلي. فقد كبر أسيرَ ورطة من العقائد والأفكار المسبقة، لكنّ احتكاكه مع طلابٍ آخرين في مدرسة سانتياغو فتح مخيّلته وأيقظ عنده حماساً وطنيّاً. كان حتى ذلك الوقت يعتقد أنّه لا يوجد إلا طبقتين اجتماعيتين. طبقته وطبقة الفقراء، تفصل بينهما منطقة رمادية مبهمة من الموظفين وآخرين «من تشيليي الكومة»، كما كان يُسميهم جدّه أغوستين . انتبه في الثكنة إلى أنّ أبناء طبقته، من ذوي البشرة البيضاء والقوّة الاقتصادية، لا يكادون يتجاوزن حفنة ضئيلة؛ والغالبية العظمى كانت من الخلاسيين والفقراء، لكنّه اكتشف أنّ في سانتياغو طبقة وسطى مقتدرة وكبيرة، مهذّبة وتملك طموحاتٍ سياسيّةً، وتُشكّل في الحقيقة العمودَ الفقريَّ للبلد، حيث يوجد بينهم مهاجرون هاربون من الحروب والبؤس، وعلماء ومربون وفلاسفة وأصحاب مكتبات، أناس عندهم أفكار متقدّمة. ذهل من خطاب أصدقائه الجدد، كمن يعشق لأوّل مرّة. أراد أن يغيّر تشيلي، أن يقلبها تماماً، أن يطهرها. اقتنع بأنّ المحافظين ـ باستثناء أبناء أسرته، الذين لم يكونوا يتصرّفون على مرأى منه بخبثٍ بل بخطأ ـ كانوا ينتمون إلى جيوش الشيطان، هذا إذا افترضنا أنّ الشيطانَ ليس بدعة غريبة، وتهيّأ للمشاركة في السياسة ما إن استطاع تقريباً أن يحقّق استقلاله. كان يعي أنّه ما زالت تنقصه سنوات، ولذلك اعتبر سفره إلى الولايات المتحدة مثل نسمة هواء منعش؛ يستطيع أن يرى ديمقراطية الأمريكيين الشماليين التي يُحسدون عليها، يتعلّم منها، يقرأ ما يخطر له دون أن ينشغل بالرقابة الكاثوليكية، ويطّلع في تطورات الحداثة. فبينما نجد أنّهم في بقية أنحاء العالم يُطيحُون بملكيّاتٍ، وينشئون دولاً جديدة،

ويستعمرون قارات، ويخترعون أعاجيبَ، نجد أنّ البرلمان في تشيلي يُناقِشُ حقّ الزاني في أن يُقبر في مقابر خصوصية. لم يكن مسموحاً ذِكرُ نظريةِ داروين التي ثوّرت المعرفة الإنسانية، أمام جدّه، بينما يمكن إضاعة مساءٍ في نقاش حول المعجزات غير المحتملة لقديسين وشهداء كنسيين. والباعث الآخر على السفر كان ذكرى الصغيرة لين سومّرز، التي تخترق بإلحاحٍ ساحق ودّه لنيبيا على الرغم من أنّه لا يريد أن يقبل ذلك، ولا حتىً في أعماق أعماقِ روحه.

لم يعرف سِبِرو بِل باليه متى ولا كيفَ انبثقت فكرة زواجه من نيبيا، ربّما لم يقرّراه هما، بل الأسرة، لكن أحداً منهما لم يتمرّد على هذا المصير، لأنّهما كانا يعرفان بعضهما بعضاً منذ الطفولة. كانت نيبيا تنتسبِ إلى فرعٍ من الأسرة أثريٍ حين كان الوالد حيّاً، لكنّه حين مات أُفقِرت الأرملة. ساعد خالٌ ميسور، سيصبح في زمن الحرب شخصية بارزة، هو دون فرانسيسكو خوسيه بِرغارا، على تربية أبناء أخته. «ليس هناك من فقر أسوأ من فقر الأثرياء المفلسين، لأنّ عليهم أن يتظاهروا بما لا يملكون» هذا ما اعترفت به نيبيا لابن عمّها سِبِرو في لحظة من لحظات الإشراق المفاجئ التي تميزّت بها. كانت أصغر منه بأربع سنواتٍ، لكنّها أكثر نضجاً منه؛ هي من حدّدت صبغةَ هذا الود الطفولي، قائدة إيّاه بيد راسخةٍ إلى العلاقة الرومانسية التي كانا يتقاسمانها عندما غادر سِبِرو إلى الولايات المتحدة. في البيوت الكبيرة التي جرت فيها حياتهما، فاضت عنهما الزوايا المناسبة لتبادل الحب. بالتلامس في الظلال اكتشف ابنا العمومة ببلاهة الجِراء أسرارَ جسديهما. كان يدغدغ الواحد منها الآخر لمجرد الفضول، مستقصياً عن الفروقات، دون أن يدري لماذا يملك هو هذا وتملك هي ذاك، مذعورين من الخجل والذنب، كانا صامتين دائماً، لأنّ ما لم يصيغاه بالكلمات كان كأنّه لم يحدث، وأقّل خطيئة. يكتشف الواحدُ منهما الآخر سريعاً وخائفاً، وواعياً أنّه لا يمكن أن يعترفا بلعب ابني العمومة ذاك ولا في المعترَف، حتى ولو أدينا به بالجحيم. كانت هناك ألف عين تتجسّس

عليهما. الخادمات المسنات اللواتي شهدن ولادتهما حَمَيْنَ ذلك الحبّ البريء، لكنّ العمات أو الخالات العوانس كنّ يسهرن مثل الغربان، وما من شيء يهرب من عيونهنّ التي كانت مهمتها الوحيدة تسجيل كلّ لحظة من حياة الأسرة، وعلى تلك الألسنة النمامة التي تنشرُ الأسرار، وتسنّ القيل والقال، وإن كان دائماً في حضن العشيرة، ما من شيء يخرج خارج جدران تلك البيوت. فواجب الجميع الأوّل هو الحفاظ على شرف واسم الأسرة الطيّب. كبرت نيبيا متأخرةً، وبقيت حتى الخامسة عشرة من عمرها تقريباً تملك جسمَ طفلةٍ ووجهاً بريئاً، ما من شيء في مظهرها يوحي بقوّة عزيمتها: قصيرة القامة، بدينة قليلاً، عيناها واسعتان وداكنتان، كعلامة جديرة بالذكر، تبدو تافهة حتى تفتح فمها. وبينما أخواتها يكسبن السماء بقراءة كتب الورع، كانت هي تقرأ خفيةً المقالات والكتب التي يمرّرها إليها ابن عمّها سِبِرو من تحت الطاولة والكتب الكلاسيكية التي يعيرها لها خالها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا. حين لم يكن هناك من يتكلّم عن هذا في وسطها الاجتماعي، أخرجت هي من كمّها فكرة حق المرأة بالتصويت. أحدثت انفجاراً مرعباً في أوّل مرّة ذكرت ذلك على طاولة غداء الأسرة، في بيت دون أغوستين دِل بالْيِه. «متى ستنتخب النساء والفقراء في هذا البلد؟» سألت نيبيا بغتةً دون أن تتذكّر أن الصغارَ لا يفتحون أفواههم بحضور الكبار. ضرب البطريرك العجوز دِل بالْيِه بقبضته ضربة على الطاولة جعلت الكؤوس تطير، وأمرها أن تذهب على الفور إلى الاعتراف. نفّذت نيبيا التوبةَ المفروضةَ من الراهب بصمتٍ، وسجّلت في يومياتها، بحماسها المعتاد، أنّها لا تفكّر بالراحة إلى أن تحقّق بعض الحقوق الأساسية للنساء، حتى لو طردوها من الأسرة. حالفها الحظّ بمعلّمة استثنائية هي الأخت ماريّا إسكابولاريو، الراهبة التي كان لها قلب لبؤة مختبئ تحت الزيّ، وكانت قد لاحظت ذكاء نيبيا. أمام هذه الفتاة التي كانت تمتصُّ كلَّ شيء بنهم، وتطرحُ ما لم تطرحه هي نفسها قط، وتتحدّاها بعقلانية غير متوقّعة بالنسبة لعمرها، وكأنّها على وشك أن تنفجر حيويّةً وصحّةً داخل لباسها الموحّد المريع، كانت الراهبة تشعر بأنّها كوفئت كمعلّمة. فنيبيا تُعادِلُ وحدها

الجهد الذي بذلته في تعليم حشد من الصغيرات الثريات بالمال، والفقيرات بالعقل. وحبّاً بها راحت الأخت ماريّا إسكابولاريو تخترق بانتظام نظامَ المدرسة، الذي وُضِع بهدفٍ مُحدَّدٍ هو تحويل التلميذات إلى مخلوقاتٍ وديعة. كانت تُقيم معها حواراتٍ لو سمعت بها الأم المشرفة والمدير الروحي للمدرسة لأرعبتهما.

- حين كنتُ في سنّك لم يكن أمامي إلاّ خياران: الزواج أو الدخول إلى الدير - قالت الأخت ماريّا إسكابولاريو.

- ولماذا اخترت الثاني يا أمّاه؟

- لأنّه يمنحني الحريّة. فالمسيحُ زوجٌ متسامِح...

- نحن النساء منكوداتٍ يا أمّاه. إنجاب وطاعة لا غير - تنهّدت نيبيا.

- يجب ألاّ يكون كذلك. أنتِ تستطيعين أن تُبدّلي الأشياء - ردّت الراهبة.

- أنا وحدي؟

- وحدك لا . هناك فتيات مثلك، عريضات الجبين. قرأتُ في صحيفةٍ أنّ هناك الآن بعض النساء طبيبات، تصوّري.

- أين؟

- في إنكلترا.

- هذا بلدٌ بعيد جدّاً.

- صحيح، لكن إذا كان باستطاعتهنّ أن يفعلن ذلك هناك، سيأتي يوم يستطعن أن يفعلنه في تشيلي. لا تقنطي يا نيبيا.

- كاهن الاعتراف يقول إنّني أُفكّر كثيراً وأصلي قليلاً يا أمّاه.

- اللهُ منحك الدماغَ كي تستخدميه، لكنّني أنبّهك إلى أنّ طريقَ التمرّد مزروع بالأخطار والآلام، والسير فيه يحتاج إلى كثير من الشجاعة. وليس كثيراً أن تطلبي من العناية الإلهية أن تُساعِدك قليلاً... - نصحتها الأخت ماريّا إسكابولاريو.

بلغ تصميم نيبيا من الثبات حدَّ الكتابة في دفتر يومياتها بأنّها سترفض الزواجَ كي تتفرّغ تماماً للنضال من أجل حقّ المرأة في الانتخاب. كانت تجهل أنّ مثل هذه التضحية ليست ضرورية، ذلك أنّها ستتزوّج عن حب من رجلٍ سيساعدها في تحقيق أهدافها السياسية.

صعد سِبِرو إلى السفينة بوجه متجَهِّم كيلا ينتبه أقرباؤه إلى أنّه سعيد لذهابه من تشيلي ـ فيغيّروا رأيهم ـ وتهيّأ كي يخرج بأكبر فائدة ممكنة من هذه المغامرة. ودّع ابنة عمّه نيبيا بقبلةٍ مسروقة، بعد أن أقسم لها بأن يُرسِل إليها كتباً مهمّةً بواسطة صديق، تفادياً لرقابة الأسرة، ويكتب لها أسبوعيّاً. أذعنت هي لفراقِ عام واحِدٍ، دون أن تنتبه إلى أنّه خطّط للبقاء في الولايات المتحدة أطولَ زمنٍ ممكن. لم يشأ سِبِرو أن يزيدَ من مرارة الوداع بالإعلان عن أهدافه، فقرّر أن يوضّح الأمر لِنيبيا في رسالة لاحقة. في جميع الأحوال كلاهما صغيرين جدّاً على الزواج. رآها واقفة في ميناء بالبارايسو، تحيط بها بقيّة الأسرة، بفستانها وقبّعتها الزيتونية اللون، تلوِّح له بيدها مودّعةً، ومبتسمةً بشقّ النفس. «لا تبكي، ولا تشكو، لذلك أحِبّها، لذلك سأحبُّها» قال سِبِرو بصوت عالٍ معاكس للريح، مستعداً أن ينتصر بالعنادِ على نزواتِ قلبه وإغواءات العالم. «يا قدّيسة، ياعذراء، أعيديه إليّ سالماً معافى»، توسّلت نيبيا، وهي تعضُّ على شفتيها، دون أن تتذكّرَ أبداً أنّها أقسمت على البقاء بلا زواج حتى تُحقِّق واجبها في التصويت.

تلمّس الشاب بِل بالْيِه رسالةَ جدّه أغوستين من بالبارايسو وحتى بنما، متلهِّفاً لفتحها، لكن دون أن يجرؤَ على فعل ذلك، لأنّهم لقّموه بالدم والنار أنّه ما من فارس يضع عينه على رسالةٍ، أو يمدّ يده إلى مالٍ يخص غيره. أخيراً كان الفضولُ أقوى من الشرف ـ فالأمر يتعلّق بمصيره، كما فكّر ـ وكسر الخاتم بموسى الحلاقة بحذرٍ، ثمّ عرَّض الظرف لبخار إبريق شاي، وفتحه بألفِ حيطةٍ. وهكذا اكتشف أنّ مخططات الجدّ كانت تتضمّنُ إرساله إلى مدرسةٍ

عسكريّةٍ أمريكية شمالية. من المؤسِفِ، أضافَ الجدُّ، أنّ تشيلي ليست في حربٍ مع أحد البلدان المجاورة، كي يصبح حفيده رجلاً سلاحه في يده، كما يجب أن يكون. ألقى سِبِرو الرسالةَ إلى البحر وكتبَ أخرى بكلماتٍ له، وضعها داخل الظرف ذاته، وسكب صمغاً ذائباً على الخاتم المكسور. في سان فرانسيسكو كانت تنتظره عمّته باولينا في الميناء يرافقها خادمان وويليامز، رئيس خدمها النفاج. كانت مزينة بقبّعة مريعة، ووفرة من الأوشحة المتطايرة في الريح، بحيث إنّها لو لم تكن بذلك الوزن لرفعتها في الهواء. راحت تضحك مقهقهةً حين رأت ابن أخيها يهبط معبر السفينة والمسيح بين ذراعيه. ثمّ ضمّته إلى صدرها النديّ، كصدر مغنية سوبرانو، خانقة إيّاه في جبل ثدييها وعطر غاردينياها.

ـ أوّل ما علينا أن نفعله هو التخلّص من هذه الفظاعة ـ قالت مشيرة إلى المسيح ـ كما أنّ علينا أن نشتري لك ثياباً، لأنّه ما من أحد يمضي بمثل هذه الهيئة في هذه البلاد ـ أضافت.

ـ هذا الطقمُ كان لوالدي ـ وضّح سِبِرو مذلولاً.

ـ يُلاحظ ذلك، تبدو حفار قبور ـ علّقت باولينا، ولم تكد تقول ذلك؛ حتى تذكّرت أنه لم يمضِ زمن طويل على فقدانِ الولد لأبيه ـ اعذرني يا سِبِرو، لم أشَأ إهانتَك. فأبوك كان أخي المُفضّل، الوحيد في الأسرة الذي يمكن التكلم معه.

ـ طبّقوا بعض أطقمه على مقاسي، كيلا نخسرها ـ وضّح سِبِرو بصوتٍ متهدّج.

ـ بدأنا بداية سيّئة. هل تستطيع أن تعذرني؟

ـ حسناً يا عمّتي.

في أوّل فرصة أتيحت له،أعطاها الشابُ رسالةَ جدِّه أغوستين المُزيّفة. ألقت عليها نظرة شبه شاردة.

ـ ماذا كانت تقول الأخرى ـ سألت.

بأذنين محمرّتين حاول سِبِرو أن يُنكِرَ ما فعله، لكنّها لم تمنحه الوقت كي يتورّط في الكذب.

ـ أنا كنتُ سأفعلُ الشيءَ ذاته. أريدُ أن أعرف ما كانت تقول رسالةُ أبي كي أردَّ عليه، لا لأعمل برأيه.

ـ أن تُرسليني إلى مدرسة عسكرية أو إلى الحرب، إذا كان يوجد حرب ما في هذه المناطِق.

ـ وصلتَ متأخراً، كانت موجودة. لكنّهم، في حال أنّ الأمر يهمّك، يذبحون الهنودَ الحمر الآن. ولا يدافع الهنود الحمرُ عن أنفسهم بشكلٍ سيّئ؛ تصوّر أنهم قتلوا للتو الجنرال كوسْتِرْ، وأكثر من مئتي جنديّ من جيش الخيّالة السابع في وايومينغ. ولا يتكلّمون الآن عن أي شيءٍ آخر. يقولون إنَّ هندياً أحمر اسمه *مطر على الوجه*، انظر كم هو اسم شاعري، قد أقسم أن ينتقِم لأخيه من الجنرال كوْسْتِرْ، وأنّه انتزع في هذه المعركة قلبه وأكله. أمازلت راغباً في أن تُصبِح جنديّاً؟ ـ قالت باولينا دِل بالْيِه، وهي تضحك في داخلها.

ـ لم أرغب قط أن أصبح عسكرياً، هذه أفكار الجدّ أغوستين.

ـ تقول في الرسالة التي زيّفتها إنّك تريد أن تُصبح مُحامياً، أرى أنّ النصيحة التي أسديتُها إليك منذ سنوات مضت لم تذهب في الفراغ. هكذا تعجبني يا صغيري. القوانين الأمريكية ليست مثل التشيلية، لكن ليس لهذا أهمية. ستُصبِحُ مُحامياً. ستدخل متدرّباً عند أفضل مكتب في كاليفورنيا، يجب أن تفيد تأثيراتي في شيء ـ أكّدت باولينا.

ـ سأكون مديناً لكِ بقيّة حياتي ياعمتي ـ قال سِبِرو مندهشاً.

ـ صحيح. آمل ألاّ تنسى ذلك، اعلم أنّ الحياة طويلة ولا أحد يدري متى سأحتاج أن أطلبَ منك معروفاً.

ـ اعتمدي عليّ ياعمّتي.

مثلت باولينا دِل بالْيِه في اليوم التالي في مكتب مُحامِيِّيها، وهم

أنفسهم الذين خدموها لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، وكسبوا منها عمولات هائلة، وأعلنت لهم دون مقدّمات أنّها تأمل أن ترى ابن أخيها يعمل معهم بدءاً من الاثنين القادم كي يتعلّم المهنة. لم يستطيعوا أن يرفضوا. أنزلت العمّةُ الشابَّ في بيتها، في غرفةٍ مشمسة من الطابق الثاني، واشترت له حصاناً جيّداً، وخصصت له مرتباً شهرياً، وضعت له مدرِّسَ لغةٍ إنكليزية وشرعت تُقدِّمه إلى المجتمع، لأنّها كانت ترى أنّه ما من رأسِ مالٍ أفضل من العلاقات.

- شيئان آمل أن أراهما منك، الوفاء والمزاج الطيّب.

- ألا تنتظرين منّي أن أدرس أيضاً؟

- هذه مسألة تخصك يا فتى. ما تفعله بحياتك لا يخصّني أبداً.

ومع ذلك تأكّد سِبِرو في الشهور اللاحقة أنّ باولينا تُتابِع عن قُربٍ تقدّمه في مكتب المحامين، وتتابع صداقاته، وتحسب نفقاته، وتعرف خطواته حتى قبل أن يخطوها. ماذا كانت تفعل كي تعرف كلّ ذلك؟ إنّه لغز، ما لم يكن رئيس الخدم الصموت وليامز قد نظّمَ شبكةَ مراقبة. كان الرجلُ يُديرُ جيشاً من الخدم، الذين يقومون بمهامهم مثل أشباح صامتة، يعيشون في بناءٍ منفصلٍ في عمق حديقة البيت، وممنوع عليهم أن يتوجّهوا بكلمة إلى سادة الأسرة، ما لم يُستدعَوا. كذلك لم يكن باستطاعتهم أن يُكلّموا رئيسَ الخدم قبل أن يمرّوا قبل ذلك على حاملة المفاتيح. تعذّب سِبِرو حتى فهم هذه الهيكلية، لأنّ الأمور في تشيلي كانت أكثر بساطةً بكثير. فأرباب العمل، حتى أكثرهم استبداداً مثل جدّه، يُعاملون أُجراءهم بقسوة، لكنّهم يرعون حاجاتهم، ويعتبرونهم جزءاً من الأسرة. لم يرهم يوماً يطردون خادمة؛ فأولئك النسوة يدخلن إلى العمل في البيت منذ سنّ البلوغ وحتى الموت. كان قصر نوب هيل مختلفاً جدّاً عن البيت الرهباني الكبير الذي جرت فيه حياته، بجدرانه القرميدية السميكة وأبوابه الكئيبة الموصدة، بفرشها القليل الملتصقِ بالجدران العارية. أما في بيت عمّته باولينا فمن المُحال أن يضع لائحة بمحتواه، بدءاً من مطارق الأبواب ومفاتيح الحمامات الفضية المدمجة، وحتى مجموعات الكائنات الخزفية، والعلب الروسية

المطلية بالمينا، والعاج الصيني، وكل الأشياء الفنية، أو المرغوبة والدارجة. كان فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث يشتريها كي يُدهِشَ الزائرين، لكنّه لم يكن متوحّشاً مثل بعض الأقطاب من أصدقائه، الذين كانوا يشترون الكتب بالكيلو، واللوحات لألوانها، كي يوائموا بينهما وبين الكراسي. من جانبها لم تشعر باولينا بأيٍّ تعلّقٍ بتلك الكنوز؛ الأثاث الوحيد الذي أوصت عليه في حياتها كان سريرها، وفعلت ذلك لأسبابٍ لا علاقة لها بالجمال أو بالبذخ. ما كان يهمّها ببساطة وصراحةً هو المال؛ تحدّيها كان يقوم على كسبه بالمكر، تكديسه بعناد واستثماره بحكمة. لم تكن تتوقّف عند الأشياء التي يشتريها زوجها، ولا عند المكان الذي ستضعها فيه، والنتيجة كان بيتاً عجيباً، يشعر سكّانه بأنّهم غرباء فيه. كانت اللوحات هائلة، والأطر ضخمة، والموضوعات حماسية - *الاسكندر المقدوني في طريقه إلى احتلال بلاد فارس* - لكن أيضاً كان هناك مئات اللوحات الصغيرة مرتبة حسب الموضوعات، تعطي أسماءها للغرف: صالون الصيد، قاعة البحريات، وقاعة اللوحات المائية. أمّا الستائر فمن قطيفةٍ ثقيلة ذات شراشيب باهظة، ومرايا البندقية تعكس إلى اللانهاية أعمدةَ المرمر، وخوابي سِفِرس، التماثيل البرونزية، والأوعية المليئة بالأزهار والفواكه. كان هناك قاعتان للموسيقى مع آلات إيطالية فخمة، مع أنّه ما من أحدٍ في هذه الأسرة يعرف استخدامها، والموسيقى تُسبِّب لباولينا ألماً في الرأس، ومكتبة من طابقين. في كلّ زاوية توجد مبصقة فضية تحمل حروفاً ذهبية هي الحروف الأولى لاسم صاحب البيت؛ لأنّه كان من المقبول تماماً في هذه المدينة الحدودية، أن يقذف المرءُ بصاقَه بحضور الآخرين. كانت غرف فِليثيانو في الجناح الشرقي وغرف زوجته في الطابق ذاته، لكن على الطرف الآخر من البيت يربط بينهما ممرّ، تصطف حوله غرف الأولاد والضيوف، وجميعها فارغة باستثناء غرفة سِبِرو وأخرى يشغلها ماتيّاس، الابن الأكبر الوحيد الذي مايزال يعيش في البيت. سِبِرو دِل بالْيِه، المعتاد على الانزعاج والبردِ اللذين كانا يُعتبران في تشيلي جيّدين للصحة، تأخّر عدّة أسابيع في الاعتياد على عناق الفراش الضاغط ووسائد الريش،

وعلى صيف المدافئ الأبدي، ومفاجأة الصباح اليومية، إذ يفتح صنبور الحمام ويجد نفسه أمام دفقٍ من الماء الساخن. لقد كانت المراحيض في بيت جدّه غرفاً صغيرةً كريهة الرائحة في عمق الفناء، ومياه الاغتسال في فجر الشتاءات تتجمّد في الأحواض.

كانت ساعة القيلولة عادةً ما تُفاجئ ابنَ الأخِ الشابَّ والعمّة الهائلة في السرير الأسطوري، هي بين الملاحف، مع دفاتر حساباتها في جانب، وحلواها في جانب آخر، وهو جالس بين حوريات الماء والدلافين، يناقش مسائل أسرية وتجارية. مع سِبِرو وحده تسمح باولينا بمثل تلك الحميمية، قليلون هم الذين كان الطريق مفتوحاً أمامهم إلى غرفها الخاصّة، لكن معه كانت تشعر براحة تامة في قميص النوم. كان ابن الأخ يمنحها رضى لم يمنحه لها قط أبناؤها. فالابنان الصغيران يعيشان حياة الورثة، ويتمتعون بوظائف رمزية في إدارة شركة العشيرة، واحد في لندن وآخر في بوسطن. ماتيّاس البكر كان مُخصّصاً ليرأَسَ ذريّة آل رودريغث دِ سانتا كروث ودِل بالْيِه، لكن ليس عنده أيّ ميل لذلك، فبعيداً عن تَتبُّع خطى والديه المجتهدين، والاهتمام بشركاتهما، أو سعيه لإنجاب أولاد ذكور من أجل استمرار الكنية، جعل من مذهب اللذّة والعزوبية شكلاً من أشكال الفنّ. «ليس أكثر من أبله حسن الهندام»، هكذا عرّفته باولينا ذات مرّة أمام سِبِرو، لكن حين تأكّدت من حسن العلاقة بين ابنها وابن أخيها، حاولت بقوّة توطيد هذه الصداقة الناشئة. «أمّي لا يمكن أن تغرز غرزة دون خيط، ولا بدّ أنّها تُخطّط كي تُنقذّني من الانغماس في الملذات»، كان ماتيّاس يسخر. لم يكن سِبِرو يريد أن يأخذ على عاتقه مهمّة تغيير ابن عمتّه، على العكس، ودَّ لو يُشبِهُهُ، فبالمقارنة معه كان يشعر بنفسه متخشّباً وجنائزياً. كلّ شيء كان يُذهله عند ماتيّاس، أسلوبه المتقن، سخريته الجليدية، والخفّة التي ينفق بها المال دون أيّ اعتبار.

- أرغب منك أن تعتاد على معاملاتي التجارية . هذا مجتمع ماديّ ودهمائي، قليل الاحترام جدّاً للنساء. لا قيمة هنا إلاّ للثروة

والعلاقات، لذلك أنا بحاجة إليك: ستكون عينيَّ وأذنيَّ ـ أعلنت باولينا لابن أخيها، بعد أشهرٍ قليلة من وصوله.

ـ لا أفهم شيئاً في التجارة.

ـ أمّا أنا فأفهم. لا أطلبُ منك أن تفكِّر، فهذه مسألتي. أنت تصمت، تُراقِب، تُصغي، وتحكي لي. بعدها تفعل ما أقوله لك دون كثيرٍ من الأسئلة، واضح؟

ـ لا تطلبي منّي أن أنصب أفخاخاً يا عمّتي ـ ردّ سِبِرو بكبرياء.

ـ أرى أنّك سمعت بعضَ الإشاعات عنّي... انظر يا بُنيّ، القوانين ابتدعها الأقوياء، كي يسيطِروا على الضعفاء الذين هم أكثر عدداً بكثير. أنا لستُ مُجبَرة على احترامِها. أحتاجُ محامياً مُطلقَ الثقة، كي أفعل ما يحلو لي دون أن أتورّط.

ـ آمل أن يكون ذلك بطريقة مشرّفة... ـ نبّهها سِبِرو.

ـ آه يا صغير! لن نصل بهذا الشكل إلى أي شيء. شرفُك سيكون في مأمنٍ ما دمت لا تُبالِغ ـ ردّت باولينا.

وهكذا ختما حلفاً قويّاً قوّةَ روابط الدمِ التي تربط بينهما. باولينا التي استقبلته دون أن تعقد عليه آمالاً كبيرة، مقتنعة بأنّه تافه، وأن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلهم يرسلونه إليها من تشيلي، تلقّت مفاجأة سارّة بابن الأخ الذكي والنبيل المشاعر. خلال سنواتٍ قليلة تعلّم سِبِرو التحدث بالإنكليزية بسهولة لم يُبدِها أيّ شخص في أسرته، ووصل به الأمر إلى معرفة شركات عمّته كما يعرف راحةَ كفّه. اجتاز الولايات المتحدة بالقطار مرّتين ـ في واحدة منهما تعرض لهجوم قطاع طرق مكسيكيين ـ كما أنه وجد الوقت كي يُصبح محامياً. حافظ على مراسلة أسبوعية مع ابنة عمّه نيبيا، التي راحت مع الأيّام تتوضّح صورتها كمفكّرة، أكثر منها كرومانسية. كانت تحكي له عن الأسرة والسياسة التشيلية؛ وهو يشتري لها كتباً، ويقصّ لها مقالاتٍ عن تقدّم التصويت في أوروبا والولايات المتحدة. وقد احتفلا عن بعدٍ بخبر مفاده أنّه تم تقديم

توصية إلى الكونغرس الأمريكي الشمالي لاعتماد صوت المرأة؛ رغم أنّهما كانا متفقين على أنّ تصوّر شيء مشابه في تشيلي يُعادل الجنون. «ما الذي أكسبه من كلّ هذه الدراسة والقراءة، يا ابن العم؟ إذا لم يكن هناك من مجال للعمل في حياة المرأة؟ تقول أمّي سيكون من المحال عليّ أن أتزوّج لأنّني أفزع الرجال، وأنّه عليّ أن أتدبّر أمر جمالي، وأغلِقَ فمي، إن كنتُ أرغب بزوجٍ. أسرتي تصفق لأدنى معرفة عند أخوتي ـ وأقول أدنى لأنّك تعرفُ كم هم أفظاظ ـ بينما يعتبرون الشيء ذاته عندي تبجّحاً. الوحيد الذي يتحمّلني هو خالي خوسيه فرانسيسكو، لأنّني أفسح له المجال كي يُحدّثني عن العلوم، والفلك والسياسة، الموضوعات التي يحبُّ أن يُطنِب فيها، وإن كانت أفكاري لا تهمّه إطلاقاً. لا تتصوّر كم أحسد الرجالَ من أمثالَك، والعالم مسرح لهم»، هكذا كتبت الشابّةُ. لم يكن الحبُّ يشغل أكثر من سطرين في رسائل نيبيا، وكلمتين في رسائل سِبِرو، كما لو أنّهما متفقان ضمنياً على نسيان المداعبات المكثفة والسريعة في الزوايا. مرّتين في العام كانت نيبيا ترسل إليه صورة لها، كي يرى كيف راحت تتحوّل إلى امرأةٍ، وكان هو يَعِدُ أن يفعل مثلها، لكنّه دائماً ينسى، تماماً كما كان ينسى أن يقول لها إنّه لن يعود إلى البيتِ في عيد ميلاد ذلك العام أيضاً. أيّ امرأة أخرى غير نيبيا أكثر استعجالاً على الزواج كانت ستشنّف مجسّاتها للعثور على خطيب أقل انزلاقاً، لكنّها لم تشك قط بأنّ سِبِرو دل باليه لن يكون زوجها. ووصل يقينها إلى حدٍّ أنّ هذا الفراق المؤجّل بالأعوام لم يُقلقها، فقد كانت مستعدة لأن تنتظره حتى النهاية. من جهته كان سِبِرو يحتفظ بذكرى ابنة عمّه كرمز لكلّ ما هو طيّب ونبيل ونقيّ.

كان باستطاعة مظهر ماتيّاس أن يُبرِّر رأي أمّه به في أنّه مجرّد أبله حسن الهندام، لكنّه لم يكن غبياً بأي حال. فقد زار جميع المتاحف المهمّة في أوروبا، ويعرف عن الفن، ويستطيع أن يُنشِد لكلّ الشعراء الكلاسيكيين، وكان الوحيد الذي يستعمل مكتبة البيت. له أسلوبه الخاصّ به، خليط من البوهيمي والمتأنّق، فمن الأوّل كان

عنده عادة الحياة الليلية، ومن الثاني الهوس بتفاصيل اللباس. وكان الأفضل حظوة في سان فرانسيسكو، لكنّه يحترف العزوبية بثبات، يُفضِّلُ حديثاً مبتذلاً مع أسوأ أعدائه، على موعِد مع أكثر عاشقاته جاذبيّة. الشيء الوحيد المشترك بين النساء هو الإنجاب، وهو هدف تافِه بحدِّ ذاته، هكذا كان يقول. وأمام مضايقات غريزته الطبيعية كان يُفضِّلُ محترفة على الكثيرات اللواتي كنَّ في متناول يده. لم يكن يتصوَّر سهرة رجالٍ لا تختتم ببراندي في بار وزيارة إلى ماخور؛ كان في البلد أكثر من ربع مليون عاهرة، وقسم جيّد منهنّ كنّ يكسبن عيشهنّ في سان فرانسيسكو، بدءاً من فتيات الـ سينغ ـ سونغ البائسات في تشايناتاون، وحتى آنسات دول الجنوب الرقيقات اللواتي انطلقن بسبب الحرب الأهلية إلى الحياة الفاجرة. الوارث الشاب غير المتساهل كثيراً مع الضعف الأنثوي، كان يتباهى بصبره على فحش أصدقائه البوهيميين؛ وتلك كانت واحدة أخرى من غرائبه، مثل هوايته للسجائر الرفيعة السوداء، التي كان يوصي عليها إلى مصر، والجرائم الأدبية والواقعية. كان يعيش في قصر نوب هيل الأبوي، ويملك طابقاً فاخراً في المركز، متوّجاً بعلّية فسيحة، كان يسمّيها غرفة العازِب حيث كان يرسم من حين لآخر، ويقيم حفلات كثيرة. كان يخالط عالم البوهيمين، الشياطين البائسين الذين كانوا يحيون غارقين في فاقة رواقية لا علاج لها، شعراء، صحفيون، مصوِّرون، أشخاص متطلعون إلى أن يكونوا كتّاباً وفنانين، رجال بلا أسر يقضون حياتهم نصف مرضى، يسعلون ويناقشون، يعيشون على الاقتراض، ولا يستخدمون الساعة، لأنّ الزمن لم يُخلق لهم. وكانوا يهزؤون من وراء ظهر التشيلي من ثيابه وأخلاقه، لكنّهم يتسامحون معه لأنّهم دائماً يستطيعون اللجوء إليه من أجل بعض الدولارات، وجرعة ويسكي، أو مكان لهم في علّيته يقضون فيها ليلةً ضبابية.

ـ هل لاحظت أن ماتيّاس عنده عادات لواطي؟ ـ علّقت باولينا قائلة لزوجها.

ـ كيف يخطر لك أن تقولي مثل هذه الفظاعة عن ابنك! لم يحدث أن وُجِد واحدٌ من هؤلاء في أسرتي أو أسرتك! ـ ردّ فِليثيانو.

ـ هل عرفت رجلاً يوائم بين لون لفة عنقه ولون ورق الجدران؟ ـ نفخت باولينا.

ـ حسن، ويحك! أنتِ أمّه ومن واجبك أن تبحثي له عن خطيبة! فهذا الولد صار في الثلاثين من عمره وما زال عازباً. الأفضل أن تؤمّني له واحدة بسرعة، قبل أن يتحوّل إلى كحوليّ، أو مسلول أو ما هو أسوأ ـ نبّهها فِليثيانو ، دون أن يعلم أن الوقت تأخّر من أجل علاج بارد للإنقاذ.

في واحدة من ليالي العواصف الثلجية القارسة الخاصّة بصيف سان فرانسيسكو، قرع وليامز، رئيس الخدم ذو السترة ذات الذيل، باب غرفة سِبِرو دِل بالْيِه.

ـ اعذرني على الإزعاج يا سيّدي ـ همس بهمهمة محتشمة داخلاً وفي يده المقفّزة شمعدان بثلاث شموع.

ـ ماذا هناك يا وليامز؟ ـ سأل سِبِرو مستنفراً، لأنّها كانت المرّة الأولى التي يقطع فيها أحدٌ عليه حلمه في ذلك البيت.

ـ أخاف أن يكون هناك منغّص صغير. المسألة تتعلّق بِدون ماتيّاس ـ قال وليامز بذلك التمايز الإنكليزي التبجحي، المجهول في كاليفورنيا، والذي له دائماً وقع السخرية أكثر من الاحترام.

وضّح له أنّه في مثل تلك الساعة المتأخرة وصلت إلى البيت رسالة مرسلة من سيّدة مشكوك بسمعتها، تدعى أماندا لويل، اعتاد السيّد أن يتردّد عليها، ناس «من جوّ آخر»، كما قال. قرأ سِبِرو الملاحظة على ضوء الشموع: ثلاثة سطور فقط تطلب مساعدة فورية لماتيّاس.

ـ علينا أن نُخبر عمّي، يمكن أن يكون ماتيّاس قد تعرّض لحادِثٍ ـ استنفر سِبِرو دِل بالْيِه.

ـ تمعّن في العنوان يا سيّدي، إنّه في وسط تشايناتاون تماماً. يبدو لي أنّ من الأفضل ألاّ يعلم السيِّدان بذلك ـ ارتأى رئيس الخدم.

ـ هاها! كنتُ أظنّ أنك لا تخفي أسراراً عن عمّتي باولينا.

ـ أحاول أن أجنِّبَها المنغصّات يا سيّدي.

ـ ماذا تقترح أن نفعل؟

ـ إذا لم يكن الطلب كبيراً، أرجوأن ترتدي ملابسك، وتأخذ سلاحك وترافقني.

كان وليامز قد أيقظ أحد فتية الإسطبلات كي يعدّ واحدة من العربات، لكنّه كان يرغب بالإبقاء، على سرّية المسألة بأكبر قدر ممكن من الصمت، فأخذ الزمام بيده، وتوجّه دون تردّدٍ إلى الشوارع المظلمة والمقفرة في طريقه إلى الحي الصيني، تقوده غريزة الجياد، لأنّ الريح كانت تُطفئ مصابيح العربة في كلّ لحظةٍ. تولّد لدى سِبِرو انطباع بأنّها ليست المرّة الأولى التي يسير فيها الرجلُ في تلك الأزقّة. سرعان ما غادرا العربة ودخلا سيراً على الأقدام في ممر يؤدي إلى في فناءٍ مظلم، حيث تسود رائحة غريبة وحلوة، كما لو أنها رائحة جوز محمّص. لم يكن يُشاهد أحد، وما من صوت غير صوت الريح، والضوء الوحيد ينفذ من بين قضبان زوج من النوافذ الصغيرة على مستوى الشارع. أشعل وليامز عود ثقابٍ، قرأ العنوان مرّة أخرى، ثم دفع دون استئذانٍ أحد الأبواب المطلّة على الفناء. تبعه سِبِرو الذي وضع يده على سلاحه. دخلا إلى غرفةٍ صغيرة، دون تهوية، لكنّها نظيفة ومرتّبة، حيث لا يكاد المرء يستطيع التنفّس بسبب رائحة الأفيون الكثيفة. وحول طاولة مستديرة كان هناك مقصورات خشبية، مصطفة على الجدران بعضها فوق بعض، مثل أسرّة السفن، مفروشة بحصُر صغيرة مع قطعة خشب معقّرة على شكل وسادة. كان يشغلها صينيون، ويشغل المخدعَ الواحد اثنان أحياناً، مستلقين على جنبيهما أمام صينية صغيرة تحتوي على صندوقٍ فيه عجينة سوداء ومصباح صغير مشتعل. كان الليل متقدّماً جدّاً، والمخدرات أعطت مفعولها في الغالبية؛ فكان الرجال

يضجعون مخدّرين سارحين في أحلامهم، ولم يكن هناك إلا اثنان أو ثلاثة ما يزالون يملكون القوّة كي يدهنوا قضيباً معدنيّاً بالأفيون، ليُسخنوه على المصباح، ويحشون قمع الغليون الدقيق ويستنشقون عبر قصبة خيزران.

ـ يا إلهي! ـ همهم سِبِرو، الذي كان قد سمعهم يتكلّمون عن هذا، ولم يره عن قرب.

ـ إنّه أفضل من الكحول، إذا سمحت لي أن أقول لك ذلك ـ لا يحثّ على العنف، ولا يؤذي الآخرين، بل من يُدخّنه فقط. تمعّن كم هو هذا أهدأ وأنظف من أيّ بارٍ.

خرجَ صينيّ عجوز يرتدي دثاراً وبنطلوناً عريضاً من القطن، وهو يعرجُ للقائهما. عيناه الصغيرتان الحمراوان لا تكادان تُطلّان من بين تجاعيد وجهه العميقة، وله شوارب ذابلة ورمادية، مثل الجديلة النحيلة المتدلية على ظهره، وجميع أظافره باستثناء الإبهام والسبابة كانت من الطول بحيث تنطوي على ذاتها، مثل ذيل رخويّ ما قديم، وفمه يبدو فجوة سوداء، والأسنان القليلة المتبقية مصبوغة بالتبغ والأفيون. توجه ذاك الجدّ الهرم الأعرج إلى الواصِلَين توّاً بالصينية، ولدهشة سِبِرو ردّ عليه رئيسُ الخدمِ الإنكليزي بزوجٍ من النباحات باللغة ذاتها. حدثت وقفة طويلة جدّاً لم يأتِ خلالها أحدٌ بحركة. أبقى الصيني نظرته على وِليامز، كما لو أنّه يدرسُه، ثم مدّ يدَه أخيراً، فوضع فيها الآخر عدداً من الدولارات خبّأها العجوز في عبّه تحت الدثار، ثمّ أخذ بقيّةَ شمعة وأشار عليهما باللحاق به. عبروا إلى غرفة أخرى، ثمّ وعلى الفورِ إلى ثالثة ورابعة، وجميعها مشابهة للأولى، ثم ساروا على امتداد ممر ملتوٍ، هبطوا درجاً صغيراً، ووجدوا أنفسهم في ممرّ آخر. أشار عليهم دليلهم بالانتظار، واختفى لعدّة دقائق بدت لا نهائية. سِبِرو الذي كان يتصبّب عرقاً أبقى إصبعه على زناد السلاح، متحفّزاً لا يجرؤ على النطق بنصف كلمة. عاد الجدّ الهرم أخيراً، وقادهما عبر متاهة حتى وجدوا أنفسهم أمام باب مُغلَق، بقي يتأمله باهتمام تافه، كمن يفكّ رموزَ خريطة، إلى أن مرّر له وليامز زوجاً من الدولارات الأخرى.

عندئذ فتحه. دخلوا إلى غرفة أصغر من الأخريات، وأكثر عتمة ودخاناً وضغطاً، لأنّها كانت تحتَ مستوى الشارع، وخالية من التهوية، لكنّها فيما عدا ذلك كانت مماثلة للأخرى. على الأسرّة الفردية الخشبية كان هناك خمسة أمريكيين بيض، أربعة رجال وامرأة ناضجة، لكنّها فائقة الجمال، وشلالّ من الشعر الأحمر يتدفّق حولها مثل معطف فاضح. كانوا، كما يمكن أن يُحكم عليهم من ثيابهم، موسرين. وجميعهم كانوا في الحالة ذاتها، باستثناء واحد مستلقٍ على ظهره يتنفّس بصعوبة، ممزّق القميص، مفتوح الذراعين على شكل صليب، بشرته بلون الطباشير، والعينان تتقلّبان إلى الأعلى. كان هذا ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث.

- هيّا يا سيِّدي، ساعِدني - أمر وليامز سِبِرو دِل بالْيِه.

رفعاه فيما بينهما بجهدٍ، وضع كلّ منهما ذراعاً من ذراعي المغشي عليه خلف عنقه، وحملاه مثل مصلوبٍ، الرأس متدلّ والجسد مرتخٍ، والقدمان متجرجرتان على الأرضُ الترابية المرصوصة. اجتازوا الطريق الطويل عائدين عبر الممرات الضيقة، وعبروا الغرف الخانقة واحدة فواحدة، حتى وجدوا أنفسهم في الهواء الطلق، في نقاء الليل المنقطع النظير، حيث استطاعا أن يتنفّسا بعمق، متلهفين ومصعوقين. سوّيا وضعَ ماتيّاس في العربة كيفما استطاعا، وقادهما وليامز إلى غرفة العازب التي كان سِبِرو يظنّ أنّ المستخدَمَ يجهلها. وكانت دهشته أكبر حين أخرج وليامز مفتاحاً، وفتح الباب الرئيسيّ للبناء، ثم آخر لفتح العلّية.

- ليست هذه هي المرّة الأولى التي تُنقِذ فيها ابن عمّتي، أليس صحيحاً؟

- لنقل إنّها لن تكون الأخيرة - أجاب.

وضعا ماتيّاس على السرير الموجود في ركنٍ خلف حاجِز ياباني، وشرع سِبِرو يُبلّله بالقماش المُبلّل، ويهزّه كي يعود من السماء التي كان فيها، بينما انطلق وليامز بحثاً عن طبيب الأسرة، بعد أن نبّهه إلى أنّه ليس من المناسب إبلاغ العمّين بما جرى.

ـ ابن عمّتي يمكن أن يموت! ـ هتف سِبِرو، وهو ما يزال يرتجف.

ـ في هذه الحالة يجب أن نُبلغ السيّدين ـ قبل وليامز بأدب.

بقي ماتيّاس خمسة أيام يتخبّط في تشنّجات احتضار، متسمّماً حتىّ النخاع. جاء وليامز بممرّض إلى العليّة للعناية به وتدبّر أمره، بحيث لا يُسبّب غيابُه فضيحةً في البيت. خلق هذا الحادث رابطة غريبة بين سِبِرو ووليامز؛ تواطؤاً ضمنيّاً لم يُترجم قط إلى إيماءة أو كلمة. لو كان الأمر مع شخص آخر أقل كتماً من رئيس الخدم، لفكّر سِبِرو أنّهما يتقاسمان بعض الصداقة، أو على الأقل الاستلطاف، لكنَّ الإنكليزي كان يرتفع حوله سور كتيم من التحفّظ. بدأ يُراقبه. إنه يُعامِل المستخدمين الموجودين تحت أمرته بالتهذيب البارد والتام الذي يتوجَّهُ به إلى أرباب عمله، وهكذا تمكّن من دبّ الخوف في نفوسهم. لا شيء يفلت من مراقبته، ولاحتى بريق أطقم الطعام الفضّية، أو أسرار كلّ ساكن من سكّان ذلك البيت الهائل. كان من المحال تقدير عمره أو أصوله، فهو يبدو حبيس الأربعين من عمره إلى الأبد، وباستثناء النبرة الإنكليزية، لم يكن هناك أيّ دليل على ماضيه. وهو يُبدّل قفازيه الأبيضين ثلاثين مرّةً في اليوم، وطقمه المخملي الأسود يزهو دائماً مكوياً للتو، وقميصه الكتاني الناصع البياض المصنوع من أفضل الكتان الهولندي منشّى مثل الورق المقوى الصقيل، وحذاؤه يلمعُ مثل مرآة. كان يمصّ حبات نعناع من أجل نَفَسِهِ، ويستخدم ماء الكولونيا، لكنّه يفعل ذلك بكثير من الدقة، حتى أنّ المرّة الوحيدة التي لاحظ فيها سِبِرو رائحة النعناع والخزامى حدثت حين احتكّ به عند ما رفعا ماتيّاس فاقدَ الوعي في مَدْخَنِ الأفيون. في تلك المناسبة انتبه أيضاً إلى فخذيه القاسيين مثل الخشب تحت سترته، وأوتار رقبته المشدودة في الرقبة، وإلى قوّته وطراوته، أي لا شيء مما ينسجم مع حالة لورد إنكليزي أفقِر، كما هو حال ذلك الرجل.

إن سِبِرو وابن عمته وماتيّاس لا يملكان شيئاً مشتركاً إلا

الملامح النبيلة وحبّ الرياضة والأدب، وفيما عدا ذلك لا يبدو أن لهما دماً واحداً؛ فبقدر ما كان الأوّل نبيلاً، مندفعاً وساذجاً؛ كان الثاني كلبيّاً وخمولاً وخليعاً، لكن وعلى الرغم من طبيعتهما المتبأينة والسنوات التي تفصل بينهما، بنيا صداقة. بذل ماتيّاس جهده كي يُعلِّم سِبِرو المبارزة، وكان يخلو من الأناقة والسرعة الضروريّتين لهذا الفنّ، وأطلعه على أوليات متع سان فرانسيسكو، لكنَّ الذي حدث هو أنّ الشابّ رفيق سيّئ لحياة اللهو والصخب، لأنه ينام واقفاً؛ فهو يقضي أربع عشرة ساعة من العمل في مكتب المحامين، ويقضي ما يفيض عنه من وقت في القراءة والدراسة. وعادة ما يسبحان عاريين في مسبح البيت، ويتحدّى أحدهما الآخر في رقصة الالتحام الجسدي. كانا يرقصان أحدهما حول الآخر، متحفِّزين، متهيّئين للقفز، وأخيراً يهجم أحدهما على الآخر، قافزاً، ملتحماً به، دائراً حوله إلى أن يتمكن من إخضاعه، ويسحقه على الأرض. يبقيان مبللين بالعرق، لاهثين، مهتاجين. فيبتعد سِبِرو بعنفٍ، مرتبكاً، كما لو أنّ الملاكمة كانت عناقاً غير مقبول. كانا يتكلّمان عن الكتب ويناقشان الكلاسيكيين؛ فماتيّاس يُحبُّ الشعرَ، وحين يكونان وحيدين يقرأه له عن ظهر قلب، بالغاً تأثُّره بجمال الأبيات حدّاً يجعل دموعه تسيل على خدّيه. وفي هذه المناسبات كان سِبِرو يرتبك، لأنّ عاطفة الآخر القويّة تبدو له شكلاً من الودّ المحرّم بين الرجال. كان يعيش رهنَ التقدم العلمي والرحلات الاستكشافية، التي يناقشها مع ماتيّاس في محاولة غير مجدية منه لجعله يهتمّ بها، فالأخبار الوحيدة التي كان يتمكّن بها من اختراق درع اللامبالاة عند ابن عمّته هي الجرائم المحلّية. كان ماتيّاس على علاقة غريبة، مرتكزة على ليترات من الويسكي، مع جاكوب فريمونت، الصحافيّ العجوز الغامِض، الذي كان دائماً في ضائقة مالية، ويشاركه الافتتان المرضي بالجريمة. وكان فريمونت ما يزال يستطيع نشر تحقيقات بوليسية في الصحف، لكنّه خسر سمعته تماماً منذ سنوات طويلة حين ابتدع قصّة خواكين مورثِيتا، اللص المكسيكي المزعوم في أزمنة حمّى الذهب. فقد خلقت مقالاته شخصيّةً أسطوريّةً، أثارت كراهية السكّان البيض ضدّ الهيسبانيين. ولكي تُهدِّئ السلطاتُ

النفوسَ قدّمت جائزة لنقيب اسمه هاري لوف، كي يصطادَ مورْيِتا. وبعد ثلاثة أشهر جابوا كاليفورنيا بحثاً عنه، اختار النقيبُ حلاً بلا عوائق: فقد قتل سبعة مكسيكيين في كمينٍ، وعاد برأسٍ ويد. لم يستطع أحدٌ أن يتحقّق من هويّة صاحب بقايا الجثّة، لكنّ مأثرة لوف طمأنت البيضَ. كانت بقايا الميت ما تزال معروضة في متحفٍ، على الرغم من الإجماع بأنّ خواكين مورْيِتا ليس إلّا بدعة مريعة من بدع الصحافة بعامّة، ومن جاكوب فريمونت بخاصّة. هذا الفصل، وفصول أخرى شوّهت فيها ريشةُ الصحافي المخادعة الواقعَ، أكسبته بجدارةٍ شهرةَ الغشّاش، وأغلقت الأبواب في وجهه. وقد تمكّن ماتيّاس، بفضل علاقته الغريبة بفريمونت، كاتب تحقيقات الجرائم، من رؤية ضحايا القتل قبل أن تُرفَع من أماكنها، ومن حضور التشريح الكشفي في مستودع الجثث، المَشاهد التي كانت تجرحُ حساسيته بقدر ما تُثيره. فكان يخرج من مغامراتِ عالمِ الجريمة السفليّ هذه سكراناً من الرعب، ويذهب مباشرة إلى الحمّامَ التركي، حيث يقضي ساعات تتصبّب منه رائحةَ الموت الملتصقة بجسمه عرقاً، ثمّ يُغلِق على نفسه في غرفة العازب ليرسم المشاهِد المشؤومة للناس المقطّعة بضربات السكاكين.

ـ ماذا يعني كلُّ هذا؟ ـ سأله سِبِرو في المرّة الأولى التي رأى فيها تلك اللوحات الدانتية.

ـ ألا تفتنك فكرة الموت؟ القتل الإنساني مغامرة مريعة، والانتحار حلّ عمليّ. أنا ألعب بفكرة الحالتين. هناك أشخاص يستحقّون القتل، ألا ترى ذلك؟ بالنسبة إليَّ، حسن، يا ابن الخال، لا أفكّر أن أموتَ في أرذل العمر، أُفضِّلُ أن أضع حدّاً لأيّامي بالعناية ذاتها التي أختار بها ملابسي، لذلك أدرسُ الجرائم، كي أتدرَّب.

ـ أنت معتوه وتخلو من الموهبة ـ خلص سِبِرو.

ـ لا يحتاج المرء إلى الموهبة كي يكون فنّاناً، بل للجرأة فقط. هل سمعت بالانطباعيين؟

ـ لا، لكن إذا كان هذا ما يُصوّره أولئك الشياطين البؤساء،

فإنّهم لن يستمروا طويلاً. ألا تستطيع أن تبحث عن موضوع ألطف؟ فتاة حلوة مثلاً؟

ضحك ماتيّاس وأعلن له أنَّ فتاةً حلوةً حقّاً ستكون في غرفة العازب يومَ الأربعاء، وأضاف إنّها الأجمل في سان فرانسيسكو، حسب الإجماع الشعبي. كانت موديلاً يتشاجر عليه أصدقاؤه كي يُخلِّدوه في الصلصال، أو على القماش، أو في صور فوتوغرافية، مع الأمل الإضافي بممارسة الحبّ معها. يتراهنون ليروا من يكون الأوّل، لكنّ حتى الآن لم ينجح أحد في أن يلمس يدها.

- إنّها تُعاني من تشوّه كريه: الفضيلة. إنّها العذراء الوحيدة المتبقية في كاليفورنيا، رغم أنَّ علاج ذلك سهل. هل تُحب أن تتعرّف عليها.

وهكذا عاد سِبِرو دِل بالْيه ليرى لين سومّرز. كان يقتصر حتى ذلك اليوم على شراء بطاقات البريد التي تحمل صورتها من حوانيت السيّاح سراً، ويخفيها بين صفحات كتب القانون، ككنز مُخجل. جاب كثيراً شارع قاعة الشاي في ساحة الوحدة كي يراها من بعيد، وقام باستقصاءات حذرة عنها من خلال الحوذي الذي كان يذهب يومياً في طلب الحلوى لعمّته باولينا، لكنّه لم يجرؤ قط على الحضور بشكلٍ مشرّف أمام إليثا سومّرز ليستأذنها في زيارة ابنتها. إن أيّ عملٍ مباشر كان يبدو له خيانة مريعة لنيبيا، التي كانت خطيبته طوال حياته؛ لكن أن يلتقي بلين بالمصادفة شيء آخر، هكذا قرّر، لأن الأمر في هذه الحالة سيكون لعبة قذرة من القدر، ولن يستطيع أحد أن يلومه. لم يخطر بباله أنّه سيراها في مرسم ابن عمّته ماتيّاس، وفي ظروف غريبةٍ جدّاً.

كانت لين سومّرز النتاج المحظوظ لأعراقٍ مختلطة، ويجب أن تُدعى لين شيين، لكنَّ والديها قرّرا إضافة شيء من الإنكليزية إلى اسمي ولديهما، ومنحهما كنية الأم، سومّرز، لتسهيل حياتهم في الولايات المتحدة، حيث يُعامَلُ الصينيون معاملةَ الكلاب. سمّيا الولد

الأكبر إبانيزر، على شرف صديقٍ قديم للأب، لكنّهما كانا يناديانه لوكي ـ محظوظ ـ لأنّه كان الفتى الأوفر حظّاً الذي شوهِد في تشايناتاون. أمّا الابنة الصغرى، التي جاءت بعد ستّ سنوات، فأسمياها لين تكريماً لزوجة أبيها الأولى، المدفونة في هونغ ـ كونغ قبل سنوات طويلة، لكنّهما منحا اسمها، حين سجّلاها، خاصيّة الكتابة الإنكليزية: لين (Lynn)(*). كانت زوجة تاو شيين الأولى مخلوقة هشّة جدّاً، وذات قدمين دقيقتين معصوبتين، معبودة من زوجها، وهزمها الضنى وهي في ريعان الصبا. تعلّمت إليثا سومّرز أن تتعايش مع ذكرى لين دائمةِ الحضور، وانتهت إلى اعتبارها عضواً آخر من أعضاء الأسرة، ونوعاً من الحامية الخفيّة التي تسهر على رغد حياة بيتها. قبل عشرين عاماً، حين اكتشفت أنّها حاملٌ مرّة أخرى، توسّلت إلى لين أن تساعدها كي تتمّه حتى نهايته، لأنّها عانت من عدّة إجهاضات، وليس هناك أمل كبير في أن تحتفظ طبيعتُها المنهكة بالجنين. هكذا أبانت الأمر لتاو شيين، الذي وضع في كلّ مرّة إمكاناته كـ زهونغ ـ يي في خدمة زوجته، إضافة إلى حملها إلى أفضل الاختصاصيين بالطب الغربي في كاليفورنيا.

ـ ستولَد هذه المرّة طفلة سليمة ـ أكّدت له إليثا.

ـ وما أدراك؟ ـ سأل زوجُها.

ـ لأنّني طلبت ذلك من لين.

لقد آمنت إليثا دائماً أن الزوجةَ الأولى أعانتها في حملها، ومنحتها القوّة على ولادة ابنتها، ثم مثل حوريّة انحنت فوق المهد لتقدّم للطفلة هبةَ الجمال. «ستُسمّى لين»، أعلنت الأمُّ المنهَكَةُ حين أخذت ابنتها بين ذراعيها أخيراً؛ لكنّ تاو شيين ارتعب: ليست فكرة جيّدة منحها اسم امرأة ماتت في ريعان الشباب. أخيراً عمدا إلى تغيير شكل الاسم الإملائي كيلا تأخذ الحظّ السيّئ. وخلُصت إليثا إلى أنّه «سيكون له اللفظ ذاته، وهذا هو الأهم».

(*) الاسم الأصلي Lin لكنه كُتبَ Lynn : وهو اسم زوجة تاو شيين الأولى التي مُنِحَ اسمها للطفلة.

ورثت لين سومّرز من جهة أمّها دماً إنكليزياً وتشيلياً، لكنّها حملت من جهة الأب جيناتِ صينيِّ الشمالِ طوال القامة. وكان جدّ تاو شيين، الطبيب الشعبيّ المتواضع، قد أورث ذرّيته الذكورَ معارفه عن النباتات الطبيّة والتعويذات السحرية ضدَّ عدد من أمراض الجسد والعقل. وقد أغنى تاو شيين آخر تلك الذريّة الميراثَ الأبوي بالتدرب على *الزهونغ ـ يي* إلى جانب حكيم كانتونيّ، ومن خلالِ حياة قائمة على دراسةٍ، ليس الطب الصينيّ التقليديّ وحسب، بل كلّ ما كان يقع بين يديه حول علوم الطب في الغرب. كان قد حقّق مكانة راسخة في سان فرانسيسكو، ويستشيره الدكاترة الأمريكيون، ويملكُ زبائن من مختلف الأعراق، لكنّهم لم يكونوا يسمحون له بالعمل في المستشفيات، وانحصر عمله في الحي الصينيّ، حيث اشترى بيتاً كبيراً، استخدم الطابق الأول منه عيادةً، والثاني سكناً. كانت سمعته تحميه: فلا أحد يتدخّل في نشاطه مع فتياتِ الـ *سينغ ـ سونغ*، كما كانوا يسمّون عبداتِ تجارة الجنس المشجيات في تشايناتاون، وجميعهن طفلات صغيرات السن. كان تاو شيين قد أخذ على عاتقه إنقاذ كل من يستطيع من المواخير. وكانت ـ *التونغات* ـ العصابات التي تتحكّم وتراقب وتبيع الحماية في الجالية الصينية؛ تعرفُ أنّه يشتري العاهرات الصغيرات كي يمنحهنّ فرصة جديدة بعيداً عن كاليفورنيا. وقد هدّدته عدّة مرّات، لكنّها لم تتّخذ إجراءات أكثر عنفاً، لأنّ أيّ واحدٍ من أعضائها يمكن أن يحتاج عاجلاً أو آجلاً لخدمات *الزهونغ ـ يي* الشهير. فما دام تاو شيين لايلجأ إلى السلطات الأمريكية، ويعمل دون ضجيج، وينقذ الفتيات واحدة فواحدة، بصبرِ نملة، يمكنهم أن يتسامحوا معه، لأنّه لم يكن يُضرّ بمنافع التجارة الهائلة. الشخصية الوحيدة التي كانت تُعامل تاو شيين على أنّه خطر عام هي *آه توي*، القوّادة الأكثر نجاحاً في سان فرانسيسكو، وصاحبة عدّة صالونات متخصّصة بالمراهقات الآسيويات. فهي وحدها كانت تستورد المئات من المخلوقات كلّ عام، أمام عيون الموظفين اليانكيين، المرتشين جيداً، والقاسية. كانت *آه توي* تكره تاو شيين وتُفضّل، كما قالت مرّات كثيرةً، أن تموت قبل أن تعودَ لاستشارته. فعلت ذلك مرّة

واحدة، بعد أن هزمها السعال، وأدركا في تلك الفرصة، دون أن يقولا شيئاً، أنَّهما سيبقيان عدوّين حتى الموت وإلى الأبد. فكلّ فتاة *سينغ ـ سونغ* ـ أنقذها تاو شيين كانت شوكةً مغروزة تحت أظافر *آه توي*، حتى ولو لم تكن الفتاة تنتمي إليها. لقد كان هذا بالنسبة إليها، كما بالنسبة إليه، مسألة مبدأ.

كان تاو شيين ينهض قبل الفجر ويخرجُ إلى الحديقة، حيث يمارس تمارينه السويدية كي يُحافِظ على لياقة جسمه وصفاء ذهنه. بعدها مباشرة يتأمّل لمدّة نصف ساعة، ثمّ يُشعِلُ النارَ لإبريق الشاي. كان يوقِظُ إليثا بقبلة وكأسٍ من الشاي الأخضر، ترشفُه ببطءٍ في سريرها. كانت تلك اللحظة مقدّسة لكليهما: فكأس الشاي الذي يشربانه معاً يختم الليل الذي تقاسماه في عناقٍ حميم. ما كان يَحدث بينهما خلفَ باب غرفتهما المُغلَق يُعوّضهما عن كلّ جهد النهار. لقد بدأ حبّهما كصداقة ناعمة منسوجة بمهارة وسط كتلة من العوائق، بدءاً من الحاجة للتفاهم بالإنكليزية، والقفز فوق الأوهام الثقافية والعرقية، وانتهاءً بالسنوات التي تفصلُ بينهما في العمر. عاشا وعملا معاً تحت سقفٍ واحد، خلال أكثر من ثلاثة أعوامٍ قبل التجرّؤ على اختراق الحدود الخفيّة التي تفصل بينهما. وكان ضروريّاً أن تسير إليثا آلاف الأميال في حلقة مفرغة من رحلة لا تنتهي ، تُلاحِقُ حبيباً مفترضاً يفلت من بين أصابعها مثل الشبح، وأن تترك ماضيها وبراءتها مِزقاً على الطرقات، وتُواجِهَ هوسَها أمامٍ رأسِ اللص الأسطوريّ خواكين مورْيِتا المقطوعِ والمنقوع بالجِّن، كي تُدرِك أن قدرها كان بجانب تاو شيين. بالمقابِل عرف *الزهونغ ـ يي* ذلك من قبل، وانتظرها بعناد الحبّ الناضج الصامت.

في الليلة التي تجرّأت فيها إليثا أخيراً على أن تقطع أمتار الممر الثمانية التي كانت تفصل غرفتها عن غرفة تاو شيين، تبدّلت حياتهما كلّياً، كما لو أنّ ضربة فأس قطعت الماضي من جذوره. واعتباراً من تلك الليلة المتأجّجة لم يبق أدنى إمكانية أو إغراء للتراجع، لم يكن هناك غير تحدّي بناء فضاء في عالم لا يسمح

باختلاط الأعراق. جاءت إليثا حافيةً وبقميص النوم، متلمّسة طريقها في العتمة. دفعت بابَ تاو شيين واثقةً من أنّها ستجده غير مقفل، لأنّها تكهّنت بأنّه يرغب بها كما ترغب به، لكنها كانت رغم هذا اليقين خائفةً من غاية قرارها الذي لا رجعة عنه. وقد تردّدت كثيراً في الإقدام على تلك الخطوة، لأنّ *الزهونغ* - يي كان حاميها، وأباها، وأخاها، وأفضلَ صديق لها، وأسرتَها الوحيدة في هذه البلاد الغريبة. خافت أن تخسرَ كلَّ شيء بالتحوّل إلى عشيقة له. لكنّها أصبحت أمام العتبة؛ ولهفتها لقرع الباب أقوى من مراوغات العقل. دخلت إلى الغرفة ورأته على ضوء شمعة موجودة فوق الطاولة، متربّعاً ينتظرها على السرير، يرتدي دِثاره وبنطلونه القطنيّ الأبيض. لم تتمكّن إليثا من سؤاله كم ليلة قضى بهذا الشكل، مشدوداً إلى خطواتها في الممر، لأنّها كانت مرعوبة من جرأتها ذاتها، ترتعِدُ خوفاً ومن استباق ما سيحدث. لم يمنحها تاو شيين وقتاً كي تتراجع. فقد خرج للقائها، وفتح لها ذراعيه؛ فتقدّمت على عماها حتى انفجرت على صدره الذي غاصت بوجهها فيه، مستنشقةً رائحة ذلك الرجل المعروفة لها جيداً، عبق ملحِ ماء بحري؛ وكانت متشبّثةً بدثارهِ بكلتا يديها، لأنّ ركبتيها كانتا تنطويان، بينما نهر من التوضيحات انبثقت جامِحةً من شفتيها، واختلطت بكلمات الحبّ الصينية التي كان يهمس بها هو. شعرت بالذراعين اللتين ترفعانها عن الأرض، وتضعانها بنعومة على السرير، شعرت بالنفس الدافئ على عنقها، واليدين اللتين تمسكان بها، فسيطر عليها قلق لا يمكن كبحه، وبدأت ترتعد نادمةً وخائفة.

منذ أن ماتت زوجتُهُ كان تاو شيين قد واسى نفسه بعناقات مستعجلة مع نساءٍ مدفوعات الأجر. لم يُمارس الحبَّ بحبٍّ منذ أكثر من ستّة أعوام، لكنَّه لم يسمح للعجلة أن تُشبِّبه. مرّاتٍ كثيرةً جاب بخيالهِ جسدَ إليثا، الذي يعرفه، كأنّه يسير في منحنياته وهضابه الصغيرة وفق خريطة. وكانت هي تعتقدُ أنّها عرفت الحبَّ بين ذراعي حبيبها الأوّل، لكنّ الحميمية مع تاو شيين أظهرت لها حجم جهلها. العاطفة التي كانت تُجنّنها في السادسة عشرة من عمرها،

وجابت لأجلها نصفَ العالم، وخاطرت مرّاتٍ كثيرةً بحياتها، بدت لها سراباً سخيفاً، وكانت آنذاك قد عشقت الحبَّ، راضيةً بالفتات الذي يمنحه لها رجلٌ مهتمٌّ بالرحيل أكثر مما بالبقاء معها. بحثت عنه أربعةَ أعوام، مقتنعةً بأنّ الشابَّ المثاليَّ التي عرفته في تشيلي قد تحوّل في كاليفورنيا إلى لصّ خيالي اسمه خواكين مورِيتا. انتظرها تاو شيين خلال ذلك في هدوئه الذي يُضرب به المثل، واثقاً من أنّها عاجِلاً أو آجلاً ستعبر العتبةَ التي كانت تفصلُ بينهما. وكان من نصيبه أن يُرافِقها حين عرضوا رأسَ خواكين موريِتا في تسلية للأمريكيين الشماليين وعبرةً للأمريكيين اللاتينيين. اعتقدَ أنَّ إليثا لن تتحمّل رؤية ذلك الصيّد المقيت، لكنّها وقفت أمام الوعاء الزجاجي حيث يرقدُ رأس المجرم المزعوم، ونظرت إليه بلا رحمة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بملفوفةٍ في خلّ، إلى أن تيقّنت تماماً من أنّه لم يكن الرجل الذي لاحقته خلال سنواتٍ. في الحقيقة كان سيّان عندها هويّته، لأنّ إليثا في رحلتها الطويلةِ التي كانت تقتفي فيها أثر رومانسية مستحيلة، اكتسبت شيئاً رائعاً كالحبّ: إنه الحرّية. «الآن أصبحتُ حرّة»، هذا هو كل ما قالته أمام الرأس. فأدرك تاو شيين أنّها تحرّرت أخيراً من الحبيب القديم، وصار سيّان عندها عاش أو ماتَ في بحثه عن الذهب في سفوح جبال سييرّا نيفادا، فهي على أي حال لن تبحث عن الرجلِ أكثر، وإذا ما ظهر ذات يوم؛ ستكون قادرة على أن تراه في حجمه الحقيقيّ. أخذها تاو شيين من يدها وخرج بها من المعرض المشؤوم. وفي الخارج استنشقا الهواء المنعِشَ، وراحا يسيران بسلامٍ، مستعّدين لبدء مرحلة جديدة من حياتهما.

كانت عناقات الليلة التي دخلت فيها إليثا غرفةَ تاو شيين مختلفةً جدّاً عن عناقات حبّها الأوّل، السرّية والمستعجلة في تشيلي. اكتشفت في تلك الليلة بعضاً من إمكانات المتعة المتعدّدة، وشرعت في عمق حبٍّ سيكون الوحيد بقيّةَ حياتها. فقد راح تاو شيين يخلع عنها طبقات الخوف المتراكمة والذكريات غير المجدية بكلّ هدوء، ويُداعبها بدأبٍ لا يعرف الكللَ، إلى أن انقطعت الارتعاشاتُ وفتحت

عينيها، واسترخت تحت أصابعه الماهرة، وشعر بها تتماوج، تتفتّح، تستضيء؛ سمعها تئنُّ، تناديه، تتوسّلُ إليهُ، رآها مستنفَدة ورطبة، مستعدة للاستسلام له واستقباله بالتمام؛ إلى أن لم يعد أحدٌ منهما يعرفُ أين هو، ولا من يكون، ولا أين ينتهي هو وتبدأ هي. حملها تاو شيين إلى ما وراء الرعشة، إلى آفاق غامِضة حيث يتشابه الحب والموتُ. شعرا بروحهما تنبسط، والرغبات والذاكرة تختفي، وبنفسيهما تستسلمان في بهاءٍ فسيح ووحيد. تعانقا في ذلك الفضاء الرائع، متعرّفاً الواحد منهما على الآخر، لأنّه ربّما كانا هناك معاً في حيوات سابقة، وسيكونان مرّات أخرى، أكثر بكثير في حيوات مستقبلية، كما أشار تاو شيين. كانا حبيبين سرمديّين، يبحثان عن بعضهما بعضاً، ويلتقيان مرّةً وأخرى في *كَرْمَتهما*، قال متأثراً، لكنّ إليثا ردّت ضاحكةً بأنّها لم تكن بوقار *الكرمة*، بل مجرّد رغبة بالمضاجعة، وأنّها من أجل شرفِ الحقيقة تموتُ منذ سنوات رغبةً بفعل ذلك معه، وتأملُ من الآن فصاعداً ألاّ يخونه حماسه، لأنّ هذه هي أولويّتها في الحياة. تداعبا تلك الليلة وقسطاً كبيراً من اليوم التالي، إلى أن أجبرهما الجوعُ والعطشُ على الخروج من الغرفة مترنّحين، ثملين وسعيدين، دون أن يفلت أحدهما يد الآخر، خوفاً من أن يستيقظا فجأة ويكتشفا أنّهما كانا ضائعين في أضغاث أحلام.

العاطفة التي راحت تربط بينهما منذ تلك الليلة، والتي كانا يُغذّيانها بعناية فائقة، حافظت عليهما وحمتهما في لحظات الخصام التي لا مناص منها. وراحت هذه العاطفة تستقرّ على الرقّة والضحك، وما عادا يسبران طرائق ممارسة الحبّ المئتين واثنتين وعشرين، لأنّه صار يكفيهما ثلاث أو أربع طرق، وما عاد ضروريّاً أن يتبادلا المفاجآت. فكلّما زادت معرفتهما لبعضهما بعض، زاد الودّ الذي يتقاسمانه. منذ ليلةِ الحبّ الأولى تلك ناما في عشّ ضيّق، يستنشقان النَفَسَ ذاته، ويحلمان الأحلام نفسها؛ لكنّ حياتهما لم تكن سهلة، فقد بقيا معاً ثلاثين عاماً تقريباً في عالم ما كان ليتّسع لزوجين مثلهما. ومع مرور الأعوام تحوّلت هذه المرأة الصغيرة

البيضاءُ وذلك الصينيُّ الطويلُ إلى مشهدٍ مألوفٍ في تشايناتاون، دون أن يُصبحا أبداً مقبولين تماماً. تعلّما ألاّ يتلامسا أمام الناسِ، وأن يجلسا منفصلين في المسرح، ويسيرا في الشارع تفصل الواحد عن الآخر عدّة خطواتٍ. لم يكن باستطاعتهما أن يدخلا معاً إلى بعض المطاعم والفنادِق، وحين ذهبا إلى إنكلترا، هي لزيارة أمّها بالتبنّي، روز سومّرز، وهو لإلقاء محاضرات عن المعالجة بالإبر في عيادة هوبّز، لم يستطيعا السفر في الدرجة نفسها في السفينة ولا تقاسم القمرة ذاتها، رغم أنّها كانت تتسلل حذرة لتنام معه. لقد تزوّجا بحذرٍ على الطريقة البوذيّة، لكن لم يكن لارتباطهما أي قيمة شرعية. وظهر «محظوظ» ولين مسجَّلينِ كابنين غير شرعيين يعترف بهما الأب. وقد تمكّن تاو شيين من أنٍ يتحوّل إلى مواطن بعد إجراءات ورشاوى لا متناهية. كان واحداً من القلّة القليلة الذين استطاعوا أن ينتصروا على قانون حرمان الصينيي (من الجنسية)، أحد القوانين العنصرية في كاليفورنيا. وكان إعجابه وولاؤه لوطن التبنّي غير مشروط، تماماً كما برهن عن ذلك في الحرب الأهلية، حين اجتاز القارّةَ كي يتقدّم متطوّعاً على الجبهة ويعمل مساعداً للأطباء اليانكيين خلال سنوات الصراع الأربع، ولكنّه كان يشعر بنفسه غريباً من الأعماق، ويرغب حتى ولو قضى كلّ حياته في أمريكا، أن يُوارى جسدُه في هونغ كونغ.

كانت أسرة إليثا سومّرز وتاو شيين تعيشُ في بيت فسيح ومريحٍ وأمتن وأفضل بناءً من بقيّة بيوت تشايناتاون. كانوا يتكلّمون من حولهما بالكانتونية بشكلٍ أساسيّ، وكلّ شيء بدءاً من الطعام وحتى الصحف كان صينيّاً. وعلى بعد عدّة كتل من الأبنية كان لاميسيون، الحي الهيسباني، حيث اعتادت إليثا سومرّز أن تتجوّل لمتعة التكلم بالقشتالية، لكنّها كانت تقضي يومها بين الأمريكيين في محيط ساحة الوحدة، حيث قاعة شايها الأنيقة. وقد ساهمت منذ البداية بحلواها في إعالة الأسرة، لأنّ قسماً جيّداً من دخل تاو شيين كان ينتهي إلى أيدي الآخرين: فما لم يكن يذهب

لمساعدة المياومين الصينيين الفقراء في أوقات المرض والفواجع، يمكن أن ينتهي في المزادات السرّية للطفلات العبدات. فقد أصبحَ إنقاذُ حياة هذه المخلوقات من حياة العار مهمّة مقدّسةً بالنسبة إليه، هكذا فهمت إليثا سومّرز القضية منذ البداية، وتقبّلتها كميّزة أخرى من ميّزات زوجها، وكسبب من الأسباب الأخرى الكثيرة التي جعلتها تُحبّه. أقامت تجارة حلواها كيلا تُنهكه بطلب المال؛ وكانت بحاجة لاستقلاليّتها كي تمنح ابنيها أفضلَ تربيةٍ أمريكية، فقد رغبت بأن يندمجا تماماً في الولايات المتحدة، ويعيشا بعيداً عن التضييق المفروض على الصينيين أو الهيسبانيين. وقد استطاعت ذلك مع لين، لكنّ مخطّطاتها فشلت مع «محظوظ»، لأنّ الفتى كان معتدًّا بأصله، ولا يودّ الخروج من تشايناتاون.

كانت لين تعبد أباها ـ من المستحيل ألاّ تُحِبَّ هذا الرجل الناعم والكريم ـ لكنّها كانت تخجل من عِرقها. وقد انتبهت منذ نعومة أظفارها إلى أنّ المكان الوحيد للصينيين هو حيّهم، إذ كانوا مكروهين في بقية المدينة؛ فرياضة الصبية البيض المحبّبة هي رجم *السماويين* أو قصّ جدائلهم بعد تهشيمهم ضرباً بالعصيّ. وكانت لين مثل أمّها تعيشُ قدماً في الصين وقدماً في الولايات المتحدة، وكلاهما كانتا لا تتحدّثان إلاّ بالإنكليزيّة فقط، وتسرحّان شعرهما، وترتديان ملابسهما على الطريقة الأمريكية، وإن كانتا تستخدمان الدثار والبنطلون الحريريين في البيت عادةً. ما كان عند لين من أبيها قليل، باستثناء العظام الطويلة والعينين الشرقيّتين، وأقل منه ما كان فيها من أمّها؛ ولا أحد يعرف من أين انبثق جمالُها النادر. لم يسمحا لها أن تلعب مثل أخيها «محظوظ» في الشارع قط، لأنّ نساء وطفلات الأسر المتنفِّذة كنّ يعشن محبوسات تماماً. والمرّات النادرة التي سارت بها في الحي، كانت تمضي ممسكة بيد أبيها، مطرقة بنظرها في الأرض، كيلا تُثير الحشود التي تكاد تكون كلّها ذكوراً. كلاهما كان يلفت الانتباه: هي بجمالها الفائق، وهو لأنّه يرتدي الزيّ الأمريكي. كان تاو شيين قد تخلّى عن ضفيرة أبناء قومه، ويمضي بشعر قصير مردود إلى الخلف، وطقم أسود تام،

وقبّة مصفّحة، وقبّعة كأسية. بالمقابل كانت لين خارج تشايناتاون تتجول بحرّية تامة، مثل أيّة فتاة بيضاء. وقد تربّت في مدرسةٍ بروتستانتية، حيث تعلّمت مبادئ المسيحية، التي حين أضيفت إلى طقوس أبيها البوذية؛ انتهت إلى الاقتناع بأنّ المسيح هو تجسيد لبوذا. كانت تذهب للقيام بالمشتريات وحيدة، وإلى دروس البيانو، وزيارة صديقات المدرسة، وتجلس في المساء في قاعة شاي أمِّها، حيث تُحضّر واجباتها المدرسية وتتسلّى بقراءة الروايات الرومانسية التي تشتريها بعشرة سنتات، أو ترسلها إليها جدّتُها لأمّها روز من لندن. لم تجدِ جهود إليثا سومّرز نفعاً لجعلها تهتمّ بالمطبخ أو أيّ نشاط منزليّ آخر: فابنتها لا يبدو أنّها خُلِقَت للأعمال اليومية.

حين نضجت لين حافظت على وجهِ الملاكِ الغريب، وامتلأ جسدها بالانحناءات المربكة. كانت صورها قد طافت لسنواتٍ دون أن يترتّب عليها نتائج كبيرة، لكنّ كلّ شيء تبدّل حين ظهرت تكويناتها النهائية في الخامسة عشرة من عمرها، ووعت جاذبيّتها الماحقة للرجال. أمّها، المذعورة أمام نتائج تلك القوّة الرهيبة، حاولت أن تسيطر على اندفاع إغراء ابنتها، ملحفةً عليها بقواعد التواضع، ومعلّمة إيّاها السير مثل عسكريّ، دون أن تحرّك كتفيها أو وركيها، لكنّ كلّ شيء كان بالنتيجة غير مجدٍ: فالذكور من أيّ عمر، وعرقٍ، وشرط كانوا يحومون حولها كي يتفرّجوا عليها. وحين وعت ميّزات جمالها، كفّت لين عن صبّ لعناتها عليه، كما فعلت في صغرها، وقرّرت أنها ستصبح موديلاً للفنانين لبعض الوقت، ريثما يأتي أميرٌ على حصانٍ أبيض مُجنّح ليحملها إلى السعادة الزوجية. كان والداها قد تسامحا في طفولتها مع صورها كحورية أو في الأراجيح كنزوةٍ من نزوات البراءة، لكنّهما اعتبرا ظهور شكلها الأنثوي الجديد أمام الكاميرا يشكّل خطراً هائلاً. «هذا الوقوف ليس عملاً نزيهاً، بل مِهلكة خالصة» هكذا حسمت إليثا سومّرز بحزن، لأنّها انتبهت أنّها لن تستطيع إقناع ابنتها بالابتعاد عن تخيّلاتها، ولا حمايتها من مكيدة الجمال. طرحت مخاوفها على

تاو شيين، في لحظةٍ من لحظاتِ الكمال التي يرتاحان فيها بعد ممارسة الحبِّ، فوضّح لها أنّ لكلِّ امرئٍ *كرماهُ*، وليس من الممكن توجيه حياة الآخرين، بل تقويم مسار حياة المرء نفسه فقط؛ لكنّ إليثا لم تكن مُستعدّة للسماح للفاجعة بأن تأخذها على حين غرّة. لقد رافقت لين دائماً حين كانت تقف أمام الكاميرا، منتبهة إلى الحشمة ـ لا أريد ربلات ساق عارية بذريعة الفن ـ والآن والفتاة في التاسعة عشرة من عمرها صارت مستعدة لمضاعفة حذرها.

ـ هناك رسّام يجري وراء لين. يحاول أن تقف أمامه موديلاً من أجل لوحة سالومي ـ أعلنت ذات يومٍ لزوجها.

ـ لوحة لمن؟ ـ سأل تاو شيين وهو لا يكاد يرفع نظره عن الموسوعة الطبية.

ـ سالومي صاحبة الأوشحة السبعة يا تاو. اقرأ الكتاب المقدّس.

ـ طالما أنّها من الكتاب المقدّس فلا بدّ، كما أفترض، أن تكون جيّدة.

ـ هل تعرف كيف كانت الموضة أيّام القديس يوحنّا المعمدان؟ إذا غفلتُ سيرسمون ابنتك عاريةَ النهدين!

ـ لا تغفلي إذن ـ ابتسم تاو وهو يضمّ زوجته من خصرها ويجلسها فوق الكتاب الضخم الذي كان معه على ركبتيه، منبّهاً إيّاها ألاّ تستسلم للخوف الناتج عن حيل الخيال.

ـ آه يا تاو! ماذا سنفعل بلين؟

ـ لا شيء يا إليثا، ستتزوّج وتنجب لنا أحفاداً.

ـ ما زالت طفلة!

ـ لو أنّها في الصين لكانت تخطّت عمرَ الحصول على الخطيب.

ـ نحن في أمريكا ولن تتزوّج من صينيّ ـ حسمت .

ـ ولماذا؟ ألا يعجبك الصينيون؟ ـ سخر *الزمونغ* ـ يي.

ـ لا يوجد رجل مثيل لك في العالم يا تاو، لكنّني أعتقد أن لين ستتزوّج من أبيض.

ـ الأمريكيون لا يعرفون ممارسة الحبّ كما قيل لي.

ـ ربّما استطعت أن تُعلِّمهم ـ احمرّت إليثا خجلاً، وأنفها في رقبة زوجها.

جلست لين موديلاً للوحة سالومي بشبكٍ من الحرير بلون اللحم تحت الأوشحة، أمام نظرة أمّها التي لا تكلّ، لكنّ إليثا سومِّرز لم تستطع أن تبقى بالثبات ذاته حين عرضوا على ابنتها الشرف الهائل لأن تصبح موديلاً لتمثال الجمهوريّة، الذي سيرتفع وسط ساحةِ الوحدة. دامت الحملةُ لجمعِ الأرصدة شهوراً، وساهمَ الناسُ بما استطاعوا، طلاّب المدارس ببعض السنتات، الأرامل ببعض الدولارات والوجهاء من أمثال فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث بشيكاتٍ كبيرة. وكانت الصحف تنشر كلَّ يوم مجموع تبرعات اليوم السابق، حتى جمعوا المبلغ الكافي لتكليف نحّات مشهورٍ جيء به من أجل ذلك المشروع الطموح، خصّيصاً من فيلادِلفيا. تنافست أبرزُ أسرِ المدينة بإقامة الحفلات والرقصات لتفسح المجال أمام الفنّان كي يختار بناتها؛ وكان معروفاً أنَّ موديل تمثال الجمهورية يجب أن يكون رمزَ سان فرانسيسكو، وجميع الشابات كنّ يطمحن إلى مثل هذا التميّز. بحثَ النحّات، الرجل الحديث وصاحب الأفكار الجريئة، عن الفتاة المثالية خلال أسابيع، لكنّ ما من واحدة أرضته. أراد من أجل تمثيل الأمّة الأمريكية الصاعدة، المكوَّنة من مهاجرين شجعان جاؤوا من جهات الأرض الأربع، فتاةً من أعراق مختلطة، كما أعلن. ذُعِرَ مُمَوِّلو المشروع وسلطات المدينة؛ لم يكن باستطاعة البيض أن يتصوّروا أنّ أناساً من لونٍ آخر يمكن أن يكونوا بشراً كاملين، وما من أحدٍ أرادَ أن يسمع شيئاً عن خلاسيّة تترأس المدينة معتلية مسلّة ساحة الوحدة، مثلما يرغب ذلك الرجل. كانت كاليفورنيا تحتل مكانة الطليعة في شؤون الفن، حسب رأي الصحافة، لكن موضوع الخلاسية كان طلباً مُبالغاً فيه. وكان النحّات على وشك أن يُذعِنَ

للضغط ويختار فتاة متحدّرة من دنماركيين، حين دخل بالمصادفة إلى محل حلويات إليثا سومِّرز مستعدّاً كي يواسي نفسه بإصبعٍ من الشوكولاتة ورأى لين. إنها المرأة التي طالما بحث عنها للتمثال، طويلة، حسنة التكوين، تامّة العظام، ولم تكن تملك كبرياءَ إمبراطورةٍ ووجهاً كلاسيكيّ التقاسيم وحسب، بل تملك أيضاً البصمة الغريبة التي يبحث عنها. كانت تنطوي على شيء يتخطّى الانسجام، شيءٍ فريدٍ، مزيج من الشرق والغرب، من الشهوانية والبراءة، من القوّة والرقّة، وقد سحرته تماماً. حين أبلغَ الأمّ بأنّه اختارَ ابنتها نموذجاً، مقتنعاً بأنّه كان يقدّم شرفاً عظيماً لتلك الأسرة المتواضعة، بائعة الحلوى، اصطدم برفضٍ قاطِع؛ فقد سئمت إليثا سومّرز من إضاعة الوقت في مراقبة لين في مختبرات المصوّرين، الذين اقتصرت مهمّتهم على مجرّد أن يكبسوا زرّاً بإصبعهم . وفكرة القيام بذلك أمام ذلك الرجل الصغير، الذي يخطّط لتمثال من البرونز بارتفاع يبلغُ عدّة أمتار بدت لها أمراً خانقاً، لكنّ لين كانت فخورة جدّاً أمام أمل أن تُصبِحَ «الجمهورية»، بحيثُ لم تجرؤ على الرفض. وجد النحّات نفسه متحرّجاً بإقناع الأم بأنّ دثاراً قصيراً هو زيٌّ مناسِبٌ في تلك الحالة، لأنّها لم ترى علاقة بين الجمهورية الأمريكية الشمالية والزيّ الإغريقي، لكنّهما اتفقا أخيراً على أن تقف لين عاريةَ الساقين والذراعين، مستورةَ النهدين.

كانت لين تعيش غريبة عن انشغالِ أمّها بالعناية بفضيلتها، ضائعة في خيالاتها الرومانسية. وباستثناء مظهر جسدها المُقلِق؛ كانت شابّة عادية وطبيعية، تنقل أبياتاً من الشعر في دفتر ورديّ الصفحات، وتجمع أشكالاً مُصَغَّرة من الخزف. لم يكن وهنُها أناقةً بل كسلاً، ولا حزنها غموضاً بل خَواءً. «اتركوها بسلام، فما دمتُ حيّاً لن ينقص لين شيئاً» هكذا كان يَعِدُ «محظوظ» أحياناً كثيرةً، لأنّه الوحيد الذي انتبه حقيقةً إلى مدى بلاهة أخته.

كان «محظوظ»، الذي يكبر لين بعدّة سنواتٍ، صينيّاً خالصاً. لم يكن يرتدي إلا درّاعة وبنطلوناً مرخيّاً، وحزاماً على خصره،

وشبشباً خشبيّاً، لكنّه يعتمر قبّعةَ راعي بقرٍ دائماً، باستثناء الحالات التي كان عليه أن يقوم ببعض الإجراءات القانونية، أو التقاط صورة فوتوغرافية. لم يكن فيه شيء من نبل أبيه المتميّز ورقّة أمّه أو جمال أخته. كان ضئيلاً، قصير الساقين، مربّع الرأس، وزيتونيّ البشرة، لكنّه جذّابٌ بابتسامته الساحرة وتفاؤله المعدي، الناتج عن يقينه بأنّه موسومٌ بحسن الحظّ. كان يُفكّر بأنه ما من شيء سيّئ يمكن أن يحدث له، فسعادته وحظّه مضمونان بالولادة. اكتشف هذه النعمة في التاسعة من عمره، بينما كان يلعب *الفان ـ تان* في الشارع مع صِبْيَةٍ آخرين، ففي ذلك اليوم وصل إلى البيت مُعلِناً أنّه بدءاً من تلك اللحظة سيكون اسمه «محظوظ» ـ بدلاً من إبانيزر ـ ولم يعد يردّ على من يناديه باسم آخر. لقد رافقه الحظ السعيد إلى كلّ مكان، ربح في كلّ ألعاب القمار الموجودة، ورغم أنّه كان مشاغباً وجريئاً، إلاّ أنّه لم يقع في مشاكل مع *التونغات* أو سلطات البيض. وحتى الشرطة الإيرلنديّة كانت تستسلم لملاحته، فبينما كان رفاقه السيّئون يتلقون العصيّ، يخرج هو من الورطات بنكتة أو حيلة من الحيل السحريّة الكثيرة التي كان من الممكن أن يقوم بها بيدي البلهوان العجيب. لم يكن تاو شيين يُذعن لخفّة أفكار ابنه الوحيد، ويلعنُ نجم السعد الذي يسمح له بتفادي بذل الجهد مثل البشر العاديين والطبيعيين. لم يكن ما يرغب له به سعادة بل بصيرة. كان يضايقه أن يراه يمرّ في هذا العالم مثل عصفور سعيد، لأنّ كَرْمَته سوف تخرب بهذه الطريقة. فهو يعتقد أن الروحَ تتقدّمُ باتجاه السماء بالشفقةِ والمعاناة، متغلبةً على العوائق بنبلٍ وكرم، لكنّ إذا كان طريق «محظوظ» سهلاً دائماً، فكيف سيتخطّى نفسه؟ كان تاو شيين يخاف عليه من أن يتقمّص في المستقبل في دُوَيبةً، ويتمنّى لابنه البكر، الذي عليه أن يُساعِده في شيخوخته ويُكرّم ذكراه بعد موته، أن يتابِع تقليد الأسرة المتمثل بعلاج الناس، بل ويحلمُ بأن يراه وقد صار أوّلَ طبيب صينيّ ـ أمريكي يحمل شهادة؛ لكنَّ «محظوظ» كان يشعر بالرعب من شراب المغليّات الطبيّة سيّئة الرائحة، ومن إبر الوخز، وما من شيءٍ أثار اشمئزازه مثل أمراض الآخرين، ولم يفهم تمتّع والده حيال مثانة ملتهبة أو وجهٍ مبقع بالبثور. وكان عليه، حتى إتمامه السادسة

عشرة وانطلاقه إلى الشارع، أن يُساعِد تاو شيين في عيادته، الذي راح يردّد عليه أسماء الأدوية وتطبيقاتها، ويُحاول أن يُعلّمه فن أخذ النبض الصعب، وقياس الطاقة، وتحديد المزاج، والمهارات التي كانت تدخل من إحدى أذني الشاب لتخرج من الأخرى، لكنّها على الأقلّ لا تُضنيه، مثل نصوص الطب الغربية العلمية التي يُثابر والده على دراستها. كانت تُرعبه صورُ الجسم التوضيحية دون جلد، بعضلاته وأعصابه وعظامه مكشوفة في العراء، لكن بالسروال الداخلي، وكذلك العملياتُ الجراحية الموصوفة بأكثر تفاصيلها قسوةً. لم تنقصه المبررات كي يبتعد عن العيادة، لكنّه كان يبدو دائماً مستعدّاً حين يتعلّق الأمر بإنقاذ إحدى فتيات الـ *سينغ ـ سونغ*، اللواتي اعتاد والده أن يحملهنّ إلى البيت. كان هذا النشاط السرّيّ والخطيرُ على مقاسه. فما من أحد أفضل منه لنقل الفتيات الصغيرات عديماتِ النَّفَس على مرأى من *التونغات*، وما من أحدٍ له مهارته في إنقاذهن من الوحل، ما إن يستعدن صحّتهن قليلاً، وما من عبقرّي مثله لجعلهنَّ يختفين إلى الأبد في جهات الحرّية الأربع. لم يكن يفعل ذلك مهزوماً بالشفقة مثل تاو شيين، بل مدفوعاً بحماس مقارعة الخطر، وإثبات حظّه الحسن.

كانت لين سومّرز قد رفضت قبل أن تُدرك التاسعة عشر عدداً من طالبي ودّها، واعتادت على إطراء الذكور، وصارت تتلقاهُ بأنفة مَلِكَة، لكن ما من مُعجَبٍ كانت تنطبق صورتُهُ على صورة أميرها الرومانسيّ، وما من أحدٍ منهم قال الكلمات التي تكتبها جدّتُها روز سومّرز في رواياتها، فحكمت على الجميع بأنّهم عاديين، غير جديرين بها. وظنت أنّها عثرت على قدرها الأعلى الذي كان لها الحقُّ به عندما تعرَّفت على الرجل الوحيد الذي لم ينظر إليها مرّتين، ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث. فقد رأته في بعض المناسبات، من بعيدٍ في الشارع، أو في العربة مع باولينا دِل بالْيِه، لكنّهما لم يتبادلا كلمة واحدة، فهو أكبر منها سنّاً بكثير، ويعيش في دوائر ليس للين من مدخل إليها، ولولا موضوع تمثال الجمهورية ما التقيا قط.

بذريعة مراجعة تكاليف المشروع كان السياسيون والوجهاء الذين ساهموا في تمويل التمثال يتواعدون في مشغل النحات. وكان الفنان ممن يحبّون المجد والحياة الطيّبة؛ فبينما هو يعملُ غارقاً ظاهريّاً في أساس القالب الذي سيصبّ فيه البرونزَ، كان يتمتّع برفقة أولئك الذكور الأقوياء، وزجاجات الشمبانيا، والمحار الطازج، وزيز البحر الذي يأتي به الزائرون. وكانت لين سومّرز تتوازن فوق المنصّة المضاءة بكوةٍ في السطح حيث يتسرّب النور، على رؤوس أصابعها، وذراعاها إلى الأعلى في وضعيّة من المحال المحافظة عليها أكثر من عدّة دقائق، تحمل إكليلَ غارٍ في يدٍ، ورقّاً كُتِب عليه الدستور الأمريكي في اليد الأخرى، مرتديةً دثاراً خفيفاً مموجاً يتدلّى من كتفها وحتى ركبتيها، يكشف عن جسدها أكثر مما يستره. لقد كانت سان فرانسيسكو سوقاً جيّداً للعري الأنثوي؛ فكلّ البارات تعرضُ لوحاتٍ لحوريات ممتلئات، وصورَ عاهراتٍ مؤخّراتهن مكشوفة، وزخارفَ جصّيّة لحوريات ماء يلاحقهن الساتيرات الذين لا يكلّون؛ إنّ أيّ نموذج عارٍ تماماً ما كان ليثير من الفضولِ ما تُثيره هذه الفتاة التي تأبى أن تخلعَ ثيابَها، ولا تنفصل عن عيني أمّها اليقظة. كانت إليثا سومّرز، التي ترتدي ملابس داكنة، تجلس متخشّبةً على كرسيٍّ بجانب المنصّة حيث تقِف ابنتُها، تُراقبها دون أن تقبل المحار أو الشمبانيا التي يُحاولون إلهاءها بها. فهؤلاء العجائز المنحوسين يذهبون إلى هناك مدفوعين بالشبق، وليس بحبّ الفن، كان هذا واضحاً وضوحَ الماء. لم يكن لها من سلطة كي تمنع حضورهم، لكنّها على الأقل تستطيع أن تضمن قدر الإمكان ألاّ تقبل ابنتُها الدعوات، وألاّ تضحك للمزاح، أو تردَّ على الأسئلة الطائشة. «ما من شيء مجّاني في هذا العالم. ستدفعين ثمن هذه الخرداوات غالياً جدّاً»، هكذا كانت تُحذِّر الفتاةَ حين تغلي حنقاً لأنّها تجد نفسها مُجبرة على رفض هديّة. كان الوقوف من أجل التمثال أبديّاً ومُضجراً، يجعلُ ساقي لين تنملان وتتخدّران من البرد. وكانت تلك الأيّام الأولى من كانون الثاني والمدافئ في الزوايا لا تتمكّن من تدفئة ذلك الحوش ذي السقوف العالية، الذي تتقاطع فيه تيارات الهواء. كان النحّات يعمل ببطء

مستفزّ للأعصاب وهو يرتدي معطفاً، يُخرّبُ اليومَ ما صنعه بالأمس، كما لو أنّه لم يكوّن فكرة تامّة على الرغم من مئات مسودّات تمثال الجمهورية التي ألصقها على الجدران.

وذات ثلاثاء مشؤوم ظهر فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث مع ابنه ماتيّاس. فقد سمع بالنموذج الغريب وفكّر بالتعرف عليها قبل أن يرفعوا النصب في الساحة، ويظهرَ اسمُها في الصحف، وتتحوّل الفتاة إلى حصن منيع، في حال أنّه تمّ تدشين النصب افتراضاً. فحسب السرعة التي يعملون بها كان من الممكن تماماً أن يكسب معارضو المشروع المعركة قبل سكبه بالبرونز، ويصير كلّ شيء عدماً؛ فقد كان غير الراضين عن فكرة أن تكون رمز الجمهورية ليست أنكلوسكسونية كثيرين. وكان قلبُ الوغد فِليثيانو ما يزال ينتفض لرائحة المغامرة، لذلك ذهب إلى هناك. كان يتجاوز الستين من عمره، لكنّ كون الموديل لم تُكمِل العشرين بعد لم يبدُ له عائقاً عصيّاً؛ كان مقتنعاً أنّ ما لا يمكن للمال أن يشتريه قليل جدّاً. كفته لحظة لكيّ يُقدّر الموقف حين رأى لين فوق المنصّة، وهي في ذلك السن الشاب والهشاشة، ترتعش تحت دثارها غير اللائق في محتَرَف مليء بالذكور المستعدين لالتهامها؛ لكن لم تكن الشفقة على الفتاة أو الخوف من المنافسة بين أكلة لحوم البشر هو الذي أوقف اندفاعه الأول لعِشْقها، بل إليثا سومّرز. فقد عرفها على الفور، رغم أنّه لم يرها إلاّ مرّات قليلة جدّاً. ولم يشك لحظة بأنّ الموديل الذي سمع عنه كثيراً من التعليقات هو ابنة صديقة زوجته.

لم تنتبه لين سومّرز إلى حضور ماتيّاس إلا بعد نصف ساعة، حين أعلن النحات عن انتهاء الجلسة، واستطاعت أن تتخلّص من إكليل الغار والرقّ، وتهبط عن المنصّة. نشرت أمّها معطفاً على كتفيها وصبّت لها فنجاناً من الشوكولاتة، وحملتها إلى خلف الحاجز، حيث عليها أن ترتدي ملابسها. كان ماتيّاس بجانب النافذة ساهياً يتأمّل الشارع؛ وعيناه الوحيدتان اللتان لم تكونا مغروزتين فيها في تلك اللحظة. وقد لاحظت لين على الفور جمالَ ذلك الرجل الذكوريَّ، شبابه وأصله الجيّد، ثيابه الأنيقة، هيئته

الشموخ، خصلة شعره الكستنائيّة الساقطة بفوضى مدروسة على جبينه، ويديه الكاملتين بخاتميهما الذهبيين في الخنصرين. تظاهرت وقد أخذتها الدهشة حين رأت تجاهله لها، بالتعثر كي تلفت انتباهه. عدةّ أيدٍ هُرِعَت لإسنادها، إلاّ يدا المتأنّق الواقف عند النافذة، الذي لم يكد يكنسها بنظره، وبقي في لامبالاة تامّة، كما لو أنها جزء من الأثاث. عندئذٍ قرّرت لين، بينما خيالها يجمح، دون أن يكون عندها أيّ حجّة تتمسّك بها، بأنَّ ذلك الرجل هو الحبيب الوسيم الذي بشّرتها به روايات الحبّ خلال أعوام: لقد عثرت أخيراً على نصيبها. وبينما هي ترتدي ملابسها خلف الحاجز، كانت حلمتاها قاسيتين مثل حصاتين.

لم تكن لامبالاة ماتيّاس مصطنعة، الحقيقة أنّه لم يتوقّف عند الشابة، فقد كان هناك لأسباب بعيدة جدّاً عن الشهوانية: إذ كان عليه أن يتكلّم عن المال مع والده، ولم يجد فرصة أخرى لذلك. كان غارقاً إلى عنقه، ويحتاج على الفور إلى شيكٍ يُغطّي به ديون قماره في إحدى مقامِر تشايناتاون. كان والده قد حذّره بأنّه لن يستمرّ في تمويل تلك التسليات، ولولا أنّ في الأمر حياة أو موت، كما أعلمه بوضوح دائنوه، لتدبّر أمره وراح ينتزع الضروريّ منها من أمّه. ومع ذلك لم يكن *السماويون* في تلك المناسبة مستعدّين للانتظار، وافترض ماتيّاس بشكل مصيب أن زيارة النحات ستجعل مزاج أبيه يروقُ، وستسهل حصوله على ما يريده منه. وحصل ذلك بعد عدّة أيّام، خلال إحدى النزهات التي قام بها مع أصدقائه البوهيميين، حين علم أنّه كان في حضرة لين سومّرز، أكثر الفتيات المطلوبات في تلك اللحظة. وقد اضطّر أن يجهد نفسه كي يتذكّرها، ووصل به الأمر حدّ أنّه تساءل ما إذا كان سيعرفها إذا رآها في الشارع. وحين ظهرت المراهنات على من سيكون الأوّل في إغوائها سجّل نفسه لأنّه كسول، ثمّ وبغروره المعتاد أعلن أنّه سيقوم بذلك على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى، كما قال، أن يتمكّن من جعلها تذهب إلى غرفة العازب وحيدةً ليقدّمها إلى رفاقه، والثانية أن يقنعها بالوقوف عارية أمامهم، والثالثة أن يُمارِس معها الحبّ، كلّ ذلك

خلال مهلة شهر واحد. وحين دعا ابن خاله سِبِرو دِل بالْيِه ليتعرف مساء الأربعاء على أحلى امرأة في سان فرانسيسكو، كان ينفّذ المرحلة الأولى من المراهنة. لم يلقَ صعوبةً في دعوة لين بإشارة ذكية عبر نافذة قاعة شاي أمّها، وانتظارِها في الزاوية حين خرجت بذريعة ما مبتدعة، والسير معها في الشارع مسافةَ كوادرتين، ومغازلتها بعدّة عباراتٍ كانت ستحدث بهجة عند أيّ امرأة أكبر تجربة منها، ثم التواعد معها في مُحتَرَفه، منبهاً إيّاها كي تأتي وحدها. وقد شعر بالخيبة لأنّه افترض أنّ التحديّ سيكون أكثر أهميّة. ولم يضطر قبل أربعاء الموعد حتى لأن يُلَمِّعَ نفسه كثيراً كي يغويها، إذ يكفي الفتاة، التي كانت ترتعِدُ أمامه جاهزة للحبِّ، بعض النظرات الذابلة، احتكاك شفتيه بخدّها، بعض الهمسات والجمل المتحذلقة في أذنها كي ينزع منها أسلحتها. كانت تلك الرغبة الأنثوية بالاستسلام والمعاناة بالنسبة إلى ماتيّاس مشجية، وهو بالضبط ما يمقته عند النساء، لذلك كان ينسجم تماماً مع أماندا لويل التي لها الموقف الصفيق ذاته من المشاعر والتبجيلي تجاه اللذة. لين، المسحورة مثل فأرٍ أمام أفعى كوبرا، وجدت أخيراً من يكون هدفاً لفن بطاقات الحب، والصور المطبوعة للفتيات الحزينات، والمغازلين المتأنقين المزدهرة آنذاك. ولم تكن تعرف أنّ ماتيّاس يُشاطر أصدقاءه تلك البطاقات الرومانسية. حين أراد ماتيّاس أن يُريها لسِبِرو دِل باليه رفض هذا ذلك. وكان ما يزال يجهلُ أنّ مرسلتها هي لين سومّرز، لكنّ فكرة السخرية من عشق شابّة ساذجة كانت تُثير مقته. «يبدو أنّك ما تزالُ فارساً يا ابن الخال، لكن لا تهتم، فهذا يشفى بسهولة مثل الشفاءِ من العذرية» علّق ماتيّاس.

حضر سِبِرو دِل بالْيِه دعوةَ ابن خاله في ذلك الأربعاء الجدير بالذكر للتعرف على أحلى امرأة في سان فرانسيسكو، كما أعلن له، فوجد أنّه لم يكن الوحيد المدعوّ إلى تلك المناسبة؛ فقد كان هناك ستّة بوهيميين على الأقل، والمرأة نفسها ذات الشعر الأحمر التي رآها لثوانٍ قبل سنتين، حين ذهب مع وليامز لإنقاذ ماتيّاس من مدخن الأفيون، وهم يشربون ويدخنون في غرفة العازب. كان

يعرف بمن يتعلّق الأمر، لأنّ ابن خاله كلّمه عنها، واسمها يدورُ في عالم الملاهي العابثة والحياة الليلية. إنّها أماندا لويل ، صديقة ماتيّاس العظيمة، التي اعتاد أن يسخر معها من الفضيحة التي أثارتها أيّام كانت عشيقة فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث. وكان ماتيّاس قد وعدها بأن يهديها بعد موت والديه سرير نبتون الذي أوصت باولينا دِل بالْيِه عليه إلى فلورنسا نِكايةً به. لم يبقَ عند لويل من ميول البغاء إلا القليل، فقد اكتشفت في سنّ نضجها كيف أنّ معظم الرجال عتاة ومُملّون، لكنّها كانت على ألفةٍ مع ماتيّاس على الرغم من اختلافاتهما الأساسية. ففي ذلك الأربعاء ، بقيت منعزلةً، مستلقية على أريكة تشربُ الشمبانيا، واعية أنّها لمرّة واحدة ليست مركز الانتباه. وقد دُعيت كيلا تجِد لين سومّرز نفسها وحيدةً بين الرجال في أوّل موعِدٍ لها، فتتراجع مذعورة.

بعد دقائق قليلة قرعوا البابَ وظهرت موديل الجمهورية الشهيرة متدثرةً بدثار صوفي ثقيل وقلنسوة على رأسها. وحين خلعت المعطف رأوا وجهاً عذرياً متوّجاً بشعر أسودَ مفروقاً من وسطه، ومسرّحاً إلى الخلف في كعكة بسيطة. شعرَ سِبِرو دِل بالْيِه بقلبه ينطّ، وبكامل دمه يتزاحم في رأسه، مدوّياً في صدغيه مثل طبلِ فرقة عسكرية. لم يتصوّر قط أنّ ضحيّة مراهنة ابن عمّته هي لين سومّرز. لم يستطع أن يقول كلمة واحدة، ولا حتى تحيتها كما فعل الآخرون، بل تراجع إلى زاوية وبقي هناك طوال الساعة التي استغرقتها زيارة الشابّة، نظرته عالقة بها، وقد شلّه الضيق. لم يشكّ بما ستؤول إليه مراهنة أولئك الرجال. رأى لين سومّرز مثل خروف على حجر التضحية، جاهلة مصيرها. فصعدت موجة من الكراهية ضدّ ماتيّاس وأنصاره بدءاً من قدميه، مختلطةً بحنق أخرس على لين. لم يستطع أن يفهم كيف أنّ الفتاة لم تنتبه إلى ما يجري، كيف لا ترى مكيدة تلك الإطراءات مزدوجةِ المعنى، من كأس الشمبانيا الذي يملؤونه لها مرّة بعد أخرى، إلى الوردة الحمراء التامّة التي وضعها لها ماتيّاس في شعرها، فكلّ شيء متوقّع وسوقيّ إلى حدّ أنّه يُسبب

الغثيان. «لا بدّ أنّها غبيّة لا دواء لها»، فكّر مشمئزاً منها كما من البقيّة، لكنّه مهزوم من قِبل حبٍّ قاهِر، انتظر سنوات فرصةً كي يبزغ، والآن يتفجّرُ صاعقاً إيّاه.

ـ هل بك شيء يا ابن الخال؟ ـ سأل ماتيّاس ساخراً، ومقدّماً له كأساً.

لم يستطع الردَّ، واضطرَّ أن يشيح بوجهه كي يُخفي نيّته القاتلة، لكنّ الآخرَ تكهّن بمشاعره، واستعدّ كي يمضي بالمزحة بعيداً. عندما أعلنت لين سومّرز أنَّ عليها أن تذهب، بعد أن وعدت بالعودةِ في الأسبوع القادم لتقف أمام كاميرات هؤلاء «الفنّانين». طلب ماتيّاس من ابن خاله أن يُرافِقها. وهكذا وجد سِبِرو نفسه وحيداً مع المرأة التي أبقت على حبّ نيبيا الملحاح على الحدّ. سار مع لين مسافة كتل الأبنية القليلة التي تفصل محترف ماتيّاس عن قاعة شاي إليثا سومّرز، مخبولاً إلى حدّ أنّه لم يعرف كيف يبدأ معها حديثاً مبتذلاً. كان الوقت قد تأخر كي يكشف لها عن المراهنة، فهو يعرف أنّ لين عاشقة لماتيّاس بالانبهار الرهيب ذاته الذي يعشقها هو به. لن تصدّقه، وستشعر بالإهانة حتى ولو شرح لها أنّها لا تكاد تكون بالنسبة إلى ماتيّاس أكثر من دمية، وربّما ذهبت إلى المذبح مباشرة وقد عماها الحبّ. كَسَرَتْ الصمتَ المزعج، لتسأله عمّا إذا كان هو ابن الخال التشيلي الذي ذكره ماتيّاس. فأدرك سِبِرو تماماً أنّ الشابّة لا تتذكّر أدنى شيء عن اللقاء الأوّل الذي تمّ قبل سنوات، حين كانت تلصق صوراً في الألبوم على ضوء بلور النافذة الملوّن، ولا يخطر ببالها أنّه كان يُحبّها منذ ذلك الوقت بعناد الحبّ الأوّل، كما أنّها لم تنتبه إلى أنّه يحوم حول محل الحلويات، ويعبر الشارع باستمرار. ببساطة لم تُسجّله عيناها. وحين ودّعها مرّر لها بطاقته، وانحنى بحركة من سيُقَبّل يدَها، وتمتم راجياً إيّاها ألاّ تتردَّدَ بطلبه إذا ما احتاجت إليه ذات مرّة. منذ ذلك اليوم تحاشى ماتيّاس، وغاصَ في الدراسة والعمل كي يُبعد عن ذهنه لين سومّرز، والمراهنة المشينة. وحين دعاه ابن عمّته يوم الأربعاء التالي إلى

الجلسة الثانية، التي كان متوقّعاً أن تتعرّى فيها الفتاةُ شَتَمَهُ. بقي عدّة أسابيع لا يستطيع أن يكتب سطراً واحداً لنيبيا، ولا أن يقرأ رسائلها التي احتفظ بها غير مفتوحة، يخنقه الشعور بالذنب. كان يشعر بنفسه خسيساً، كما لو أنّه شارك في صلفِ تدنيس لين سومّرز.

كسب ماتيّاس رودريغث دِ سانتا كروث الرهانَ دون جهد، لكنّ كَلْبِيَّتَه فشلت أثناء ذلك، ووجد نفسه عالقاً في أكثر ما كان يخافه في هذا العالم: ورطة عاطفية. لم يصل به الأمر إلى أنّه عشق لين سومّرز الجميلة، لكنّ الحب غير المشروط، والبراءة التي استسلمت بها له، تمكّنا من إثارة مشاعره. فقد وضعت الفتاة نفسها بين يديه بكلّ ثقة، مستعدة أن تفعل ما يريده، دون أن تحكم على غاياته، أو تحسب حِساباً للنتائج. قدّر ماتيّاس السلطة المطلقة التي كانت له عليها حين رآها عارية في علّيته، محمرةً من الخجل، تُغطّي عانتها ونهديها بذراعيها، وسط دائرةِ رفاقِ السوء الذين يتظاهرون بأنّهم يُصوِّرونها، دون أن يُخفوا هياج الكلاب الشبقة الذي تُثيره عندهم تلك اللعبة الوحشيّة. لم يكن لجسد لين شكل ساعة الرمل الدراج في ذلك الوقت، لا وركان ضخمان ولا ثديان هائلان يفصل بينهما خصر مستحيل، كانت رقيقة متعرِّجةً، طويلةَ الساقين، مستديرةَ النهدين داكنة الحلمتين، ولبشرتها لون فاكهة الصيف، وشالٌ من الشعرِ الأسودِ السابلِ يصل إلى منتصف ظهرها. أُعجب بها ماتيّاس مثل الكثير من الأشياء الفنيّة التي كان يجمعها، بدت له لذيذة، لكنّه تأكّد راضياً أنّها لا تحدث عنده أيّة جاذبية. أمرها، دون أن يُفكّر بها ولمجرّد أن يتبجّح أمام أصدقائه ويمارس وحشيته، أن تُبعِد ذراعيها. نظرت لين إليه لثوانٍ، أطاعته بعدها ببطء، بينما راحت دموعُها تجري على خدّيها من الخجل. أمام هذا النحيب غير المتوقّع ساد صمت بارد في الغرفة، رفع الرجال نظرهم، انتظروا زمناً بدا طويلاً جدّاً، والكاميرات في أيديهم، لا يدرون ما يفعلون. عندئذ أخذ ماتيّاس الذي خجل لأوّل مرّة في حياته معطفاً وغطّى به

لين، لاقّاً إيّاها بين ذراعيه. «اذهبوا! انتهى هذا» أمر ضيوفَهُ الذين راحوا ينسحبون مرتبكين الواحدُ بعد الآخر.

حين أصبحا وحيدين أجلسها ماتيّاس على ركبتيه وراح يهدهدها كما يهدهد طفلاً، طالباً العفو في تفكيره، دون أن يقدر على صياغته بالكلمات، بينما تابعت الفتاةُ بكاءها الأخرس. أخيراً قادها بنعومة خلف الحاجز، إلى السرير وضاجعها وهو يُعانقها مثل أخ، داعب رأسها وقبّلها على جبينها، وقد أربكه شعور مجهول جبّار لا يعرف ماذا يُسمّيه. لم يكن يرغب بها، إنما أراد أن يحميها، أن يُعيد إليها براءتها غير ممسوسة، لكنّ نعومة بشرة لين المحالة، شعرها الحيّ الذي لفّه، ورائحة تفّاحه هزمته. الاستسلام اللامحدود لذلك الجسد البالغ الذي راح يتفتّح من ملامسة يديه، استطاع أن يُدهِشه، فوجد نفسه يسبرها دون أن يدري كيف، يُقبّلها بلهفة لم تُحدثها عنده امرأة قط ، يدخل لسانه في فمها، في أذنيها، في كلّ مكان، يهصرها، يلجُ فيها في دُوارٍ من الوله الجموح، ممتطياً إيّاها بلا رحمة، أعمى، جامحاً حتى انفجر في داخلها في رعشةٍ ماحقة. وخلال لحظة قصيرة جدّاً وجدا نفسيهما في بُعدٍ آخر، بلا دفاع، عاريين جسداً وروحاً. استطاع ماتيّاس أن يملك وحي ودٍّ تفاداه حتى تلك اللحظة، دون أن يدرى حتى أنّه موجود، اجتاز حدوداً أخرى، ووجد نفسه على الجانب الآخر، مجرّداً من الإرادة. كان قد ملك عشّاقاً ـ نساء ورجالاً ـ أكثر مما من المناسب أن يتذكّر، لكنّه لم يفقد قط سيطرته على نفسه، سخريته، لامبالاته، وفكرةَ فردانيّته المعصومة، بتلك الطريقة، ليذوب ببساطة مع كائن بشريّ آخر. بطريقة ما هو أيضاً فَقَدَ عذريته في ذلك العناق. لم تكد الرحلةُ تدوم جزءاً من ألف من الزمن، لكنّها كانت كافيةً كي تُرعبه، فعاد إلى جسده منهكاً، وتحصّن على الفور في درع سخريته المعتادة. حين فتحت لين عينيها كان قد صار شخصاً آخرَ، ولم يعد هو نفسه الذي مارست معه الحبّ، بل السابق، لكنّها لم تكن تملك التجربة كي تعرف ذلك. استسلمت متألمةً ودامية وسعيدةً لسراب حبّ وهميّ، بينما بقي

ماتيّاس يُعانقها وروحه تُحلِّقُ بعيداً. بقيا على هذا الحال حتى غادر النورُ النافذةَ تماماً، وأدركت أنَّ عليها أن تعودَ إلى حيث أمّها. ساعدها ماتيّاس على ارتداء ملابسها، ورافقها إلى مقربة من قاعة الشاي. «انتظرني، غداً سأتي في الساعة ذاتها» همست حين ودّعته.

لم يعلم سِبِرو بشيء مما حدث في ذلك اليوم، ولا بالأحداث التي تلته، إلا بعد ثلاثة أشهر. ففي نيسان من عام 1879 أعلنت تشيلي الحربَ على جاريها، بيرو وبوليفيا لمسألة تتعلّق بالأرض وملح البارود والكبرياء. انفجرت حربُ الباسيفيك. حين وصل الخبرُ إلى سان فرانسيسكو، مَثَل سِبِرو أمام عمّته وزوجها مُعلناً أنّه سيذهب للقتال.

ـ ألم نتفق على أنّك لن تعود لتطأ ثكنة أبداً ـ ذكّرته عمّته باولينا.

ـ هذا مختلف، وطني في خطر.

ـ أنتَ مدني.

ـ أنا رقيب احتياط ـ وضّح.

ـ ستكون الحرب قد انتهت قبل أن تصل إلى تشيلي. لننتظر ماذا ستقول الصحافةُ وما ستراه الأسرة. لا تستعجل ـ نصحته عمّتُه.

ـ إنّه واجبي ـ ردّ سِبِرو، وهو يُفكِّر في جدِّه، البطريرك أغوستين دِل بالْيِه، الذي مات مؤخّراً وقد صار بحجم الشمبانزي، لكنّه حافظ على مزاجه السيّئ دون مسّ.

ـ واجبكَ هنا بجانبي. الحرب جيّدة بالنسبة للتجارة. هذه هي لحظة المضاربة بالسكّر ـ ردّت باولينا.

ـ السكّر؟

ـ ما من بلدٍ من هذه البلدان الثلاثة يُنتِجُه، وفي هذه الأوقات يستهلك الناسُ المزيد من الحلويات ـ أكّدت باولينا.

ـ وما أدراكِ أنتِ؟

ـ من تجربتي الخاصّة يا ولد.

مضى سِبِرو ليحزم حقائبه، لكنّه لم يذهب في السفينة التي انطلقت نحو الجنوب بعد أيّام كما كان قد خطّطَ، بل في أواخر تشرين الأوّل. في تلك الليلة أعْلنت له عمّته أنّ عليهم أن يستقبلوا زيارة غريبة، وتأمل أن يكون موجوداً، لأنّ زوجها مسافر، وهذه المسألة قد تحتاج لنصائح محام جيّدة. في السابعة مساءً. أدخلَ وليامز بالازدراء الذي يبديه حينَ يجدُ نفسه مضطرّاً لأن يَخدمَ أناساً أدنى منه اجتماعيّاً، صينيّاً طويلاً، رماديّ الشعرِ، يرتدي الأسودَ الصارم، ومعه امرأة صغيرة ذات مظهر شبابي تافه، لكنّها بكبرياء وليامز نفسه. وجد تاو شيين وإليثا سومّرز نفسيهما في قاعة الضواري، كما كانوا يسمّونها، مُحاطين بالأسود، والفيلة وحيوانات أفريقية أخرى راحت تراقبهما من إطاراتها الذهبية على الجدران. كانت باولينا ترى إليثا دائماً في محل الحلويات، لكنّهما لم تلتقيا قط في أي مكانٍ آخر، فهما تنتميان إلى عالمين منفصلين. كما أنّها لم تكن تعرف ذلك *السماوي*، الذي لو حكمنا عليه من الطريقة التي يمسك بها من ذراعها، يجب أن يكون زوجها أو عشيقها. وجدت نفسها مثار سخرية في قصرها ذي الخمس والأربعين غرفة، مرتديةً الأطلس الأسود ومغطاة بالمجوهرات، أمام هذين الزوجين المتواضعين اللذين حيّياها ببساطة، محافظين على المسافة. وانتبهت إلى أنّ ابنها ماتيّاس يستقبلهما مرتبكاً حاني الرأس، دون أن يمدّ يده إليهما، وينفصل عن المجموعة خلف مكتبٍ من خشبِ الجَكَرَندا، مشغولاً ظاهريّاً بتنظيف غليونه. تكهّن سِبِرو دِل باليِه من جهته بسبب وجود والدي لين سومّرز في البيت، وأراد أن يكون على بُعد ألف فرسخ من هناك، أما باولينا التي أثارا فضولها فشنّفت مجساتها ولم تُضِع الوقت بتقديم شيء يشربانه، بل أشارت إلى وليامز بالانسحاب وإغلاق الأبواب. «ماذا أستطيع أن أفعل لكما؟» سألت. عندئذ شرع تاو شيين يوضح دون أن يتبدّل أنّ ابنته لين حامل، وأنّ مُسبّب الإهانة هو ماتيّاس، ويأمل القيام بالإصلاح

الوحيد الممكن. لأوّل مرّة فقدت ربّة العمل دِل بالْيِه القدرة على الكلام. بقيت جالسة، تبربط مثل حوت جانحٍ، حتى عندما خرج صوتها أخيراً كان من أجل أن تبثّ نعيقاً.

ـ ليس لي أيّ علاقة بهؤلاء الناس يا أمي. لا أعرفهم ولا أعلم عمّا يتحدّثون ـ قال ماتيّاس من وراء مكتبه الخَكرَندا وغليون عاجه المنحوت في يده.

ـ لين حكت لنا كلَّ شيء ـ قاطعته إليثا، ناهضةً، وبصوت محطّم، لكن دون دموع.

ـ إذا كان ما تريدونه مالاً... ـ بدأ ماتيّاس يقول، لكنّ أمّه قاطعته بنظرة ضارية.

ـ أرجوكما أن تعذرانا ـ قالت متوجّهة إلى تاو شيين وإليثا سومرز ـ فابني مندهش مثلي. أنا واثقة من أنّنا نستطيع أن نُصلح هذا بحشمة، كما يجب على...

ـ لين ترغب بالزواج، طبعاً. قالت لنا إنّكما متحابان ـ قال تاو شيين، وهو واقف أيضاً، متوجّهاً إلى ماتيّاس بقهقهة قصيرة جاءت مثل نباح كلب.

ـ تبدوان أناساً مُحترَمين ـ قال ماتيّاس ـ ومع ذلك، ابنتكما ليست كذلك، كما يمكن لأيّ واحدٍ من أصدقائي أن يشهد. ولا أدري من منهم هو المسؤول عن كارثتها، لكنّ بالتأكيد لستُ أنا.

فقدت إليثا سومرز لونها تماماً، وصارت بشحوب الجصّ، ترتعد، وتكاد تسقط. أخذها تاو شيين بقوّة من ذراعها، وأسندها كما لو أنها معوقة، وقادها إلى الباب. ظنّ سِبِرو دِل بالْيِه أنّه سيموت من الضيق والعار، كما لو أنّه المسؤول الوحيد عمّا حدث. تقدّم ليفتح لهما الباب، ورافقهما حتى المخرج، حيث كانت تنتظرهما عربة أجرة. لم يخطر له أن يقول لهما شيئاً. وحين وصل إلى القاعة استطاع أن يسمع نهاية النقاش.

ـ لا أفكّر أن أتسامح بوجود أولاد زنى من دمي مزروعين هنا وهناك! ـ صرخت باولينا.

ـ حدّدي ولاءاتك يا أمي. من ستصدّقين، ابنك أم بائعة حلوى وصيني؟ ـ ردّ ماتيّاس وهو يخرج صافقاً الباب.

واجه سِبِرو دِل بالْيه ماتيّاس في تلك الليلة. كان يملك من المعلومات ما يكفي كي يستنتج الأحداث، وأراد أن ينتزع من ابن عمّته سلاحَه من خلال استجواب عنيد، لكنّه لم يحتج إلى ذلك؛ لأنّ هذا أفلت كلّ شيء وعلى الفور. شعر بأنّه محاصر بحالة لا معقولة وليس مسؤولاً عنها، كما قال، فلين سومّرز لاحقته وقدّمت نفسها إليه على طبق؛ أما هو فحقيقةً لم يقصد إغواءها قط، والمراهنة كانت مجرّد تبجّح. قضى شهرين يحاولُ التخلّص منها دون أن يُدمّرها، وخاف أن يرتكبَ حماقةً، فقد كانت واحدة من تلك المصابات بالهستيريا القادرات على رمي أنفسهنّ في البحر من أجل الحب، كما وضّح. اعترف بأنّ لين ليست سوى طفلة، ووصلت إلى ذراعيه عذراءَ ورأسها مليءٌ بالقصائد المحلاّة، وتجهل تماماً بذاءات الجنس، ولكنّه كرّر أنّه لم يكن ملزماً أمامها بشيء، كما لم يحدّثها قط عن الحبّ وأقل منه عن الزواج. وأضاف الفتيات من أمثالها دائماً يأتين بالمتاعب؛ لذلك كان يتفاداهنّ كما يتفادى الوباء. لم يخطر له مطلقاً أنّ لقاء قصيراً مع لين سيأتي بكلّ تلك العواقب. التقيا مرّاتٍ معدوداتٍ، كما قال، ونصحها بأن تغسل بالخلّ والخردل، فهو لم يكن يعتقد أنّها بمثل تلك الخصوبة المدهشة. في جميع الأحوال كان على استعداد كي يغطي نفقات الوليد، فالنفقات هي الأقل أهمية، لكنّه لايفكّر أن يمنحه كنيته، لأنّه ما من برهان على أنّه ابنه. وختم كلامه «لن أتزوّج لا الآن ولا في أيّ وقت آخر يا سِبِرو. هل رأيت أحداً أقل نزعة برجوازية منّي؟».

بعد أسبوع مَثَلَ سِبِرو دِل بالْيه في عيادة تاو شيين، بعد أن أدار في رأسه المهمّة الشاقّة التي كلّفه بها ابن عمّته ألف دورة. كان *الزهونغ* ـ يي قد عالجَ آخرَ مريض في ذلك اليوم واستقبله على انفرادٍ في قاعة الانتظار في عيادته، في الطابق الأوّل. استمع إلى عرض سِبِرو بلا تأثّر.

ـ لين ليست بحاجة إلى مال، لهذا عندها أبوان ـ قال دون أن

يُبدي أيّ انفعال ـ على كلٍّ حال أشكرك على اهتمامك يا سيّد دِل بالْيِه.

ـ كيف حال الآنسة سومّرز؟ ـ سأل سِبِرو، مهاناً من كرامة الآخر.

ـ ابنتي ما تزال تُفكِّر أن هناك سوء فهم. وهي واثقة من أنّ السيّد رودريغث دِ سانتا كروث سرعان ما سيأتي ليطلبها للزواج، ليس بالواجب بل بالحب.

ـ يا سيّد شيين، لا أدري ما الذي أدفعه مقابل أن تتبدّل الظروف. الحقيقة أنّ ابن عمّتي لا يتمتّع بصحّةٍ جيّدة، لا يستطيع أن يتزوّج. آسف جدّاً... ـ تمتم سِبِرو دِل بالْيِه.

ـ ونحن نأسف أكثر. فلين بالنسبة إلى ابن عمّتك مجرّدُ تسلية، وهو بالنسبة إلى لين حياتُها ـ قال تاو شيين بنعومة.

ـ بودّي أن أوضّح شيئاً لابنتك يا سيّد شيين. هل أستطيع أن أراها من فضلك؟

ـ عليّ أن أسأل لين. حالياً لا ترغب برؤية أحد، لكنّني سأعلمك بالأمر إن حصل تبدّل في رأيها ـ ردّ *الزهونغ ـ يي* وهو يرافقه إلى الباب.

انتظر سِبِرو ثلاثة أسابيع دون أن يعلم كلمةً واحدة عن لين، حتى لم يعد يستطيع أن يتحمّل القلق أكثر وذهب إلى قاعة الشاي كي يتوسّل إلى إليثا سومّرز أن تسمح له بالكلام مع ابنتها. توقّع أن يلقى مقاومة شديدة، لكنّها استقبلته ملفوفة بعبق سكّرها والفانيليا وبالرزانة ذاتها التي استقبله بها تاو شيين. في البداية لامت إليثا نفسها على ما جرى: لقد غَفِلت، لم تكن قادرة على حماية ابنتها والآن دُمّرت حياتُها. بكت بين ذراعي زوجها إلى أن ذكّرها أنّها عانت في السادسة عشرة من عمرها من تجربة مماثلة: الحب المفرط ذاته، هجران الحبيب ذاته، الحَبَل، والذعر؛ والفارق هو أنّ لين لم تكن وحدها، وليس عليها أن تهرب من البيت، وتعبر نصف

العالم في قاع سفينة خلف رجل غير جدير بها، كما فعلت هي. لين لجأت إلى أبويها، وهما محظوظان جدّاً لأنّهما قادران على مساعدتها، قال تاو شيين. لو أنّهم في الصين أو تشيلي لضاعت ابنتهما، المجتمع لا يغفر لها لكن في كاليفورنيا، البلاد التي بلا تقاليد، يوجد فضاء للجميع. جمع *الزهونغ* - يي أسرته الصغيرة، وأوضح أنّ الطفل جاء هديّة من السماء، وعليهم أن ينتظروه بفرح؛ فالدموع سيّئة بالنسبة إلى *الكرما*، وتضرّ بالمخلوق في بطن أمّه، وتجعل حياته غير أكيدة. هذا الطفل أو الطفلة ستأتي على الرحب والسعة، خاله «محظوظ» وهو، كما قال، سيكونان بديلين جديرين للأب الغائب. أمّا بالنسبة لحب لين الخائب، حسنٌ، سيفكرون بهذا فيما بعد. كان يبدو متحمّساً أمام أمل أن يصبح جدّاً، حتى أنّ إليثا خجلت من اعتباراتها المتعلّقة بالعفّة، فجفّفت دموعها ولم تعد إلى تأنيب نفسها. إذا كان العطف على ابنته أهمّ عند تاو شيين من شرف الأسرة، فيجب أن يكون الأمر بالنسبة إليها كذلك أيضاً، قرّرت؛ وواجبها أن تحمي لين، وكل ما عدا ذلك ليس له أهمية. هكذا أظهرت الأمر بلطف إلى سِبرو دِل بالْيِه في ذلك اليوم في قاعة الشاي. لم تفهم الأسباب التي تجعل التشيلي يصرّ على مكالمة ابنتها، لكنّها تشفّعت له، وقبلت الشابّة أخيراً أن تراه. لم تكد لين تتذكّره، واستقبلته بأمل أن يكون قد جاء مبعوثاً من ماتيّاس.

في الأشهر التالية صارت زيارةُ سِبرو إلى بيت آل شيين عادةً. يصل عند حلول الليل، حين ينهي عمله، يترك جواده مربوطاً بالباب، ويمثل حاملاً القبعة في يدٍ، وهديّة ما في اليد الأخرى، وهكذا راحت غرفة لين تمتلئ بالألعاب والثياب للمولود الجديد. علّمه تاو شيين أن يلعب *الماه* - جونغ، وكانا يقضيان ساعاتٍ مع إليثا ولين وهما يحرّكان قطع العاج الجميلة. لم يكن «محظوظ» يشاركهما، لأنّه يرى أنّ اللعب دون رهان إضاعة للوقت، وتاو شيين لا يلعب إلا في حضن أسرته، لأنّه عاهد نفسه في شبابه ألا يلعب مقابل المال، وكان واثقاً من أنّه إذا أخلف ستحل به كارثة. اعتاد آل شيين على وجود سِبرو، حتى أنّه إذا تأخر نظروا إلى الساعة قلقين. كانت إليثا

سومّرز تستغلّ الفرصةَ كي تتكلّم بالقشتالية وتتذكّر تشيلي، ذلك البلد البعيد الذي لم تضع قدمها فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لكنّها بقيت تعتبره وطنها. وكانا يناقشان تفاصيل الحرب والتغيّرات السياسية: فبعد عدّة عقودٍ من الحكومات المحافظة انتصر الليبراليون؛ وكان الصراع من أجل لَيِّ ذراع السلطة الكهنوتية، وتحقيق بعض الإصلاحات، قد قسم كلَّ أسرة من الأسر التشيلية. فمعظم الرجال، مهما كانوا كاثوليكيين، كانوا يتوقون لتحديث البلد، لكنّ النساء، وهنّ أكثر محافظة منهم، كنّ يتمردن على آبائهنّ وأزواجهنّ دفاعاً عن الكنيسة، ومهما كانت الحكومة ليبرالية، حسب ما كانت توضّح نيبيا في رسائلها، فإنّ مصير الفقراء ما زال هو نفسه، وتُضيف أنّ نساء الطبقة العليا ورجال الكهنوت كانوا، كما هو الحال دائماً، يتلاعبون بحبال السلطة. ولا شكّ أنّ فصل الدين عن الدولة خطوة عظيمة إلى الأمام، كانت الفتاة تكتب من وراء ظهر عشيرة دِل بالْيِه، التي لم تكن تتسامح مع مثل هذه الأفكار، ومع ذلك فالعائلات نفسها هي التي كانت تدير الحالة. «لنؤسِّس حزباً آخر يا سِبِرو، حزباً يبحث عن العدالة والمساواة»، كانت تكتب إليه مدفوعة بحماس حواراتها السريّة مع الآنسة ماريّا إسكابولاريو.

كانت حرب الباسيفيك في جنوب القارّة متواصلة، وهي في كلّ مرّة أكثر قسوة، بينما الجيوش التشيلية تُسارع لبدء الحملة في صحراء الشمال، والأرض الوعرة والموحشة كالقمر، حيث يُعتَبَرُ تموين القوات مهمّة جبّارة. والطريق الوحيد الممكنة لنقل الجنود إلى الأماكن التي ستدور فيها المعارك كانت البحر، لكنّ الأسطول البيرْوِي لم يكن مستعداً للسماح بذلك. كان سِبِرو يفكّر بأنّ الحربَ راحت تتبلور لصالح تشيلي، التي يبدو أنّ تنظيمها وضراوتها لا مثيل لهما. لم تكن الأسلحة والطبيعة الحربية هي التي تُحدّد نتيجة المعركة، كان يوضّح لإليثا سومّرز، بل المثل الذي قدَّمته حفنة من الرجال الأبطال فتمكنت من إلهاب روح الأمّة.

ـ أعتقد أنّ الحرب تقرّرت في شهر أيّار يا سيّدتي، في معركة بحرية قبالة ميناء إيكيكي. فهناك تصدّت فرقاطة تشيلية قديمةٌ لقوّة

بيروية أضخم. يقودها أرتورو برّاث، وهو قبطان شاب متديّن جدّاً، بل وخجول أيضاً، لا يُشارك في سهرات العبث والفسق السائدة في الجو العسكري، وكان من عدم التميُّز بحيث أنّ رؤساءه لم يكونوا يثقون بشجاعته. وفي ذلك اليوم تحوّل إلى بطلٍ أنعش روحَ التشيليين جميعاً.

كانت إليثا تعرف التفاصيل، فقد قرأتها في عددٍ متأخر من التايمز اللندنية، حيث وُصِفَت الواقعةُ بـــ: «...واحدة من أجلّ المعارك التي قامت على الإطلاق، فسفينة خشبية قديمة، تكاد تتفكّك، صمدت ثلاث ساعاتٍ ونصف الساعة في وجه مدفعية أرضيّة وبارجة جبّارة، وانتهت ورايتها فوق دقلها». السفينة البيروية بقيادة الأميرال ميغِل غراوْ، وهو بطل في بلده أيضاً، هاجم بكلّ ما أوتي من سرعة الفرقاطةَ التشيليةَ واخترقها بمدكّ سفينته، وهي اللحظة التي استغلّها القبطان برات كي يقفز على متنها يتبعه أحد رجاله. كلاهما مات بعد دقائق مُخرَّمين بالرصاص على متن السفينة المعادية. وبصدمة المدك الثانية قفز عدّة رجال آخرين منافسين قائِدَهم، وماتوا أيضاً مخرّمين بالرصاص؛ ففي النهاية قضى ثلاثة أرباع الطاقم نَحْبَهُم قبل أن تغرق الفرقاطة. هذه البطولة الجبّارة دبّت الشجاعةَ في أبناء وطنهم، بقدر ما صعقت أعداءهم، حتى أنّ الأميرال غراو كان يردّد مذهولاً: «آه، كيف يُقاتل هؤلاء التشيليون!».

ـ غراو فارس. أخذ سيف برات وثيابه بنفسه، وأعادها إلى أرملته ـ روى سِبرو، وأضافَ أنّه منذ تلك المعركة صار الشعار المقدّس في تشيلي: «القتال حتى النصر أو الموت»، مثل أولئك الشجعان.

ـ وأنت يا سِبرو، ألا تُفكِّر بالذهاب إلى الحرب؟ ـ سألته إليثا.

ـ بلى، سأفعل ذلك قريباً جدّاً ـ ردّ الشاب خجِلاً، دون أن يدري ماذا ينتظر كي يقوم بواجبه.

راحت لين خلال ذلك تسمن، دون أن تفقد قيد أنملة من ملاحتها

أو جمالها. ما عادت ترتدي الملابس التي ضاقت عليها، وارتاحت في الأدثرة الحريرية الفرحة التي اشترتها من تشايناتاون. صارت لا تخرج إلاّ قليلاً، على الرغم من إصرار والدها بضرورة أن تمشي. كان سِبرو دِل بالْيِه يأخذها في عربة، ويحملها للتنزه في حديقة بارك برِسيديو، أو على الشاطئ، حيث يجلسان على شالٍ ليتناولا طعام غدائهما ويقرأا، هو صحفه وكتب قانونه، وهي الروايات الرومانسية التي ما عادت تؤمن بموضوعاتها، ومع ذلك ما زالت تفيدها كملاذ لها. كان سِبرو يعيش يومه، من زيارة إلى زيارة لبيت آل شيين، دون أيّ هدفٍ آخر غير رؤية لين. ما عاد يكتب إلى نيبيا. فكثيراً ما أخذ الريشةَ كي يعترف لها أنّه يُحبُّ غيرها، لكنّه سرعان ما يمزّق الرسائل دون أن يرسلها، لأنّه لا يعثر على الكلمات المناسبة كي يقطع علاقته بخطيبته دون أن يجرحها جرحاً قاتلاً. كما أنّ لين لم تعطه أيّ بريقِ أملٍ يمكن أن يُفيده كنقطة ارتكاز لتصوّر مستقبلٍ معها. لم يكونا يتكلّمان عن ماتيّاس، تماماً كما لم يكن هذا يشير إلى لين إطلاقاً، ولكنّ السؤال كان دائماً عالقاً في الهواء. لقد حرص سِبرو ألاّ يذكر في بيت عمّته صداقته الجديدة مع آل شيين، وافترض أنّه ما من أحد يشكّ بذلك، باستثناء رئيس الخدم الممطوط وليامز، الذي لم يضطر لأن يقول له شيئاً، لأنّه عرف بالأمر كما يعرف كلّ ما كان يجري في ذلك القصر. كان قد مضى شهران على سِبرو وهو يصل متأخّراً؛ وبابتسامةٍ بلهاء ملتصقة بوجهه، حين قاده وليامز إلى العلّية على ضوء مصباحٍ كحولي وأراهُ كتلة ملفوفة بالملاحف. وعندما كشف عنها وجد أنّها مهدٌ متألّق.

ـ إنّه من فضّة مشغولة، فضّة من مناجم سادة تشيلي. هنا نام كثير من أطفال هذه الأسرة. إذا أردت تستطيع أن تأخذه ـ هذا كلّ ما قاله.

باولينا دِل بالْيِه، التي شعرت بالخزي، لم تَظهر بعد ذلك في قاعة الشاي، فهي لم تكن قادرة على ترميم صداقتها الطويلة مع

إليثا سومرز، التي صارت شظايا. اضطرت أن تتنازل عن الحلوى التشيلية، التي شكّلت لسنواتٍ نقطةَ ضعفها، وأن تقبل مذعنة بحلوى طبّاخها الفرنسية. قدرتها الساحرة الناجعة جدّاً في كنس العوائق وتنفيذ غاياتها، انقلبت عليها الآن. كانت محكومة بالشلل، تتآكل قلقاً وقلبها يقفز في صدرها. «تقتلني أعصابي يا وليامز» راحت تشكو وقد تحوّلت لأوّل مرّةٍ إلى امرأة سقيمة. كانت تفكّر أنّه نظراً لأنّ عندها زوجاً خائناً وثلاثة أولاد طائشين، فالاحتمال الأكبر هو أن يوجد عدد كبير من الأطفال غير الشرعيين الذين يحملون دمها مبعثرين هنا وهناك، فليس من داعٍ كي تتعذّب أكثر، ومع ذلك فإنّ أولاد الزنى المفترضين هؤلاء لا أسم لهم ولا وجه، بالمقابل فإنّ هذا الذي سيولد أمام وجهها سيكون له اسم ووجه. لو أنّها على الأقل لم تكن لين سومّرز! لا تستطيع أن تنسى زيارة إليثا سومّرز وذلك الصيني الذي لا تتمكّن من تذكّر اسمه، فمشهد هذين الزوجين الجليلين في قاعتها يُحزنها. كان ماتيّاس قد أغوى الفتاة، وما من حجة منطقية أو ملائمة يمكنها أن تَدحض هذه الحقيقة التي قبلها حَدْسُها منذ اللحظة الأولى. إن إنكار ابنها وتعليقاته اللاذعَة عن قلّة فضيلة لين لم تفعل شيئاً، غير أنّها عزّزت قناعتها. الطفل الذي تحمله هذه الشابة في بطنها يثير عندها إعصاراً من المشاعر المتناقضة، فمن جهة هناك غضب أخرس من ماتيّاس، ومن جهة أخرى هناك حنان ضاغط تجاه هذا الحفيد أو الحفيدة الأولى. ولم يكد فِليثيانو يعود من رحلته حتى روت له ما حدث.

ـ هذه الأمور تحدث في كلّ لحظةٍ يا باولينا، فلاداعي لإحداث مأساة. نصف أطفال كاليفورنيا أولاد زنى. المهم هو تفادي الفضيحة ورصّ الصفوف حول ماتيّاس. الأسرة أوّلاً ـ هكذا كان رأي فِليثيانو.

ـ هذا الطفل من أسرتنا ـ أكّدت.

ـ لم يولد بعد وتضّميه إلى الأسرة! أعرف لين سومّرز هذه. رأيتها تقف شبه عارية في مُحترف نحّاتٍ عارضة نفسها وسط حلقة من الرجال، ويمكن لأيٍّ منهم أن يكون عشيقها. ألا ترين ذلك؟

ـ أنت من لايرى يا فِليثيانو.

ـ يمكن لهذا أن يتحوّل إلى فضيحة لها أوّل وليس لها قرار. أمنعك من أي احتكاكٍ بهؤلاء الناس، وإذا ما اقتربوا هم من هنا فأنا سآخذ المسألة على عاتقي ـ قرّر فِليثيانو بلمح البصر.

منذ ذلك اليوم لن تعد باولينا إلى ذكر الموضوع أمامَ ابنها وزوجها، لكنّها لم تستطع كبح نفسها، وانتهت إلى الثقة بوليامز الوفي، الذي يملك فضيلةَ الإصغاءِ إليها حتى النهاية دون أن يُبدي رأيه، إلاّ إذا طلبت منه ذلك. لو أنّ باستطاعتها أن تُساعِد لين سومّرز لشعرت بأنّها أفضل قليلاً، كانت تُفكِّر، لكنّ لمرّة واحدة لم يُفدها حظُّها في شيء.

كانت تلك الأشهر مدمّرة بالنسبة إلى ماتيّاس، فلم يقتصر الأمر على أنّ ورطة لين تُحرِّك عنده الصفراء، بل إنّ آلامِ المفاصل قد زادت حدّتها فلم يعد يستطيع ممارسة المبارزة، واضطرَّ للتنازل عن رياضات أخرى. صار يستيقظ على حدّةِ ألمٍ يجعله يتساءل ما إذا كانت قد حانت لحظةُ التفكير بالانتحار، وهيَ الفكرة التي غذّاها منذ أن عرف اسمَ مرضِهِ، لكنّه ما أن يُغادِر السرير ويبدأ بالتحرُّك حتى يشعر بالتحسّن، فيعود ليحبّ الحياة بعزمٍ جديد. كان يصاب بتورّمُ في معصميه وركبتيه، وترتعشُ يداه، وممّا عاد الأفيون تسليته في تشايناتاون، صار حاجةً ضرورية. كانت صديقته أماندا لويل، رفيقة صخبه ونجيّته الوحيدة، من علّمته فضيلة حقن المورفين، الأكثر فاعلية ونظافة وأناقة من غليون الأفيون: جرعة دنيا ويزول الضيق على الفور، فاسحاً الطريق أمام السلام. إن فضيحة ابنه غير الشرعي القادم في الطريق انتهت إلى تدمير معنوياته، فأعلن أواسط الصيف فجأة أنّه سيُغادِر إلى أوروبا في الأيام القليلة القادمة، ليرى ما إذا كان تبديل الجوّ والمياه الساخنة في إيطاليا، والأطباء في إنكلترا، يمكن أن يُخفّفوا من أمراضه. لم يُضِف أنّه يُفكّر بالالتقاء بأماندا لويل في نيويورك كي يتابعا العبورَ معاً، لأنّ اسمها ما كان يذكر أبداً في الأسرة، إذ إن ذكرى الاسكتلندية ذات الشعر الأحمر تُثيرُ عسرَ هضم عند فِليثيانو، وحنقاً أخرسَ عند باولينا. لم تكن العلل والرغبةُ بالابتعاد عن لين سومّرز هي ما دفعت ماتيّاس إلى

الرحيل المستعجل، بل ديون القمار الجديدة، كما عُلم بعد رحيله بقليل، حين ظهر زوجٌ من الصينيين المحترسين في مكتب فِليثيانو كي يهدّدوه بأكبر قدر من التهذيب، إما أن يدفع الأرقام التي يدين بها ابنه لهم مع الفوائد، وإمّا أن يحدثَ شيء مزعج لأحد أفراد أسرة المحتَرَمة. وبجواب وحيد جعلهم الوجيه يخرجونهما مصعوقين من مكتبه ويقذفون بهما في الشارع، استدعى بعد ذلك جاكوب فريمونت، الصحافي الخبير في عالم المدينة السفلي. استمع إليه الرجل بلطفٍ، لأنّه كان صديقاً جيّداً لماتيّاس، ورافقه على الفور لمقابلة رئيس الشرطة، وكان أوسترالياً، سمعته مشوشّة، يدين له ببعض الخدمات، فطلب منه أن يحلّ المشكلة بطريقته الخاصّة. «الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي الدفع»، ردّ الضابط، وشرع يشرحُ كيف أنّه ما من أحد يتدخّل في أمور *تونغات* تشايناتاون. فقد كان من نصيبه أن يلمّ أجساداً مشروطة من أعلاها إلى أسفلها، وأحشاءً موضوعة بكلّ وضوح جانباً في صندوق. إنها أعمال انتقام بين *السماويين* طبعاً، ثم أضاف: مع البيض كانوا يُحاولون على الأقل أن يبدو الأمر وكأنّه يتعلّق بحادِثٍ عادي. ألم تلاحظ كم من الناس يموتون في حرائق لا تفسير لها، أو مهشّمين بأرجل الخيل في شارع معزول، أو غرقى في مياه الخليج الهادئة، أو مسحوقين بلِبْنٍ يسقط بطريقة غامضة من بناء طور الإنجاز؟ وهكذا دفع فِليثيانو رودريغث دِ سانتا كروث المطلوب منه.

حين أعلمَ سِبِرو دِل بالْيه لين سومّرز بأنّ ماتيّاس قد سافر إلى أوروبا دون نيّة بالعودة في المستقبل القريب، راحت تبكي وبقيت على تلك الحال خمسة أيّام، على الرغم من المُهدِّئات المقننة التي قدّمها إليها تاو شيين، إلى أن صفعتها أمّها صفعتين على وجهها وأجبرتها على مواجهة الواقع. لقد ارتكبت حماقة ولم يبق أمامها الآن غير أن تتحمل النتائج؛ فهي لم تعد صغيرة، ستصبح أمّاً عما قريب، وعليها أن تحمد الله على أنّها تملك أسرةً مستعدة لمساعدتها، لأنّ أخريات في وضعها ينتهين مرميّات في الشارع، ويكسبن عيشهنّ بطريقة سيّئة، بينما ينتهي أولادهنّ غير الشرعيين

إلى ميتم؛ وقد حانت الساعة كي تقبل أنّ عشيقها تبخّر، وعليها أن تقوم مقامَ الأم والأبِ، وأن تنضج مرّة واحدة وإلى الأبد، لأنّهم سئموا في ذلك البيت من تحمّلِ نزواتِها؛ فمنذ عشرين عاماً وهي تتلقى الأشياء ملءَ يديها، وعليها ألاّ تُفكّر أنّها ستقضي حياتها مستلقية في سرير تشكو؛ فلتنظف أنفها، وترتدي ثيابها، لأنّهم سيخرجون للتنزه، وهو ما سيفعلونه مرّتين في اليوم دون نقصان، سواء أمطرت أو أرعدت، هل سمعت؟ نعم، سمعت لين كلّ شيء حتى النهاية بعينين جاحظتين من المفاجأة، وخدين محمرّين من الصفعتين الخفيفتين الوحيدتين اللتين تلقتهما في حياتها. ارتدت ملابسها وأطاعت صامتةً. ومنذ تلك اللحظة سقطت عليها الوداعة فجأة، وتحمّلت مصيرها برصانة مدهشة، لم تعد تشكو، ابتلعت أدوية تاو شيين، ومشت مسيراتٍ جيّدةً مع أمّها، بل وأصبحت قادرة على أن تضحك مقهقهةً حين علمت بأنّ مشروع تمثال الجمهوريّة قد ذهب إلى الجحيم، كما أوضح أخوها «محظوظ»، ولكن ليس لعدم وجود الموديل، بل لأنّ النحّات هرب بالأموال إلى البرازيل.

في نهاية آب تجرّأ سِبِرو أخيراً على الكلام مع لين سومّرز عن مشاعره. في ذلك الوقت كانت تشعر بنفسها ثقيلة مثل فيلٍ، ولا تتعرّف على وجهها ذاته في المرآة، لكنّها كانت في نظر سِبِرو أجمل من أيّ وقتٍ آخر. عادا من المشوار حارّين، فأخرج منديلاً كي يُجفّف لها جبينها وعنقها، لكنّه لم يتمكّن من إنهاء العملية. فقد وجد نفسه منحنياً يمسكها من كتفيها بقوّة ويقبّلها على فمها وسط الشارع، دون أن يدري كيف. طلب منها أن يتزوّجا، فأوضحت له بكلّ بساطة أنّها لن تحبّ رجلاً آخر، لن تُحب غير ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث.

ـ لا أطلبُ منكِ أن تُحبّيني يا لين، فالحبّ الذي أشعر به تجاهك يكفينا ـ ردّ سِبِرو بالطريقةِ الاحتفالية التي يُعاملها بها دائماً تقريباً ـ الطفل يحتاجُ أباً. امنحيني الفرصةَ لأحميكما، وأعدُك بأن أصبح مع مرور الزمن أهلاً لحبّك.

ـ يقول أبي إن الأزواج يتزوّجون في الصين دون أن يعرف

بعضهما بعضاً، ويتعلمون حبّ بعضهم بعضاً فيما بعد، لكنّني واثقة من أنّ هذه لن تكون حالتي يا سِبرو. أنا آسفة جدّاً... ـ ردّت.

ـ لن يكون عليك أن تعيشي معي يا لين. ما أن تلدي حتى أذهبَ إلى تشيلي. بلدي في حالة حرب، وقد أجلت واجبي أكثر من اللازم.

ـ وماذا لو لم تعد من الحرب؟

ـ على الأقل سيحصل ابنك على كنيتي وإرث أبي، الذي ما زال عندي. ليس كثيراً، لكنّه يكفي كي تربّيه، ويكون لك يا عزيزتي لين احترامُك...

كتب سِبرو في تلك الليلة إلى نيبيا الرسالة التي لم يستطع أن يكتبها من قبل. قالها لها في أربع جملٍ، دون مقدّمات ولا حجج، لأنّه أدرك أنّها لن تتحمّل ذلك بطريقة أخرى. لم يجرؤ حتى أن يطلب منها المعذرة على تآكل الحب والزمن الذي عنته أعوام رسائل الخطوبة الأربعة بالنسبة إليها، لأنّ هذه الحسابات البائسة لم تكن بالنتيجة جديرة بقلب ابنة عمه الكريم. نادى خادماً كي يضع له الرسالةَ في بريد اليوم التالي، ثم استلقى منهكاً بملابسه على السرير. لأوّل مرَّةٍ نام دون أحلام خلال زمن طويل. وبعد شهر من ذلك تزوّج سِبرو دِل بالْيِه من لين سومّرز في حفل بسيط، وحضور أسرتها وولِيامز، الوحيد الذي دعاه سِبرو من بيته. كان يعلم أنّ رئيس الخدم سيحكي لعمّته باولينا، وقرّر وانتظر أن تقوم هي بالخطوة الأولى وتسأله. لم يُعْلِم أحداً، لأنّ لين طلبت منه أكبر تكتّم ممكن إلى ما بعد ولادة الطفل واستعادتها لهيئتها الطبيعية، فهي لن تجرؤ على الظهور ببطن القَرعة ذاك والوجه المليء بالنمّش، كما قالت. في تلك الليلة ودّع سِبرو دِل بالْيِه زوجته المتوهّجة بقبلةٍ على جبينها، ومضى لينام في غرفته، غرفة العازب.

في ذلك الأسبوع ذاته دارت في مياه الباسيفيك معركةٌ بحريّة أخرى، وعطّلت البحرية التشيليةُ البارجتين المعاديتين. الأميرال البيروي ميغِل غراو، الفارس نفسه الذي أعاد قبل أشهر سيفَ

القبطان برات إلى زوجته، مات بطلاً كما الآخر. كان ذلك كارثة بالنسبة إلى البيرو، لأنّها حين خسرت السيطرة البحرية قَطعت المواصلات، وبقيت جيوشها ممزّقة ومعزولة. سيطر التشيليون على البحار، واستطاعوا أن ينقلوا قواتهم إلى مناطق الشمال الحساسة، وأكملوا مخطط التقدم في أراضي العدو، حتى احتلال ليما. كان سِبِرو دِل بالْيِه يُتابِع الأخبار بحماسِ بقيّةِ أبناءِ بلده في الولايات المتحدة، لكنّ حبّه للين كان يفوق بما لا يُقاس وطنيّته، ولم يستعجل رحلة العودة.

في فجر ثاني اثنين من تشرين الأوّل أفاقت لين مبلّلة القميص، وأطلقت صرخة رعب، لأنّها ظنّت أنّها بالت على نفسها. «شيء سيّئ، لقد تمزّقت المشيمة قبل الأوان» هكذا قال تاو شيين لزوجته، لكنّه حضر أمام ابنته مبتسماً وهادئاً. بعد عشر ساعاتٍ، حين لم تكد التقلصات تكون محسوسة، والأسرة منهكة من لعب *الماه* - جونغ لتسلية لين، قرّر تاو شيين أن يلجأ إلى أعشابه. كانت الأمّ المستقبلية تمزحُ متحدِّيَةً: أهذه هي آلام المخاض التي طالما حذّروها منها؟ كانت محتملة أكثر من المغص الذي يُسبّبه الطعام الصيني في البطن، كما قالت. كانت ضجرة أكثرَ مما هي منزعجة. وكانت جائعة، لكنّ والدها لم يسمح لها بتناول شيءٍ آخرَ غير الماء ونقيع الأعشاب الطبية، بينما راح يضع لها الإبر لتسريع الولادة. إن المواءمة بين المخدرات والإبر الذهبية أعطت مفعولها، وعند حلول الليل، حين جاء سِبِرو دِل بالْيِه بزيارته اليومية المعتادة، وجد «محظوظ» في الباب متغيّراً، والبيت يهتزّ من أنين لين، وصخب قابلة صينية تتكلّم بصوت عالٍ وهي تجري حاملة خِرقاً وأباريقَ ماء. كان تاو شيين يتحمّل القابلة، لأنّها أكثر خبرة منه في هذا المجال، لكنّه لم يسمح لها بأن تعذّب لين بالجلوس فوقها، أو بلكمها على بطنها، كما كانت تريد أن تفعل. بقي سِبِرو دِل بالْيِه في القاعةِ ملتصقاً بالجدار، محاولاً ألاّ يلفت الانتباه. كلّ أنّةٍ من لين كانت تحفر عميقاً في روحه؛ إنه يودُّ لو يهرب إلى أبعد ما يستطيع،

لكنّه لم يستطع أن يتحرّك من زاويته، أو يلفظ كلمةً واحدة. وهنا رأى تاو شيين يظهر، قاسياً بنظافة ملابسه المعتادة.

ـ هل أستطيع أن أنتظر هنا؟ ألا أُزعِج؟ بماذا أستطيع أن أساعد؟ ـ تمتم سِبِرو، وهو يجفّف العرق الذي يسيل على عنقه.

ـ أنتَ لا تُزعج إطلاقاً أيّها الشاب، لكنَّك لا تستطيع أن تُساعِد لين، عليها أن تقوم بعملها وحدها. بالمقابل تستطيع أن تُساعِد إليثا، المضطربة قليلاً.

كانت إليثا سومّرز قد مرّت بضنى الولادة وتعرف، مثل كلِّ امرأة، أنّها عتبة الموت. تعرف الرحلة المضنية والغامضة التي ينفتح فيها الجسدُ كي يفسح الطريق أمام حياة أخرى؛ وتتذكّر اللحظة التي تبدأ فيها بالتدحرج دون كوابح في منحدر، ضاغطةً، دافعةً، خارج السيطرة، تتذكر الرعب، والعذاب، والدهشة الفريدة حين ينفصل الطفل ويظهر إلى النور. تاو شيين، بكلّ معرفة *الزهونغ ـيي*، تأخّر أكثر منها في معرفة أنّ شيئاً سيئاً للغاية يجري في حالة لين. فالعلاج بالأدوية الصينية أثار تقلّصات قويّة جداً، لكنّ المخلوق جاء معيباً وعرضانياً عالقاً بعظام حوض أمّه. لقد كانت ولادة جافّة وصعبة، كما وضّح تاو شيين، لكنّ ابنته قويّةٌ، والمسألة تتعلّق كلّها بأن تُحافظ على هدوئها، فلا تتعب نفسها أكثر من اللازم. وأضاف بأنّه سباق مقاومة، وليس سرعة. وخلال وقفةٍ خرجت إليثا سومّرز المنهكة أكثر من ابنتها نفسها من الغرفة والتقت بِسِبِرو في أحد الممرات. أومأت إليه، فتبعها مرتبكاً إلى غرفة المذبح، حيث لم يدخل من قبل. على طاولة منخفضةٍ كان يوجد صليب بسيط، تمثال صغير لـ*كوان يين*، إلهة الرحمة الصينية، وفي الوسط صورة عاديّة بالحبر لامرأة ترتدي دثاراً أخضر وتضع وردتين على أذنيها. رأى شمعتين مشتعلتين وصحوناً صغيرة فيها ماء وأرز ونوريات زهر. ركعت إليثا أمام المذبح على وسادة من الحرير برتقالية اللون، وطلبت من المسيح وبوذا وروحِ لين، الزوجة الأولى، أن يهبّوا لمساعدة ابنتها في مخاضها. بقي سِبِرو خلفها بخطوة وهو يتمتم دون تفكير بصلواتٍ كاثوليكية تعلّمها في طفولته.

وهكذا بقيا برهة طويلة يوحدّ بينهما الخوفُ على لين وحبُّها، إلى أن نادى تاو شيين زوجَتَه لتساعدَهُ، لأنّه طرَدَ القابلةَ، واستعدّ ليدير الطفل ويُخرجَه بيده. بقي سِبِرو مع «محظوظ» يُدخِّنُ في البابِ، بينما راحت تشايناتاون تستيقظ شيئاً فشيئاً.

جاءت ولادة المخلوقِ فجرَ يوم الثلاثاء. كانت الأم التي يُبلِّلُها العرق وترتعد تُعارِكُ كي تلد، لكنّها ما عادت تصرخُ، اكتفت باللهاث، متيقظة إلى توجيهات أبيها. أخيراً شدّت على أسنانها، وتشبّثت بعوارض السرير المعدنية، ودفعت بعزم وحشيّ، فأطلّت ذؤابة من الشعر الأسود. أمسك تاو شيين الرأسَ وسحبه بعزمٍ ونعومة إلى أن خرج كتفاه، ثم أدار الجسد الصغير، واستخلصه بسرعة وحركة واحدة، بينما راح يفكّ باليد الأخرى حبلَ السرّة البنفسجيّ من حول العنق. تلقّت إليثا سومّرز كتلةً صغيرة مدماة، طفلةً منمنمةً، مفلطحةَ الوجه، زرقاءَ الجلدِ. وبينما كان تاو شيين يقطع حبل السرّة وينهمك في القسم الثاني من الولادة، نظّفت الجدّةُ حفيدتَها بإسفنجةٍ، وربتت على ظهرها إلى أن بدأت تتنفّس. حين سمعت صرخةً من تُعلن الدخول إلى العالم، وتأكّدت من أنّها راحت تكسب اللون الطبيعي، وضعتها على بطن لين. اتكأت الأمُّ المنهكة على مرفقٍ كي تتلقاها بينما جسدها مايزال ينبض ووضعتها على صدرها، مقبِّلة ومرحِّبةً بها بخليطٍ من الإنكليزية والإسبانيّة والصينية والكلمات المبتَدَعَة. بعد ساعة نادت إليثا سِبِرو و«محظوظ» كي يتعرّفا على الصغيرة. وجداها نائمةً وديعة في مهدِ الفضّة المشغولة التي كانت لآل رودريغِث دِ سانتا كروث، مرتدية الحريرَ الأصفرَ وقبّعةً حمراءَ تُضفي عليها مظهرَ جنّي منمنم. كانت لين تغفو شاحِبةً وهادئة بين ملاحف نظيفة، وتاو شيين يجلس إلى جانبِها يراقِب نبضَها.

ـ ما الاسم الذي ستُسمونها به؟ ـ سأل سِبِرو دِل بالْيِه، متأثِراً.

ـ أنت ولين من يجب أن يُقرِّر ـ ردّت إليثا.

ـ أنا؟

ـ ألست الأبُ؟ ـ سأل تاو شيين غامزاً بسخرية.

ـ سنُسمّيها أورورا لأنّها ولدت في الفجر ـ تمتمت لين دون أن تفتح عينيها.

ـ اسمها بالصينية لاي ـ مينغ، أي الفجر ـ قال تاو شيين.

ـ مرحباً بك في الدنيا يا لاي ـ مينغ، أورورا دِل بالْيِه ـ ابتسم سِبِرو، مقبِّلاً الصغيرةَ على جبينها، واثقاً من أنّ ذلك اليوم هو أسعد أيّام حياته، وهذه المخلوقة المجعّدة التي ترتدي ملابِس دمية صينية، كانت ابنته كما لو أنّها تحمل دمه. أما «محظوظ» فأخذ ابنة أخته بين ذراعيه، وراح ينفخ في وجهها نفسه الذي يحمل رائحة تبغ وصلصة صويا.

ـ ماذا تفعل؟ ـ صاحت الجدّةُ، مُحاولة أن تنتزعها من بين يديه.

ـ أنفخُ عليها هواء كي أنقل إليها حظّي السعيد. ما الهديّة الأخرى القيّمة التي يمكنني أن أقدِّمها لِـلاي ـ مينغ؟ ـ ضحكَ الخالُ.

ساعة العشاء حين وصل سِبِرو دِل بالْيِه إلى بيتِ نوب هيل، حاملاً خبر زواجه من لين سومّرز منذ أسبوع، وأنّ ابنته وُلِدَت في ذلك اليوم، جاءت بلبلة عمّته وزوجها كما لو أنّه وضع كلباً ميتاً على مائدة طعامهما.

ـ ثم إنّ الجميع عزوا الذنب إلى ماتيّاس! دائماً كنت واثقاً من أنّه لم يكن الأب، لكنّني لم أتخيّل قط أن تكون أنت ـ بصق فِليثيانو ما إن استعاد نَفْسَه من المباغتة قليلاً.

ـ لستُ الأبَ العضويّ، ولكنّني الأبُ الشرعي. واسم الطفلة أورورا دِل بالْيِه ـ أوضَحَ سِبِرو.

ـ هذه وقاحة لا تُغتَفَر! لقد خنت هذه الأسرة التي آوتك كابنٍ لها! ـ زمجر زوجُ عمّته.

ـ لم أخن أحداً. لقد تزوّجتُ حبّاً.

ـ لكن، ألم تكن هذه المرأة عاشقة لِماتيّاس؟

ـ هذه المرأة اسمها لين وهي زوجتي، وأطالبك بأن تُعاملها بالاحترام المتوجّب ـ قال سِبِرو بجفاء، ناهضاً على قدميه.

ـ أنت أبله يا سِبِرو، أبله تماماً! ـ شتمه فِليثيانو غاضباً، وهو يخرج بخطوات كبيرة من غرفة الطعام.

وليامز المتكتم الذي دخل في تلك اللحظة ليلقي نظرةَ تفقّدٍ على خدمة العَقَبَات، لم يستطع تفادي ابتسامة تواطؤٍ سريعة قبل أن ينسحب برزانة. أما باولينا فسمعت توضيحَ سِبِرو غير مصدّقة أنّه سيغادر خلال أيّام إلى الحرب في تشيلي، وأن لين ستبقى تعيش مع والديها في تشايناتاون، وأنّه إذا ما جرت الأمور كما يشتهي سيعود في المستقبل كي يضطلع بدور الزوجِ والأب.

ـ اجلس يا ابن أخي، ولنتكلّم مثل الناس. ماتيّاس هو أبُ هذه الطفلة، أليس كذلك؟

ـ اسأليه هو يا عمّتي.

ـ فهمت. تزوّجت كي تُنقِذ ماء وجه ماتيّاس. ابني كلبّي وأنت رومانسيّ... تصوّر أنّك تُدمِّر حياتك من أجل حالة كيخوتية! ـ هتفت باولينا.

ـ تُخطئين يا عمَّتي. أنا لم أُدمّر حياتي، بل على العكس، أعتقد أنَّ هذه هي فرصتي الوحيدة كي أكون سعيداً.

ـ مع امرأة تُحبُّ آخر؟ مع ابنة ليست ابنتك؟

ـ الزمن سيساعِد. إذا ما عدتُ من الحربِ، فستتعلّم لين على محبّتي، وستعتقد الطفلة أنّني أبوها.

ـ قد يعود ماتيّاس قبلك ـ علّقت.

ـ هذا لا يُبدّل في الأمر شيئاً.

ـ تكفي كلمة من ماتيّاس، حتى تتبعه لين سومّرز إلى آخر العالم.

ـ هذه مخاطرة لا بدّ منها ـ ردّ سِبِرو.

ـ لقد فقدت رشدك، يا ابن أخي. هؤلاء الناس ليسوا من وسطنا الاجتماعي ـ حسمت باولينا دِل بالْيِه الأمر.

ـ إنّها أكثر الأسر التي أعرفها حشمة يا عمّتي ـ أكّد لها سِيِرو.

ـ أرى أنّك لم تتعلّم معي شيئاً. فللانتصار في هذا العالم يجب استخلاص الحسابات قبل العمل. أنت مُحامٍ مستقبله لامع، وتحمل كنية من أقدمِ الكنيات الكبيرة في تشيلي. هل تظنّ أنّ المجتمع سيتقبّل زوجتَك؟ وابنة عمّك نيبيا، ألا تنتظرك؟ ـ سألت باولينا.

ـ هذا انتهى ـ قال سِيِرو.

ـ حسن، لقد حشرت نفسك عميقاً يا سِيِرو، أعتقد أن الوقت تأخر على التوبة. هيا نحاول إصلاح الأمور قدر استطاعتنا. المالُ والوضع الاجتماعي يلعبان دوراً كبيراً هنا وفي تشيلي. سأساعِدُك قدرَ استطاعتي. فلسبب ما أنا جدّة هذه الطفلة، ماذا قلت اسمها؟

ـ أورورا، لكنّ جدّيها يسميانها لاي ـ مينغ.

ـ إنها تحمل كنية دِل بالْيِه، ومن واجبي أن أساعِدها، نظراً لأنّ ماتياس غسل يديه من هذه المسألة المؤسفة.

ـ لن يكون ذلك ضروريّاً يا عمّتي. لقد حضّرت كلّ شيء كي تتلقّى لين الأموال التي سأرثها.

ـ النقود لا تفيض مهما كثرت. على الأقل أستطيع أن أرى حفيدتي، أليس كذلك؟

ـ سنسأل لين وأبويها ـ وعد سِيِرو.

كانا ما يزالان في غرفة الطعام حين ظهر وليامز ومعه رسالة مستعجلة تُعلِن أنّ لين قد تعرّضت لنزيف، وهناك خوف على حياتها، وعليه أن يُهرع إليها فوراً. خرج سِيِرو مثل البرق باتجاه تشايناتاون، وحين وصل إلى منزل آل شيين وجد الأسرة الصغيرةَ مجتمعة حول سرير لين ، ساكنين كما لو أنّهم في وضعية الرسم للوحة مأساوية. في اللحظة الأولى هزّته رعشة أمل مجنون حين رأى كلَّ شيء نظيفاً مرتّباً، دون أيّ أثر للولادة، للخرق المتسخة أو

لرائحة الدم، لكنّه رأى بعدها الحزن على وجوه تاو شيين وإليثا و«محظوظ». صار الهواء في الغرفة خفيفاً، استنشق سِبِرو بعمق، وهو يكاد يختنق، كما لو أنه في أعلى جبل. اقترب مرتعشاً من الفراش ورأى لين ممدّدةً ويديها على صدرها، مطبقة الأجفان، شفافة الملامح: تمثال جميل من المرمر رماديّ اللون. أخذ يدها، القاسية والباردة مثل الجليد، وانحنى فوقها، فلاحظ أنّ تنفّسها يكاد لا يُحسُّ، وهي مزرقّة الشفتين والأصابع، قبّلها على كفّها بحركة لا نهاية لها، وبلّلها بدموعه، يهزمه الحزن. تمكّنت من التمتمة باسم ماتيّاس، وتنهّدت على الفور مرّتين، ومضت بالخفّة التي عبرت بها طافيةً في هذا العالم. صمتٌ مطلق استقبلَ لغزَ الموت وانتظروا خلال زمن يصعب قياسه جامدين، بينما روح لين تُنهي صعودَها. شعر سِبِرو بصرخةٍ طويلة تنبثق من أعماق الأرض وتخترقه من قدميه حتى فمه، لكنّها لا تتمكّن من الخروج من بين شفتيه. الصرخة غزته من داخله، وشغلت كيانه كاملاً، وانفجرت داخل رأسه انفجاراً أخرس. بقي هناكَ، راكعاً بجانب سرير لين بلا صوتٍ، غير مصدّق أمام القدر الذي انتزع منه بغتة المرأة التي حلم بها لسنواتٍ، وأخذها تماماً في الوقت الذي اعتقد أنّه حصل عليها. بعد برهة أبديّة شعر بهم يلمسونه على كتفه، ووجد نفسه أمام عيني تاو شيين المتغيّرتين، «حسن، حسن»، بدا له أنّه يتمتم، ورأى إلى الخلف منه إليثا سومّرز و«محظوظ»؛ يجهشان متعانقين، فعلم أنّه دخيل على ألم تلك الأسرة. عندئذ تذكّر الطفلةَ. ذهب إلى مهدِ الفضّة مترنّحاً مثل سكران، أخذ الصغيرةَ أورورا بين ذراعيه، حملها حتى السرير وقرَّبها من وجه لين، كي تقولَ وداعاً لأمّها. ثمّ جلسَ وهي في حضنه يهدهد لها دون عزاء.

حين علمت باولينا دِل بالْيِه أنّ لين سومّرز قد ماتت، غمرتها موجة من السعادة، واستطاعت أن تُطلِق صيحة انتصار، قبل أن يجعلها الشعور بالعار من ذلك الشعور الخسيس ترتعب. دائماً رغبت بأن يكون لها ابنة. فمنذ حبلها الأوّل حلمت بالطفلة التي تحمل

اسمها، باولينا، وتكون أفضل صديقة ورفيقة لها. ومع كلّ واحد من الذكور الذين أنجبتهم شعرت بالخيبة، لكن الآن وهي في مرحلة النضج من حياتها، تسقط هذه الهديّة في حضنها: حفيدة تستطيع أن تُربيها كابنة لها، وشخص تقدّم إليه كلّ الفرص التي يمكن للحبّ والمال أن يمنحاه له، كما كانت تُفكّرُ، أحد يرافِقها في شيخوختها. مع خروج لين سومّرز من الإطار، تستطيع أن تحصل على الصغيرة باسم ماتيّاس. كانت تحتفل بضربة الحظ المفاجئة بفنجان من الشوكولاتة وثلاث قطع حلوى بالكريما، حين ذكّرها وليامز بأنّ الصغيرة تظهر شرعاً كابنة لِسِبِرو دِل بالْيِه، الشخص الوحيد الذي له الحقّ بأن يقرِّرَ مستقبلَها. هذا أفضل، خلُصت هي، لأنّ ابن أخيها موجود على الأقل هناك، بينما إحضار ماتيّاس من أوروبا وإقناعه بالمطالبة بابنته ستكون مهمّة طويلة الأجل. لم تتوقع مطلقاً ردّ فعل سِبِرو حين شرحت له خططها.

ـ شرعيّاً أنت والد الطفلة، وبذلك تستطيع أن تأتي بها غداً بالذات إلى هذا البيت ـ قالت باولينا.

ـ لن أفعل هذا يا عمّتي. سَيُبقي أبوا لين على حفيدتهما معهما، بينما أذهب أنا إلى الحرب؛ يريدون أن يُربّوها، وأنا موافق على ذلك ـ ردّ ابن الأخِ بنبرةٍ حاسمة لم تسمعها منه من قبل.

ـ هل أنت مجنون؟ لا نستطيع أن نترك حفيدتي بين يدي إليثا سومّرز وهذا الصيني ـ هتفت باولينا.

ـ ولم لا؟ هما جدّاها.

ـ هل تريدها أن تتربّى في تشايناتاون؟ نحن نستطيع أن نمنحها التربية، والفرص، والرفاهية، وكنية محترمة. ولا شيء من هذا يستطيعان هما أن يمنحاها.

ـ سيمنحانها الحبّ ـ ردّ سِبِرو.

ـ وأنا أيضاً! تذكّر أنّك مدين لي بالكثير يا ابن أخي. هذه هي فرصتُك كي تردّ لي جميلي، وتفعل شيئاً من أجل هذه الطفلة الصغيرة.

ـ آسف جدّاً يا عمّتي، لقد حُسم الأمر. أورورا ستبقى مع جدّيها لأمّها.

باولينا دِل بالْيِه وقعت في واحدة من إغماءاتها الكثيرة المفتعلة في حياتها. لم تكن تعتقد أنّ ابن أخيها الذي كانت تفترض أنّه حليفها غير المشروط وصار ابناً آخر لها، يمكنه أن يخونها بمثل تلك الطريقة الحقيرة. صرخت كثيراً، شتمت، فكّرت عبثاً، اختنقت، مما اضطر وليامز أن يستدعي طبيباً، كي يمنحها جرعة مهدِّئة متناسبة مع حجمها، وينومها برهة جيّدة. وحين استيقظت بعد ثلاثين ساعة، كان ابن أخيها قد صار على ظهر السفينة البخارية التي ستحمله إلى تشيلي. وقد استطاع زوجها ووليامز الوفي أن يُقنعاها بأنّ الحالة لا تستدعي اللجوء إلى العنف، كما كانت تُفكِّرُ، لأنّه مهما كانت العدالة فاسدة في سان فرانسيسكو؛ فليس هناك من ممسك قانوني لانتزاع الطفلة من جدّيها لأمّها، آخذين بعين الاعتبار أنّ الأب المزعوم قد حدّد ذلك كتابةً. واقترحوا عليها ألاّ تلجأ لاستخدام وسيلتها المطروقة بتقديم المال مقابل الطفلة، لأن ذلك يمكن أن ينقلب عليها، ويصيبها مثل حجر على الأسنان. الطريق الوحيدة الممكنة هي الدبلوماسية ريثما يعود سِبِرو دِل بالْيِه، وعندئذ يمكنهم أن يتوصّلوا إلى اتفاق معه، هكذا نصحاها، لكنّها لم تَشَأ أن تستمع للعقل، ومثلت بعد يومين في قاعة شاي إليثا سومّرز ومعها اقتراح، كانت واثقة أنّ الجدّة الأخرى لايمكن أن ترفضه. استقبلتها إليثا في ثياب الحداد على ابنتها، لكن كانت مُنارة بعزائها بحفيدتها، التي تنام بهدوء إلى جانبها. وحين رأت مهد الفضّة الذي كان لأولادها منصوباً هناك بجانب النافِذة انتفضت باولينا، لكنّها تذكّرت على الفور بأنّها هي التي سمحت لوليامز أن يُسلّمه إلى سِبِرو، فعضّت على شفتيها. فهي ليست هناك كي تتشاجر من أجل مهدٍ، مهما كانت قيمته، بل كي تناقش موضوع حفيدتها. «لا يكسب من يملك الحق، بل من يُحسن المساومة»، هكذا اعتادت أن تقول. وفي هذه الحال لم يبدُ لها جليّاً أنّ الحقّ كان إلى

جانبها وحسب، بل إنّه ما من أحدٍ يستطيع أن ينتصر عليها بالمساومة.

أخرجت إليثا الطفلة من المهد وأعطتها إليها. فأمسكت باولينا تلك الصرّة المنمنمة، الخفيفة إلى حدّ بدا لها أنّها مجرّد لفّة من الخرق، وظنّت أنّ قلبها انفجر بشعور جديد تماماً. «يا إلهي، ياإلهي»، ردّدت مذعورة أمام تلك الرقّة المجهولة التي طرّت ركبتيها، واخترقها نحيب في صدرها. جلست على كرسيّ كبير مع حفيدتها شبه الضائعة في حضنها الهائل، تُهدهِد لها، بينما إليثا سومّرز ترتّب الشاي والحلوى التي كانت تقدِّمها إليها أيّام كانت واحدة من أكثر زبائنها مواظبة في محل الحلويات. وفي تلك اللحظات استطاعت باولينا دِل بالْيه أن تستعيد أنفاسها من الانفعال، وتضع مدفعيتها في وضعية الهجوم. بدأت بتقديم التعازي على وفاة لين، ثم واصلت بقبول أنّ ابنها ماتيّاس كان دون شكّ أبا أورورا، إذ يكفي النظر إلى المخلوقة لمعرفة ذلك: إنّها مثل جميع آل رودريغِث دِ سانتا كروث و دِل بالْيه. وقالت إنها تأسف كثيراً لأن ماتيّاس في أوروبا لأسبابٍ صحّية ولم يستطع بعد أن يُطالب بالطفلة. ثم طرحت رغبتها بالاحتفاظ بالحفيدة نظراً لأنّ إليثا تعمل كثيراً، ووقتها ضيقٌ، وإمكاناتها أقل، ولا شكّ أنّ من المُحال عليها أن تمنح أورورا مستوى الحياة ذاته الذي سيكون لها في بيتها في نوب هيل. قالت لها ذلك بنبرة من يصنع معروفاً، مخفية رغبتَها، التي تضغط على حنجرتها، ورعشةَ يديها. فردّت إليثا سومّرز بأنّها تشكرها على اقتراحها الكريم، لكنّها واثقة من أنّها تستطيعُ مع تاو شيين أن تأخذ لاي ـ مينغ على عاتقهما، تماماً كما طلبت لين قبل وفاتها. وأضافت أنّ باولينا ستلقى الترحاب في حياة الطفلة طبعاً .

ـ علينا ألاّ نخلق إرباكاً حول أبوّة لاي ـ مينغ ـ أضافت إليثا سومّرز ـ فكما أكّدتِ أنتِ وابنك قبل أشهر، لم يكن له أي علاقة مع لين. تتذكّرين أنّ ابنك قد أعلن بوضوح أنّ أبا الطفلة يمكن أن يكون أيّ واحدٍ من أصدقائه.

ـ هذه أشياء تقال في حماس الشقاق يا إليثا. وماتيّاس قال ذلك دون تفكير... ـ تلعثمت باولينا.

ـ مجرّد أن لين تزوّجت من سِبِرو دِل بالْيِه هذا يبرهن على أنّ ابنك قال الحقيقة يا باولينا. ليس بين حفيدتي وبينك أيّة رابطة دم، لكنّني أكرِّر أنّ باستطاعتك أن تريها حين ترغبين. فكلّما ازداد عدد الناس الذين يحبونّها كان ذلك أفضل لها.

في نصف الساعة التالية تواجهت المرأتان مثل مصارعتين، كلّ واحدة بأسلوبها. فقد انتقلت باولينا من المجاملة إلى العدوانية، ومن الرجاء إلى وسيلة الرشوة اليائسة، وحين فشل كلّ ذلك انتقلت إلى التهديد، دون أن تتزحزح الجدّةُ الأخرى ولا حتى نصف سنتيمتر عن موقفها، باستثناء أنها قامت لتأخذ الطفلة بنعومة وتعيدها إلى المهد. لم تدرِ باولينا متى صعد الغضب إلى رأسها، وفقدت السيطرة على الحالة تماماً، وانتهت إلى الزعيق بأنّ إليثا سومّرز سترى من هم آل رودريغِث دِ سانتا كروث، وكم من السلطة لها في تلك المدينة، وكيف يستطيعون أن يحطّموا تجارة حلواها التافهة، وصِينيَّها أيضاً، وأنه ليس من مصلحة أحدٍ أن يتحوّل إلى عدوٍّ لِباولينا دِل بالْيِه، وأنّها عاجلاً أم آجلاً ستنتزع منها الصغيرة، وتستطيع أن تكون متأكِّدة من هذا تماماً، لأنّه لم يولَد بعد من يقف في وجهها. وبضربةٍ من يدها كنست فناجين الخزف الرقيقة، والحلوى التشيلية التي حطّت على الأرض في غيمة من السكر غير محسوسة، وخرجت تزمجر مثل ثور مصارعةٍ. وما أن صارت في العربة، والدم يطرق صدغيها، والقلب يرفس تحت طبقات شحمها المشدودة بالمِشدّ، حتى راحت تبكي كما لم تبكِ من قبل، منذ أن وضعت مرتاجاً لباب غرفتها وأصبحت وحيدة في السرير الأسطوري الهائل. تماماً كما خانتها في تلك اللحظة أفضل أدواتها: مهارتها في المساومة التي تشبه مهارة تاجر عربي، وجاءتها بنجاحات كثيرة في جوانب أخرى من الحياة. ولأنّها طمحت أكثر من اللازم فقد خسرت كلّ شيء.

القسم الثاني

1896 - 1880

هناك صورة لي وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري، الوحيدة التي تخطت خطوب القدر وقرار باولينا دِل بالْيِه بمحو أصولي. إنّها قطعة كرتون متآكلة في إطار رحلات، إطار قديم على شكل علبة من القطيفة والمعدن، التي كانت دارجة جدّاً في القرن التاسع عشر وما من أحدٍ يستخدمها الآن. يمكن أن تُشاهد في الصورة مخلوقة صغيرة جدّاً، مزوّقة على طريقة العرائس الصينية، في دثار طويل من الساتان المطرّز وتحته بنطلون من لون آخر، تنتعل حذاءاً رقيقاً مركباً على لبّاد أبيض محميّ بشريحة رقيقة من الخشب، شعرها داكن منفوش في كعكة عالية أكثر من اللازم بالنسبة لحجمها مسندة بمشبكين غليظين، ربّما من ذهب أو فضّة، يربط بينهما إكليل من الزهر. تُمسك الصغيرة بيدها مروحةً ويمكن أن تكون مبتسمة، لكنّ تقاسيمها لا تكاد تُميَّزُ، فالوجه مجرّد قمر ساطع، والعينان بقعتان سوداوان. ويُلمَحُ خلف الطفلة رأسُ تنين من ورق ونجوم ألعاب نارية متلألئة. وقد التُقِطَت الصورةُ خلال الاحتفال بالسنة الصينية الجديدة في سان فرانسيسكو. لست أتذكّر تلك اللحظة، ولا أتعرّف على طفلة هذه الصورة الوحيدة.

بينما أمّي لين سومّرز تظهر في عددٍ من الصور أنقذتُها من النسيان بالعناد والعلاقات الطيّبة. لقد ذهبتُ إلى سان فرانسيسكو منذ سنوات لأتعرّف على خالي «محظوظ» وتفرّغتُ للمرور على

مكتبات واستوديوهات مصوّرين قديمة باحثة عن تقاويم وبطاقات بريدية كانت تقف من أجل التقاطها لها؛ ما زلتُ أتلقى بعضها حين يعثر عليها خالي «محظوظ». كانت أمّي جميلة جدّاً، هذا كلّ ما أستطيع قوله عنها، لأنّني أيضاً لا أعرفها في هذه الصور الوجهية. لا أتذكّرها، طبعاً، لأنّها ماتت حين وُلِدتُ، لكنّ امرأة التقاويم غريبة، لا شيء عندي منها كي أتمكّن من أراها كأمٍّ لي، بل كمجرّد لَعِبٍ بالنور والظلّ على الورق. كما أنّها لا تبدو أختاً لخالي «محظوظ»، فهو صينيّ قصير الساقين، كبير الرأس، ذو مظهر عاديّ، لكنّه شخص طيّب جدّاً. إنني أشبه أبي أكثر، لي هيئته الإسبانية، وللأسف لم آخذ من عرق جدّي الرائع تاو شيين إلا القليل جدّاً، ولو لم يكن هذا الجدّ هو الذكرى الأنقى والأبقى من حياتي، والحب الأقدم الذي تحطّم عليه كلّ الرجال الذين عرفتهم، لأنّه ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يساويه، ما كنتُ لأومن بأنّني أحمل دماً صينيّاً في عروقي. فتاو شيين يعيش معي دائماً. أستطيع أن أراه، ممشوقاً، رشيقاً، ثيابه دائماً تامّة الأناقة، رمادي الشعر، دائريّ النظارات، وفي عينيه اللوزيتين نظرة طيبة لا محيد عنها. في استحضاري له يبتسم دائماً، وأحياناً أسمعه يُغنّي لي بالصينية. يطوف بي، يرافقني، يقودني، تماماً كما قال لجدّتي إليثا أن تفعل بعد موته. توجد صورةٌ داغرتييب لهذين الجدّين حين كانا شابّين، قبل زواجهما: هي جالسة على كرسي لها ظهر عالٍ وهو واقف خلفها، وكلاهما يرتدي ثياباً على الطريقة الأمريكية في ذلك الوقت، ينظران إلى الكاميرا أمامهما بتعبير ضبابي مبهم. هذه الصورة، المنقَذَة أخيراً، موجودة على طاولة غرفة نومي، وهي آخر ما أراه قبل أن أطفئ المصباح كلّ ليلة، لكنني أتمنى لو كانت معي في طفولتي، حين كنتُ بأمسِّ الحاجة لوجود هذين الجدّين.

مذ صرت أستطيع التذكّرَ عذّبني الكابوس ذاته. تُلازمني صور هذا الحلم المتواصلُ طوالَ ساعات، مضيّعةً عليّ يومي وروحي؛ هو دائماً المشهد ذاته: أسيرُ في شوارعِ مدينةٍ مقفرة، مجهولة وغريبة، أمضي ممسكة بيدِ شخصٍ ما لا أتمكّن أبداً من تبيُّنِ وجهه، فقط أرى

ساقيه ومقدمة نعليه اللامعين. وسرعان ما يحيط بنا أطفال في بيجامات سوداء يرقصون رقصةً متوحشة. وبقعة داكنة، ربّما كانت دماً، تنتشر على حجارةِ الأرض، بينما دائرة الأطفال تنغلق بلا رحمة، وهم في كلّ مرّة أكثر تهديداً، حول الشخص الذي يمسكني من يدي. يُحدِقون بنا، يدفعوننا، يشدّوننا، يفصلوننا، أبحثُ عن اليد الصديقة فأجدُ الفراغَ. أصرخُ بلا صوتٍ، أسقط بلا ضجيج وعندئذٍ أستيقظ وقد سقط قلبي منّي. أقضي أحياناً عدَّةَ أيام صامتةً، تضنيني ذكرى الحلم، أحاوِل أن أنفذ من طبقات اللغز التّي تلفّه، عسى أن أكتشف بعض التفاصيل، غير المحسوسة حتى ذلك الوقت، فتمنحني مفتاح معناه. أعاني في هذه الأيّام من نوع من الحمّى الباردة ينغلق فيها جسدي ويُحاصَرُ عقلي في أرض شَديدة البرودة . في هذه الحالة من الشلل كنتُ خلال الأسابيع الأولى في بيت باولينا دِل بالْيِه.
لقد كنتُ في الخامسة من عمري حين حملوني إلى قصر نوب هيل ولم يُكلّف أحد نفسه عناء أن يشرح لي لماذا انقلبت حياتي فجأة انقلاباً مأساويّاً، أين هما جدّاي إليثا وتاو، من هي تلك السيّدة الضخمة المغطاة بالمجوهرات التي تراقِبني من فوق عرشها بعينين مليئتين بالدموع. ركضتُ كي أحشر نفسي تحت طاولة، وبقيت هناك مثل كلبٍ ضُرِبَ بالعصي، حسب ما حكوا لي. في تلك المرحلة كان وليامز هو رئيس خدم آل رودريغِث دِ سانتا كروث ـ في الحقيقية أتعذّبُ كثيراً بتذكّره ـ وهو من خطر له في اليوم التالي حل المسألة بأن يضع لي الطعامَ في صينيّة مربوطة بحبل رفيع؛ وراحوا يشدّون الحبل قليلاً وأنا رحتُ أتجرجر خلف الصينية حين لم أعد أستطيع تحمّل الجوع أكثر، إلى أن تمكّنوا من سحبي من مخبئي؛ ولكنّني في كلِّ مرّةٍ كنتُ أستيقظُ فيها على الكابوس أعودُ وأختبئ تحت الطاولة. دامَ هذا عاماً، إلى أن جئنا إلى تشيلي وانقشعت عنّي هذه العادة الغريبة خلال ذهول السفر واستقرارنا في سانتياغو.

كابوسيَ بالأبيض والأسود، صامت، وحتمي، له خاصّية أبدية. أفترضُ أنّني أصبحت أملك من المعلومات ما يكفي لمعرفة مفاتيح معناه، ولكنّ هذا لا يعني أنّه ما عاد يعذّبني. أنا مختلفة بسبب

أحلامي، مثل أولئك الناس الذين بسبب مرض أو تشوّه ولاديّ عليهم أن يقوموا بجهدٍ متواصل كي يعيشوا حياةً عاديّة. تظهر عليهم علامات مرئيّة، علامتي لا تُرى لكنّها موجودة، أستطيع أن أقارنها بنوبات الصرع التي تهجم فجأة وتخلّف أثراً من الارتباك. أنامُ في الليل خائفةً، لا أدري ماذا سيجري في نومي ولا كيف سأستيقظ.
جرّبت عدّة وسائل ضدّ شياطينيَ الليلية، بدءاً من ليكور البرتقال مع قطرات قليلة من الأفيون وحتى غيبوبة التنويم المغناطيسي وأشكال أخرى من السحر الأسود، لكن ما من شيء يضمن لي حلماً وديعاً، باستثناء الرفقة الطيّبة. فالوسيلة الوحيدة المضمونة حتى الآن هي أن أنام مضمومةً. يجب أن أتزوَّجَ، كما ينصحني جميع الناس، لكنّني فعلت ذلك مرّة وكانت مصيبةً، ولا أستطيع أن أغوي القدر من جديد. في الثلاثين من عمري وأنا دون زوج، وأنا أقل من قبيحة بقليل، تنظر إليَّ صديقاتي بإشفاق، وإن كان بعضهنّ يُغبطنني على استقلاليتي. لستُ وحدي، عندي حبّي السريّ، بلا قيودٍ ولا شروط، وهذا سبب للفضيحة في أيّ مكان، وخاصّة هنا حيث قُدِّر لي أن أعيش. لست عازبة ولا أرملة ولا مُطلّقة، أعيشُ في برزخ «المنفصلات»، حيث ستنتهي سيّئات الحظ اللواتي يُفضّلن السخرية العامّة على العيش مع رجل لا يُحببنه. فأيّة طريقة أخرى يمكن العيش بها في تشيلي، حيث الزواج أبديّ وحتميّ؟ في بعض الصباحات الاستثنائية، حين يكون جسد حبيبي وجسدي رطبين من العرق، وطراوة الأحلام المشتركة ما تزال تقبع في تلك الحالة من رقّة شبه الوعي المطلقة، سعيدين وواثقين مثل طفلين نائمين، نقع في إغواء التكلّم عن زواجنا، عن ذهابنا إلى مكانٍ آخر، إلى الولايات المتحدة مثلاً، حيث يوجد فضاء كثير ولا أحد يعرفنا، كي نعيش معاً مثل أيّ زوجين عاديين، لكنّنا نستيقظ بينما الشمس تُطلّ من النافذة فلا نعود لنذكره، لأنّ كلينا يعرف أنّنا لا نستطيع العيش في مكانٍ آخر. إنما فقط في تشيلي الكوارثِ الجيولوجيةِ والصغائرِ الإنسانيةِ، لكنّها أيضا تشيلي البراكينِ الشديدة والقمم المثلجة، والبحيرات المغرقة في القدم المزروعة بالزمرّد، والأنهار المزبدة والغابات الفوّاحة، البلد الضيّق مثل شريط، وطن الناس الفقراء الذين

ما يزالون أبرياء على الرغم من كلّ التماديات وتنوّعاتها. **لا هو** يستطيع الذهاب، ولا أنا أتعبُ من تصويره. أودّ أن يكون عندي أولاد، هذا صحيح، لكنّني قبلت أخيراً أنّني لن أصبح أمّاً أبداً؛ لستُ عاقراً، بل خصيبة في جوانب أخرى. نيبيا دِل بالْيِه تقول إنّ الكائن البشري لا يُعرَّف بقدرته على الإنجاب، وهو ما يبدو سخرية لأنّها تصدر عنها، فقد أنجبت اثني عشر صبيّاً. لكن ليست المسألة هنا للكلام عن الأولاد الذين لن يكونوا لي أو عن حبيبي، بل عن الأحداث التي تُحدّد من أكون. أدرِك أنني في كتابة هذه المذكرات عليّ أن أخون آخرين، وهذا شيء حتمي. «تذكّري أن الثياب الوسخة تُغسل في البيت»، هذا ما يُردّده عليّ سِبِرو دِل بالْيِه الذي تربّى مثلنا جميعاً تحت هذا الشعار. بالمقابل تنصحني نيبيا: «اكتبي بنزاهة ولا تهتمّي بمشاعر الآخرين، فهم سيكرهونك في جميع الأحوال ولتقولي ما تقولين». لنتابِعْ إذن.

أمام استحالة القضاء على كوابيسي، أحاول على الأقل أن أستخلص منها فائدة ما. لقد تبيّنتُ أنّني بعد ليلةٍ مضنية أبقى مهلوسةً ومتوقدةً، حالة مثالية للإبداع. أفضل صوري التقطها في مثل تلك الأيّام، حين تكون رغبتي الوحيدة أن أحشر نفسي تحت الطاولة، تماماً كما كنتُ أفعلُ في الأيام الأولى في بيت جدّتي باولينا. حلم الأطفال ذوي البيجامات السوداء قادني إلى التصوير، أنا واثقة من ذلك. كان أوّل ما خطر ببالي حين أهداني سِبِرو دِل بالْيِه كاميرا، هو أنّني لو استطعت تصوير هذه الشياطين، لهزمتهم. وفي الثالثة عشرة من عمري حاولت ذلك مرّاتٍ كثيرة. ابتدعتُ أنظمة معقّدة من الدواليب الصغيرة والحبال لأشغِّلَ كاميرا ثابتة بينما أنا نائمة، إلى أن بدا واضحاً أنّ هذه المخلوقات الضارّة منيعة على هجوم التكنولوجيا. فحين يُراقب شيءٌ أو جسدٌ ما ذو مظهر شائع باهتمامٍ حقيقيّ يتحوّل إلى شيءٍ مقدَّس. الكاميرا تستطيع أن تكشف عن أسرارٍ لا تلتقطها العين المجرّدة أو العقل، كلُّ شيء يختفي إلاّ الشيء المرصود في البؤرة. التصوير هو تمرين على المراقَبَة، والنتيجة دائماً ضربةُ حظّ؛ بين آلاف وآلاف المسودات التي تملأ

الأدراج عندي في الأستوديو قليل جدّاً ما هو استثنائي منها. خالي «محظوظ» شيين سيشعر بخيبة صغيرة لو علم كم كان ضعيفاً تأثير نَفَسه، نَفَس الحظ السعيد في عملي. الكاميرا جهاز بسيط، يستطيع أقل الناس كفاءة استخدامه، والتحدي يكمن في إبداع التركيب بين الحقيقة والجمال الذي يُسمّى الفنّ. هذا البحثُ روحيٌّ فوق كلّ شيء. أبحث عن الحقيقة والجمال في شفافيةِ ورقةٍ في الخريف، في الشكل التام لحلزون على الشاطئ، في انحناءة ظهر أنثوي، في نسيج جذع شجرةٍ قديم، لكن أيضاً في أشكالٍ أخرى فرورة من الواقع. أحياناً تظهر أثناء العمل على صورة في غرفتي المظلمة روحُ الشخص، انفعال حادثٍ أو الجوهر الحيوي لشيء ما، وعندئذٍ ينفجر العرفان في صدري وأطلق النحيبَ، لا أستطيع تفاديه. ونحو هذا الكشف تُصَوِّبُ مهنتي.

ملك سِبِرو دِل بالْيِه عدّة أسابيع من الإبحار كي يبكي لين سومّرز ويُفكّر فيما ستصير إليه بقيّةُ حياته. كان يشعر بنفسه مسؤولاً عن الطفلة أورورا، وقد حرَّر قبل أن يُبحِر وثيقة يعودُ بموجبها الإرثُ القليل الذي كان سيتلقاه من والده ومدّخراته مباشرةً إليها في حال وفاته. تتلقّى خلال ذلك الفوائدَ كلّ شهر. كان يعلم أنّ والديّ لين سيعتنون بها أفضل من أيّ شخص آخر، ويَفترِضُ أنّه مهما بلغَ جبروت عمّته باولينا فإنّها لن تحاوِل أن تنتزعها منهما بالقوّة، لأنّ زوجها لن يسمح أن تتحوّل القضيّةُ إلى فضيحة علنية.

خلُص سِبِرو الجالس في مُقدّمة السفينة، ضائعَ النظرة في البحر اللانهائي، إلى أنّه ما من شيء سيواسيه عن فقدان لين. لم يكن يرغب بالعيش دونها. أن يموتَ في المعركة ذلك أفضل ما يقدّمه له المستقبلُ: كلّ ما يطلبه هو أن يموت قريباً وبسرعةٍ. لقد شغل حبُّه للين وقراره بمساعدتها وقتَه واهتمامَه خلال أشهر، لذلك أرجأ العودةَ يوماً بعد يوم، بينما جميع التشيليين من عمره سجّلوا أنفسهم جماعياً للقتال. على متن السفينة كان يذهب عددٌ من الشباب للغاية ذاتها التي يذهب هو لأجلها: الانضمام إلى الصفوف ـ ارتداء الزي

العسكري كان مسألة شرف ـ وكان يجتمع معهم ليُحلّلوا أخبارَ الحرب المنقولة برقيّاً. انتهى سِبِرو خلال السنوات الأربع التي قضاها في كاليفورنيا إلى أن اجتثّ من بلده، وجاءت استجابته لنداء الحرب كشكلٍ من أشكال الاستسلام لألمه، دون أن يشعر بأيّ حماس حربيّ. ومع ذلك، وكلما توغّلت السفينة باتجاه الجنوب راح يُصاب بعدوى حماس الآخرين. عاد ليفكّر بخدمة تشيلي، كما رغب في مرحلة المدرسة، حين كان يُناقِش في شؤون السياسة في المقاهي مع طلاّب آخرين. وافترض أنّ رفاقه القدماء لا بدّ يُقاتلون منذ شهور، بينما هو يدور حول سان فرانسيسكو منذ ساعة كي يزور لين سومّرز ويلعب *الماه* ـ جونغ. كيف يستطيع أن يُبرِّر مثل هذا الجبن أمام أصدقائه وأقربائه؟ كانت صورة نيبيا تنقضّ عليه خلال هذه التخيّلات. لن تتفهّم ابنة عمّه تأخّره في العودة للدفاع عن الوطن، فهو واثق من أنّها لو كانت رجلاً لكانت أوّل من غادر إلى الجبهة. لحسن الحظّ أنّه لا مجال معها للتوضيحات، فقد كان يأمل أن يموتَ مخرّماً بالرصاص قبل أن يعودَ ليراها، وكان يحتاج من الشجاعة لمواجهة نيبيا، بعد أن أساء التصرّف معها، ما يفوق حاجته منها لقتال أشدّ الأعداء ضراوةً. كانت السفينة تتقدّم ببطءٍ مثيرٍ للأعصاب، وبهذه الطريقة سوف تصل إلى تشيلي بعد أن تنتهي الحربُ. كان واثقاً من أنّ النصرَ سيكون حليف أتباعه، على الرغم من تفوّق العدوّ العددي وعدم كفاءة القيادة العسكرية التشيلية المتكبّرة؛ فالقائد العام للجيش وأميرال الأسطول عجوزان لم يتمكّنا من الاتفاق على أدنى استراتيجيّة، ولكنّ التشيليين كانوا أكثر انضباطاً عسكرياً من البيروويين والبوليفيين. «كان من الضروري أن تموتَ لين كي أقرِّرَ العودةَ إلى تشيلي لأقوم بواجبي الوطني، أنا قملة». راح يدمدم في داخله، شاعراً بالعار.

كان ميناء بالبارايسو يتلألأ في نور كانون الأوّل المشع عندما رست الباخرةُ في الخليج. حين دخلوا مياه البيرو وتشيلي الإقليمية لمحوا بعض بواخر أسطولي البلدين تقوم بمناورات، لكنّ الحرب لم تنجلِ لهم قبل أن يرسو في بالبارايسو. كان مظهر الميناء مُختلِفاً

عمّا يتذكّره سِبِرو. فالمدينة قد تعسكرت، وهناك قوّات مجمعة تنتظر نقلها، والعلم التشيلي يرفرف على المباني؛ وتلاحظ حركة كبيرة بين القوارب وزوارق القَطْرِ حول عددٍ من سفن الأسطول، بينما تندر سفن الركّاب. كان الشابُ قد أعلن لأمّه عن تاريخِ وصوله، لكنّه لم يكن يأمل أن يراها في الميناء، لأنّها تعيشُ منذ سنتين في سانتياغو مع أولادها الصغار، والسفر من العاصمة بالنتيجة مزعجٌ جدّاً. للسبب ذاته لم يُزعج نفسه بالنظرِ في الميناء بحثاً عن أناسٍ يعرفهم، كما كان يفعل معظم المسافرين. أخذ حقيبته، وأعطى بحّاراً بعض النقودِ كي يأخذ على عاتقه أمر صناديقه، وهبط على المعبرِ مستنشقاً ملء رئتيه الهواء المالح للمدينة التي وُلِدَ فيها. حين وطئ الأرض راح يترنّح مثل سكران، فقد اعتاد خلال أسابيعِ الإبحارِ على ترنّحِ الأمواجِ، والآن يستصعبُ السير على اليابسة. استدعى حمّالاً بالصفير كي يُساعده في حمل أمتعته، واستعدّ للبحث عن عربة تقوده إلى بيتِ جدّته إميليا، حيث فكّر أن يمكث ليلتين ريثما يتمكّن من الالتحاق بالجيش. في تلك اللحظة شعر بأن هناك من يلمس ذراعَهُ. التفت مندهشاً فوجد نفسه وجهاً لوجهٍ أمام آخر من كان يرغب برؤيته في هذا العالم: ابنة عمّه نيبيا. احتاج لثانيتين كي يتعرّف عليها ويفيق من دهشته. لقد تحوّلت الفتاةُ التي خلّفها وراءه قبل أربع سنواتٍ إلى امرأة مجهولة، قصيرة دائماً، لكنّها أكثر نحولاً وأحسن تكويناً. الشيء الوحيد الذي بقي دون أن يمسّ هو تعبير وجهها الذكيّ والمركّز. كانت ترتدي فستاناً صيفيّاً من التفتا الأزرق وقبّعة قشٍّ لها أنشوطة قطنية بيضاء كبيرة معقودة تحت ذقنها، تُؤَطّر وجهها البيضويَّ ذا التقاسيم الناعمة، حيث تلمع عيناها السوداوان القلقتان واللعوبتان. كانت وحدها. لم يتمكّن سِبِرو من السلام عليها، وبقي ينظرُ إليها فاغرَ الفم، إلى أن عادت إليه نباهته وتمكّن من سؤالها، مرتبكاً، عمّا إذا تلقّت رسالتَه الأخيرة، وكان يشير إلى تلك التي أعلن فيها زواجه من لين سومّرز. وبما أنّه لم يكتب إليها منذ ذلك الوقت افترض أنّها لم تكن تعرف شيئاً عن موت لين أو ولادة أورورا لم يكن باستطاعة ابنة عمّه، أن تتكهّن بأنّه صار أرملَ وأباً دون أن يُصبح زوجاً قط.

- سنتكلّم عن هذا فيما بعد، لكن دعني الآن أرحبّ بك. فهناك عربة تنتظرنا - قاطعته.

ما إن وُضِعت الصناديق في العربة حتى أمرت نيبيا الحوذيّ بأن يقودهم متمهلاً عبر كورنيش البحر، فهذا يفسح لهما المجال كي يتكلّما قبل الوصول إلى البيت، حيث تنتظره بقيّة الأسرة.

- تصرّفتُ معك دون ضمير يا نيبيا. الشيء الوحيد الذي أستطيعُ أن أقوله لصالحي هو إنّني لم أشَأْ قط أن أجعلك تُعانين - همس سِبِرو دون أن يجرؤ على النظر إليها.

- أعترف أنّني كنت حانقة عليك يا سِبِرو، وكان عليَّ أن أعضّ على لساني كيلا ألعنكَ، لكنّ حنقي ذهب. أعتقد أنّك عانيتَ أكثر منّي. حقيقةً يحزنني جدّاً ما حدث لزوجتك.

- وكيف عرفت بما حدث؟

- تلقيت برقية بالخبر، وقّعها شخص يُدعى وليامز.

ردّة فعل سِبِرو دِل بالْيِه الأولى كانت الغضب، كيف يجرؤ رئيس الخدم على حشر نفسه بهذه الطريقة في حياته الخاصّة، لكنّه لم يستطع بعد ذلك أن يتفادى نزعة الامتنان له لأنّ تلك البرقية وفّرت عليه توضيحات مؤلمة.

- لا أتوقّع أن تغفري لي، بل أن تنسيني فقط يا نيبيا. أنتِ أكثر من أيّ شخصٍ آخر تستحقين أن تكوني سعيدةً...

- من قال لك إنّني أرغب أن أكون سعيدةً يا سِبِرو؟ إنّها آخر صفة يمكنني أن أستخدمها لتعريف المستقبل الذي أطمح إليه. أريد حياة مهمّة، مغامِرة، مختلفةً، حماسية، في النهاية أيّ شيء قبل السعادة.

- آه يا ابنة العم! شيءٌ رائعٌ أن يتبينّ المرءُ قلّةَ ما تغيّرتِ! على كلّ حالٍ بعد يومين سأكون راحلاً مع الجيش نحو البيرو، وبصراحة آمل أن أموتَ وأنا انتعل جزمتي العسكرية، لأنّه لم يعد لحياتي معنى.

- وابنتكَ؟

ـ أرى أنّ وليامز وضعك في كلّ التفاصيل. ألم يقُل لكِ أيضاً إنّني لستُ أبَ هذه الطفلة؟ ـ سأل سِبِرو.

ـ من يكون؟

ـ لا يهمّ. قانونيّاً هي ابنتي. إنّها بين أيدي جدَّيْها ولن ينقصها المال فقد تركتها محميّة تماماً.

ـ وما اسمها؟

ـ أورورا.

ـ أورورا دِل بالْيِه... اسم جميل. حاوِلْ أن تعودَ من الحرب كاملاً يا سِبِرو، لأنّ هذه الطفلة ستصبح حين نتزوّج ابنتنا الأولى. ـ قالت نيبيا محمرّة خجلاً.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ انتظرتُك طوال حياتي، وأستطيع تماماً أن أستمرّ بانتظارك. لست مستعجلة، هناك أشياء كثيرة عليَّ أن أفعلها قبل أن أتزوّج. أنا أعمل.

ـ تعملين! ولماذا؟ ـ هتف سِبِرو مستنكراً، إذ ما من امرأة في أسرته أو أيّة أسرة أخرى يعرفها عملت.

ـ كي أتعلّم. خالي خوسيه فرانسيسكو تعاقد معي كي أنظّم له مكتبته، وقد أذن لي بقراءة كلّ ما أريدُه. هل تتذكّره؟

ـ معرفتي به قليلة جدّاً. أليس هو من تزوّج من وارثة كبيرة وعنده قصر في بينيا دِل مار؟

ـ هو نفسه، إنّه قريب أمّي. لا أعرف رجلاً أكثر معرفة وطيبةً منه، ثمّ إنّه فتى وسيم، وإن لم يكن مثلك. ـ ضحكت هي.

ـ لا تسخري يا نيبيا!

ـ هل كانت زوجتُك جميلةً؟ ـ سألت الفتاة.

ـ جميلة جدّاً.

ـ يجب أن تعيش الحداد يا سِبِرو. ربّما أفادتك الحربُ من أجل

هذا. يقولون إنّ النساء الجميلات جدّاً لا يُنسين أبداً، آمل أن تتعلّم على العيش دونها، وإن لم تنسها. سأُصلّي كي تعودَ وتعشق، وحبّذا لو أكون أنا المعشوقة... - تمتمت نيبيا وقد أمسكت بيده.

عندئذ شعر سِبِرو دِل بالْيِه بألمٍ رهيب في صدره، مثل سهم يخترق أضلاعه، وبانتحابٍ يُفلت من بيْن شفتيه تبعه إجهاش جامح يهزّه كاملاً، بينما راح يردِّد غاصّاً اسم لين، لين، لين، ألف مرّة لين. شدّته نيبيا إلى صدرها، وأحاطته بذراعيها الرقيقين مرِّبتة ربتةَ مواساة على ظهره، كأنّه طفل.

بدأت حربُ الباسيفيك في البحر واستمرّت على البر، بالقتال جسداً لجسد بالحراب والخناجر المعقوفة في أكثر صحارى العالم حرارةً وقسوة، في المقاطعات التي تُشكّل اليوم شمال تشيلي، وكانتِ قبل الحرب تنتمي إلى بيرو وبوليفيا. كانت الجيوش البيروية والبوليفية ضعيفة الاستعداد للمعركة، فهي قليلة العدد، سيّئة التسليح ونظام الإمداد والتموين عندها يخونها دائماً، حتى إن بعض المعارك والمناوشات قرّرها نفادُ ماء الشرب، أو غوص عجلات العربات المحملة بصناديق الرصاص في الرمل. أما تشيلي فكانت بلداً توسّعياً، ذات اقتصاد متين، تملكُ أفضل أسطولٍ بحري في أمريكا الجنوبية ولديها جيش يضمّ أكثر من سبعين ألف رجل؛ مشهورة بأنّها متحضرة في قارّة زعماؤها المحليون أفظاظ، فسادها منظّم وثوراتها دامية؛ وكانت صرامة المزاج التشيلي ورسوخ مؤسساته محطَّ حسدِ الأمم المجاورة، ومدارسُها وجامعاتها تجتذب المدرسين والطلاّب الأجانب. وكان تأثير المهاجِرين الإنكليز والألمان والإسبان قد تمكّن من فرض بعض الاعتدال في جبلة الخلاسيّ المتهوّر. وكان الجيشُ يتلقّى تدريبات بروسية ولا يعرف السلم، فخلال السنوات السابقة على حرب الباسيفيك حافظ على السلاح في يده يُقاتل في جنوب البلاد الهنودَ في منطقة لافرونتِرا، ، لأنّ ذراع التمدن قد وصلت إلى هناك، فقط حيث تبدأ وراءها أراضي السكان الأصليين العصيّة، التي لم يجرؤ

على المغامرة فيها حتى ذلك الوقت إلاّ بعض المبشرين اليسوعيين. فالمحاربون الأروكانيون العظماء الذين مازالوا يُقاتلون دون هوادة منذ أيّام الاحتلال، لا ينثنون أمام الرصاص ولا أمام أسوأ الفظائع، لكنّهم كانوا يسقطون الواحدُ تلو الآخر من الإفراط بالخمرة. كان الجنود يتدرَّبون بالقتال ضدّهم. وسرعان ما تعلّم البوليفيون والبيرويون الخوف من التشيليين، الأعداء الدمويين القادرين على أن يقضوا على الجرحى والأسرى ذبحاً بالسكين ورمياً الرصاص . أيقظَ التشيليون عند مرورهم من البغض والخوف ما حرّك كراهيةً دوليةً عنيفةً وسلسلةً لا نهاية لها من المطالب والخصومات الدبلوماسية ضدّهم، مهيّجين عند أعدائهم العزم على القتال حتى الموت، لأنّ الاستسلام لم يكن يُفيدهم. كانت القوّات البيروية والبوليفية مؤلّفة من حفنة من الضبّاط، وفرق من الجنود العاديين سيّئي التجهيز، وأفواج من السكان الأصليين المُجنَّدين بالقوّة، يكادون لايعرفون لماذا يُقاتِلون، ويهربون عند أوّل فرصة تلوح لهم. بينما الصفوف التشيلية غالبيتها من المدنيين المتحمسين للقتال كالعسكر تماماً، يُقاتلون بحماس وطني ولا يستسلمون. وكثيراً ما كانت ظروفهم جهنّمية؛ فخلال مسيرتهم في الصحراء كانوا يجرجرون وراءهم غمامة من الغبار المالح، يكاد يقتلهم العطش، والرمال تصل إلى وسط أفخاذهم، وشمس لا تعرف الرحمة تتفجّر فوق رؤوسهم، وعلى كاهلهم ثقل أكياسهم ومؤنهم، ممسكين ببنادقهم، قانطين. كان الجدري، والتيفوس وحمّى الثلث تحصد العِشْرَ؛ وكانت المستشفيات العسكرية تعجُّ بالمرضى أكثر من جرحى المعارك. حين انضمّ سِبِرو دِل بالْيِه إلى الجيش، كان أبناء بلده يحتلون أنتوفاغاستا ـ المقاطعة البحرية الوحيدة في بوليفيا ـ ومقاطعات تاراباكا وأريكا وتاكانا البيروية. وفي أواسط العام 1880 توفّي وزيرُ الحرب والبحرية بجلطة دماغية، في أوج حملة الصحراء فوضع الحكومة في إرباك تام. أخيراً عيّن الرئيس مكانه مدنيّاً، دون خوسيه فرانسيسكو برغارا، خال نيبيا، الرحالة الذي لا يكلّ والقارئ النهم، الذي قُدِّر له أن يقبض على السيف ويديرَ الحرب وهو في السادسة والأربعين من عمره. وهو من أوائل من

لاحظ أنّه بينما تتقدّم تشيلي لاحتلال الشمال، كانت الأرجنتين تنتزع منها باتاغونيا في الجنوب بصمت، لكن ما من أحد أولاه انتباهاً، لأنّهم كانوا يعتبرون أن تلك المنطقة كالقمر في عدم فائدتها. كان برغارا لامعاً، دمث الخلق، حادّ الذاكرة، يهتم بكل شيء بدءاً من النباتات وحتى الشِّعر، كان عصيّاً على الفساد، ليس عنده أيّ طموح سياسيّ. وضع الاستراتيجية الحربية بالدقة الهادئة ذاتها التي يُدير بها أموره التجارية. وعلى الرغم من عدم ثقة أصحاب اللباس العسكري به، وأمام دهشة العالم كلّه، قاد القوات التشيلية مباشرة إلى ليما. وتماماً كما قالت نيبيا: «الحربُ مسألة هي من الجدّية بحيث لا تُسلَّم للعسكر» خرجت العبارة من حضن الأسرة وتحوّلت إلى واحدة من تلك الأقوال المأثورة التي تمضي لتشكّل جزءاً من الحكايات التاريخية للبلد.

في نهاية العام كان التشيليون يستعدّون للانقضاضِ النهائي على ليما. بينما مضى أحد عشر شهراً على سِبِرو وهو يُقاتِل غارقاً في الوسخ والدم وأفظع أشكال الوحشية. تحوّلت فيها ذكرى لين سومّرز إذ ذاك إلى شظايا، وما عاد يحلم بها، بل بالأجساد الممزّقة للرجالِ الذين شاطرهم وجبة طعام البارحة. لحظات القتال تكاد تكون راحة في سأم الاستنفار والانتظار. وحين يتمكّن من الجلوس لتدخين سيجارة، يستغلّ الفرصةَ ليكتب بعض الأسطر لنيبيا بنبرة الرفاقية ذاتها التي استخدمها معها دائماً. لم يكن يتحدّث عن الحبّ، لكنّه شيئاً فشيئاً راح يُدركُ أنّها ستكون المرأة الوحيدة في حياته، وأن لين سومّرز لم تكن إلا خيالاً متطاولاً. كانت نيبيا تكتب له بانتظام، وإن لم تكن جميع رسائلها تصل إلى جهتها، لتحكي له عن الأسرة، وعن الحياةِ في المدينة، وعن لقاءاتها الغريبة مع خالها خوسيه فرانسيسكو والكتب التي ينصحها بها. أيضاً كانت تحكي له عن التحوّل الروحي الذي يهزّها، وكيف راحت تبتعد عن بعضِ الطقوس الكاثوليكية التي تبدو لها عيّنات وثنية، كي تبحث عن جذور مسيحية تكون أكثر فلسفية مما هي دوغمائية. كان يشغلها أنْ يفقد سِبِرو، الغارق في عالم فظّ ووحشيّ، احتكاكه بروحه ويتحوّل إلى

مجهول. وفكرة اضطراره للقتل راحت تصبح غير محتملة. كانت تُحاول ألاّ تُفكّر بهذا، لكنّ حكايات الجنود المخترقين بالسكاكين والأجساد المفصولة الرؤوس، النساء المُغتَصبات والأطفال المخترقين بالحراب، من المحال أن تُنسى. ترى هل يُشاركُ سِبِرو في هذه الفظاعات؟ هل يستطيع إنسانٌ يشهد على مثل هذه الأفعال أن يتكامل مع السلام، ويتحوّل إلى زوجٍ وربّ أسرة؟ هل تستطيع أن تُحبّه هي رغم كلّ شيء؟ كان سِبِرو دِل بالْيِه يتساءل الأسئلةَ ذاتها بينما فرقته تستعد للهجوم، على بعد كيلومتراتٍ قليلة من عاصمة البيرو. في نهاية كانون الأوّل كان المقاتل التشيلي جاهزاً للعمل في وادٍ جنوب ليما. كانوا قد استعدوا على مهل، وعندهم جيش كبير وبغال وخيول ومؤن وطعام وماء وعدّة زوارق شراعية لنقل القوّات، إضافة إلى أربع مستشفيات متنقلة من ستمئة سرير، وباخرتين محوّلتين إلى مستشفيين تحت علم الصليب الأحمر. أحد القادة وصل سيراً على الأقدام مع لواء لم يُمس، بعد أن اجتاز مستنقعاتٍ وجبالاً، ومَثُلَ كأميرٍ مغولي مع موكب من ألف وخمسمئة صيني مع نسائهم وأطفالهم وحيواناتهم. وحين رآهم سِبِرو دِل بالْيِه، ظنّ أنّه ضحية هلوسة غادرت فيها كلّ تشايناتاون سان فرانسيسكو كي يضيعوا في ذات الحرب التي يضيع هو فيها. كان القائد الغريب قد جمع في طريقه الصينيين، المهاجرين الذين يعملون في ظروف العبودية، والواقعين بين نارين، دون أن تكون لهم ولاءات خاصّة لأيّ من الفريقين، قرّروا الانضمام إلى القوات التشيلية. وبينما المسيحيون يصغون إلى القداس قبل الدخول في المعركة، كان الآسيويون يُنظّمون احتفالهم الخاص بهم، وبعدها رشّ الرهبان العسكريون الجميعَ بالماء المقدس. «يبدو هذا سيركاً»، كتب سِبِرو في ذلك اليوم إلى نيبيا، دون أن يدري أنّها ستكون آخر رسالة. كان الوزير بِرغارا بنفسه يُشجِّعُ الجنودَ، ويشرف على نقل آلاف وآلاف الرجال والحيوانات والمدافع والمؤن، واقفاً على قدميه منذ السادسة صباحاً، تحت شمس حارقة، حتى دخول الليل.

كان البيرويون قد نظّموا صفّين دفاعيين على بعد كيلومتراتٍ قليلة عن المدينة، في أماكن يصعب على المهاجمين الوصول إليها. وتنضم إلى الهضاب المنحدرة والرملية، التحصينات والمتاريس والبطاريات والخنادق المحمية بأكياس الرمل للرماة. كما زرعوا ألغاماً مموّهة في الرمل، تنفجر حين تحتك بالمفجِّر. كان خطّا الدفاع متصلين ببعضهما، وبمدينة ليما بواسطة القطار لضمان نقل القوّات والجرحى والمؤن. وسيكون النصرُ ـ إذا حدث ـ على حساب الكثير من الأرواح، تماماً كما كان يعرف سِبِرو دِل بالْيِه ورفاقه قبل أن يبدأ الهجومُ أواسطَ كانون الثاني من العام 1881.

كانت القوّات في ذلك المساء من كانون الثاني مستعدة للزحف على عاصمة البيرو. أحرقوا بعد أن أكلوا وفكّوا المعسكر، الهياكلَ الخشبية التي قامت مقام الغرف، وانقسموا إلى ثلاثِ مجموعاتٍ بهدف الهجوم على الدفاعات المعادية بغتة، يحميهم الضباب الكثيف. كانوا يمضون بصمتٍ، كلّ واحد مع معدّاته الثقيلة على ظهره والبنادق جاهزة، مستعدين للهجوم «إلى الأمام وعلى الطريقة التشيلية» كما كان الجنرالات قد قرّروا، مُدركين أنّ أقوى سلاح بين أيديهم هو رهبة وضراوة الجنود المشبعين بالعنف. رأى سِبِرو كيف كانت تدور دنانُ الأغواردييِنت والبارود، الخليط الذي يُشعل الأمعاء ، لكنّه يمنح شجاعة فائقة. كان قد جرّبه مرّةً ، بقي بعدها يومين منهكاً من التقيّؤ وألم الرأس، وهكذا كان يُفضِّل المعركة ببرود. مسيرة الصمت، وسواد السهب بدَوَا له لا متناهيين، على الرغم من لحظات التوقّف القصيرة. توقّف حشدُ الجنود الهائل، بعد منتصف الليل، ليستريح ساعةً. فكّروا أن يقعوا على منتجع قريب من ليما قبل أن يُشعشع النهارُ، لكنّ الأوامر المتناقضة وارتباك القادة أفسد الخطّة. ما كانوا يعرفونه عن حالة الصفوف المتقدِّمة كان قليلاً، حيث يبدو ظاهرياً أن المعركة بدأت، هذا ما أجبر القواتِ المستنفدَة على المتابعة دون أن تأخذ نَفَساً. وفي محاكاة للآخرين تخلّص سِبِرو من كيس الظهر، والبطانية وبقية عتاده. أعدّ سلاحه مع

الحربة وراح يركض إلى الأمام دون هداية، يصرخُ ملءَ رئتيه مثل وحش ضار، ما عاد الأمر يتعلّق بأخذ العدو على حين غرّة، بل بدبّ الذعر فيه. كان البيرويون بانتظارهم، وما كادوا يصبحون على مرمى بنادقهم حتى أمطروهم بوابلٍ من الرصاص. انضمّ الدخانُ والغبارُ إلى الضبابِ، وغطّى الأفقَ بستار كتيم، بينما امتلأ الهواءُ بالرعب مع صوت النفير الذي يدعو إلى التعبئة، وزعيق وصيحات المعركة، وعواء الجرحى، وصهيل الخيول، وزمجرة المدفعية. كانت الأرض ملغومة، ومع ذلك راح التشيليون يتقدّمون وعلى شفاههم الصيحة الوحشية: «اذبحوهم!». شاهد سِبِرو دِل بالْيِه اثنين من رفاقه يتطايران شظايا، داسا فوق مُفجِّر لغم على بعد أمتارٍ قليلة. ولم يستطِع أن يفكّر بأنّ الانفجار التالي يمكن أن يكون من نصيبه، لم يكن هناك وقت للتفكير بشيء لأنّ الجنود الأوائل كانوا ينقضّون على الخنادق المعادية، ويسقطون فيها والخناجر المعقوفة بين أسنانهم والحراب مركّبة في البنادق، يقتلون ويُقتلون بين دفقات الدم. تراجع من بقي حيّاً من البيرويين الباقون وبدأ المهاجِمون يتسلّقون التلال، محطّمين الدفاعات المتدرّجة في السفوح. وجد سِبِرو نفسه دون أن يدري ماالذي يفعله والسيف في يده يمزّق رجلاً، ثمّ يُطلق النارَ عن كَثَب في نقرة آخر كان يهربُ. الحنق والرعبُ تمكّنا منه تماماً، وتحوّل مثل البقية إلى بهيمة. كان لباسه ممزّقاً ومغطّى بالدم، وقطعة من أحشاء آخر علقت بأحدِ كمّيه، وما عاد صوته يخرجُ من كثرة ما صرخ ولعن، لقد فقدَ الخوفَ والهويّةَ، صار مجرّد آلة قتلٍ، يُوزّع الضربات دون أن يرى أين تقع، بهدف وحيدٍ هو الوصول إلى قمّة التل.

في السابعة صباحاً، وبعد ساعتين من المعركة، كانت الراية التشيلية الأولى ترفرف على إحدى القمم، وبينما سِبِرو راكعاً على ركبتيه فوق الهضبة، رأى حشداً من الجنودِ البيرويين يتراجعون متفرِّقين ليجتمعوا في فناء مزرعة، حيث استقبلوا منظّمين دفعة رماية من الفرسان التشيليين. وخلال دقائق قليلة صار ذلك جحيماً. سِبِرو دِل بالْيِه الذي كان يقترب راكضاً، رأى لمعان السيوف في

الهواء، وسمع صوت الرصاص وصراخ الألم. حين وصل إلى المزرعة كان الأعداء يجرون من جديد تتعقَّبُهم القوّات التشيلية. وهنا وصله صوت قائدٍ يأمره أن يجمعَ رجالَ فصيلته للهجوم على القرية. الوقفة القصيرةُ، التي نظّموا فيها الصفوف، سمحت له بأن يأخذ نفساً؛ ترك نفسه يسقط وجبينه على الأرض، لاهثاً ، مرتعداً، ويداه تمسكان بسلاحه. لقد قدّر أن التقدّم جنونٌ، لأنّ فصيلته لا تستطيع أن تواجه وحدَها القوّات المعادية الكثيرة المتحصّنة في البيوت والأبنية، يجب أن يُقاتلوا من باب إلى باب، لكنّ مهمّته لم تكن التفكير، بل إطاعة أوامر قائده، وتحويل القرية البيروية إلى أنقاضٍ ورمادٍ وموت. بعد دقائق كان يمضي خبباً على رأس رفاقه، بينما الطلقات تمرّ وهي تئزّ من حولهم. دخلوا على شكل رتلين، رتل من كلّ جانب من الشارع الرئيسيّ. الغالبية العظمى من السكّان هربوا على صوت «جاء التشيليّون!» لكنّ الذين بقوا كانوا عازمين على القتال بكلّ ما يتوافر بين أيديهم، بدءاً من سكاكين المطبخ حتى قدور الزيت المغلي الذي كانوا يسكبونه من الشرفات. كانت فصيلة سِبِرو قد تلقت أوامر بالذهاب من بيتٍ إلى بيتٍ حتى إخلاء القرية، ولم يكن عملاً سهلاً، لأنّ القرية كانت مليئة بالجنود البيرويين المتمترسين على السطوح والأشجار والنوافذ وعتبات الأبواب. كانت حنجرة سِبِرو جافّة وعيناه ملتهبتين، يكاد لايرى عن بعد مترٍ؛ والهواء المشحون بالدخان والغبار صار محالاً على الاستنشاق، وقد وصل الارتباك حدّ أنّه ما من أحد كان يعرف ماذا يفعل، فقط كانوا يقلّدون من يمضي أمامهم. فجأة أحسّ بوابلٍ من الرصاص حوله، فأدرك أنّه لا يستطيع أن يواصل تقدّمه، عليه أن يبحث عن حماية. وبضربة من أخمص بندقيته فتح أقرب باب واقتحم المسكنَ شاهراً سيفه. وقد أعماه الانتقال من الشمس الحارقة في الخارج إلى الظلّ في الداخل. احتاج عدّة دقائق كي يعبّئ بندقيته، لكنّه لم يملكها: صرخة تمزّق القلب شلّته من المباغتة، ولمح هيئة كانت قابعةً في زاوية، ثمّ انتصبت أمامه شاهرة فأساً. استطاع أن يحمي

رأسه بذراعيه ويتراجع بجسده إلى الخلف. سقط الفأس مثل البرق على قدمه اليسرى، فسمّره في الأرض. لم يدرِ سِبِرو دِل بالْيِه ما الذي حدث، وقام بردّ فعله بغريزةٍ خالصة، وبكلّ ثقل جسمه دفع البندقيّة بالحربة المركّبة فيها، وغرزها في بطن مُهاجِمِهِ، ثم رفعها بجهد جبّار. دفقة من دم أصابته في وجهه. وعندئذ انتبه إلى أنّ العدوّ فتاة. كان قد شقّها من أعلاها إلى أسفلها، وهي راكعة على ركبتيها تمسك أمعاءها التي راحت تفرغ محتواها على الأرض الخشبية؛ تقاطعت عيونهما بنظرة لا نهاية لها، مصعوقين، يتساءلان بصمتٍ تلك اللحظة الأبديّ من كانا، لماذا يتواجهان بهذه الطريقة، لماذا ينزفان، لماذا يجب أن يموتا؟ أراد سِبِرو أن يسندها، لكنّه لم يستطع أن يتحرّك، وشعر لأوّل مرّةٍ بألم القدم الرهيب يرتفع مثل لسانٍ من نارٍ عبر الساق إلى صدره. في تلك اللحظة اقتحم جنديّ تشيليّ آخرُ البيتَ، وبنظرة قدّر الوضع فأطلق النار بغتة، دون تردّد، على المرأة التي كانت على كلّ حال ميتةً، ثم أخذ الفأس وبشدّة مريعة حرّر سِبِرو. «هيّا، أيّها الملازم، يجب أن نخرج من هنا، ستبدأ المدفعية بالرمي!»، قال له محذراً، لكنّ سِبِرو كان ينزف بغزارة، يغمى عليه، ويعود فيسترجع وعيه للحظات ثم يعود ليغرق في الظلمة. وضع الجندي مطرته على فمه وأجبره على الشرب جرعة طويلة من المشروب الروحيّ، ثم ارتجلَ مرقأةً بمنديل ربطه تحت الركبة، حمل الجريح على ظهره وأخرجه جرّاً. وفي الخارج ساعدته أيدٍ أخرى، وبعد أربعين دقيقةً، وبينما المدفعية التشيلية تكنسُ القرية، مخلّفة الأنقاضَ وحديداً ملتوياً مكانَ المنتجع الوديع، كان سِبِرو ينتظر في فناء المستشفى إلى جانب مئات الجثث الممزّقة وآلاف الجرحى المرميين في برك الدم والمحاصرين بالذباب، ينتظر أن يأتي الموتُ أو تُنقِذه معجزة. كان يرتعد من الألم والخوف، وبين الحين والآخر يمضي غارقاً في غيبوبة رحيمة، وحين يستعيد وعيه يرى السماءَ تسودّ. تلا حرّ اليوم التالي الحارق، البردُ الرطب من ضباب الصحراء الذي لفّ الليلَ بدثاره الكثيف. في

لحظات الوعي كان يتذكّر الصلوات التي تعلّمها في طفولته ويتوسّل الله موتاً سريعاً، بينما صورة نيبيا تظهرُ له مثل ملاك، ويخيل إليه أنّه يراها منحنية فوقه، تسنده، تمسح جبهته بمنديل مُبلَّلٍ، تقول له كلمات حبٍّ. كان يردّد اسم نيبيا طالباً بلا صوت كأساً من الماء.

انتهت معركة احتلال ليما في السادسة مساءً. في الأيام التالية حين استطاعوا أن يحصوا عدد القتلى والجرحى، قدّروا أن عشرين بالمئة من مقاتلي كلا الجيشين قضوا نحبهم في تلك الساعات. وأكثر منهم بكثير أولئك الذين ماتوا فيما بعد بسبب التهاب جراحهم. ارتجلوا المستشفيات الميدانية في المدارس وفي الخيام المنتشرة في الضواحي. كانت الريح تحمل رائحة الجثث حتى كيلومترات، وكان الأطباء والممرضون المنهَكون يعتنون بمن يصلُ قدرَ استطاعتهم، لكن كان هناك أكثر من ألفين وخمسمئة جريح في صفّ التشيليين، ويُقدّر عددُ الباقين أحياء من القوّات البيروية بسبعة آلاف. كان الجرحى يُكدَّسون في الممرات، في الفناءات ، ملقيين على الأرض إلى أن يأتي دورهم. كانوا يعتنون بالأخطر أوّلاً، وسِبِرو دِل بالْيِه لم يكن يُحتَضَر بعد، على الرغم من فقدانه الهائل لقوّته ودمه وأمله، ولهذا كان حَمَلَة النقالات يؤجّلونه مرّةً وأخرى ليفسحوا المجالَ لآخرين. الجنديّ نفسه الذي حمله على كتفه لينقله إلى المستشفى شقّ حذاءه بالسكين ونزع عنه قميصه المخضل وارتجل منه غطاءً للقدم الممزّقة، لأنّه لم يكن يوجد في متناول يده ضماد ولا دواء ولا فينول للتعقيم ولا أفيون ولا كلوروفورم، كلّ شيء كان قد نفدَ أو ضاع في فوضى المعركة. «أفلت المرقأة من حين لآخر كي لا تصاب ساقك بالغنغرينا أيّها الملازم» نصحه الجنديّ. وتمنى له قبل أن يُودّعه حظّاً سعيداً وأهداه أغلى ممتلكاته: علبة تبغه، ومطرته مع بقية الأغوارديينتِ. لم يدرِ سِبِرو دِل بالْيِه كم بقي في ذلك الفناء، ربّما يوماً، وربّما يومين. وحين أخذوه أخيراً كي يحملوه إلى الطبيب، كان قد فقد وعيَه ومصاباً بالجفاف، لكن ألمه كان مريعاً حين حرّكوه، بحيث أطلق عواءً. «تَحَمَّلْ، أيّها المُلازِمُ، خُذْ

بالاعتبار أنّه ما زال أمامك ما هو أسوأ»، قال له أحد حَمَلَةِ النقالات. وجد نفسه في قاعة كبيرة، أرضها مُغطاة بالرمل حيث يقوم مستخدمان بتفرغ دلوين جديدين من الرمل لامتصاص الدم ويحملان في الدلوين ذاتهما الأعضاء المبتورةَ لحرقها في الخارج في صلاء كبير، يملأ الوادي برائحة اللحم الشائط. كانوا يجرون العمليات للجنود سيّئي الحظ على أربع طاولات من الخشب المغطّى بألواح معدنية ، على الأرض كانت هناك سطول فيها ماء ضارب للصفرة، يغسلون فيها الإسفنج، لقطع نزيف أماكن البتر، وأكوام الخرق الممزّقة إلى شرائط لتُستَخدَم كضماداتٍ، وكلّ شيء وسخ ومعفر بالرمل والنشارة. على طاولة جانبية نشروا أدوات تعذيب رهيبة ـ كمّاشات، مقصات، مناشير، إبر ـ ملطخة بالدم الجاف. كان صُراخُ الذين تُجرى لهم العمليات يملأ الجوَّ، ورائحة التفسّخ والإقياء والبراز لا تُحتَمل. حدث أن كان الطبيبُ مهاجراً من البلقان يوحي بقسوةٍ وثقةٍ وسرعةِ الجرّاحِ الخبير. له لحية لم تُحلق منذ يومين وعينان حمراوان من التعب، ويرتدي مريولاً من الجلد المغطّى بالدم الطريّ. نزع الضماد المرتَجَلَ عن قدم سِبِرو، أفلت المرقأة، وكفته نظرة كي يرى أن الالتهاب قد بدأ ليُقرِّرَ البتر. لا شكّ أنّه بَتَرَ في تلك الأيام أعضاءَ كثيرةً، لأنّه لم يرف له جفنٌ حين اتخذ القرار.

ـ هل معك شيء من المشروب الروحي أيّها الجندي؟ ـ سأل بلكنةٍ أجنبية واضحة.

ـ ماء... ـ هتف سِبِرو دِل بالْيِه وقد جفّ لسانه.

ـ فيما بعد تشرب ماء. الآن أنت بحاجة لشيء يفقدك الوعي قليلاً فنحن ماعدنا نملك قطرة ليكور واحدة. ـ قال الطبيب.

أشار سِبِرو إلى المطرة. وأجبره الطبيبُ على أن يشرب ثلاث جرعات كبيرة، موضِّحاً له أنّه لا يوجد عندهم مُخدِّر، واستخدم الباقي لبلّ بعض الخرق وتنظيف أدواته، ثم أشار إلى جنديين خادمين وقفا على جانبي الطاولة لتثبيت المريض. هذه هي ساعتي

الحقيقيّة، تمكّن سِبرو من القول، وحاول أن يتصوّر نيبيا كي لا يموت وفي قلبه صورة الفتاة التي انتزع أحشاءَها بحربته. وضع ممرضٍ مرقأةً جديدة وثبّتَ الساقَ عند الفخذ بقوّة. أخذ الجرّاحُ مبضعاً وغرزه تحت الركبة بعشرين سنتيمتر وبحركة دائرية ماهرة قطع اللحم حتى عظمي القصبة والشظية. جأر سِبرو من الألم وفقد وعيه على الفور، لكنّ الجنديين الخادمين لم يفلتاه، بل ثبّتاه بعزمٍ أكبر وأبقيا عليه مسمّراً على الطاولة، بينما راح الطبيب يرمي إلى الخلف بالجلدِ والعضلات، كاشفاً عن العظام؛ وأخذ على الفور منشاراً وبثلاث حركات دقيقة قطعها. أخرج الممرض، من الجدعةِ، الأوعيةَ المقطوعة وراح الطبيب يصل بينها بمهارة عجيبة، ثم أفلت المرقأة قليلاً بينما راح يُغطّي العظمَ المقطوع باللحم والجلدِ ويخيطه. ضمّدوه بسرعة وحملوه مترجرجاً إلى زاوية من القاعة، ليفسحوا المجال لجريحٍ آخر وصل عاوياً إلى طاولة الجرّاح. العملية بكاملها استغرقتْ أقلّ من ستّ دقائق.

في الأيّام التالية على هذه المعركة دخلت القوّات التشيلية إلى ليما. دخلوها، حسب التقارير الرسمية التي نشرتها الصحافة في تشيلي، بانتظام؛ وحسب ما بقي في ذاكرة أهالي ليما، حدثت مجزرة، انضافت إلى مصائب الجنود البيرويين المهزومين والحانقين، لأنّهم شعروا بأنّ قادتهم خانوهم. قسم من السكّان المدنيين هربوا، والأسر الميسورة بحثت عن أمنها في سفن المرفأ والقنصليات، والشاطئ الذي تحميه البحرية الأجنبية، حيث أقامت الهيئة الدبلوماسية خيمها لإيواء اللاجئين تحت أعلام دول محايدة. تذكّر الذين بقوا للدفاع عن مواقعهم بقيّةَ حياتهم المشاهدَ الجهنّمية للجنود السكارى وعنفَهم المجنون؛ فقد نهبوا وأحرقوا البيوت، اغتصبوا، وضربوا وقتلوا من وقف في وجههم، بمن في ذلك النساء والأطفال والشيوخ. أخيراً، تخلّى جزء من الفصائل البيروية عن سلاحه واستسلم، ولكنّ جنوداً كثيرين تفرّقوا متبعثرين في الجبال. وبعد يومين خرج الجنرال البيروي أندرِس كاثِرِس من المدينة

المحتلة بساق محطّمة، تُساعده زوجته وزوج من الضباط الأوفياء، كي يضيع في مجاهِل الجبال. لقد أقسم أنّه سيبقى يُقاتِلُ ما دام فيه نفس.

في ميناء كالياو، أمر القباطنة البيرويون أطقمَ السفن بمغادرتها، وأشعلوا البارود مُغرقين كاملَ الأسطول. أيقظت الانفجارات سِبِرو دِل بالْيِه فوجد نفسه في زاوية على الرملِ الوسخ في قاعة العمليات، إلى جانب رجالٍ آخرين مثله، خرجوا توّاً من عذابِ البتر . أحد ما وضع فوقه بطانية ومطرة فيها ماء إلى جانبه، مدّ يده، لكنّها كانت ترتجف إلى حدّ أنّه لم يستطع أن يرفع غطاءها، فبقي يضغطها على صدره ويئنّ إلى أن اقتربَت شابّة حانيّة، ففتحتها له وساعدته على رفعها إلى شفتيه الجافّتين. شرب كلّ ما فيها دفعة واحدة، ثم وبتوجيه من الشابة التي قاتلت إلى جانب الرجال خلال أشهر، وتعرف عن العناية بالجرحى مثل الأطباء وضع في فمه قبضةَ تبغٍ ومضغه بشراهة لتخفيف تشنّجات صدمة العملية. « القتل يُكلّف قليلاً، أما البقاء على قيد الحياة فهو الذي يُكلّف يابُني. إذا أهملت نفسكَ حملك الموت بغفلةٍ منك»، حذّرته المرأة. «أنا خائف» حاول سِبِرو أن يقول لها، وربّما لم تسمع همهمته، لكنّها حَدَسَت بذعره، لأنها نزعت ميداليةً فضّيةً من عنقها ووضعتها بين يديه. «كانت العذراء في عونك» تمتمت بذلك ثم انحنت وقبّلته قبلة قصيرةً على شفتيه قبل أن تذهبَ. بقي سِبِرو مع ملمس تلك الشفتين ومع الميدالية يشدّ عليها في راحته. كان يرتعش، وأسنانه تصطكّ، ويشتعل من الحمّى؛ ينام أو يُغمى عليه، وحين يستعيد وعيه يُجنّنُه الألمُ. عادت الشابة نفسها ذات الجدائل السود بعد ساعاتٍ، وسلّمته بعضَ الخرق المبلّلة كي يُنظّف عرقَهُ والدمَ الجافّ، وصحناً من الصفيح فيه عصيدة ذرة، وقطعة خبزٍ قاسٍ وفنجان كبير من قهوة الهندباء، ذلك السائل الفاتر والداكن الذي لم يحاول حتى لمسه، لأنّ الوهنَ والغثيانَ منعاه من ذلك. خبّأ رأسه تحت البطانية مستسلماً للعذاب والقنوط، يئنّ ويبكي مثل طفل إلى أن نام من جديد. «فقدتَ دماً كثيراً يا بُني، وإذا لم تأكل ستموت»، أيقظه قسّ كان يمرّ من

هناك يوزِّعُ عزاءه على الجرحى، ومسحةَ رحمته على المُحتَضرين. عندئذ تذكَّر سِبِرو دِل بالْيِه أنّه ذهب إلى الحرب كي يموت. ذلك كان هدفه حين فقد لين سومّرز، لكنّه الآن والموت هناك، ينحني فوقه مثل عقابٍ، ينتظر فرصته كي ينشب فيه مخالبه للمرة الأخيرة، هزّته غريزة الحياة. كانت الرغبةُ بالحياة أعظمَ من العذاب الحارق الذي كان يخترقه من ساقه حتى آخر خلية في جسده، وأقوى من الضيق، الضياعِ، والرعب. أدرك أنّه بعيداً عن الاستلقاء للموت، يرغبُ بلهفةٍ أن يبقى في العالم، أن يعيشَ في أية حالةٍ وظرفٍ، وبأيةِ طريقةٍ، أعرجَ، مهزوماً، ولا شيء يهم شريطة أن يستمرَّ في هذا العالم. كان مثل أيّ جنديّ يعرف أنّ واحداً فقط من كلّ عشرة مبتورين يتمكّن من تخطّي فقدان الدم والغنغرينا، ولم يكن هناك من وسيلة لتفادي هذا، فكلّ شيء يتعلّق بالحظ. قرّر أن يكون واحداً من هؤلاء الباقين أحياء. فكّر أنّ ابنة عمّه الرائعة نيبيا تستحقّ رجلاً كاملاً وليس مبتوراً، وهو لا يريد أن تراه وقد صارَ خرقةً، لا يستطيع تحمُّلَ شفقتها. ومع ذلك ما إن أغمض عينيه حتى عادت لتظهرَ الفتاةُ إلى جانبه، رأى نيبيا، غير ملوّثة بالحرب أو بقباحة العالم، منحنيةً فوقه بوجْهِها الذكي، عينيها السوداوين، وابتسامتها الجريئة، عندئذ ذابَ كبرياؤه كالملح في الماء. لم يكن لديه أدنى شك في أنّها سُتحبّه وهو بنصف ساقٍ كما أحبّته من قبل. فأخذ الملعقةَ بأصابعه المتشنِّجة، وحاول أن يتحكَّم بالرجفة، وأجبر نفسه على فتح فمه، وابتلع جرعة من عصيدة الذرة المقرفة، التي صارت باردة وعلاها الذباب.

دخلت الفرقُ العسكريةُ التشيلية إلى ليما منتصرةً في كانون الثاني 1881 ، وحاولت من هناك أن تفرض سلامَ الهزيمةِ القسريَّ على البيرو. وحين هدأت فوضى الأسابيع الأولى الوحشية، ترك المنتصرون المتكبّرون فرقةً من عشرة آلاف رجل كي يُراقبوا البلاد المحتَلَّة، بينما شرع البقيّة بالرحيل إلى الجنوب ليقطفوا غارَ انتصارِهم المستَحَق، متجاهلين بشكل مطلق آلافَ الجنود

المهزومين الذين تمكّنوا من الهروب إلى الجبال وهم يُفكّرون بمتابعة القتال من هناك. لقد كان النصر ساحقاً، إلى حدّ أنّ القادةَ لم يستطيعوا أن يتصوّروا أن البيروويين سوف يستمرون بمضايقتهم خلال ثلاثة أعوام طويلة. وقد كان روحُ تلك المقاومةِ الشرسة هو الجنرال الأسطوري كاثِرِس، الذي نجا من الموتِ بأعجوبةٍ، وانطلق إلى الجبال بجرحٍ مرعبٍ، ليزرع بذرة الشجاعة العنيدة في جيشٍ ممزق، مؤلف من جنود أشباح ومجنّدين من الهنود الحمر، خاض بهم حرب عصابات دامية، وكمائن ومناوشات. كان جنود كاثِرِس الذين صار لباسهم العسكري أسمالاً، وكانوا في معظم الأحيان حفاة، هزيلين ويائسين، يقاتلون بالسكاكين، والرماح، والهراوات والحجارة وبعض البنادق التي صارت قديمة، لكنّهم يتميّزون بأنّهم يعرفون الأرض. اختاروا ميدانَ المعركةِ جيّداً لمواجهة عدوٍّ مُدرَّبٍ ومُسَلّح، وإن لم يكن دائماً بتموين كاف، لأنّ الوصول إلى تلك الجبالِ الوعرة من عمل النسور. كانوا يختبئون في القمم المثلجة، وفي الكهوفِ والمنخفضاتِ وأعالي الجبال، حيث الجوّ رقيق جدّاً والعزلة هائلة، ووحدهم رجال الجبال من يستطيعون البقاء أحياءً. أما آذانُ القوات التشيلية فكانت تنفجر بالدمِ، ويسقطون مغشياً عليهم لنقص الأوكسجين ويتجمّدون في مضائقَ جبال الأنديز الثلجية. وبينما هم يكادون لايستطيعون أن يصعدوها لأنّ قلوبهم لا تكفيهم لكلّ ذلك الجهد، كان هنودُ السهلِ العالي يتسلّقونها، مثل اللاما، بحمولةٍ على ظهورهم تعادل وزنهم، دون أيّ غذاء آخرَ غير لحمِ النسورِ المرِّ وكرةٍ خضراء من ورق الكوكا التي يُقلّبونها في أفواههم. لقد كانت ثلاثة أعوام من حرب لا هوادة فيها ولا أسرى، وقتلاها بالآلاف. وقد كسبت القواتُ البيروية معركةَ مواجهةٍ واحدةٍ في قريةٍ ليس لها قيمة استراتيجية، كان يحرسها سبعة وسبعون جندياً تشيلياً، وعددٌ من مرضى التيفوس. كان يملك كلّ واحدٍ من المُدافعين مئة رصاصة، ومع ذلك قاتلوا طوال الليل بشجاعة ضدّ مئات الجنود والهنود، حتى الفجر المقفر حين لم يبق إلاّ ثلاثة رماةٍ، رجاهم الضباطُ البيرويون أن يستسلموا لأنّه بدا لهم أنّ من العار عليهم قتلهم. لم يستسلموا، وتابعوا قتالهم وماتوا والحراب في أيديهم

صارخين باسم الوطن. كان معهم ثلاث نساء، جرّهنّ خليطُ السكان الأصليين إلى وسط الساحة داميات واغتصبوهنّ ومزّقوهنّ. واحدة منهنّ كانت قد ولدت ليلاً في الكنيسة، بينما زوجها يُقاتل في الخارج، فمزّقوا الوليد الجديد أيضاً. قطّعوا الجثث، بقروا البطون وأفرّغوا الأحشاء. وقد أكل الهنود، كما كانوا يحكون في سانتياغو، أحشاءهم مشويّة على العصي. لم تكن تلك البهيمية الاستثناء ، فالوحشيّة كانت متساوية بين الجانبين في حرب العصابات تلك. وقد تمّ الاستسلامُ النهائي وتوقيعُ معاهدة السلام في تشرين الأوّل من العام 1883، بعد الانتصار على قوّات كاثِرِس في آخرِ معركةٍ، وهي مذبحة تمّت بالسكاكين والحراب وخلّفت أكثر من ألف قتيل بقوا ممدّدين في الميدان. انتزعت تشيلي من البيرو ثلاث مقاطعات. وفقدت بوليفيا مخرجها الوحيد على البحر، وأُجبِرت على توقيع هدنة غير محدّدة ستمتدّ عشرين عاماً، حتى توقيع معاهدة للسلام.

نُقِلَ سِبِرو دِل بالْيِه إلى جانب آلاف الجرحى الآخرين بالسفينة إلى تشيلي. وبينما كان الكثيرون يموتون، في المستشفيات العسكرية المرتجلة، بالغنغرينا أو بعدوى التيفوس والزُحار، استطاع هو أن يستعيدَ قواه بفضل نيبيا، التي لم تكد تعلم بما جرى له حتى اتصلت بخالها الوزير بِرغارا، ولم تتركه في سلامٍ حتى راح يبحث عن سِبِرو، وأنقذه من المستشفى، كان فيه رقماً بين آلاف المرضى الموجودين في أسوأ الظروف، وأرسله في أوّلِ واسطة نقل متوافرة إلى بالبارايسو. كما أنّه أصدر استثناءً خاصّاً لقريبته كي تدخل حظار الميناء العسكري، وعينّ ملازِماً لمساعدتها. حين أنزلوا سِبِرو دِل بالْيِه لم تعرفه، لقد فَقَدَ عشرين كيلو غراماً من وزنه وكان وسخاً، يبدو أشبه بجثّةٍ صفراء مشعرة، بذقن لم تحلق منذ عدّة أسابيع، وعيني مجنونٍ مذعورتين وهاذيتين. تغلّبت نيبيا على الرعب بإرادة الأمازونية ذاتها التي حافظت عليها في كلّ جوانب الحياة الأخرى وحيّته بفرح: «مرحباً، يا ابنَ العم، يسعدني أن أراك!». وكان انتعاشه لرؤيتها كبيراً، إلى حدّ أنّه غطّى وجهَهُ بيديه كيلا تراه يبكي. كان الملازم قد أعد وسيلة النقلَ، و قادَ الجريح

ونيبيا، عملاً بالأوامر المتلقاة، إلى قصر الوزير في بينيا دِل مار، حيث أَعَدّت له زوجةُ هذا غرفةً خاصة. «يقولُ زوجي إنّك ستبقى هنا حتى تستطيع أن تسير يا بُني»، أعلنت له. استخدم طبيب أسرة بِرغارا جميع إمكانات العلم لشفائه، لكنه بعد شهر وحين لم يلتئم الجرح، وبقي سِبِرو يتخبّط في هيجان الحمّى، أدركت نيبيا أنّ روحه مريضة من أهوال الحرب، وأنّ العلاجَ الوحيدَ لكلّ تبكيت الضمير عنده هو الحبّ، وعندئذٍ قرَّرت أن تلجأ إلى إجراءاتٍ متطرّفة.

ـ سأطلب إذناً من والديّ كي أتزوّج منك ـ أعلنت له.

ـ أنا أموت يا نيبيا ـ تنهّدَ.

ـ دائماً عندك ذريعة ما يا سِبِرو! لم يكن الاحتضار قط عائقاً أمام الزواج.

ـ هل تريدين أن تكوني أرملة دون أن تكوني زوجة؟ لا أريدُ أن يحدث لك ما حدث لي مع لين.

ـ لن أصبح أرملةً لأنّك لن تموت. هل تستطيع أن تطلب منّي بتواضع أن أتزوّج منك يا ابن العم؟ أن تقول لي مثلاً إنّني امرأةُ حياتك، ملاكك، إلهامك أو شيء من هذا القبيل؟ اخترعْ شيئاً يا رجل! قل لي إنّك لا تستطيع أن تعيشَ دوني، هذا على الأقل صحيح، أليس كذلك؟ أعترف أنّني لا أستظرف أن أكون وحدي الرومانسية في هذه العلاقة.

ـ أنتِ مجنونة يا نيبيا. فأنا لست حتى رجلاً كاملاً، أنا عاجز تعيس.

ـ وهل ينقصك شيء أكثر من قطعة الساق هذه؟ ـ سألت مذعورة.

ـ وهل يبدو لك هذا قليلاً؟

ـ إذا كان ما تبقى منك في مكانه، بدا لي أنّ ما فقدته قليل يا سِبِرو ـ ضحكت.

ـ إذن تزوّجي منّي من فضلك ـ تمتم بارتياح عميق وإجهاشٍ غصّ به ، ضعيفٍ أكثر مما يسمح له بمعانقها.

ـ لا تبكِ يا ابن العم، قبِّلْني؛ فأنت لا تحتاج لهذا إلى ساقك ـ ردّت منحنية فوق السرير بالحركة ذاتها التي رآها فيها في هذياناته مرّات كثيرة.

بعد ثلاثة أيّام تزوّجا في احتفال قصير في إحدى قاعاتِ سكنِ الوزير الجميلة، وبحضور الأسرتين. كانت حفلة الزفاف خاصة، بسبب الظروف، إلا أن الحفلة اقتصرت على الأقارب وحدهم، وضمت أربعة وتسعين شخصاً. حضر سِبِرو شاحباً وهزيلاً، وقد قصّ شعره على طريقة بايرون، حليق الخدين، يرتدي ثياباً احتفالية، وقميصاً بقبّة مصفّحة، وأزرار ذهبية وربطة عنق حريرية، على كرسيّ بعجلات. لم يكن هناك وقت لتفصيل فستان عروس ولا جهاز عرس يليقان بنيبيا، لكنّ أخواتها وبنات أعمامها ملأن لها صندوقين من ثياب البيت التي كنّ قد أعددنها خلال أعوام لجهازهنّ الخاصّ. ارتدت فستاناً من الساتان الأبيض، وتاجاً من اللؤلؤ والماس، أعارته لها زوجة خالها. وهي تبدو في صورة العرس مشرقةً واقفةً بجانب كرسيِّ زوجها. وقد أقيم في تلك الليلة حفلُ عشاءٍ للأسرة لم يحضره سِبِرو دِل بالْيِه، لأنّ انفعالاته العاطفية في ذلك النهار أنهكته. فبعد انسحاب المدعوين قادت زوجة الخال نيبيا إلى غرفة أعدّتها لها. «يؤسفني أن تكون أوّل ليلة زواج لك هكذا...»، تمتمت محمرّة خجلاً، «لا تهتمّي يا خالة، سأواسي نفسي بصلاة السبحة»، ردّت الشابّة. انتظرت حتى نام أهل البيت، وتأكّدت من أنّه لم يبق من حيّ غير ريح البحر المالحة بين أشجار الحديقة، عندئذ نهضت نيبيا بقميص نومها، وجابت ممرات ذلك القصر الغريب الطويلة، ودخلت غرفة سِبِرو. كانت الراهبة المتعاقَد معها للسهر على حلمِ المريضِ ترقدُ مباعدة ما بين ساقيها على كرسيّ كبير وتنام بعمق، لكنّ سِبِرو كان مستيقظاً، بانتظارها. حملت إصبعاً إلى شفتيها كي تشير إليه بالصمت، وأطفأت مصابيح الغاز ودخلت في سريره.

كانت نيبيا قد تربّت بين الراهبات، وتنحدر من أسرة تقليدية، حيث لم تكن تُذكَرُ وظائفُ الجسد أبداً، وخاصّة المتعلّق منها مع الإنجاب، لكنّها أصبحت في العشرين من عمرها، وتملك قلباً متحمساً وذاكرة جيدة. كانت تتذكّر جيّداً الألعابَ السرّية التي لعبتها مع ابن عمّها في الزوايا المعتمة، شكلَ جسد سِبرو، ولهفةَ اللذة التي لا ترتوي أبداً، وسِحْرَ الخطيئة. لقد كان الخجل والخطيئة يلجمانهما في ذلك الوقت، فيخرجان من الزوايا الممنوعة مرتعشين، منهكين ومتوقدي الجلد. وخلال السنوات التي قضياها بعيدين عن بعضهما، ملكت الوقت لمراجعة كلّ لحظة مشتركة لها مع ابن عمّها وتحويلِ فضولِ الطفولة إلى حبٍّ عميق. كما أنّها استفادت تماماً من مكتبة زوج خالتها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا، رجل الفكر الليبرالي والحديث، الذي لم يكن يقبل أيّ حدٍّ لقلقه الفكري، وخاصّة موضوع أي تساهلٍ مع الرقابة الدينية. وبينما كانت نيبيا ترتّب كتبَ العلوم والفنون والحرب، اكتشفت مصادفة طريقةً لفتح رفٍّ سرّي حيث وجدت نفسها أمام مجموعة لا يُستهان بها من روايات لائحة الكنيسة السوداء والنصوص الأيروسية، بل ومجموعة لطيفة من الرسوم اليابانية والصينية تظهر أزواجاً أرجلهم إلى الأعلى، في وضعيات مستحيلة تشريحيّاً، لكنّها قادرة على إثارة أكثر الناس زهداً، فكيف بشخص واسع الخيال مثلها. ومع ذلك فأكثر النصوص تعليمية كانت روايات بورنوغرافية تكتبها سيّدة تُدعى *السيّدة المجهولة*، مترجمة بشكل سيء من الإنكليزية إلى الإسبانية، حملتها الشابة واحدة فواحدة خفية في حقيبتها، وقرأتها بعنايةٍ وأعادتها في مكانها بحذرٍ، وهذا الحذر غير ضروريّ، لأنّ خالها كان مشغولاً بحملةِ الحرب، وما من أحد آخر في القصر يدخلُ إلى المكتبة غيره. سبرت جسدها مهتدية بتلك الكتب، وتعلّمت مبادئ أقدم الفنون الإنسانية، وحضّرت نفسها لليوم الذي تستطيع أن تُطبِّق فيه النظرية على الواقع. كانت تعرف ، طبعاً، أنّها ترتكب خطيئة رهيبة ـ فاللذة هي دائماً خطيئة ـ لكنّها امتنعت عن مناقشة الموضوع مع معرِّفها، لأنّه بدا لها أنّ المتعة التي تمنحها لنفسها، وستُمنحها في المستقبل، تستحق خطر الجحيم. كانت تُصلّي كيلا

يُباغتها الموتُ وتتمكّن، قبل أن تلفظ آخر أنفاسها، من الاعتراف بساعات المتعة التي كانت تقدّمها إليها تلك الكتبُ. لم يخطر لها قط أنّ تلك التسلية المنفردة ستفيدها في إعادة الحياة لرجلٍ كانت تُحبّه أو أنّها ستُمارسها على بعد ثلاثة أمتار من راهبة نائمة. بدءاً من أوّل ليلة مع سِبِرو، تدبَّرت نيبيا أمرَها لتأخذَ فنجاناً من الشوكولاتة الساخنة وبعضَ البسكويت للمتدينة حين كانت تذهب لتودِّع زوجها، قبل أن تمضي إلى غرفتها. وكانت الشوكولاتة تحتوي على جرعة من حشيشة القطّ القادرة على أن تنوّم جملاً. لم يخطر لسِبِرو قط أنّ ابنة عمّه الطاهرة قادرة على كلّ تلك المآثرِ وبكلّ تلك الروعة. فجرح ساقه الذي طالما سبّب له آلاماً حارقة وأخزةً وحمى ووهناً جعله يلعب الدورَ السلبي، لكن ما كان ينقصه في القوّة كانت تضعه هي في المبادرة والمعرفة. لم يخطر لسِبِرو أنَّ تلك البهلوانيات ممكنة. كان واثقاً من أنّها لم تكن أوضاعاً مسيحية، لكنّ هذا لم يمنعه من التمتع بها إلى أقصى حد. ولو لم يكن يعرف نيبيا منذ طفولتها، لفكّر أنّ ابنة عمّه قد تدرّبت في سراي تركي، لكن إذا كانت قد شغلته الطريقة التي تعلّمت بها تلك الغادةُ كلَّ تلك التنويعات من حيل المومسة، إلاّ أنّه ملك الذكاء كيلا يسألها عنها. تبعها بوداعة في رحلة الأحاسيس إلى الحد الذي سمح له به الجسد، مُسلِّماً في طريقه آخرَ رمق في روحه. كانا يبحثان تحت الملاحف عن الطرق الموصوفة في الكتب الخلاعية في مكتبة وزير الحرب المحترم، وعن طرق أخرى راحت تنبعث وتتسارع بالرغبةِ والحبّ، ولكنّهما مُحدودين بالجدعة الملفوفة والراهبةِ التي تشخر على الكرسيّ. كان الفجر يبُاغتهما يختلجان في عقدة تشابك الأذرع ووحدة الفمين اللذين يتنفسّان بإيقاعٍ واحدٍ، وما إن يُلْمَحَ أوّلُ سطوعٍ للنهار في النافذة، حتى تنسلّ مثل شَبحٍ عائدةً إلى غرفتها. ألعاب الماضي تحولت إلى ماراثونات للملذّات الحسّية، يتداعبان بشهيّةٍ، يقبّلان ويلعقان بعضهما، ويلجانِ في كلِّ مكان، وكلّ ذلك في الظلمة وفي أشد حالات الصمت إطباقاً، يبتلعان تنهداتهما، ويعضّان الوسائد كي يُخمِدا الشبقَ السعيد الذي يرتقي بهما إلى المجد مرّةً وأخرى خلال تلك الليالي القصيرة أكثر من اللازم. كانت الساعةُ تطيرُ: لا تكادُ نيبيا تظهرُ مثلَ روحٍ في

الغرفة لتندسّ في فراش سِبِرو حتى يطلع الصباح. لم يكن يغمض لهما جفنٌ. ولم يكن باستطاعتهما أن يُضيّعا لحظةً واحدة من تلك اللقاءات المباركة. وفي اليومِ التالي ينام هو مثل وليد جديد، حتى الظهيرة، بينما تستيقظ هيَ باكراً تعلوها علامات المسرنمة المشوّشة، وتقوم بأعمالها الروتينية العادية. في المساءات يرتاح سِبِرو في كرسيّ العجلات في الشرفة، ينظر إلى الشمس مقابل البحر، بينما زوجته تنام وهي تطرّز سماطات صغيرةً بجانبها. كانا أمام الآخرين يتصرّفان كأخوين، لا يكاد يلمس أو ينظر أحدهما إلى الآخر، بينما الجوّ من حولهما مشحون باللهفة. وكانا يقضيان النهارَ يعدّان الساعات، ينتظران بتوق وهذيانٍ أن تصل ساعة العودة للعناق في السرير. ما كانا يقومان به ليلاً يرعب الطبيبَ، والأسرتين، والمجتمعَ بكامله، فكيف بالراهبة. خلال ذلك كان الأقارب والأصدقاء يتحدّثان عن غيرية نيبيا، الشابة النقية الكاثوليكية الخالصة المحكومة بحبّ أفلاطونيّ، وعن صلابة سِبِرو الأخلاقية، الذي فقد ساقه ودمّر حياتَه دفاعاً عن الوطن. بينما الجارات ينشرن الأقاويل بأنّ ما فقده في ميدان المعركة لم تكن ساقه وحسب، بل وخواصّ الرجولة أيضا. «مسكينان»، كنّ يهمسن بين التنهدات دون أن تخطر لهنّ كم كان ذلك الزوجان الخليعان يتمتّعان. بعد أسبوع من تخدير الراهبة بالشوكولاتة، وممارسة الحب مثل المصريين، كان جرح البتر قد اندمل، والحمّى اختفت. وقبل مضي شهرين كان سِبِرو دِل بالْيِه يسير بعكازين، وبدأ الحديث عن ساقٍ خشبية. بينما نيبيا تراقب تضخم بطنها وتتقيّأ مختبئة في أيّ واحد من حمامات قصر عمّها الثلاثة والعشرين. وحين لم يعد هناك بدّ من القبول بحمل نيبيا أمام الأسرة، بلغت المفاجأة العامة حدَّ القول إنّ ذلك الحمل معجزة إلهية! أكثر من صدمتها الحالة كانت الراهبةُ، ومع ذلك كان سِبِرو ونيبيا يشكّان دائماً بأنّها على الرغم من جرعات حشيشة القط العالية فإنّ المرأة القديسة ملكت فرصة لتتعلّم كثيراً؛ كانت تتظاهر بالنوم كيلا تحرم نفسها من متعة التجسّس عليهما. والوحيد الذي استطاع أن يتصوّر كيف فعلا ذلك واحتفل ببراعة الزوجين مقهقهاً من كلّ قلبه، هو الوزير بِرغارا.

حين استطاع سِبِرو أن يخطو الخطوات الأولى على ساقه الصناعية، وصار من غير الممكن التستر على بطن نيبيا، ساعدهما على الاستقرار في بيت آخر وقدّم عملاً لسِبِرو دِل بالْيه. «البلدُ والحزب الليبرالي بحاجة إلى رجال لهم إقْدامك»، قال له ذلك، وإن كانت الشجاعة، في الحقيقة، هي نيبيا.

لم أعرف جدّي فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث، فقد مات قبل أشهر من ذهابي للعيش في بيته. أُصيب بسكتة قلبية بينما كان يجلس على رأس وليمة أقامها في بيته في نوب هيل، متشردقاً بحلوى الغزال ونبيذ فرنسي أحمر. رفعوه عن الأرض بين عدَّة رجال ومدّدوه على الأريكة محتضراً، برأسه الجميل الذي لأميرٍ عربيّ في حضن باولينا دِل بالْيِه، التي كانت تردّد كي تُشجّعه: «لا تمُتْ يا فِليثيانو، اعلم أنه ما من أحد يدعو الأرامل إلى الحفلات... تنفَّسْ يا رجل! أعدُك إذا ما تنفست أن أنزع مرتاج باب غرفتي.» يحكون أنّ فِليثيانو تمكّن من الابتسام قبل أن ينفجر قلبه بالدم. هناك عدّة صور لذلك التشيليّ القويّ والمرح، ومن السهل تخيّله حيّاً، لأنّه ما من صورة وقف فيها للرسّام أو المصوّر، إلا ويوحي فيها جميعاً بأنّه بوغِت بحركة تلقائية. كان يضحك بأسنان سمكة قرش، ويومئ بيديه حين يتكلّم، ويتحرّك بثقةٍ وعتوٍّ قرصان. انهارت باولينا دِل بالْيِه بعد موته؛ وبلغ بها الاكتئاب حدّاً لم تستطع معه حضور الجنازة ولا أيٍّ من حفلات التكريم المتعدّدة التي أقامتها المدينةُ على شرفه. وبما أنّ أولادها الثلاثة كانوا غائبين فقد وقع على عاتق رئيس الخدم وليامز ومحاميي الأسرةِ القيام بترتيبات الجنازة. وصل الابنان الأصغران بعد أسابيع، أما ماتيّاس فكان في ألمانيا، وبذريعة وضعه الصحيّ لم يحضر لمواساة أمّه. لأوّل مرّة في حياتها فقدت باولينا غنجَها، وشهيَّتَها واهتمامَها بدفاتر المحاسبة، ورفضت الخروج وصارت تقضي أيّامها في السرير. لم تسمح لأحدٍ بأن يراها في تلك الحالة، والوحيدون الذين علموا ببكائها هم خادماتها ووليامز، الذي كان يتظاهر بعدم

الانتباه، مقتصراً على المراقبة من مسافة دقيقة كي يُساعدها إذا ما طلبت ذلك. توقّفت ذات مساء بالمصادفة أمام المرآة الذهبية الكبيرة التي شغلت نصفَ جدارٍ في حمّامها، ورأت ما آل إليه حالُها: شمطاء بدينة، رثّة الثياب، لها رأس سلحفاة تعلوه خصلة شعر رماديّة متلبّدة. فصرخت مذعورة. ما من رجلٍ في العالم ـ خاصّة فِليثيانو ـ يستحقّ كلّ هذا الإهمال للذات، هكذا ختمت. كانت قد لامست القاع، فقد حانت الساعة لترفس الأرضَ بقدمها وتطفو مرّة أخرى إلى السطح. قرعت الجرس كي تنادي خادماتها وأمرتهنّ أن يُساعِدنها على الاغتسال، وأن يأتينها بحلاّقها. ومنذ ذلك اليوم تخطّت حزنها بإرادة من حديدٍ، دون أيّة مساعدة غير جبال الحلوى وحمامات الحوض الطويلة. كان الليلُ يُباغِتُها بفمها الملآن وهي غائصة في حوضها، لكنّها لم تعد تبكي. وفي عيد الميلاد خرجت من سجنها بعدّة كيلوغرامات زيادةً وببنية تامّة، عندئذٍ تبيّنتْ مندهشةً أن العالمَ في غيابها استمرّ بالدوران ولم يفتقدها أحد، وهو ما شكّل دافعاً إضافياً كي تنهض نهائيّاً. لن تسمح بأن يتجاهلوها، كما قرّرت، فقد أتمّت للتو الستين من عمرها وتُفكّر أن تعيش ثلاثين أخرى، وإن كان ذلك كي تعذّب أبناء جلدتها وحسب. سترتدي الحداد لعدّة أشهر، فقد كان هذا أقلّ ما يمكن أن تفعله احتراماً لِفِليثيانو، لكنّه لم يكن يُحبّ أن يراها متحوِّلة إلى واحدة من تلك الأرامل اليونانيات اللواتي يقبرن أنفسهنّ في الخرق السوداء بقيّة حياتهنّ. واستعدّت لتفصيلِ خزانةِ ثيابٍ جديدةٍ، نيليّةِ اللون للعام التالي، وللقيام برحلة ترفيهية إلى أوروبا. دائماً أرادت أن تذهب إلى مصر، لكنّ فِلِيثيانو كان يرى أنّها بلد رملٍ ومومياءات، وكلّ ما هو هام فيها حدث قبل ثلاثة آلاف عام. الآن وقد صارت وحدها تستطيعُ أن تُحقّق هذا الحلمَ. ومع ذلك، سرعان ما انتبهت إلى مدى تبدّل حياتها، وقلّة تقديرِ مجتمع سان فرانسيسكو لها؛ فكلّ ثروتها لم تكفِ كي يغفر له أصلها الهيسباني ونبرتها التي لطاهية. وبالفعل ما عادت تدعى، كما كانت قد قالت مازحةً، وما عادت أولى من تتلقىّ دعوات إلى الحفلات، ولم يعودوا يطلبون منها أن تُدشّن مستشفىً أو نصباً، وما عاد اسمها يُذكر في الصفحات الاجتماعية، ونادراً ما صاروا يُحيّيونها في

الأوبرا. أصبحت منبوذة. ثمّ إنّه صار من الصعب جدّاً عليها أن تزيد تجارتها، لأنّه بعد وفاة فِليثيانو لم يعد هناك من يمثّلها في الأوساط المالية. قامت بِحسابٍ دقيق لأملاكها، ولاحظت أنّ أولادها الثلاثة يبذّرون الأموالَ بأسرع مما تستطيع كسبه، وعليها ديون في كلّ مكان، وقبل أن يتوفّى فِليثيانو كان قد قام ببعض الاستثمارات المشؤومة دون أن يستشيرها. لم تكن ثريّة كما كانت تظنُّ، ومع ذلك فهي بعيدة عن الشعور بأنها مهزومة. استدعت وليامز وأمرته أن يتعاقد مع مهندس ديكور من أجل إعادة ترتيب القاعات، ورئيس طهاة لتنظيم سلسلة من الولائم تُقدِّمها بمناسبة العام الجديد، ووكيلِ سفر كي تتكلّم معه عن مصر، وخيّاط كي يُصمِّم لها ملابسها الجديدة. وبينما كانت تتعافى من خوفها من الترمّل بتلك الإجراءات الضرورية حضرت إلى بيتها طفلة ترتدي البوبلين الأبيض، وقلنسوة مطرّزة وحذاءً جلديّاً لامعاً، تمسكها من يدها امرأة ترتدي ثياب الحداد. تلك كانت إليثا سومّرز وحفيدتها أورورا، التي لم ترها باولينا دِل بالْيِه منذ خمس سنوات.

ـ ها أنا أُحضِر إليك الطفلة، كما كنت تريدين يا باولينا ـ قالت إليثا سومرز بحزن.

ـ يا إلهي، ما الذي جرى؟ ـ سألت باولينا دِل بالْيِه وقد أخذتها المفاجأة.

ـ مات زوجي.

ـ أرى أنّ كلينا أرملتان... ـ تمتمت باولينا.

أوضحت إليثا سومّرز أنّها لا تستطيع أن تعتني بحفيدتها، لأنّ عليها أن تحمل جثمان تاو شيين إلى الصين، كما كانت قد وعدته دائماً. نادت باولينا دِل بالْيِه وليامز وأمرته أن يُرافِق الصغيرةَ إلى الحديقة ليريها الطواويس، بينما هما تتكلّمان.

ـ متى تفكّرين بالعودةِ يا إليثا؟ ـ سألت باولينا.

ـ يمكن أن تكون رحلة طويلة جدّاً.

ـ لا أريدُ أن أتعلّق بالطفلة لأعيدها إليك بعد عدّة أشهر. قلبي سيتمزّق.

ـ أعدك ألاّ يحدث هذا يا باولينا. أنتِ تستطيعين أن تُقدّمي إلى حفيدتي حياةً أفضلَ بكثير من التي أستطيع أن أقدّمها إليها. أنا لا أنتمي إلى مكان. والعيش في تشايناتاون دون تاوشيين لا معنى له، كما أنّني لا أتلاءم مع الأمريكيين، وليس عندي ما أفعله في تشيلي. أنا غريبة في كلّ مكان، لكنّني أرغب أن يكون لِـــ لاي ـ مينغ جذور، وأسرة وتربية حسنة. وعلى عاتق سِبِرو دِل بالْيه، والدها الشرعي، يقع أمرها، لكنّه بعيد جداً ولديه أولاد آخرون. وبما أنّك أردت دائماً أن تكون الطفلة عندك، فقد فكّرتُ أنّ...

ـ حسناً فعلتِ يا إليثا! ـ قاطعتها باولينا.

استمعت باولينا دِل بالْيه إلى المأساة التي نزلت بإليثا سومّرز، واستقصت عن كلّ التفاصيل حول أَوْرورا، بما في ذلك الدور الذي كان يلعبه سِبِرو دِل بالْيه في مصيرها، وخلال ذلك تبخّر غضبُها وعجرفتُها دون أن تدري كيف، ووجدت نفسها تُعانِق تلك المرأة، التي كانت تعتبرها قبلَ لحظات قليلة أسوأ عدوّةٍ لها، متأثّرةً شاكرة كرمَهَا اللامعقول بمنحها حفيدتها، مقسمةً بأن تكون أفضلَ جدّة لها، بالتأكيد ليس أفضل منها أو من تاو شيين، لكنّها مستعدّة لأن تُكرّس بقيّة حياتها لرعاية وإسعادِ أورورا. ستكون هذه هي المهمّة الأولى لها في هذا العالم.

ـ لاي ـ مينغ فتاة ذكيّة. سرعان ما ستسأل من يكون أبوها. كانت حتى فترة قصيرة تظنّ أنّ أباها، وجدّها، وأفضل صديق لها، وإلهها شخص واحد: تاو شيين ـ قالت إليثا.

ـ ماذا تريدينني أن أقول لها إذا ما سألتني؟ ـ أرادت باولينا أن تعرف.

ـ قولي لها الحقيقة، فهذه دائماً أسهل ما يمكن فهمه ـ نصحتها إليثا.

ـ وهل أقول لها إنّ ولدي ماتيّاس أبوها البيولوجي وابن أخي سِبِرو هو أبوها الشرعي؟

ـ ولم لا؟ وقولي لها إنّ أمّها كانت تُدعى لين سومّرز، وإنها كانت شابّة طيّبة وجميلة ـ همست إليثا سومّرز بصوت مهشّم.

اتفقت الجدّتان هناك بالتحديد على أنّه، ومن أجل تجنيب الطفلة مزيد من البلبلة، من المناسب فصلها عن أسرة أمّها نهائيّاً، فلا تعود تتكلّم الصينية أو تقيم أيّ احتكاك بماضيها. واستنتجتا أنه في سن الخامسة ليس هناك استخدام للعقل أو تمييز للأحداث؛ ومع الزمن ستنسى لاي - مينغ أصولها وصدمة الأحداث الأخيرة. وتعهّدت إليثا سومّرز ألا تحاول إقامة أيّ اتصال مع الطفلة، ووعدتها باولينا دِل بالْيِه أن تعبدها كما كانت ستفعل مع الابنة التي طالما رغبت بها ولم تملكها. ودّعت إحداهما الأخرى بعناق قصير وخرجت إليثا من بابٍ من أبواب الخدمة، كيلا تراها الحفيدة وهي تبتعد.

يحزنني أنّ هاتين السيّدتين الطيّبتين، جدّتيّ إليثا سومّرز وباولينا دِل بالْيِه، قرّرتا مصيري دون أن تسمحا لي بأيّ مشاركة. فبالعزيمة الجبّارة ذاتها التي انسلّت بها جدّتي باولينا في الثامنة عشرة من عمرها من الدير برأسها الحليق كي تهرب مع خطيبها وبالتصميم الذي جمعت فيه ثروةً وهي في الثامنة والعشرين، حاملة ثلجاً من ثلوج ما قبل التاريخ في سفينة، أصرّت على أن تمحو أصولي. ولولا زلّة من القدرالذي بدّل خططها في اللحظة الأخيرة لكانت حقّقت ذلك. أتذكّر جيّداً انطباعي الأوّل عنها. أرى نفسي أدخل قصراً يعلو هضبةً، أعبر حدائقَ فيها مرايا من ماء وأشجار قصيرة مقلّمة، وأرى أدراج مرمر وأسداً برونزيّاً بالحجم الطبيعيّ على كلّ جانب، وباباً خشبيّاً مزدوجاً داكناً، وقاعة فسيحة مضاءة بنوافذ من الزجاج الملوّن في قبّة جليلة تتوّج السقفَ. لم يحدث أن كنتُ في مكان مثله قط، وكنتُ أشعر بالافتتان كما بالخوف. وفجأة وجدتُ نفسي أمام كرسيّ كبير مذهّب ومرصّع تتربّع فيه باولينا دِل بالْيِه، ملكةً على عرشها. وبما أنّني عدتُ ورأيتها مرّاتٍ كثيرة على الكرسيّ ذاته، فليس من الصعب عليّ أن أتصوّر مظهرها في ذلك اليوم الأوّل: عظيمةً، مزيّنة بفيض من المجوهرات وما يكفي من القماش لصنع ستائر، ومهيمنة متسلطة. وبحضورها يختفي بقيّة

العالم. كان صوتها جميلاً وأناقتُها طبيعية جدّاً، وأسنانها بيضاء متساوية، نتاج طقم خزف سنّيّ متقن. لا بدَّ أن شعرها كان في ذلك الوقت رمادياً، لكنّها كانت تصبغه باللون الكستنائيّ الذي كان له في شبابها، وتزيده بسلسلة من الشعر المستعار الموزّع بمهارةٍ، وبطريقة تبدو فيها الكعكة كأنّها برج. لم أر من قبل مخلوقةً بمثل تلك الأبعاد، المتناسبة تماماً مع حجمِ وفخامة بيتها.

أخيراً، وأنا أعرف الآن ما حدث خلال الأيام السابقة على هذه اللحظة، أدركُ أنّه ليس من العدلِ أن أعزو ذعري لهذه الجدّة المريعة وحدها؛ فحين حملوني إلى بيتها كان الرعب جزءاً من متاعي، كالحقيبة الصغيرة والدمية الصينية التي حملتُها متشبّثة بها. بعد أن سرتُ في الحديقةِ، وجلستُ في قاعة طعام فارغة هائلة أمام كأس من المثلجات، حملني وليامز إلى قاعة اللوحات المائيّة، حيثُ ظننتُ أنّ جدّتي إليثا تنتظرني، لكنّني وجدتُ بدلاً عنها باولينا دِل بالْيه، التي اقتربت منّي بحذرٍ كما لو أنّها تريد أن تُمسك بقطّ نفور، وقالت لي إنّها تُحبّني كثيراً، وإنّني من الآن فصاعِداً سأعيش في ذلك البيت الكبير، وسيكون عندي لعب كثيرة، وكذلك حصان وعربة صغيرة.

ـ أنا جدّتُكِ ـ وضّحتْ.

ـ أين جدّتي الحقيقيّة؟ ـ يقولون إنّني سألتُ.

ـ أنا جدّتُكِ الحقيقيّة يا أورورا. الجدّة الأخرى ذهبت في رحلة طويلة ـ وضّحت لي باولينا.

رحتُ أركض، اجتزت ردهة القبّة، وضعتُ في المكتبة، اصطدمت بقاعة الطعام ودخلت تحت الطاولة، حيثُ تقوقعتُ، وقد أخرستني البلبلة. كانت قطعة أثاث هائلة، سطحها من المرمر الأخضر وأرجلها المحفورة عليها صور نساء أعمدة، من المستحيل تحريكها. وسرعان ما جاءت باولينا دِل بالْيه ووليامز وزوج من الخدم العازمين على تملّقي، لكنّني كنت أنسلّ منهم مثل ابن عرس ما إن تكاد تتمكّن يدٌ من الاقتراب. «اتركيها يا سيّدتي، ستخرج لوحدها»، اقترح وليامز، لكن بما أنّه مضت عدّة ساعات، وأنا

مازلتُ متمترسة تحت الطاولة، جاءوني بصحن آخر من المثلجات، ووسادة وشرشفاً. «سنُخرِجُها حينِ تنام»، قالت باولينا دِل بالْيِه، لكنّني لم أنم، إنما بلتُ مقرفصةً وواعية تماماً للخطيئة التي ارتكبتُها، فقد كنت من الخوف بحيث لا أستطيع البحث عن الحمّام. بقيتُ تحت الطاولة حتى أثناء تناول باولينا لعشاءها؛ ومن خندقي كنتُ أرى ساقيها الغليظتين ونعلي الساتان الصغيرين اللذين تطفح فوقهما أسطوانات القدمين، وبنطلونات الخادمات السوداء اللواتي كنّ يمضين في خدمة المائدة. وقد انحنت هي مرّتين، وبصعوبة كبيرة جداً، كي تغمزني، فأجبتها بإطراق رأسي بين ركبتيّ. كنت أموتُ جوعاً، وتعباً، ورغبةً بالذهاب إلى الحمّام، لكنّني كنتُ بكبرياءِ باولينا دِل بالْيِه نفسها، فلم أستسلِم بسهولة. بعد قليل زلّق وليامز صينية المثلجات الثالثة، والبسكويت وقطعة كبيرة من حلوى الشوكولاتة. انتظرتُ ابتعاده، وحين شعرتُ بالأمان أردتُ أن آكلَ، لكنني كلّما مددت يدي أكثر ابتعدت الصينية التي راح وليامز يجرّها بخيط. حين استطعتُ أخيراً أن آخذ قطعة بسكويت كنتُ قد أصبحت خارج ملاذي، وتمكّنتُ من التهام الطعامِ الشهيّ بسلام، لأنّه لم يكن يوجد في قاعة الطعام أحدٌ؛ وما إن سمعتُ جلبةً، حتى عدتُ طائرةً إلى تحت الطاولة. الشيء ذاته تكرّر بعد ساعاتٍ، وعند بزوغ الصباح، إلى أن وصلت بلحاقي بالصينية إلى الباب، حيث كانت تنتظرني باولينا دِل بالْيِه ومعها جرو ضارب للصفرة، وضعته بين ذراعيّ.

ـ خذي، إنّه لك يا أورورا. هذا الكلب يشعر أيضاً بالوحدة والخوف ـ قالت لي.

ـ اسمي *لاي* ـ مينغ.

ـ اسمك أورورا دِل بالْيِه ـ ردّت بحزم.

ـ أين الحمّام؟ ـ همستُ مصالبة ساقيّ.

هكذا بدأت علاقتي مع هذه الجدّة العملاقة التي أمدّني بها القدر. وضعتني في غرفة قريبة من غرفتها وسمحت لي أن أنام مع الجرو، الذي أسميته *كراميلو* لأنّه كان بهذا اللون. وفي منتصف الليل

استيقظت على كابوس الأطفال ذوي البيجامات السوداء، وذهبت مرّتين طائرةً إلى سرير باولينا دِل بالْيِه الأسطوري دون أن أفكّر بالأمر، تماماً كما كنتُ أحشرِ نفسي كلَّ فجرٍ في غرفة جدّي، كي يُدلّلني. كنتُ معتادة على أن أُستَقبَلَ في ذراعي تاو شيين القويين، وما من شيءٍ كان يُريحني مثل رائحته البحرية وسلسلة الكلمات الصينية الحلوة التي كان يقولها لي وهو نصف غافٍ. كنتُ أجهل أنّ الأطفال العاديين لا يتخطون عتبة غرفة الكبار، فكيف بالنوم في أسرَّتهم؛ لقد ترعرعتُ على احتكاك جسدي كبير مقبَّلة ومُهدْهَدَة بشكل دائم من جدّيَّ لأمّي، ولم أعرف طريقة أخرى للعزاء أو الراحة غير العناق. حين رأتني باولينا دِل بالْيِه صدتني مستنكرة، فرحت أئنّ ببطء مع الجرو المسكين. لا بدّ أنّ حالتنا كانت محزنة جدّاً، حتى أشارت إلينا بالاقتراب. قفزتُ إلى سريرها وغطيتُ رأسي بالملاحف. أعتقد أنّني نمتُ على الفور، في جميع الأحوال أصبحتُ متقوقعةً بجانبِ ثدييها الهائلين المعطرين بالغاردينيا، والجرو عند قدميّ. وأوّل ما فعلته حين استيقظتُ بين الدلافين وحوريات الماء الفلورنسية كان السؤال عن جدّيَّ، إليثا وتاو. بحثتُ عنهما في جميع أنحاء البيت والحدائق، وبعدها أقمتُ بجانب الباب أنتظرُ مجيئهما للبحث عنّي. الشيء ذاته تكرَّر بقيّةَ الأسبوع، على الرغم من الهدايا والمشاوير وتدليل باولينا لي. وفي يوم السبت هربت. لم أخرج قط إلى الشارع وحيدة، ولم أكن قادرة على تحديد موقعي، لكنّ الغريزة دلّتني على أنّ عليّ أن أهبط التلَّ، وهكذا وصلتُ إلى مركز مدينة سان فرانسيسكو، حيث همتُ لساعاتٍ، مرعوبة إلى أن لمحتُ زوجاً من الصينيين ومعهم عربة محمّلة بالثياب للغسيل فتبعتهم عن بعد لأنّهما كانا يشبهان خالي «محظوظ». كانا متجهين إلى تشايناتاون - هناك كانت جميع مصابغ المدينة - وما إن دخلت ذلك الحي المعروف جدّاً بالنسبة إليّ حتى شعرتُ بالأمان، رغم أنّني كنتُ أجهلُ أسماء الشوارع وعنوان جدّيّ. كنت من الخجل والخوف بحيث لا أستطيع طلب المساعدة من أحدٍ، فتابعتُ سيري دون اتجاه معيّن، مهتديةً برائحةِ الأطعمة، ووقعِ أصوات اللغة، ومظهرِ مئات الحوانيت الصغيرة التي طالما جبتها ممسكةً بيد جدّي تاو شيين.

غلبني التعب في لحظة ما، فارتحت في عتبة بناء فاخر وغفوت. استيقظت على هزٍّ وزمجرةٍ من امرأة عجوز بحاجبين رقيقين مطليين بالكربون وسط الجبين، يضفيان عليها شكلَ القناع. صرختُ مذعورة، لكن متأخّرة فلم أستطع أن أملص لأنّها أمسكت بي بكلتا يديها. حملتني وأنا أتخبّط برجليّ في الهواء إلى غرفة حقيرة منتنة وحبستني فيها. كانت رائحة الغرفة كريهة جدّاً وأعتقد أنّني مرضتُ من الخوف والجوع، لأنّني بدأت أتقيّأ. لم أكن أملك فكرة عن المكان الذي كنتُ فيه. وما كدتُ أخرج قليلاً من الغثيان حتى رحتُ أنادي جدّي بكلّ قواي، وعندئذ عادت المرأة وصفعتني صفعاتٍ قطعت أنفاسي؛ لم يضربني أحدٌ من قبل، وأعتقد أن الدهشة كانت أكبر من الألم. أمرتني بالكانتونية أن أغلق فمي وإلاّ فأنّها ستجلدني بعصا الخيزران، ثمّ عرّتني، وفحصتني كاملةً، خاصّةً فمي، وأذنيَّ وأعضائي التناسلية، وألبستني قميصاً نظيفاً وأخذت ثيابي الملطخة. بقيتُ مرّةً أخرى وحيدةً في الغرفة التي راحت تدخل في العتمة مع تناقص الضوء في فجوة التهوية الوحيدة.

أعتقد أنّ هذه المغامرة تركت أثرها فيّ، فقد مضى خمسةٌ وعشرون عاماً وما أزال أرتعد حين أتذكّر تلك الساعات اللامتناهية. لم تكن هناك بنات صغيرات تشاهَدْن في تشايناتاون في تلك المرحلة إطلاقاً، كانت الأسرُ ترعاهنّ بحذرٍ لأنّ من الممكنّ أن يختفين عند أية غفلةٍ في متاهات تجارة الجنس بالأطفال. كنتُ صغيرة جدّاً على ذلك، لكنّهم كثيراً ما كانوا يختطفون أو يشترون طفلاتٍ من عمري لتدريبهنّ منذ الطفولة على كلّ أنواع الفجور. عادت المرأة بعد ساعاتٍ حين أظلمت تماماً، يرافقها رجل أصغر منها. راقباني على ضوء المصباح وبدأا يتناقشان متحمّسين بلغتهما التي كنت أعرفها، لكنّني لم أفهم إلا القليل لأنّني منهكة وأكاد أموت من الخوف. وبدا لي أنّني سمعتُ اسم جدّي تاو شيين عدّة مرّاتٍ. ذهبا وعدتُ لأبقى وحدي، أرتعدُ من البرد والرعب، لا أدري كم من الزمن. وحين فُتح البابُ من جديد أعماني نورُ المصباح، وسمعتُ اسمي بالصينية، لاي ـ مينغ، فعرفت صوت خالي «محظوظ» الذي لا يمكن أن أخطئه. رفعتني ذراعاهُ ولم أعرف

بعدها شيئاً لأنّ الراحة صعقتني. لا أتذكّر الرحلة بالعربة، ولا اللحظة التي عدت لأجد نفسي فيها في قصر نوب هيل، أمام جدّتي باولينا. كما لا أتذكّر ما جرى في الأسابيع التالية، لأنّني أصِبتُ بالحصبة واشتدّ عليّ المرض كثيراً؛ وكانت مرحلة مضطربة، كثيرة التبدّلات والتناقضات.

الآن وأنا أربط بين خيوطِ ماضيّ، أستطيع أن أؤكِّد، دون أيّ مجالٍ للشك، أنّ ما أنقذني هو حُسن طالع خالي «محظوظ». فالمرأة التي اختطفتني من الشارع هرعت إلى أحد ممثلي *التونغات*. لأنّه ما من شيء يحدث في الشارع إلا بعلم وموافقة هذه العصابات. كانت الجالية الصينية كلّها تنتمي إلى *التونغات* المتعدّدة. أخويات مغلقة وغيورة تجمع أعضاءها مطالبة بالولاء والعمولة مقابل الحماية والتواصل من أجل العمل، والوعد بإعادة أجساد أعضائها إلى الصين، إذا ما ماتوا على الأرض الأمريكية. كان الرجل قد رآني ممسكة بيد جدّي مرّاتٍ كثيرةً، وبمصادفة مواتية كان ينتمي إلى تونغ تاو شيين ذاتها. فكان هو من استدعى خالي. أوّل ردّ فعل عند «محظوظ» كان أن حملني إلى بيته، كي تتولى رعايتي زوجتُهُ التي أوصى عليها حديثاً بواسطة كتالوج من الصين، لكنّه أدرك بعد ذلك أنّ عليه احترامَ تعليماتِ أبويه. غادرت جدّتي إليثا، بعد أن وضعتني بين يدي باولينا دِل بالْيِه، إلى هونغ كونغ مع جثمان زوجِها لتواريه التراب هناك. وكانت تؤَكّدُ دائماً، هي وجدّي، أنّ الحيَّ الصينيّ في سان فرانسيسكو صغير جدّاً عليّ، وكانا يرغبان أن أصبح مواطنة من مواطني الولايات المتحدة. ومع أنّ «محظوظ» شيين لم يكن موافقاً على هذا المبدأ، إلاّ أنّه لم يكن يستطيع أن يعصي إرادةَ والديه، ولذلك دفع إلى مختطفيَّ المبلغ المتفق عليه وحملني عائداً بي إلى بيت باولينا دِل بالْيِه. لن أراه ثانيةً إلاّ بعد عشرين عاماً، حين ذهبتُ لأبحث عنه كي أتحقّق من آخر تفاصيل قصّتي.

عاشت أسرة جدّيّ لأبويّ الفخورة بنفسها في سان فرانسيسكو ستّة وثلاثين عاماً دون أن تتركَ كبيرَ أثرٍ. ذهبتُ بحثاً عن آثارها.

فقصر نوب هيل صار اليومَ فندقاً، ولا أحد يتذكّر من هم أصحابه الأوائل. وبمراجعة صحف قديمة في المكتبة اكتشفت اسم الأسرة في صفحات المجتمع، كذلك قصّة تمثال الجمهورية واسم أمّي مذكوراً مرّات عديدة. هناك أيضاً خبرٌ مقتَضَبٌ عن وفاة جدّي تاو شيين، خبر وفاة فيه كثير من المديح كتبه شخص يُدعى جاكوب فريمونت، وإعلان عن تعازي المؤسّسة الطبّية تشكر فيها إسهامات *الزهونغ ـ يي* تاو شيين في الطب الغربي. كان هذا شيء غريب لأنّ السكّان الصينيين لم يكونوا آنذاك مرئيين، يولدون، يعيشون ويموتون على هامِش الحدث الأمريكي، لكنّ صيتَ تاو شيين تجاوز حدودَ تشايناتاون وكاليفورنيا، وصار معروفاً حتى في إنكلترا، حيث ألقى عدداً من المحاضرات حول المعالجة بالوخز بالإبر. ولولا هذه الوثائق المطبوعة لاختفى كمعظمِ أبطال هذه القصّة، وحملته ريح الذاكرة السيّئة.

ذهابي السريع إلى تشايناتاون بحثاً عن أجدادي لأمّي التقى مع أسباب أخرى دفعت باولينا دِل بالْيه إلى العودة إلى تشيلي. فقد أدركت أنّه ما من حفلات فاخرة أو تبذير قادرٍ على أن يُعيدَ إليها الحالة الاجتماعية التي كانت لها حين كان زوجها حيّاً. كانت تشيخُ وحيدةً، بعيدة عن أبنائها وأقربائها ولغتها وأرضها. ولم يكن المالُ المتبقّي معها ليكفي قطارَ الحياة المعتاد في بيتها بغرفه الخمس والأربعين، لكنّه كان ثروة عظيمة في تشيلي، حيث كلّ شيء يبدو أرخصَ بكثير. ثمّ إنّه قد هبطت عليها حفيدة غريبة، اعتبرت اجتثاثها كلّياً من ماضيها الصيني ضرورياً، إذا ما أردت أن تجعل منها آنسة تشيلية. لم تكن باولينا تتحمّل فكرة هروبي من جديد فتعاقدت مع مربية أطفال إنكليزية كي تراقبني ليلاً ونهاراً. ألغت خططها للذهاب إلى مصر وولائم العام الجديد، وعجّلت بصنعِ خزانةِ ثيابٍ جديدة، ثمّ راحت توزّع أموالها بين الولايات المتحدة وإنكلترا بشكلٍ منهجي، مرسلةً إلى تشيلي ما لا بدّ منه للإقامة، لأنّ الوضع السياسيّ بدا لها غير مستقرٍّ. كتبتْ رسالة مطوّلة إلى ابن أخيها سِيرو دِل بالْيه كي تتصالح معه، وتحكي له ما جرى لتاو شيين

وقرار إليثا سومّرز بتكليفها بأمر الطفلة، موضّحة له بالتفصيل ميّزة تربيتها هي للطفلة. وقد تَفَهَّمَ سِبِرو دِل بالْيِه مبرراتها وقبل مقترحها، لأنّه أنجب طفلين وكانت زوجته تنتظر الثالث، لكنّه رفض أن يُسلّمها وصايتَها الشرعية، كما كانت تريد.

محامو باولينا ساعدوها في توضيح صورة وضعها المالي وفي بيع البيت، بينما تكفّل رئيسُ الخدمِ ولّيامز بالجوانب العملية المتعلّقة بتنظيم انتقال الأسرة إلى جنوب العالم وحزم ممتلكات مُعلِّمته؛ لأنّها لم تشأ بيعَ أيّ شيء، كي لا تتقوّل ألسنةُ السوء بأنّها تفعل ذلك للحاجة. وبحسب ما تمّ الاتفاق عليه ستأخذ باولينا طرّاداً يحملنا معها، أنا والمربية الإنكليزية ومستخدمونٍ آخرون موثوقون، بينما يُرسِل ولّيامز الأمتعة ليبقى بعدها حرّاً، بعد أن يتلقّى مكافأة قيّمة بالجنيهات الإسترلينية لقاءَ خدمته. وسيكون ذلك آخر عمل يقوم به في خدمة معلّمته. لكنّ رئيس الخدمِ طلبَ، قبل أسبوعٍ من مغادرتِها، إذناً ليُكَلِّمها على انفرادٍ.

ـ اعذريني يا سيّدتي، هل أستطيع أن أسألك لماذا خسرتُ تقديرَك؟

ـ عمَّ تتكلّم يا ولّيامز؟ أنت تعلم كم أقدِّرك! وكم أنا شاكرة لك خدماتك!

ـ ومع ذلك لا ترغبين بحملي معك إلى تشيلي...

ـ بالله عليك يا رجل! لم تخطر لي هذه الفكرة. ماذا سيفعل رئيسُ خدم بريطانيّ في تشيلي؟ لا أحد عنده رئيس خدم هناك. وسيضحكونَ منك ومنّي. هل نظرتَ إلى الخريطة؟ هذا البلدُ بعيدُ جدّاً ولا أحد يتكلّم فيه الإنكليزية، وستكون حياتُك هناك غير مريحة كثيراً. ليس لي الحقّ بأن أطلبَ منك مثل هذه التضحية، يا ولّيامز.

ـ إذا سمحت لي سأقول لك يا سيّدتي إنّ ابتعادي عنك تضحية أكبر بكثير.

بقيت باولينا دِل بالْيِه تنظر إلى مستخدَمِها جاحظةَ العينين من الدهشة. ولأوّل مرّة تنتبه إلى أنّ ولّيامز كان شيئاً أكثر من رجلٍ آليّ

في سترة سوداء لها ذيل وقفّازات بيضاء. رأت رجلاً يُقارب الخمسين من عمره، عريض المنكبين، لطيفَ الوجه، وافرَ الشعر الأحمر، ولامع العينين؛ له يدا عامل شحنٍ خشنتانِ وأسنان صفراء من النيكوتين، رغم أنّها لم ترَهُ يُدخّن أو يبصق تبغاً قط. بقيا برهة لا نهاية لها صامتين، هي تراقبه وهو لا يحرِّك بصره أو يُبدي أيّ انزعاج.

- سيّدتي، لم يكن باستطاعتي إلاّ أن أُلاحِظ الصعوبات التي نتجت عن ترمّلك - قال وليامز أخيراً باللغة غير المباشرة التي استخدمها دائماً.

- هل تسخر مني؟ - ابتسمت باولينا.

- ليس هناك ما هو أبعد من هذا عن طباعي يا سيّدتي.

- هاهه - همهمت نظراً للوقفة الطويلة التي تبعت جواب رئيس خدمها.

- لا بدّ أنّك تتساءلين الآن لماذا كلّ هذا - تابع هو.

- لنقل إنّك استطعتَ أن تُثير فضولي، يا وليامز.

- يخطر ببالي لأنّني لا أستطيع السفر إلى تشيلي كرئيس خدم لك، أنّ ذهابي معك كزوجٍ لن تكون فكرة سيّئة تماماً.

اعتقدت باولينا أنّ الأرضَ انخسفت تحت قدميها وغاصت بها مع الكرسيّ وكلّ شيءٍ إلى قاع الأرض. وأوّل ما فكّرت به هو أنّ الرجل قد أفلِتت بعضُ براغي دماغه، إذ ليس هناك تفسير آخر، لكنّها حين تأكّدت من عزّة نفسه وهدوئه، ابتلعت الشتائم التي وصلت إلى فمها.

- اسمحي لي أن أوضِّح لك وجهة نظري يا سيّدتي - أضاف وليامز - . لا ألتمس طبعاً أن أمارس وظائف الزوج العاطفية. كما لا أتطلّع إلى ثروتك، التي ستبقى بمنأى تام عنّي، ومن أجل ذلك تتخذين الإجراءات القانونية المناسبة. سيكون دوري إلى جانبك عملياً هو الدور ذاته: أن أساعدك في كلِّ ما أستطيع بأكبر قدرٍ من التكتم.

وأعتقدُ أن امرأةً وحيدة في تشيلي، كما في بقيّة أنحاء العالم، تواجه مصاعب كثيرة. سيكون شرف لي أن أواجهها بدلاً عنك.

ـ وماذا تكسب من هذه التسوية الغريبة؟ ـ استقصت باولينا دون أن تستطيع إخفاء النبرة اللاذعة.

ـ من جهةٍ أولى، سأكسب الاحترامَ. ومن جهة ثانية، أعترفُ أن فكرةَ عدم العودة لرؤيتك قد عذّبتني منذ بدأت تتحدّثين عن خططِكِ للذهاب. لقد قضيت بجانبك نصف عمري، واعتدت عليك.

مكثت باولينا خرساء برهة أخرى أبديّة، بينما تُقلّب في رأسها اقتراح مستخدَمِها. تماماً كما طرح الأمر كانت عملية جيّدة، وفيها فائدة للاثنين: هو سيتمتّع بمستوى عال لن يحصل عليه بطريقة أخرى، وهي ستمضي شابكة ذراع رجل، إذا ما نُظِر إليه جيِّداً، بدا من أرفعِ طراز. في الحقيقة يبدو وكأنّه من النبلاء الإنكليز. وأطلقت قهقهةً بمجرّد أن تصوّرت وجوه أقربائها في تشيلي وحسد أخواتِها لها.

ـ أنت أصغرعمراً منّي على الأقل بعشرة أعوام، وبثلاثين كيلوغراماً وزناً، ألا تخشى أن تصبح مسخرةً؟ ـ سألت وهي تهتزّ من الضحك.

ـ أنا لا. وأنت ألا تخشين من أن يروك مع رجل من مثل وضعي؟

ـ أنا لا أخشى شيئاً في هذه الحياة، ويسرّني أن أثير استنكار الغير. ما اسمك يا وليامز.

ـ فريدريك.

ـ فريدريك وليامز... اسم جيّد، إنّه من أكثر الأسماء أرستقراطية.

ـ يؤسفني أن أقول إنّه الشيء الأرستقراطي الوحيد الذي أملكه يا سيّدتي ـ وابتسم وليامز.

وهكذا كان أن انطلقنا بعد أسبوع، جدّتي باولينا دِل بالْيِه

وزوجها الذي دشّنته توّاً، وحلاّقها، والمربية، وخادمتان، وخادم وفرّاش وأنا، بالقطار إلى نيويورك مع حمولةِ الصناديق، ومن هناك عبرنا إلى أوروبا في باخرة بريطانية. وقد أخذنا معنا *كراميلو* كذلك، الذي كان قد بلغ في نموه المرحلة التي تنكح فيها الكلابُ كلّ ما تجده في طريقها، وهو في هذه الحالة معطف جدّتي الذي كان من جلد الثعلب وكفافه مغطّى بأذيال كاملة منها. و*كراميلو*، المرتبك أمام السلبية التي تلقّت بها هذه (الأذيالُ) اندفاعه الغرامي، مزّقها بأسنانه. باولينا دِل بالْيِه، الغاضبة أوشكت أن ترمي به وبالمعطف عن ظهر السفينة، لكنّ أمام إغماءة الرعب التي أصابتني نجيا بجلدهما. شغلت جدّتي جناحاً من ثلاث غرفٍ، وشغل فريدريك وليامز جناحاً آخر بالحجم ذاته على الجانب الآخر من الممر. وكانت هي تتسلّى نهاراً بالأكل في كلّ ساعة، وتُبدّل فستاناً لكلّ نشاط، وتُعلّمني الحساب، كي آخذ على عاتقي دفاترَ حساباتها في المستقبل، وتحكي لي تاريخَ الأسرةِ، كي أعرف من أين جئتُ، دون أن توضّح قط هويّةَ والدي، كما لو أنّني بزغت في عشيرة دِل بالْيِه تلقائياً، وإذا ما سألت عن أمّي أو أبي أجابتني بأنّهما ماتا وليس ذلك مهماً، لأنّ وجود جدّةٍ مثلها يكفي ويزيد. وكان فريدريك وليامز خلال ذلك يلعب البريدج ويقرأ الصحفَ الإنكليزية، مثل بقيّة السادة من الدرجة الأولى. كان قد ترك سوالف وشاربين كثيفين بطرفين مصمغين، مما منحه مظهراً مهيباً، ويُدخّن الغليون والسيجار الكوبي. وقد اعترف إلى جدّتي أنّه مُدخّن مُتَمرِّس وأن أصعب ما واجهه في عمله كرئيس للخدم كان الامتناع عن التدخين أمام الناس، أخيراً صار باستطاعته الآن أن يتذوّق الدخان ويتخلّصَ من حبّات النعناع التي كان يشتريها بالجملة والتي ثقبت معدته. وفي الوقت الذي يتباهى فيه الرجال من أصحاب المواقع الجيّدة بالكرش وبالغبب المضاعف تحت ذقونهم، كانت هيئة وليامز النحيل الرياضية والقريبة من النحول شيئاً غريباً في المجتمع الراقي، رغم أنّ آدابه أكثر إقناعاً بكثير من آداب جدّتي. وفي الليل، وقبل أن يهبطا معاً إلى قاعة الرقص، كانا يمرّان علينا ليودّعانا أنا والمربية في الغرفة التي كنتُ أتقاسمها معها. لقد كانا فرجةً، هي مسرّحة

الشعر ويزيّنها حلاّقها، وترتدي ثياباً احتفالية، وتزدهي بمجوهراتها مثل وثن بدين وهو صار أميراً متزوّجاً رفيع الشأن. كنتُ أطلّ أحياناً على القاعة أتجسّس عليهما مندهشةً: كان فريدريك وليامز يُناوِر مع باولينا دِل بالْيِه في حلبة الرقص بثقةٍ من اعتاد على نقل الأحمال الثقيلة.

وصلنا إلى تشيلي بعد عام، حين استطاعت ثروة جدّتي المتعثّرة أن تنهض على قدميها بفضل المضاربة بالسكّر التي قامت بها خلال حرب الباسفيك. جاءت نظريتها صائبة: فالناس يأكلون الحلويات أكثر خلال الأوقات الصعبة. تصادف وصولنا مع تقديم سارة بِرنارد التي لا مثيل لها لدورها الشهير، *غادة الكاميليا*. لم تتمكّن الممثلة الشهيرة من تحريك مشاعر الجمهور، كما حدث في بقيّة العالم المتمدّن، لأنّ المجتمع التشيلي المرائي لم يتعاطف مع العاهرة المصابة بالسل، وبدا للجميع أنّه من الطبيعي أن تُضحّي من أجل الحبيب لتتجنب ما سيقولون، لم يجدوا مبرّراً لكلّ تلك المأساة ولا لكلّ تلك الكاميليا الذابلة. وذهبت الممثلة الشهيرة مقتنعةً بأنّها زارت بلد بلهاء خطيرين، وهو الرأي الذي شاطرتها إيّاهُ تماماً باولينا دِل بالْيِه. كانت جدّتي قد تنزّهت مع موكبها في عددٍ من المدن الأوروبية، لكنّها لم تحقّق حلمها بالذهاب إلى مصر، لأنّها افترضت أنّه لن يوجد هناك جمل قادر على تحمّل ثقلها، وسيكون عليها زيارة الأهرامات سيراً على قدميها تحت شمسٍ تتلظّى حمماً. في العام 1886 كنت في السادسة من عمري، وأتكلم مزيجاً من الصينية والإنكليزية والإسبانية، لكنّني أستطيع أن أجري العمليات الحسابية الأساسية الأربع، وأعرف كيف أحوّلُ الفرنكات الفرنسية إلى جنيهات إسترلينية، وهذه إلى ماركاتٍ ألمانية أو ليراتٍ إيطالية بمهارة عجيبة. لم أعد أبكي في كلّ لحظةٍ على جدّيَّ تاو وإليثا سومّرز، لكن بقيت تُعذّبُني الكوابيسُ الغامِضة ذاتها عادةً. كان في ذاكرتي فراغٌ أسود، شيءٌ دائم الحضور وخطير لا أتمكن من تحديد

ماهيته، شيء مجهول يُرعِبني، وخاصّة في الظلمةِ أو بين الحشود.
لم أكن أستطيع تحمّلَ أن أرى نفسي محاطة بالناس، فأبدأ بالصراخ
مثل ممسوسة، وتُضْطَرُّ جدّتي باولينا أن تلفّني في عناقِ دبٍّ كي
أهدأ. وقد اعتدتُ أن ألوذَ إلى سريرها حين أستيقظ مذعورة، وهكذا
كبر بيننا الودّ، الذي أعتقدُ واثقةً أنّه أنقذني من الجنونِ والرعبِ
الذي كنتُ سأقع فيه لو حدث الأمر بطريقة أخرى. وأمام الحاجة
لمواساتي تبدّلت باولينا دِل بالْيِه بطريقة غير محسوسة بالنسبة
للجميع باستثناء فريدريك وليامز. فقد أصبحت أكثر تسامحاً وودّاً،
بل وانخفض وزنها قليلاً، لأنّها كانت تركض خلفي مشغولة إلى حدّ
أنّها نسيت حلوياتها. أعتقد أنّها كانت تعبدني. أقول ذلك دون
تواضع مزيّف، لأنّها برهنت لي كثيراً عن ذلك، فقد ساعدتني على أن
أترعرع بكلّ ما أمكن من حريّة في تلك الأيام، تُثير فضولي وتريني
العالم. ولم تكن تسمح لي بالاستسلام للنزعة العاطفية والتشكّي،
«يجب عدم النظر إلى الخلف» كان هذا أحد شعاراتها. كانت
تُمازحني، مزاحاً بعضه ثقيل، حتى تعلّمت أن أردّ إليها الصاعَ
صاعين، وهذا ما حدّد درجةَ العلاقة بيننا. وقد وجدتُ ذات مرّة
ضبّاً مسحوقاً بعجلة عربة في صحن الدار، كان قد بقي في الشمس
عدّة أيّام وأصبحَ شبه مستحاثة ثابتة في مظهر الزاحف المشقّق
المحزن. أخذته واحتفظت به، ولا أدري لماذا، إلى أن وقعتُ على
فكرة استخدامه في خطة مُحكمة. كنتُ جالسة أمام طاولتي أنجز
واجباتِ الحساب المدرسية ودخلتْ جدّتي ساهيةً إلى الغرفة،
وتظاهرتُ بنوبة سعال يصعب التحكّم بها، فاقتربتْ منّي لتربت على
ظهري. انطويتُ من السعال ووجهي بين يديَّ و«بصقتُ»، أمام ذعر
المرأة المسكينة الضبَّ الذي حطّ في حضني. بلغ رعبُ جدّتي حين
رأتْ الحشرةَ التي لفَظَتْها رئتاي ظاهرياً حدَّ أنّها سقطت جالِسةً،
لكنّها ضحكت بعد ذلك مثلي واحتفظت للذكرى بالحيوان المُقدّد بين
صفحات أحد الكتب. يصعب علي أن أفهم لماذا كانت امرأة لها
قوّتها تخشى أن تحكي لي حقيقةَ ماضيَّ. يخطر ببالي أنّها على

الرغم من موقفها المتحدّي للتقاليد، لم تتجاوز قط أباطيلَ طبقتها. ولكي تحميني، أخفت بحذرٍ ربعَ دمي الصينيّ، وبيئةَ أمّي الاجتماعية المتواضعة، وكوني في الحقيقة ابنة زنا. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن آخذه على تلك الضخامة التي كانت جدّتي.

تعرّفتُ في أوروبا على ماتيّاس رودريغث دِ سانتا كروث دِل بالْيِه. لم تحترم باولينا الاتفاق الذي عقدته مع جدّتي إليثا سومّرز بأن تقول لي الحقيقة، فقد قدّمته لي كعمٍّ آخر من أعمام كثر يملكهم أيّ طفل تشيليّ بدل أن تُقدّمه كأب لي. ذلك أنّ كلّ قريبٍ أو صديقٍ للأسرة في عمر كافٍ كي يحمل هذا اللقب بكرامة يُدعى تلقائياً عمّاً أو عمّة، لذلك ناديت وليامز الطيّب دائماً بـ *العم* فريدريك. لقد علمت بأنّ ماتيّاس أبي بعد عدّة سنوات، حين عاد إلى تشيلي كي يموت، وقد قال لي ذلك هو نفسه. لم يترك الرجل عندي انطباعاً يستحقّ الذكر، كان نحيلاً، شاحباً، ووسيماً؛ يبدو شابّاً حين يكون جالساً، وأكبر بكثير حين يُحاول أن يتحرّك. يمشي بمساعدة عكّاز، ويرافقه دائماً خادمٌ يفتح له الأبوابَ، ويُلْبِسُهُ المعطفَ، يُشعل له السجائرَ، ويُناوله كأسَ الماء الموجود إلى جانبه على طاولة، لأنّ جهد مدّ اليد هو عمل متعب بالنسبة إليه. وقد وضّحت لي جدّتي أن هذا العم يُعاني من التهاب المفاصِل، الحالة المؤلمة جدّاً التي تجعله مثلَ البلور، سريعَ الكسر، كما قالت، ولذلك عليّ أن أقترب منه بحذر شديد. ستموت جدّتي بعد أعوام دون أن تدري أنّ ابنها لم يكن يُعاني من التهاب المفاصل، بل من الزّهري.

ذهول أسرة دِل بالْيِه حين وصول جدّتي إلى سانتياغو كان هائلاً. عبرنا الأرجنتينَ من بوينس آيرس برّاً حتى وصلنا إلى تشيلي، إنها رحلة سفاري حقيقية، آخذين بالاعتبار حجم الأمتعة الآتية من أوروبا إضافة إلى الحقائب الإحدى عشرة المليئة بالمشتريات التي قمنا بها في بوينس آيرس. سافرنا في عربة ركاب، والأحمال على قافلة من البغال يُرافقها حرّاس مسلحون بقيادة العم فريدريك، لأنّ هناك قطّاع طرق على طرفي الحدود، لكنّهم للأسف لم يُهاجمونا ووصلنا إلى تشيلي دون أيّ شيء مهم

يُروى عن عبورنا جبال الأنديز. في الطريق فقدنا المربية التي عشقت أرجنتينياً وفضّلت البقاء معه، كما فقدنا خادمةً هزمها التيفوس، لكنّ العم فريدريك كان يتدبّر أمره كي يتعاقد مع أحد من أجل المساعدة المنزلية في كلّ مرحلة من مراحل رحلتنا. قرّرت باولينا أن تقيم في سانتياغو، العاصمة،لأنّها بعد أن عاشت كلّ تلك السنوات في الولايات المتحدة رأت أنّ ميناء بالباريسو، حيث ولدت، سيكون صغيراً عليها. كما أنّها اعتادت أن تكون بعيدةً عن عشيرتها، وكانت تُرعبُها فكرة أنْ ترى أقرباءها كلَّ يوم، العادة المخيفة بالنسبة لأيّةِ أسرةٍ تشيلية مترابطة. ومع ذلك لم تتحرّر منهم في سانتياغو، لأنّه كان لها عدّة أخواتٍ متزوّجاتٍ من « أكابر الناس» كما ينادون بعضهم بعضاً عادة في الطبقة العليا، معتبرين كما أعتقد، أنّ بقية العالم يدخلون في درجة «أسافل الناس». ولم نكد نصل حتى حضر ابن أخيها سِبرو دِل بالْيه، الذي كان يعيش في العاصمة أيضاً، ليسلّم علينا مع زوجته. وأحتفظ من اللقاء الأوّل بهما بذكرى أكثر صفاء من ذكرى والدي في أوروبا، لأنّهم استقبلوني مبالغين بمظاهر الودّ إلى حدّ أنّهم أخافوني. أبرز ما في سِبرو أنّه كان على الرغم من عرجه وعكّازه مثلَ أميرٍ من أمراء القصص المصوّرة ـ نادراً ما رأيتُ رجلاً أجمل منه ـ ونيبيا كانت تتباهى ببطنها الدائريّ. ففي تلك الأيام كان الإنجاب يُعتَبَرُ قلّة حشمة والنساء الحوامل عند البرجوازية كن ينزوين في بيوتهنّ، أمّا هي فلم تُحاول أن تُخفي وضعها، بل تعرضه غير مبالية بالإرباك الذي تُسبّبه. كان الناس في الشارع يُحاولون ألّا ينظروا إليها، كأنّها مشوّهة أو تسير عاريةً. لم أر قط شيئاً مماثِلاً، وحين سألتُ عمّا تعاني منه تلك السيّدة، شرحت لي جدّتي أنّ المسكينة ابتلعت بطيخة. كانت نيبيا تبدو فأراً، على العكس من زوجها الأنيق، لكن يكفي المرء أن يتكلّم معها دقيقتين كي يقع أسيرَ سحرها وطاقتها الهائلة.

كانت سانتياغو مدينة جميلةً، تقع في وادٍ خصيب، تحيط بها الجبال الشاهقة البنفسجية صيفاً والمثلجة شتاء، مدينة هادئة،

ناعسة، تعبقُ بمزيج من روائح أزهار الحدائق وروث الخيل. لها مظهر متفرنس، بأشجارها القديمة، وساحاتها، ونوافيرها الإسلامية، وبوّاباتها، وممرّاتها، ونسائها الأنيقات، ومخازنها النادرة التي يبيعون فيها أنعم ما جيء به من أوروبا ومن الشرق، وشوارعها المشجرة ومتنزهاتها التي يستعرض فيها الأثرياءُ عرباتهم وخيولهم الرائعة. في الشوارع يمرّ باعة جوّالون ينادون معلنين عن بضائعهم المتواضعة يحملونها في سلال، وتجري مجموعاتٌ من الكلاب الشاردة، وفي السقوف تعشش الحمائم وعصافير الدوري. نواقيس الكنائس تُعلن عن الوقت ساعةً بساعة، باستثناء وقت القيلولة التي تخلو فيها الشوارع ويرتاحُ الناس. كانت مدينة إقطاعية مختلفة تماماً عن سان فرانسيسكو المتميزة بطابع المدينة الحدوديّة وجوّ الحاضرة وتنوع الأجناس والألوان، الذي لايمكن أن يُخطئه المرء. اشترت باولينا دِل بالْيِه بيتاً كبيراً في إخِرثيتو ليبِرتادور (الجيش المحرّر) أكثر الشوارع أرستقراطيّةً قريباً من ألامِدا دِ لا دِليثياس (متنزه الملذات) حيث كانت تمرّ في كلّ ربيع العربةُ النابليونية بجيادها المطهّمة، وحرس شرف رئيس الجمهورية في طريقها إلى العرض العسكري بمناسبة العيد الوطني في باركِ مارتِ (حديقة المريخ). لم يكن بالإمكان مقارنة بهاء البيت ببهاء قصر سان فرانسيسكو، ولكنّه كان بالنسبة إلى سانتياغو ذا بذخ يثير الغضب. ومع ذلك لم يكن نشر الرخاء وغياب اللباقة ما ترك مجتمع العاصمة الصغير فاغر الفم، بل الزوج ذو الحسب والنسب الذي «اشترته» باولينا دِل بالْيِه، كما كانوا يقولون، والتقوّلات التي كانت تدور حول السرير الفسيح الهائل المزيّن بمخلوقات البحر الأسطورية، حيث من يدري كم من الآثام يرتكب هذان الزوجان العجوزان. وكانوا يعزون لِوِليامز ألقابَ نبالة ونوايا سيّئة. ماالسبب الذي يدفع لورداً بريطانياً في غاية الرقّة والجمال ليتزوّج من امرأة معروفة بسوء مزاجها وأكبر منه سناً بكثير؟ لا يمكنه أن يكون إلا كونتاً مُفْلِساً، وصائدَ ثرواتٍ مستعداً أن يُجرّدها من أموالها كي

يهجرها بعد ذلك. الجميع كانوا يتمنون ذلك في أعماقهم كي يكسروا شوكة جدّتي المتكبّرة، ومع ذلك ما من أحدٍ أزعجَ زوجَها، وبقوا أمناء للتقاليد التشيلية المتعلّقة بحسنِ ضيافة الغرباء. كما أنّ فريدريك وليامز اكتسب احترام المسلمين والمسيحيين بآدابه الرائعة، وطريقته البروسية في مواجهة الحياة، وأفكاره الملكية، كان يعتقد أنّ كلّ شرور المجتمع تعودُ إلى انعدام النظامِ والاحترام للمراتب. شعار من كان خادماً طوال تلك السنوات: «كلٌّ في مكانه ومكانٌ لكلٍّ واحد». وحين تحوّل إلى زوجٍ لجدّتي لعب دوره كأحد أفراد الأقلّية بالطريقة الطبيعية ذاتها التي لعب بها دوره كخادم، فهو لم يُحاول قط من قبل أن يختلط بمن هم أعلى منه، وبعد الزواج لم يحتك قط بمن هم أدنى منه، كان الفصل بين الطبقات يبدو له ضرورياً من أجل تفادي الفوضى والدهمائية. في تلك العائلة من البرابرة المندفعين التي هي حال آل دِل بالْيِه، كان وليامز يُثير الخجل والإعجاب بلطفه المبالَغ به وصفوه الذي لا يُعكّر، نتاجَ سنوات رئاسة الخدم. كان يتكلّم أربع كلمات بالقشتالية، فكان يُخلَطُ بين صمته الإجباري والحكمة والكبرياء والغموض. الوحيد الذي كان يستطيع أن يكشف عن النبالة البريطانية المزعومة هو سبِرو دِل بالْيِه، لكنّه لم يفعل ذلك قط، لأنّه كان يُقدِّر الخادم القديم ويُعجب بتلك العمّة التي كانت تسخر من كلّ العالم متباهية بزوجها الأهيف.

انطلقت جدّتي باولينا في حملة إحسانٍ عامّة لإسكات الحسد والنميمة التي كانت تُثيرهما ثروتُها. وكانت تُتقن فعل ذلك، لأنّها عاشت السنوات الأولى من عمرها في هذا البلد الذي تُعتبر نجدة الفقراء فيه من واجب النساء الميسورات. وكنّ كلّما ضحّين أكثر في سبيل الفقراء، بالمرورِ على المستشفيات والمآوي وملاجئ الأيتام والأديرة، زادتْ رِفعةُ التقدير العام لهنّ، ولذلك يذيعون أعمال إحسانهم في كلّ اتجاه. كان تجاهل هذا الواجب يجلب الكثير من النظرات الفظيعة والتوبيخ الكهنوتي، بحيث ما كانت باولينا دِل بالْيِه نفسها لتفلت من الشعور بالذنب والخوف من الإدانة. درّبتني على أعمال الإحسان هذه، لكنّني أعترف بأنني كنت أتضايق من الذهاب

إلى حيٍّ بائس بعربتنا الفاخرة المحمّلة بالمؤن، ومعنا خادمان ليوزّعا الهدايا على كائناتٍ رثّة الثياب تشكرنا بكثير من مظاهر المذلة، ولكن الكراهية الحيّة تلمع في عيونهم.

لا بدّ أنّ جدّتي ربّتني في البيت، لأنّني هربتُ من كلّ مؤسسة من المؤسسات الدينية التي سجّلتني فيها. لقد أقنعتها أسرةُ دِل بالْيِه بأنّ المدرسة الداخلية هي الطريقة الوحيدة لتحويلي إلى مخلوقٍ طبيعيّ؛ وكانوا يؤكّدون أنّني بحاجة إلى رفقة أطفال آخرين كي أتخطّى خوفي المرضي، وإلى أيدي الراهبات القاسية كي تخضعني. «لقد أسأتِ كثيراً تربية هذه المخلوقة يا باولينا، فأنت تُحوِّلينها إلى مسخ»، كانوا يقولون لها، وانتهت جدّتي إلى تصديق ما يبدو جليّاً. كنتُ أنامُ مع *كراميلو* في السرير، وآكل وأقرأُ ما يحلو لي، لأقضي النهار بالتسلية بألعاب الخيال، دون كثيرِ انضباط، لأنّه لم يكن يوجد حولي من يكلّف نفسه عناء أن يفرضه عليّ؛ وبكلماتٍ أخرى كنتُ أتمتّع بطفولة سعيدة كفايةً. لم أتحمّل المدارس الداخلية مع الراهبات ذوات الشوارب، وحشد تلميذاتها اللواتي كنّ يُذكّرنني بكابوس الأطفال ذوي البيجامات السوداء، كما لم أتحمّل صرامةَ القواعد، ورتابةَ الدوام، وبردَ تلك الأديرة الاستعمارية الطراز. لا أدري كم تكرّر الروتين ذاته: كانت باولينا دِل بالْيِه تلبسني الأبيض الناصع، وتتلو عليّ التعليمات بنبرة متوعِّدة، وتحملني بالإكراه عمليّاً وتتركني مع صناديقي بين يدي راهبة مستجدّة قويّة، ثم تهرب بعدها بالسرعة التي يسمح لها بها وزنها، يضايقها الندم. كانت مدارس لإناث ثريات، يسودُ فيها الخضوع والقباحة، والهدف الأخير منها هو منحنا بعض التعليمات كيلا نكون جاهلات تماماً، ذلك أنّ المسحةَ الثقافية كان لها قيمة في سوق الزواج، لكن ليس إلى حد أن نطرح أسئلة. كان الأمر يتعلّق بإخضاع الإرادة الشخصية لصالح الخير الجماعي، وتحويلنا إلى كاثوليكيات صالحات، وأمهات متفانيات، وزوجات مطيعات. وكان على الراهبات أن يبدأن

بالسيطرة على أجسادنا، مصدر البطلان والآثام؛ لم يكنّ يسمحن لنا بالضحك، أو الجري، أو اللعب في الهواء الطلق. وكنّا نستحمُ مرّةً كلّ شهر مغطيات بقمصان طويلة كيلا نظهر عوراتنا أمام عين الربّ، الموجود في كلّ مكان. كنّ ينطلقن من قاعدة أنّ الحرفَ يدخل مع الدم، ولذلك لم يكنّ يُوفِّرن صرامةً. يُدخلن فينا الخوفَ من الله، ومن الشيطان، ومن جميع البالغين، ومن المقرعة التي يضربننا بها على أصابعنا، ومن الحصى التي علينا أن نركع عليها للتوبة، ومن أفكارنا ورغباتنا ذاتها، ويجعلننا نخاف من الخوف. لم نتلقّ قط كلمة إطراء واحدة خشية أن يزرعن فينا التبجّح، لكن العقوبات كانت تفيض عنّا كي تلطّف أمزجتنا. بين تلك الجدران السميكة كانت رفيقاتي الموحّدات اللباس يحافظن على بقائهن بجدائلهنّ المشدودة جدّاً إلى حد أن جلدة رؤوسهن، وأيديهنّ المصابة بالشرث من البرد الأبديّ كانت تنزفُ أحياناً. كان تناقض هذا مع حياتهن في بيوتهنّ ، التي كانوا يدلّلونهنّ فيها كأميرات خلال الإجازات، كفيلاً بأن يذهب بعقل أكثرهنّ رجاحة. لم أستطع تحمّلها. وتوصلت ذات مرّة إلى التواطؤ مع جنائنيّ كي أقفز من فوق الحاجز وأهرب. لا أدري كيف وصلتُ وحدي إلى شارع إخِرثيتو ليبِرتادور، حيث استقبلني *كراميلو* وقد جُنّ فرحاً، حتى أنّ باولينا دِل بالْيِه كادت تُصاب بنوبة قلبية حين رأتني أظهر ممزّقةَ الثياب، متورّمةَ العينين. قضيتُ عدّة أشهرٍ في البيت إلى أن أجبرَ الضغط الخارجيّ جدّتي على إعادة التجربة. وفي المرّة الثانية اختبأت بين بعض الأشجار في الفناء طوال الليل مصمّمة على الموت برداً وجوعاً. كنتُ أتصوّر وجوه الراهبات وأسرتي حين يكتشفون جثّتي، فأبكي حزناً على نفسي، على الطفلة المسكينة الشهيدة في مثل هذا السن المبكر. في اليوم التالي أعلمت المدرسةُ جدّتي باولينا دِل بالْيِه عن اختفائي، فوصلت مثل إعصار تطلب توضيحات. وبينما كانت تقودها، هي وفريدريك، راهبة مستجدّة متورّدة إلى مكتب الأم رئيسة الدير، انسللتُ من الدغل الذي كنت أختبئ فيه إلى العربة التي كانت تنتظر في الفناء، وصعدتُ

دون أن يراني الحوذي وتقوقعت تحت المقعد. اضطروا بالتعاون بين فريدريك وليامز والحوذي والأم رئيسة الدير أن يساعدوا جدّتي على الصعود إلى العربة، وكانت تصرخ قائلة إنّه إذا لم أظهر بسرعة سيرون من هي باولينا دِل بالْيِه! وحين خرجتُ من ملجئي قبل الوصول إلى البيت، نسيت دموعَ يأسها، وأمسكتني من رقبتي وضربتني ضربة دامت مسافة عدّة تجمّعات من الأبنية، إلى أن تمكن العم فريدريك من تهدئتها. لكنّ التأديب لم يكن نقطة قوّة السيّدة الطيبة، إذ ما إن علمت أنّني لم آكل منذ اليوم السابق وقضيتُ الليلَ في العراء حتى غطّتني بالقبلات وحملتني لآكل مثلجات. في المدرسة الثالثة التي أرادت أن تُسجّلني فيها رفضوني رفضاً كلّياً لأنّني أكّدتُ في المقابلة مع المديرة أنّني رأيتُ الشيطانَ وأن قوائمه خضراء اللون، وأنّني غير محتشمة. أخيراً انتهت جدّتي بالاستسلام. أقنعها سِبِرو دِل بالْيِه بأنّه لا يوجد مبرر لتعذيبي، طالما أنّ باستطاعتي أن أتعلّم ما هو ضروري في البيت على يد معلمين خاصّين. لقد مرّت في طفولتي مربيات إنكليزيات وفرنسيات وألمانيات عديدات هلكن بالتتالي في مياه تشيلي الملوّثة وغضب باولينا دِل بالْيِه؛ وكانت أولئك النسوة سيّئات الحظ يعدن إلى بلدانهنّ الأصلية بإسهال مزمن وذكريات سيّئة. بقيت تربيتي مضطربة كفاية حتى وصلت إلى حياتي معلّمة تشيلية استثنائية، الآنسة ماتيلدِ بينِدا، التي علّمتني كلّ ما هو مهم وأعرفه تقريباً باستثناء الحسّ العام، لأنّها هي نفسها ما كانت تملكه. كانت متحمّسة ومثالية، تكتب الشعرَ الفلسفيَّ الذي لم تستطع نشره قط، وتعاني من جوعٍ للمعرفة لا يشبع، وتبدي تشدداً أمام نقاط ضعف الآخرين وهي الخاصة التي يتميّز بها الأشخاص فائقو الذكاء. لا تتحمل الكسل، وكانت جملة «لا أستطيع» ممنوعة في حضورها. تعاقدت معها جدّتي لأنها كانت تعلن أنّها لاأدرية، واشتراكية ومن أنصار مشاركة المرأة في الانتخابات، وهي ثلاثة أسباب كافية كيلا يُعيّنوها في أيّ من المعاهد التربوية. «لنرى ما إذا كان باستطاعتك أن تُعارضي الورع المحافِظ والبطريركي في

الأسرة». أشارت إليه باولينا دِل بالْيِه في أوَّل مقابلة يدعمها فريدريك وليامز وسِبِرو دِل بالْيِه، الوحيدان اللذان لمحا ذكاء الآنسة بينِدا، أما البقيّة فكانوا يؤكِّدون أنّ تلك المرأة ستُغذّي المسخ الذي كان يتكوّن في داخلي. والعمّات وصفنها على الفور بأنّها «معدومة وارتقت» وحذّرن جدّتي من هذه المرأة ابنة الطبقة الأدنى التي «حشرت نفسها في غير موقعها» كما قلن. بينما تعاطف وليامز معها، وهو أكثر من عرفتهم من الرجال طبقيّة. طوال ستة أيام في الأسبوع، دون أن تتخلّف قط، كانت المعلّمةُ تظهر في السابعة صباحاً في بيت جدّتي، حيث كنت أنتظرها بملابسي المنشاة ناصعة البياض، نظيفةَ الأظافر مجدولة الضفائر للتوّ. فنتناول إفطارنا معاً في غرفة طعام صغيرة يوميّاً، بينما نعلّق على أخبار الصحافة المهمّة، بعدها تعطيني ساعتين من الدروس العادية، ونذهب بقيّة اليوم إلى المتحف وإلى مكتبة *العصر الذهبي* لنشتري كتباً ونشرب شاياً مع المكتبي، دون بدرو تي، ونزور فنّانين، ونخرج لنتأمّل الطبيعةَ، ونقوم بتجارب كيميائية، ونقرأ قصصاً، ونكتبُ شعراً، ونعد أعمالاً مسرحية كلاسيكية بشخصيات مقصوصة من الورق المقوّى. وهي من اقترحت على جدّتي فكرة تشكيل نادٍ للسيدات لتوجيه الصدقات وإيجادِ رأسمالٍ له، بدلاً من إهداء الفقراء ملابس مستعملة أو طعاماً زائداً عن مطابخهم، وإدارته كما لو كان مصرفاً وتقديم القروض إلى النساء كي يبدأن عملاً ما: تربية الدجاج، ورشة للخياطة، مخابط لغسل ثياب الغير، حنتوراً للنقل، أخيراً ما هو ضروريّ للخروج من العوز المطلق الذي كنّ يعشن فيه مع أطفالهنّ. أمّا الرجال فلا، كما قالت الآنسة بيندا، لأنّهم يستخدمون القرض لشراء النبيذ، وفي جميع الأحوال كانت مشاريع الحكومة تتكفّل بنجدتهم، بينما لا أحد يهتمّ جدّياً بالنساء والأطفال. «الناس لايريدون صدقات، بل يريدون أن يكسبوا عيشهم بكرامة» وضّحت المعلّمة، وفهمت باولينا دِل بالْيِه ما تعنيه على الفور وانطلقت في هذا المشروع بالحماس الذي كانت تستقبل به أكثر مشاريعها

طموحاً للحصول على المال. «أجني بيدٍ ما أستطيع وأعطي باليد الأخرى وبذلك أصيب عصفورين بحجر واحد: أسعد وأكسب السماء»، كانت جدّتي الأصيلة تقول ذلك وهي تضحك مقهقهةً. مضت بالمبادرة بعيداً، ولم تشكّل نادي السيّدات الذي ترأسته بكفاءتها المعتادة وحسب ـ كانت السيّدات الأخريات يرتعبن منها ـ بل موّلت أيضاً مدارس ، عياداتٍ طبّية جوّالة، ووضعت نظاماً لجمع ما لا يُباع في حوانيت السوق والمخابز، وما يزال في حالة جيّدة، لتوزعه على ملاجئ الأيتام والمآوي.

حين كانت نيبيا تأتي لزيارتنا وهي دائما حامل ومعها عدد من الأولاد الصغار كلٌّ في حضن مربيته، كانت الآنسة ماتيلدِ بيندا تغادر اللوحَ. وبينما كانت المستخدمات يأخذن على كاهلهنّ سربَ الأطفال كنّا نحنُ نشربُ الشاي، وتخططان ـ نيبيا والآنسة بيندا ـ لمجتمع أكثر عدلاً ونبلاً. ورغم أنّه لم يكن الوقت يفيض عن نيبيا، ولا الإمكانات المادية، إلاّ أنّها كانت الأكثر شباباً ونشاطاً بين نساء نادي جدتي. كنّا نذهب أحياناً لزيارة معلّمتها القديمة: ماريّا إسكابّولاريو، التي كانت تُدير مأوى للراهبات العجائز، لأنّهم لم يعودوا يسمحون لها بممارسة ولهها التربوي، وكانت الأخويّة قد قرّرت أنّ أفكارها المتقدّمة لا يُنصَح بها للتلميذات، وأنّ ضررها سيكون أقلّ حين تعتني بالعجائز الخرفات من زرعِ بذرة التمرّد في عقول الأطفال. كانت السيّدة ماريّا إسكابّولاريو تملك صومعة صغيرة في بناء مُتداعٍ، لكنّه ذو حديقة ساحرة، حيث كانت تستقبلنا فيها دائماً مشكورةً لأنّها تُحب الأحاديثَ الثقافية، وهي متعة صعبة التحقيق في ذلك المأوى. كنّا نحمل لها معنا كتباً تُوصينا عليها بنفسها ونشتريها من مكتبة *العصر الذهبي* المغبرّة. كما كنّا نهديها بسكويتاً أو قالب كاتو لتناولها مع الشاي الذي كانت تعدّه على موقد بارافين وتُقدّمه في فناجين مثلومة. وفي الشتاء كنّا نبقى في الصومعة، فتجلس الراهبة على الكرسي الوحيد المتوافر، بينما تجلسُ نيبيا والآنسة ماتيلدِ بيندا على السرير وأنا على الأرض، وإذا

سمح لنا الطقسُ نتنزّهُ في الحديقة الرائعة بين الأشجار المئوية، وشِباك الياسمين والورد والكاميليا وأنواع أخرى كثيرة من الأزهار المزروعة بفوضى رائعة، حيث كان اختلاط عطورها يدوّخني. لم أكن لأضيع كلمة واحدة من تلك الأحاديث، رغم أنّ ما أفهمه كان قليلاً جداً، إلا أنني لم أعد أسمع خطباً بمثل ذلك الحماس. كانتا تتهامسان بسريّة، وتنفجران في الضحك، وتتكلّمان عن كلِّ شيء إلا الدين، احتراماً لأفكار الآنسة ماتيلدِ بيندا، التي كانت تصرّ على أنّ الله كان من اختراع البشر للتحكّم بالبشر الآخرين، وخاصّة النساء. كانت السيّدة ماريّا إسكابولاريو ونيبيا كاثوليكيتين، لكن ما من واحدة منهما تبدو متعصّبة، على العكس من معظم الناس الذين كانوا يحيطون بهما آنذاك. ففي الولايات المتحدة لم يكن يوجد من يذكر الدين، بينما هو في تشيلي موضوع المائدة. كانت جدّتي والعم فريدريك يحملانني إلى القداس من حين إلى آخر كي يرانا الآخرون، ولم يكن باستطاعة باولينا دِل بالْيِه، بكلّ ذكائها وثروتها، أن تسمح لنفسها بعدم الذهاب. فالأسرة والمجتمع ماكانا ليتسامحا بذلك.

- هل أنتِ كاثوليكية يا جدّتي؟ - كنتُ أسألها في كلّ مرّة كان عليّ أن أؤجِّلَ فيها مشواراً أو كتاباً كي أذهبَ للقداس.

- هل تظنّين أنّ من الممكن ألا أكون كذلك في تشيلي؟ - أجابت.

- الآنسة بيندا لا تذهب إلى القداس.

- تصوّري كم يسيء هذا للمسكينة. مع أنّها ذكية وتستطيع أن تصبح مديرة مدرسة إذا ذهبت إلى القداس...

وضدّ كلّ منطق، انسجم فريدريك وليامز جيّداً مع أسرة دِل بالْيِه الهائلة في تشيلي. لا بدّ أنّه كان يملك أحشاء من فولاذ، لأنّه الوحيد الذي لم يُدوّد كرشه بمياه الشرب، وكان يستطيع أن يأكل عدّة فطائر محشوة دون أن تَشتعل معدته. وما من تشيليّ تعرّفنا عليه كان يتكلّم الإنكليزية إلا سِبرو دِل بالْيِه وخوسيه فرانسيسكو بِرغارا، فاللغة الثانية بالنسبة إلى الناس المتعلمين كانت الفرنسية،

على الرغم من الجالية الإنكليزية الكبيرة في ميناء بالبارايسو، بحيث لم يكن أمام وليامز غير أن يتعلّم القشتالية. أعطته الآنسة بيتِدا دروساً، وبعد أشهر قليلة تمكّن من أن يجعل الآخرين يفهمون عليه بجهدٍ وإسبانيةٍ مكسّرة لكنّها عملية، فصار يستطيع قراءة الصحف وممارسة حياته الاجتماعية في نادي الاتحاد، حيث اعتاد أن يلعب البريدج برفقة باتريك إيغن، الدبلوماسيّ الأمريكي الشمالي في المفوّضية. وقد تمكّنت جدّتي من جعلهم يقبلونه في النادي ملمِّحة إلى أصله الأرستقراطيّ في البلاط البريطاني، الذي لم يُكلِّف أحد نفسه مشقّة التأكّد من صحته، لأنّ ألقاب النبالة في تشيلي كانت قد أُلغيت منذ أيّام الاستقلال، ومن جهة أخرى كان يكفي النظر إلى الرجل لتصديق ذلك. تحديداً كان أعضاء النادي ينتمون إلى «أسر معروفة»، وكانوا «رجالاً صالحين» ـ ولم يكن باستطاعة النساء عبور العتبة ـ ولو أنّهم اكتشفوا هويّة فريدريك وليامز لنازلوه وبارزوه، نتيجة العار الذي لحق بهم من جرّاء أنّ من سخر منهم هو رئيسُ خدم قديم من كاليفورنيا صار أكثر أعضاء النادي رقّةً وأناقة وثقافة، وأفضل لاعب بريدجٍ وأكثر ثروة منهم دون شك. كان وليامز حريصاً على الاطلاع يوميّاً على ـ المواضيع التجارية كي يُسدي النصائح لجدّتي، وعلى الأوضاع السياسية، موضوع الحديث الاجتماعي الإجباري. وكان يجهر بأنّه محافظ بحزم، مثل الجميع في أسرتي، ويتأسّف لأنّه لا يوجد في تشيلي ملكية مثل ملكية بريطانيا العظمى، لأنّه كان يرى أنّ الديمقراطية دهمائية وقليلة الجدوى. كان يتناقشُ في غداءات الآحاد الإجبارية في بيت جدّتي مع نيبيا وسِيرو، الليبراليّين الوحيدين في عشيرتنا. وكانت أفكارهم تتعارض، ولكنّ الثلاثة يقدّرون بعضهم ويسخرون، كما أعتقد، بالسرِّ من بقيّة أعضاء قبيلة دِل بالْيِه البدائية. في المرّات النادرة التي وُجِدنا فيها في حضرة دون خوسيه فرانسيسكو بِرغارا، الذي كان باستطاعته أن يتكلّم معه بالإنكليزية حافظ فريدريك وليامز على مسافة الاحترام بينهما، فقد كان الوحيد الذي تمكّن بتفوّقه الفكريِّ من أن يدبّ الرهبةَ في نفسه، وربّما الوحيد الذي سيكتشف على الفور حالته كخادم قديم. أفترض أنّ الكثيرين كانوا يتساءلون من

أكون ولماذا تتبنّاني باولينا، إلاّ أنه لم يتمّ التطرق إلى هذا الموضوع أمامي؛ ففي غداءات الآحاد كان يجتمع قرابة العشرين من أبناء العمومة والخؤولة من مختلف الأعمار، وما من أحد سألني قط عن والديَّ، كان يكفيهم أنّني أحمل الكنية ذاتها كي يقبلوا بي.

لاقت جدّتي صعوبة بالتكيّف في تشيلي أكثر من زوجها، رغم أنّ كنيتّها وثروتها كانتا تفتحان لها جميعَ الأبواب. كانت تختنق من صغائر ونفاق ذلك الجوّ، وتشتاق لحرّية أيّام زمان، وليس عبثاً أنّها عاشت أكثر من ثلاثين سنة في كاليفورنيا، لكن ما إن فتحت أبواب بيتها الكبير حتى راحت تترأس الحياة الاجتماعية في سانتياغو، لأنّها فعلت ذلك بكثير من الرقي والمهارة، هي العارفة كيف يكرهون في تشيليٍ الأغنياءَ خاصّةً حين يكونون متعجرفين. فهي لم تستخدم خدماً من ذوي اللباسِ الموحّدِ الذين كانت تستخدمهم في سان فرانسيسكو، بل خادمات محتشمات يرتدين الملابس السوداءَ والمآزرَ البيضاء، ولا شيء في البيت من الحفلات الموسيقية الصاخبة والفرعونية، بل حفلات محتشمة وذات صبغة عائلية، كيلا يتهموها بـ «العاميّة» المتصنّعة أو محدثة النعمة، وهو أسوأ نعت ممكن. كان عندها عرباتها الفاخرة طبعاً، وجيادها التي تُحسَد عليها، ومقصورتها الخاصّة في المسرح البلدي، مع قاعة صغيرة وبوفيه، تُقدّم فيه المثلجات والشمبانيا لمدعوّيها. وكانت باولينا دِل بالْيِه على الرغم من عمرها وبدانتها تفرضُ الموضةَ، لأنّها وصلت للتو من أوروبا، ويُفترَض أنّها مطّلعة على آخر الأساليب والصيحات الحديثة. وفي ذلك المجتمع الصارم والوديع أصبحت منارة التأثيرات الأجنبية، كانت السيّدة الوحيدة في دائرتها التي تتكلّم الإنكليزية، وتتلقى المجلات والكتب من نيويورك وباريس، وتوصي على أقمشة وأحذية وقبعات من لندن مباشرةً، وتُدخّن في الأماكن العامة السجائر المصرية التي يُدخّنها ابنُها ماتيّاس. كما كانت تشتري أعمالاً فنّية، وتقدّم على طاولتها صحوناً لم تُرَ من قبل، لأنّ حتى أكثر الأسر رفعةً كانوا ما يزالون

يأكلون مثل قادة مرحلةِ الاستعمارِ الأجلاف: الحساء، والطبيخ والمشويات، والفاصولياء وحلويات المرحلة الاستعمارية الثقيلة. المرّة الأولى التي قدَّمت فيها جدّتي *الفوي غراس* وتشكيلة من الأجبان المستوردة من فرنسا، لم يستطع تناولها إلاّ الفرسان الذين زاروا أوروبا. وحين شمّوا رائحة جبن *الكِممبر* و *البور ـ سالو* أصيبت سيّدة بالإقياء، واضطرت أن تخرجَ مثل السهم إلى الحمّام. صار بيت جدّتي مركز تجمّع الفنانين والأدباء الشباب من كلا الجنسين، الذين يلتقون ليعرّفوا بعضهم بِعضاً على أعمالهم، ضمن إطار الكلاسيكية المعتاد، وإذا لم يكن المُهتمّ أبيض البشرة ويحمل كنية معروفة، احتاج إلى كثير من الذكاء كي يُقبَل، وفي هذا الجانب لم تكن باولينا تختلف عن بقيّة المجتمع الراقي التشيلي. لقد كانت مسامرات المثقّفين في سانتياغو تحصل في المقاهي والنوادي، ولا يحضرها إلا الرجال، انطلاقاً من القول إنَّه أفضل للنساء أن يُحَرِّكن الحساء من أنِ يكتبنِ الشعر. وجاءت مبادرة جدّتي بضمّ فنّانات إلى صالونها لتُشَكِّل جدّةً تنطوي على شيء من الفسق.

تبدّلت حياتي في بيت إخِرثيتو ليبِرتادور. ولأوّل مرّة منذ وفاة جدّي تاو شيين انتابني إحساسٌ بالاستقرار، بالعيشِ في مكانٍ ثابت، لا يتبدّل، في نوعٍ من الحصن جذوره ثابتة في أرض راسخة. فصرت أرتاد البناء بالكامل، لم أترك فجوة فيه لم أسبرها ولا زاوية لم أحتلها، بما في ذلك السقف الذي كنتُ أقضي الساعات في تأمل الحمائم فيه، وغرف الخدمة ، رغم أنّه كان ممنوعاً عليّ أن أضع قدمي فيها. كان العقار الهائل يُطلُّ على شارعين وله مدخلان، مدخل رئيسيّ من شارع إخِرثيتو ليبِرتادور، ومدخل الخدم من الشارع الخلفي، كان فيه عشرات القاعات والغرف والحدائق والشرفات والمخابئ والعلّيات والأدراج؛ فيه القاعة الحمراء والزرقاء والذهبية، التي كانت تستخدم في المناسبات الكبرى، ورواق بلوري رائع تدور فيه حياة الأسرة بين أصص من الخزف الصينيّ، والسرخس وأقفاص الكناري. وفي قاعة الطعام كان هناك لوحة بومبية تلف القاعة شاغلة الجدران الأربعة وعدّة خزائن تضم

مجموعة من الخزف والفضّة، وثريّا كريستالية، ونافذة كبيرة تطل على نافورة عربية تتدفّق ماءً إلى أبد الآبدين.

وما إن رفضت جدّتي إرسالي إلى المدرسة وصارت دروسي مع الآنسة بينِدا روتينيّة؛ حتى صرت في غاية السعادة. وفي كلّ مرة أسأل سؤالاً تدلّني تلك المعلّمة الرائعة على طريق للعثور على الإجابة. لقد علّمتني ترتيبَ الأفكار، والبحثَ، والقراءةَ، والإصغاءَ، والبحثَ عن بدائل، وحلَّ مسائل قديمة بحلول جديدة، والنقاش بمنطق. علّمتني خصوصاً ألاّ أقبل الإيمان الأعمى، وعلى الشكّ والسؤال حتى عمّا يبدو حقيقة لا تقبل الدحض، مثل تفوّق الرجل على المرأة أو تفوّق عرق أو طبقة اجتماعية على أخرى، هذه الأفكار الجديدة في بلد بطريركي لا يُذكَر فيه الهنود أبداً، ويكفي أن يهبط المرء درجة واحدة في السلم الاجتماعي كي يختفي من الذاكرة الجمعية. كانت أوّل امرأة مثقّفة عبرت حياتي. لم يكن باستطاعة نيبيا بكلّ ذكائها وتربيتها أن تنافِس معلّمتي، فقد تميّزت بحدسها ونبل روحها العظيمة، فسبقت عصرها بنصف قرن، لكنّها لم تظهر نفسها قط بالمثقفة، ولا حتى في مسامرات جدّتي حيث كانت تبرع بخطبها الحماسية المنادية بحق المرأة في التصويت وشكوكها اللاهوتية. ولم يكن من الممكن اعتبار هيئة الآنسة بينِدا تشيلية، فهي ذلك المزيج من الإسبان والهنود الذي ينتج نساءً قصيرات، عريضات الورك، وسوداوات العيون والشعر، عاليات الوجنات، وثقيلات المشية، كأنّهنّ مسمّرات في الأرض. وكان عقلها خارقاً بالنسبة لزمانها وظرفها، فهي من أسرة فقيرة من الجنوب، كان أبوها يعملُ مستخدماً في السكّة الحديدية، وهي الوحيدة من بين أخوتها الثمانية التي استطاعت أن تُنهي دراستها. كانت تلميذة وصديقة لدون بِدرو تي، صاحب مكتبة *العصر الذهبيّ*، وهو كتلاني شكس الأخلاق ، لكنّه رقيق القلب، يرشدها في قراءاتها ويعيرها أو يهديها كتباً، لأنّه لم يكن باستطاعتها شراؤها. كان تي يُعاكسُها في أيّ تبادل للآراء، مهما كان تافهاً. لقد سمعته يؤكّدُ مثلاً أن الأمريكيين الجنوبيين مكاكات (نوع من القرود في أمريكا) يميلون إلى

الإسراف والسهر والكسل، ولكن كفى أنّ الآنسة بيبِدا وافقته حتى بدّل رأيه على الفور وأضاف إنّهم على الأقل أفضل من أبناء بلده، الذين يمضون دائماً غاضبين ويتداعون للنزال من أجل أيّة تفاهة. ومع أنّه كان من المستحيل أن يتفق هذان الاثنان على شيء إلاّ أنهما كانا منسجمين. كان دون بِدرو تي أكبر من المعلّمة بعشرين عاماً، لكنّهما ما إن يبدأا الكلام حتى يتبخّر فارق العمر: هو يتجدّد شباباً وحماساً، وهي تكبر بإصرار ونضج.

خلال عشرة أعوام أنجب سِبرو ونيبيا دِل بالْيِه ستة أولاد، وسيستمرون كذلك حتى يتموا الخمسة عشر. إنني أعرف نيبيا منذ أكثر من عشرين سنة، ودائماً أراها وفي حضنها رضيع. وخصوبتها لعنة لولا أنّها تُحب الأطفال. «ما الذي يمكنني أن أدفعه كي تكوني مربية لأولادي!» كانت نيبيا تتنهّد حين تلتقي بالآنسة ماتيلدِ بيبِدا. «إنهّم كثيرون، يا سيّدة نيبيا، وأورورا وحدها تكفيني»، كانت المعلّمةُ تُردّد. أصبح سِبرو محامياً مشهوراً، وأحدَ أعمدة المجتمع الأكثر شباباً، وعضواً بارزاً في الحزب الليبرالي. لم يكن موافقاً على الكثير من نقاط سياسة الرئيس، الليبرالي أيضاً، وبما أنّه لم يكن قادراً على إخفاء انتقاداته، لم يستدعوه قط ليدخل في تشكيل الحكومة. وقد قادته هذه الآراء بعد فترة قصيرة لتشكيل مجموعة منشقة انتقلت إلى المعارضة حين اندلعت الحرب الأهلية، تماماً كما فعلت صديقته ماتيلدِ بيبِدا وصديقه صاحب مكتبة *العصر الذهبي*. كان عمّي سِبرو يميّزني من بين عشرات أبناء العمومة الذين يحيطون به، ويُناديني «بنيتي» وروى لي أنّه هو من منحني كنية دِل بالْيِه، لكنّني في كلّ مرّةٍ أسأله ما إذا كان يعرف هويّة والدي الحقيقيّة، يُجيبني أجوبة متملصة: «لنأخذ بالحسبان أنّني هو»، كان يقول. وهذا الموضوع كان يُسبِّب لجدّتي شقيقةً، وإذا ما حاصرتُ نيبيا أرسلتني لأتكلّم مع سِبرو. لقد كانت حلقة لا تنتهي.

ـ لا أستطيع أن أعيش وسط كلّ هذه الألغاز يا جدّتي ـ قلتُ ذات مرّة لباولينا دِل بالْيِه.

ـ ولماذا لا؟ الناس الذين يملكون طفولة بائسة هم الأكثر إبداعاً ـ أجابتني.

ـ أو ينتهون بالجنون. ـ أبديتُ.

ـ لا يوجد بين آل دِل بالْيِه مجانين يُربطون يا أورورا، فقط بعض الشاذين في طباعهم، كما في كلّ أسرة تحترم نفسها ـ أكّدت لي.

الآنسة ماتيلدِ بينِدا أقسمت لي إنّها تجهل أصلي، وأضافت إنّه يجب عدم الانشغال بذلك، لأنّه لا يهمّ من أين يأتي المرء في هذه الحياة، بل إلى أين يمضي، لكنها اضطرّت أن تقبل، حين علّمتني نظرية ماندل الوراثية، بوجود أسباب موجبة للتحقق من هويّة أسلافنا. وماذا لو أنّ والدي كان معتوهاً ويمضي هناك يقطع رؤوس العذارى؟

بدأ التطوّر في اليوم الذي دخلتُ فيه سنّ البلوغ. فقد استيقظتُ وقميص نومي ملطّخاً بمادّة تشبه الشوكولاتة ، اختبأت في الحمّام خجلةً، واكتشفت أنّه لم تكن برازاً ، كما فكّرتُ، كان هناك دم بين ساقيّ. انطلقتُ مرعوبةً لأخبر جدّتي، ولأوّل مرّة لم أجدها في سريرها الإمبراطوري، وهو ما بدا أمراً غير معهودٍ لامرأةٍ كانت تنهض دائماً عند الظهيرة. هبطتُ الأدراج راكضةً، يتبعني *كراميلو* الذي كان ينبح، واندفعتُ مثل جواد مذعور إلى غرفة المكتب فاصطدمتُ بسِبِرو وباولينا دِل بالْيِه، هو بلباس السفر وهي بمعطف الساتان البنفسجي الذي يُضفي عليها هيئة مطران في يوم الجمعة الحزينة.

ـ سأموت! ـ صرختُ مترنّحةً فوقها.

ـ ليست هذه هي اللحظة المناسبة ـ ردّت جدّتي بجفاف.

منذ سنوات والناس يتذمّرون من الحكومة ومنذ شهور ونحن نسمعهم يقولون إنّ الرئيس بالماثِدا يُحاول أن يُصبح دكتاتوراً، مدمّراً بذلك سبعةً وخمسين عاماً من احترام الدستور. ذلك الدستور

الذي وضعته الأرستقراطية بهدف أن تحكم للأبد، ويعطي السلطةَ التنفيذيّة سلطاتٍ واسعةً جدّاً؛ وحين وقعت السلطةُ في يدٍ من يخالفها في آرائها، تمرَّدت الطبقة العليا. وبالماثِدا رجل لامع وصاحب أفكار حديثة، والحقيقة أنّه لم يحكم بشكلٍ سيّئ. فقد دفع بالتعليم أكثر من أيِّ حاكمٍ سابقٍ، ودافع عن ملح البارود التشيليّ من الشركات الأجنبية، وأحدث مستشفيات وكثيراً من المنشآت العامّة وخاصّة السكك الحديدية، وإن كان يبدأ بأكثر مما يستطيع أن يُنهي؛ كانت تشيلي تملك قوّة عسكرية وبحريّةً كبيرة، وأصبحت بلداً مزدهراً، عملتُها أقوى العملات في أمريكا اللاتينية. ومع ذلك، لم تغفر له الأرستقراطيةُ رفعه من مكانه الطبقة الوسطى ومحاولته أن يحكم معها، كما أنّه لم يكن باستطاعة الكنيسة أن تتسامح مع فصل الكنيسة عن الدولة، والزواج المدني الذي حلّ محل الزواج الديني، والقانون الذي سمح بدفن الموتى من أيِّ معتقد في المقابر. فقبل ذلك كان التصرّفُ بجثمانِ من لم يكونوا في حياتهم كاثوليكيين كالملحدين والمنتحرين، الذين كثيراً ما كانوا ينتهون إلى الهوّات الجبلية أو البحر، مشكلة كبيرة. وقد جعلت هذه الإجراءاتُ النساءَ يهجرنَ الرئيس جماعاتٍ. ومع أنّهنّ لم يكنَّ يملكن قوّةً سياسيةً، إلا أنّهنَّ كنّ يحكمن في بيوتهنّ ويمارسن تأثيراً هائلاً. وأدارت الطبقةُ الوسطى، التي كان بالماثِدا قد ساندها، له ظهرها أيضاً، فردّ بكبرياء، لأنّه كان معتاداً على أن يأمر ويُطاع، مثل كلّ ملاّك في تلك المرحلة. فقد كانت أسرته تملك مساحات شاسعة من الأرض، مقاطعة كاملة بمحطاتها وقطاراتها وقراها ومئات الفلاحين، ولم يكن رجال عشيرته مشهورين بأنّهم أرباب عمل طيّبين، بل طغاة أفظاظ، ينامون وسلاحهم تحت وسائدهم، وينتظرون الاحترام الأعمى من فلاّحيهم. ربّما لهذا السبب أراد أن يتلاعب بالبلد كما لو أنها إقطاعيته الخاصة. لقد كان رجلاً طويل القامة، أنيقاً، فحلاً، عالي الجبين نبيلَ السلوك، ابن عشق روائيّ، ترعرع على صهوات الجياد، سوطه في يدٍ ومسدّسه في الأخرى. وكان تلميذَ رهبنةٍ، لكنّه لم يصبر كي يرتدي الجبّة؛ وكان متحمّساً ومعتدّاً بنفسه. ينادونه بـ«الأشعث» لميله إلى تبديل تسريحة شعره وشواربه وسالفيه؛

ويُعلّقون على ملابسه فائقةِ الأناقة التي كان يوصي عليها إلى لندن. كانوا يسخرون من خطابيّته البيانية وتصريحاته التي تنطوي على حبّ غيور لتشيلي، فيقولون إنّه يتماهى بالوطن بحيث لا يمكن تصورّ أنّه ليس على رأسه، «إما لي أو لا لأحد!» هذه هي الجملة التي كانت تُعزى إليه. وقد عَزَلَتْهُ سنوات الحكم فأظهر في النهاية سلوكاً غريباً، يمتدّ من الهوس إلى الاكتئاب، لكنّه كان مشهوراً حتى بين ألدّ أعدائه بأنّه رجل دولة وذو نزاهة لا لبس بها، مثل كلّ رؤساء تشيلي تقريباً، الذين وبخلاف زعماء بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى، كانوا يخرجون من الحكم أفقر مما دخلوا. كانت لديه رؤيا مستقبلية، يحلم بخلق أمّة عظيمة، لكنّ شاء حظّه أن يعيش نهاية مرحلةٍ وتآكل حزب بقي في الحكم أكثر من اللازم. لقد تبدّل البلدُ والعالمُ، وفسد النظام الليبرالي. فالرؤساء يُعَيِّنون خلفاءهم، والسلطات المدنية والعسكرية تزوّر الانتخابات؛ ودائماً كان الحزب الحاكم ينجح بفضل القوّة المسماة بالإجمالية: حتى الأموات والغائبون كانوا يُصوِّتون للمرشّح الرسمي، وكانت الأصوات تشتَرى ويُرهب المتردّدين بالعصي. كان الرئيسُ يواجّه معارضةَ المحافِظين التي لا تلين، وبعض المجموعات الليبرالية المنشقّة، والإكليروس بمجموعه ومعظم الصحافة. ولأوّل مرّة تجتمع أقاصي الطيف السياسي على قضيّة واحدة: إسقاط الحكومة. يومياً يجتمع متظاهرون من المعارضة في بلاثا دِ أرماس (ساحة سلاح)، فتفرّقها الشرطة الخيالة بالضرب. وقد اضطرَّ الجنود أن يعملوا السيف لحماية الرئيس في جولته الأخيرة على المقاطعات من الحشود المستاءة التي راحت تصفر له وترميه بالخضار. لم تعكّر مظاهرُ الاستياء صفوَه، وكأنّه لم ينتبه إلى أنّ الأمّة تغرق في الفوضى. فحسب رأي سِبرو دِل بالْيِه وماتيلدِ بينِدا كان ثمانون في المئة من السكان يكرهون الحكومة، وكان من الأفضل للرئيس أن يقدّم استقالته، لأنّ جوّ التوتّر صار غير محتمل وسوف ينفجر في أيّة لحظة مثل بركان. وهذا ما حدث في صباح ذلك اليوم من أيّام كانون الثاني من العام 1891، حين تمرّدت البحرية وعزَلَ مجلسُ الشيوخ الرئيس.

ـ سوف تُطلق سلسلة من أعمال القمع يا عمّتي ـ سمعتُ سِبِرو دِل بالْيِه يقولُ ـ أنا ذاهب إلى الشمال. أرجوكِ أن تحمي نيبيا والأطفال، لأنّني لن أستطيع ذلك لمدّة لا أحد يدري كم ستدوم...

ـ فقدتَ رِجْلاً في الحرب يا سِبِرو، وإذا فقدتَ الثانية ستبدو قزماً.

ـ ليس أمامي خيار آخر، سيقتلونني في سانتياغو أيضاً.

ـ لا تكن ميلودرامياً، لسنا في الأوبرا!

لكنّ سِبِرو دِل بالْيِه كان أفضل اطلاعاً من عمّته، كما ظهر بعد أيّامٍ قليلة، حين أفلت الرعب من عقاله. كانت ردّة فعل الرئيس أن حلّ المجلسَ، وعيّن نفسَهُ دكتاتوراً، وعيَّن شخصاً يُدعى خواكين غودوي لتنظيم القمع، وهو ساديّ يعتقد أنّ «الأغنياء يجب أن يدفعوا الثمن لأنّهم أغنياء، والفقراء لأنّهم فقراء، أما رجال الكهنوت فيجب رميهم بالرصاص جميعاً». بقي الجيشُ موالياً للحكومة، وما بدأ كتمرّد سياسيّ تحوّلَ إلى حربٍ أهليّةٍ مرعبة حين اصدم جناحا القوّات المسلحة. شرعَ غودوي، مدعوماً بقادة الجيش يسجن أعضاء المجلس المعارضين الذين استطاع القبض عليهم. انتهت الضمانات المدنية، وبدأت التعديات على المنازل والتعذيب المنظّم، بينما حبسَ الرئيسُ نفسه في قصره مشمئزاً من تلك الأساليب، لكنّه مقتنع بأنّه لا يوجد أسلوب آخر كي يلوي ذراع أعدائه السياسيين. «بودّي لو أنّني لا أعرف شيئاً عن الإجراءات» سُمِع يقول في أكثر من مرّة. لم يكن النومُ ممكناً في شارع مكتبة *العصر الذهبي* ليلاً ولا السير نهاراً بسبب صراخ المضروبين . طبعاً لا شيء من هذا كان يُقال أمام الأطفال، لكنّني كنت أعلم بكلّ شيء لأنّني أعرف كلّ فجوة في البيت وأتسلّى بالتجسس على أحاديث الكبار، لأنّه لم يكن هناك ما يُمكن القيام به أكثر من ذلك في تلك الأشهر. وبينما كانت الحرب تستعر في الخارج، كنّا نعيش نحنُ في الداخل كما في ديرٍ فاخر محظور. احتضنت جدّتي باولينا نيبيا مع فيلقِ أطفالِها، ومرضعاتِهم ومربياتهم وأغلقت البيت بالمرتاج، واثقة من أنّ أحداً لن يجرأ على مهاجمة سيّدة من مثل وضعها الاجتماعي

ومتزوّجة من مواطن بريطاني. واحتياطاً رفع فريدريك وليامز علماً إنكليزياً على السطح وأبقى على أسلحته جاهزة.

انطلق سِبِرو إلى الشمال ليُقاتل في الوقت المناسب تماماً، لأنّهم استباحوا بيته في اليوم التالي ولو أنّهم وجدوه لكان انتهى إلى زنزانات الشرطة السياسية، حيث كانوا يعذّبون الأغنياء والفقراءَ على حدٍّ سواء. كانت نيبيا من أنصار النظام الليبرالي، مثل سِبِرو دِل بالْيِه، لكنّها تحوّلت إلى معارضة عنيدة حين أراد الرئيس أن يُعيِّن خليفته بالحيلة، وحاول أن أن يسحق مجلس الشيوخ. وقد ملكت خلال سنوات الثورة، وهي حامل بتوأمين وتربي ستة أطفال، الوقتَ والهمّةَ لتعمل في المعارضة بطرق لو أنّهم فاجؤوها لكلّفتها حياتها. كانت تفعل ذلك من وراء ظهر جدّتي باولينا، التي أعطت أوامرَ قاطعة ببقائنا مخفيين كيلا نلفت انتباه السلطات، ولكن بمعرفة تامّة من وليامز. الآنسة ماتيلدِ بيبِدا كانت على الطرف النقيض من فريدريك وليامز، فبقدر ما كانت الأولى اشتراكية كان الثاني ملكيّاً، لكنّ كراهية الحكومة وحّدت بينهما. وقد وضعوا في واحدة من الغرف الخلفية، التي لم تدخلها جدّتي قط، مطبعةً صغيرة بمساعدة دون بِدرو تَي، حيث أنتجوا كُتيّباتٍ ومنشوراتٍ ثورية ، كانت الآنسة ماتيلدِ بيبِدا تحملها فيما بعد تحت معطفها وتوزّعها من بيتٍ إلى بيت. جعلوني أقسم ألاّ أنبس بكلمة لأحدٍ حول ما كان يجري في تلك الغرفة، ولم أفعل ذلك لأنّ السرَّ بدا لي لعبةً ساحرة، وإن كنت لم أدرِك الخطر المحدق بأسرتنا. وقد أدركتُ بعد انتهاء الحربِ الأهلية أنّ الخطرَ كان حقيقيّاً، فعلى الرغم من موقع باولينا دِل بالْيِه، إذ ما من أحد كان بمنأى عن يد الشرطة السياسيّة الطويلة. لم يكن بيتُ جدّتي المكان المقدّس الذي كنّا نفترضه، فلو أنّها كانت أرملة ثريّة ما كانت لتحميها العلاقات والكنية من الاعتداء على حرمة البيت، وربّما من السجن. لقد عملت فوضى تلك الأشهر وكون غالبية السكان صارت ضدّ الحكومة واستحالةُ مراقبة جميع الناس، لصالحنا. حتى في مقر الشرطة كان يوجد من هم من أنصار الثورة ويساعدون على هرب من كان عليهم أن يعتقلوهم. وفي كلّ بيت

كانت الآنسة بيبِدا تطرق بابه لتسلم الكُتَيّبات، كانت تُستقبلُ بذراعين مفتوحين.

لأوّل مرّة كان سِبِرو وأقرباؤه في جانب واحد، فقد اتحد المحافظون في المعركة مع قسمٍ من الليبراليين. ولاذت بقيّة أسرة دِل بالْيه بعقاراتهم الريفية، في أبعد مكان ممكن عن سانتياغو، وراح الرجال الشبان يُقاتلون في الشمال، حيث اجتمع فيلق من المتطوّعين تُساندهم البحرية المتمرّدة. وقد خطّط الجيشُ الذي كان وفيّاً للحكومة للإطاحة بتلك الكَوْمَةِ من المدنيين المتمردين خلال أيام قليلة، ولم يتصوّر المقاومة التي كان سيواجهها. توجّهت البحرية والثوريون إلى الشمال للاستيلاء على مناجم ملحِ البارود، أكبر مصدرِ دخلٍ للبلاد، حيث كانت تتمركز فرق الجيش النظامي. في المواجهة الجدّية الأولى انتصرت قوّات الحكومة، وبعد المعركة أتوا على الجرحى والأسرى، تماماً كما فعلوا في حرب الباسفيك قبل عشر سنوات. وقد ألهبت وحشية تلك المجزرة مشاعر الثوريين بحيث أحرزوا حين عادوا ليتقابلوا وجهاً لوجه انتصاراً ساحقاً. وعندئذ جاء دورهم في قتل المهزومين. في أواسط آذار كان المؤتمرون ، كما كانوا يسمون المتمردين، يسيطرون على خمس مقاطعات من الشمال، وشكّلوا مجلساً حكومياً، بينما في الجنوب راحَ الرئيسُ بالماثِدا يخسرُ أنصاراً دقيقة بدقيقة. وما كان قد بقي من القوّات الموالية في الشمال تراجع نحو الجنوب ليجتمع مع جسم الجيش، خمسة عشر ألف رجل عبروا الجبالَ سيراً على الأقدام، وتوغّلوا في بوليفيا، وعبروا إلى الأرجنتين، ثم اجتازوا الجبال من جديد للوصول إلى سانتياغو. ظهروا في العاصمة يكاد يقتلهم التعب، مشعثي اللحى بهيئات رثّة فقد ساروا آلاف الكيلومترات في طبيعة قاسيةٍ من وديان ومرتفعات وحرّ جهنّمي وجليد أبديّ، جامعين في طريقهم حيوانات اللاما والڤيكونيا من السهول العالية، ثمار القرع وآكلات النمل المدرعة من السهوب، والطيور من القمم الأعلى. استُقبِلوا كأبطالٍ. فتلك المأثرة لم يُر لها مثيل منذ أيّام المحتلين الإسبان الشرسين، لكن لم يُشارِك الجميع في الاستقبال،

لأنّ المعارضة ازدادت مثل كرة الثلج التي من المحال إيقافُها. بقي بيتنا موصداً، وأوامر جدّتي لاتسمح بأن يُطلّ أحد بأنفه إلى الشارع، لكنّني لم أستطع أن أُقاوم الفضول واعتليت السطح كي أرى العرض.

كانت أعمالُ التوقيفِ والنهب والتعذيب والمصادرات قد أبقت المعارضين على أحر من الجمر، لم تبق أسرة لم تنقسم أو أحد بمنأى عن الخوف. وكانت القوّات تقوم بحملات ليلية لجمع الشبان، فيهبطون فجأة على الجنازات، والأعراس، والحقول والمعامل لحجز الرجال ممن هم في سنّ حمل السلاح وأخذهم بالقوّة. شُلَّت الزراعةُ والصناعةُ لانعدام اليد العاملة. وصار جبروت العسكر لايُحتمل، وأدرك الرئيس أنّ عليه أن يضع له حدّاً، لكنّه حين أراد أن يفعل ذلك أخيراً، كان قد الوقت تأخّر، فالعسكر تغطرسوا، وصار هناك خوف من إبعاده وإقامة دكتاتورية عسكرية، يخافها الناسُ ألفَ مرّة أكثرَ من القمع المفروض من شرطة غودوي السياسية. «لايوجد خطر أكبر من القوّة التي تتمتّعُ بالحصانة» كانت نيبيا تُحذِّرنا. وحين سألتُ الآنسة ماتيلدِ بينِدا عن الفرق بين أتباع الحكومة والثوريين، كان الجواب أنّ كليهما يقاتل من أجل الشرعية. وحين سألتُ جدّتي عن ذلك أجابتني أنّه ما من فرق بينهما، فجميعهم أوغاد.

قرع الرعبُ بابنا حين أوقف المُحضِرون دون بِدرو تَيْ ليقودوه إلى زنزانات غودوي المريعة. كانوا يشكّون، وهم على حق، بأنّه المسؤول عن المنشورات السياسية التي كانت تدور في كلّ مكان ضدَّ الحكومة. وذات ليلة من ليالي حزيران، واحدة من تلك الليالي الماطرة المملة والثلجية الغادرة، وبينما نحنُ نتناول العشاء في غرفة طعامنا اليومية، فُتِحَ البابُ فجأةً واندفعت الآنسةُ ماتيلدِ بينِدا دون سابق إنذار، مصعوقةً مزرقّة ومبلَّلةَ المعطف.

ـ ماذا هناك؟ ـ سألت جدّتي، منزعجة من قلّة أدب المعلّمة.

أخبرتنا الآنسة بينِدا بسرعة أن أوغادَ غودوي اقتحموا مكتبةَ

العصر الذهبي، وضربوا كل من كان فيها، ثمَّ حملوا دون بِدرو تَيْ في عربة مُغلَقة. بقيت الشوكة في يد جدَّتي عالقة في الهواء بانتظار شيء أهم يُبرِّر الظهورَ الفاضح لتلك المرأة ، فهي لا تكادُ تعرف السيِّد تَيْ ولا تفهم لماذا كان الخبر مستعجلاً بذلك الشكل. لم يكن عندها أي فكرة بأنّ صاحب المكتبة كان يأتي كل يوم تقريباً إلى البيت، ويدخل من الشارع الخلفي، وينتج منشوراته الثورية في مطبعة مخبّأة تحت سقفها بالذات. بالمقابل كان باستطاعةِ نيبيا وولیامز والآنسة بينِدا أن يتكهّنوا بالنتائج ما إن يجدَ سيّءُ الحظّ نفسَهُ مُجبراً على الاعترافِ، ويعرفون أنّه سيعترفُ عاجلاً أو آجلاً، فأساليب غودوي لا تترك مجالاً للشك. رأيت أنّ الثلاثة يتبادلون نظراتِ اليأس، ومع أنَّني لم أُدرك أبعادَ ما كان يجري، تصوّرت السبب.

ـ هل السبب هو الآلة الموجودة في الغرفة الخلفية؟ ـ سألتُ.

ـ أيّة آلة؟ ـ صرخت الجدّة.

ـ ما من آلة ـ رددتُ متذكّرة الحِلفَ السرّي؛ لكنّ باولينا دِل بالْيِه لم تتركني أُتابِع، أخذتني من أذني وهزّتني بتنكيل غير معهودٍ عندها.

ـ أيّة آلة، سألتُك، يا أمّ مخاط الشيطان! ـ صرخت بي.

ـ اتركي الصغيرة يا باولينا. ليس لها علاقة بهذا. المسألة تتعلّق بمطبعة... ـ قال فريدريك وليامز.

ـ مطبعة؟ هنا في بيتي؟ ـ زمجرت جدّتي.

ـ أخشى أن تكون المسألة كذلك يا عمّتي ـ تمتمت نيبيا.

ـ اللعنة! ماذا سنفعل الآن؟ ـ وتركت ربّة العمل نفسها تسقط على الكرسي ورأسها بين يديها متمتمة إنّ أسرتها بالذات خانتها، وسندفع ثمن مثل تلك الحماقة لأنّنا بلهاء، وإنّها قد استقبلت نيبيا بذراعين مفتوحين وانظروا كيف تردّ إليها جميلها، وإنّه إذا كان من المحتمل أنّ فريدريك وليامز لا يعرف أنّ هذا يمكن أن يُكلّفه فروةَ رأسه، فنحن لسنا في إنكلترا ولا في كاليفورنيا، فمتى سيفهم كيف

هي الأشياء في تشيلي، وإنّها لا تريد أن ترى الآنسة بيئِدا ثانية في حياتها، وتمنعها أن تعود لتطأ بيتها أو تتوجّه بالكلام إلى حفيدتها.

طلب فريدريك وليامز العربةَ وأعلن أنّه سيذهب «ليحلّ المشكلة»، الأمر الذي كان أبعد ما يكون عن أن يُهدئ جدّتي ولم يفعل شيئاً آخر غير أنّه زاد رعبها. أومأت الانسة ماتيلدِ بيئِدا مودِّعةً وخرجت، ولم أعد لرؤيتها إلاّ بعد سنواتٍ كثيرة. انطلق وليامز على الفور إلى المفوّضية الأمريكية الشمالية وطلب الكلام مع مستر باتريك إيغون، صديقه ورفيقه في لعبة البريدج، وكان في تلك الساعة يترأس مأدبة رسمية مع أعضاء آخرين من الهيئة الدبلوماسية. كان إيغون يدعم الحكومة، لكنّه كان أيضاً ديمقراطيّاً بشكل عميق، مثل جميع اليانكيين تقريباً، ويمقتُ أساليب غودوي. أصغى إلى ما قاله له فريدريك وليامز على انفرادٍ، وقام على الفور بمساعٍ للكلام مع وزير الداخلية، الذي استقبله في الليلة ذاتها، ولكنّه وضّح له أنّه لم يكن من صلاحيّاته التدخّل من أجل السجين. ومع ذلك حصل على مقابلة مع الرئيس في الساعات الأولى من نهار اليوم التالي. كانت تلك أطول ليلة عشناها في بيت جدّتي. لا أحد نام. وقضيت الليلةَ متكورة مع *كراميلو* في كرسيّ في القاعة، بينما كانت المستخدمات والخدم ينقلون حقائب وصناديق، والمربيات والمرضعات مع أطفال نيبيا النائمين بين أذرعهنّ، والطباخات مع سلال مأكولاتهن. حتى زوج من الأقفاص فيهما عصافير جدّتي المفضّلة ذهبت إلى العربة. وفكك وليامز والجنائني، الرجل الموثوق، المطبعةَ وطمروا قطعها في فناء البيت الثالث، وأحرقوا جميع الأوراق المشبوهة. وعند الفجر كانت عربتنا الأسرة مع أربعة من الخدم المسلحين على جيادهم جاهزين ليقودونا خارج سانتياغو. أما بقيّة طاقم الخدمة فقد ذهبوا ليأووا في أقرب كنيسة، حيث ستأخذهم عربات أخرى فيما بعد. ولم يُرِدْ فريدريك وليامز أن يرافقنا.

ـ أنا المسؤول عمّا حدث وسأبقى لحماية البيت ـ قال.

ـ حياتُك أغلى من هذا البيت ومن كلّ ما أملك، أرجوك، تعالَ معنا ـ توسّلت إليه باولينا دِل بالْيِه.

ـ لن يجرؤوا على لمسي، فأنا مواطِن بريطانيّ.

ـ لا تكن ساذجاً، يا فريدريك، صدّقني، لا أحد بمنجى في هذه الأزمنة.

لم يكن هناك من طريقة لإقناعه. قبّلني قبلتين على خدّيّ، وأمسك طويلاً يدَيّ جدّتي، وودّع نيبيا التي كانت تتنفّس مثل حنكليس خارج الماء، لا أدري إن كان ذلك خوفاً أم بسبب الحمل. انطلقنا ما إن بدأت شمس خجولة تضيء قممَ الجبال المثلجة، كان المطرُ قد توقّفَ والسماءُ تُظهر يوماً صاحياً، لكنّ ريحاً باردة كانت تهبُّ وتدخل من شقوق العربة. كانت جدّتي تحملني ضامّة إيّاي جيّداً في حضنها ملفوفة بدثار جلد الثعلب، الذي التهم *كراميلو* ذيوله في هيجانه الشبق . كانت تمضي شادّة على فمها من الغيظ والخوف، لكنّها لم تنسَ سلال الطعام، وما إن خرجنا من سانتياغو في طريقنا إلى الجنوب حتى فتحتها لتفتح الطريق أمام وليمةِ الفراريج المشوية، والبيض المسلوق، وحلوى الفطائر، والجبن، والخبز المرقّق، والنبيذ ومرطب اللوز، الذي كان يجب أن يدوم فيما تبقّى من الرحلة.

استقبلنا أعمامي من آل دِل بالْيِه، الذين لجؤوا إلى الريف حين بدأ التمرّدُ في كانون الثاني، مسرورين لأنّنا ذهبنا لنقطع عليهم سبعةَ أشهر من الضجر الحتمي، ولنحمل إليهم أخباراً. كانت الأخبار مشؤومة، لكنّ الأسوأ هو عدم معرفتها. التقيتُ بأولاد عمومتي من جديد. وكانت تلك الأيّام المشحونة بالتوتّر الشديد بالنسبة للكبار، أيّامَ إجازة بالنسبة إلى الأطفال، بُشِمْنا حليباً حُلِبَ للتوّ، وجبناً طازجاً، ومأكولات مجففة حُفِظت من الصيف، كنّا نمتطي الخيول، ونخوض في الوحل تحت المطر، نلعب في الإسطبلات والزرائب ونقدم عروضاً مسرحية، ونشكّل جوقةً محزنة، لأنّه ما من أحدٍ منّا كان عنده ميول موسيقية. كان الوصول إلى البيت يتمّ عبر طريق

كثير المنعطفات محاط بأشجار حور سامقة في وادٍ حراجيّ، حيث لم يترك المحراث إلاّ آثاراً قليلةً، والأراضي تبدو مهجورةً، ومن حين لآخر نرى صفوفاً من العيدان الجافّة والمسوّسة التي كانت، حسب قول جدّتي، كروماً. وإذا ما عبر في طريقنا فلاّحٌ رفع قبّعةَ قشّه، وحيّا أربابَ العمل، «حضرتكم»، كان يقول لنا. وصلت جدّتي إلى الريفِ متعبةً وسيّئةَ المزاج، ولكنّها بعد أيّام قليلة رفعت مظلة وجابت، يتبعها *كراميلو*، المنطقةَ المحيطةَ بكثير من الفضول. رأيتها تتفحّص عيدان الدوالي المعوجّةَ وتأخذ عيّناتٍ من التربة، وتخبّئها في أكياسٍ غامضة. كان للبيت شكل حرف U وهو مبني من الطوب والقرميد، مظهره قويّ وثقيل، وخال من أدنى حدٍّ من الأناقة، لكن له سحر الجدران التي شهدت قصصاً كثيرة. كان في الصيف جنّةً من الأشجار المحملة بالفاكهة الحلوة، وعبق الأزهار، وصدح الطيور الهائجة، وأزيز النحل دون أيّ عناية، لكنّه في الشتاء يبدو مثل سيّدةٍ عجوز كثيرة الدمدمةِ، تحت مطر الشتاء الناعم والسماء الغائمة. كان النهار يبدأ باكراً جدّاً وينتهي مع غروب الشمس، وهي الساعة التي كنّا نلوذ فيها إلى الغرف الهائلة، المضاءة بشكلٍ سيّئ بالشموع ومصابيح الكيروسين. كان الطقس بارداً، لكنّنا نجلسُ حول طاولات مستديرة مغطاةٍ بقماشٍ سميكٍ يضعون تحته مواقد جمر مشتعلة، هكذا كنّا نُدَفِّئ أقدامنا، وكنا نشرب نبيذاً أحمر مغليّاً بالسكّر وقشر البرتقال والقرفة، وهي الطريقة الوحيدة التي تجعل ابتلاعه ممكناً. كان أعمامي من آل دِل بالْيه يُنتِجون هذا النبيذ الخشن للاستهلاكِ العائلي، لكنّ جدّتي كانت تؤكّد أنّه ليس مصنوعاً لحلاقيم البشر بل لحلّ الألوان. كلّ عقار محترم كان يزرع الكرمة ويصنع نبيذه الخاصّ به، قد يكون بعضه أفضل من بعضٍ، لكنّ هذا كان حريفاً بشكلٍ خاصّ. في الأسقف الخشبية كانت العناكبُ تنسجُ نسيجها المطرّز الرقيق، والفئرانُ تجري مطمئنة القلبِ، لأنّ قطط البيت لا تستطيع أن تصعد عالياً . الجدران المبيّضة بالكلس أو المطلية بالأزرق النيلي، تزدهي عاريةً، مع أن هناك في كلّ مكانٍ قدّيسين مجسّمين وصوراً للمسيح مصلوباً. وفي الباب يرتفع تمثالٌ برأس ويدين وقدمين من الخشب، وعينين زرقاوين من البلور،

وشعر بشري يُمثّل مريمَ العذراءَ، ويبقى مزيّناً بالأزهار الطازجة وشموع مشتعلة؛ كنّا جميعاً نرسم أمامه إشارة الصليب حين نمرّ، ولا أحد يدخل أو يخرج دون أن يُحييّ العذراء، التي يُبدِّلون ملابسها مرّة في الأسبوع، فقد كان لها خزانة مليئة بملابسِ عصر النهضة، وكانوا يضعون لها في المواكب المجوهرات ودثاراً من فرو القاقوم الذي حلّ لونه مع مرور السنين. كنّا نأكل أربع مرّاتٍ في اليوم في احتفالات طويلة لا تكاد تنتهي حتى تبدأ التالية، بحيث أن جدّتي لم تكن تنهض عن المائدة إلاّ للنوم أو الذهاب إلى المُصلّى. في السابعة مساءً كنّا نحضر القداس ونتناول القربان الرّباني بحضورِ الأب تيودورو ريبيسكو، الذي يعيش مع أعمامي، وكان كاهناً عجوزاً بما يكفي ويملك فضيلة التسامح؛ فلم يكن يوجد من وجهة نظره ذنب لايُغْفَر، باستثناء خيانة يهوذا، فحتى غودوي المريع، حسب رأيه، يمكن أن يجد عزاءً له في أحضان الرب. « هذا لا، يا أبانا، فكِّرْ أنّه إذا كان هناك غفران لغودوي، فأنا أفضّل أن أذهب إلى الجحيم مع يهوذا ومعي جميع أولادي»، ردّت عليه نيبيا. وكانت الأسرة تجتمع بعد غياب الشمسِ مع الأطفال والمستخدمين ومستأجري الإقطاعية للصلاة. يأخذ كلُّ واحدٍ شمعةً مشتعلة ونسير صفّاً نحو المصلى الخشن في طرف البيت الجنوبي. لقد تذوّقتُ هذه الطقوسِ اليومية التي كانت تُحدّد التقويم اليومي والفصول والحياة، وأتسلى بترتيب الأزهار على المذبحِ وتنظيف أقداح القربان الذهبية. وقد كانت الكلمات المقدسة شعراً:

ليست السماءُ التي وعدتني بها يا ربّي
هي التي تدفعني كي أُحبَّكَ،
ولا الجحيمُ المرهوبُ،
كيلا أسبَّك.

أنت من تدفعني، ياربّي، يدفعني
أنّني أراك على الصليبِ مهزّأً؛

يدفعني أنّني أرى جسدك مثخناً بالجراح؛
تدفعني الإهانات التي لحقت بكَ، وموتُك.

أخيراً يدفعني حبُّكَ،
حتى ولو لم يكن هناك سماء
حتى لو لم يكن هناك جحيم، سأخافكَ.

ليس عليك أن تُعطيني كي أحبّكَ،
لأنّني حتى لو كنتُ لا أنتظر ما أنتظرُ،
سأحبّك كما أحبّك.

أعتقد أنّ أكثر من شيء قد لانَ في قلب جدّتي القاسي، لأنّها اقتربت من الدين قليلاً بدءاً من تلك الإقامة في الريف، وبدأتْ تذهبُ إلى الكنيسة رغبةً وليس مراءاة، وما عادت تلعن رجال الدين بحكم العادة، كما كانت تفعل من قبل، وحين عدنا إلى سانتياغو أمرت ببناء مصلّى جميلٍ بنوافذ ملوّنة الزجاج في بيتها في شارع إخِرثيتو ليبرتادور، حيث راحت تُصلّي على طريقتها. لم تُرضِها الكاثوليكية، لذلك كانت تضبطها على قدّها. كنّا نعودُ بعد صلاة الليل بشموعنا إلى القاعة الكبيرة لنتناول القهوةَ بالحليب، بينما النساء يَحِكْنَ أو يُطرِّزنَ، ونستمع نحن الأطفال إلى حكايات الأشباح التي يحكيها لنا الأعمام. ما من شيءٍ كان يُخيفنا مثل *الإمبونتْشِ*، مخلوق الأسطورة الهندي الشرير. كانوا يقولون إنّ الهنود يسرقون الأطفال حديثي الولادة ليُحوِّلوهم إلى *إمبونتشِ*، فيخيطون أهدابهم وإستهم ويربونهم في كهوفٍ، ويُغذّونهم بالدم، ويحطّمون أرجلهم، ويُديرون لهم رؤوسهم إلى الخلف ويضعون إحدى أذرعهم تحت جلد الظهر؛ وبذلك يحرزون كلّ القوى الخارقة للطبيعة. وخوفاً من أن نتحوَّل إلى غذاء *للإمبونتشِ*، كنّا، نحن الأطفال، لا نُطلّ بأنوفنا

خارج البيت بعد غياب الشمس، وكان بعضُنا، من أمثالي، ينامون برؤوسهم تحت البطانيات تُعذّبهم الكوابيس المرعبة . «يا لك من متطيرة يا أورورا! لا وجود *للإمبونتشِ*. هل تظنّين أنّ طفلاً يستطيع أن يعيش بعد مثل هذا التعذيب؟» هكذا كانت جدّتي تُحاول أن تُحاكم الأمرَ معي، لكن لم تكن هناك حجة قادرة على تخليصي من اصطكاك أسناني.

بما أنّ نيبيا كانت تقضي حياتَها في الحمل فقليلاً ما كانت تهتمّ بإجراء حساباتها، وكانت تقدر قرب الولادة من عددِ المرّات التي تستخدم فيها المبولة. وحين استيقظتْ في ليلتين متتاليتين للتبول ثلاث عشرة مرّة، أعلنت في ساعة الإفطار أنّه الوقت قد حان للبحث عن طبيب، وبالفعل بدأ الطلق في ذلك اليوم. لم يكن هناك أطباء في تلك النواحي، وهكذا اقترح أحدهم استدعاء قابلةِ أقربِ ضيعةٍ، وصادف أنّها كانت *ميكا*، هندية رائعة *مابّوتشية* لا عمر لها، يطغى عليها اللون البني الداكن: البشرة، الجدائل، بل وحتى ثيابها مصبوغة بالألوان النباتية. وصلت على جواد مع كيس من النباتات والزيوت والشرابات الطبيّة، مغطاة بمعطف ثبّتته عند الصدر بمشبك هائل من الفضّة مصنوع من نقودٍ استعمارية قديمة. ارتعبت العمّات لأنّ *الميكا* بدت وكأنّها خرجت توّاً من أكثف مناطق أراوكانيا، لكنّ نيبيا استقبلتها دون أيّة علامة تدل على عدم الثقة؛ فالعملية لا تُخيفها، لأنّها جرّبتها قبل ذلك ستّ مراتٍ. لم تكن الهنديةُ تتكلّم القشتالية إلا قليلاً جدّاً، لكنّها تبدو عارفة بعملها، وما إن خلعت معطفها حتى استطعنا أن نرى أنّها كانت نظيفة. حسب التقاليد لم تكن تدخل إلى غرفة النفساء من لم تحمل، بحيث أن الشابات ذهبن مثل الطفلات إلى الطرف الآخر من البيت، واجتمع الرجالُ في قاعة البلياردو ليلعبوا ويشربوا ويُدخِّنوا. حملوا نيبيا إلى القاعة الرئيسية ترافقها الهندية وبعض نساء الأسرة المسنات اللواتي كنّ يتناوبن على الصلاة والمساعدة. رحن يطبخن دجاجتين سوداوين لتحضير مرق مُغذّ قادر على مدّ الأم بالقوّة قبلَ وبعد الولادة، كما أنّهن غلين

حمحماً مخزنيّاً لتحضير النقيع احتساباً لحدوث حشرجات أو تعب في القلب. كان الفضول أقوى من تهديد جدّتي بصفعي إذا ما أمسكت بي وأنا أحوم حول نيبيا؛ فتسلّلتُ في الغرف الخلفية كي أتجسّس. رأيتُ الخادمات يعبرن ومعهنّ أقمشة بيضاء وإسفنج وماء ساخن ومرهم بابونج لتدليك البطن، وكذلك بطانيات وفحم للمواقد، إذ لا شيء يُخشى مثل *تجلد البطن* أو البرد أثناء الولادة. كنت أسمع لغط حديث وضحكات متواصلة، ولم يبدو لي أنّ على الطرف الآخر من الباب يوجد جوّ من الضيق والمعاناة، على العكس، كلّ شيءٍ يدلّ على وجود نساء محتفِلات. وبما أنّني لم أكن أرى شيئاً من مخبئي، وكان النفس الطيفي للممرات المظلمة يوقف شعر نقرتي، سرعان ما ضجرتُ وذهبت لألعب مع أولاد عمومتي. ولكن عندما حلّ الليل واجتمعت الأسرةُ في المُصلّى، عدتُ واقتربتُ. كانت الأصوات قد انقطعت وصار يُسمع أنينُ نيبيا المُجهَدة، وهمس الصلوات وصوت المطر على قرميد السطح. مكثتُ قابعةً في منعطف في الممر، أرتعد خوفاً لأنّني كنتُ واثقةً من أنّه يمكن أن يصل الهنود ليسرقوا ابن نيبيا. وماذا لو كانت *الميكا* واحدة من تلك الساحرات اللواتي يعملن *إمبونتشِ* من الأطفال حديثي الولادة. وكيف لم تُفكّر نيبيا بهذا الاحتمال المرعب؟ كنتُ على وشك أن أجرى عائدة إلى المُصلّى، حيث يوجد ضوء وناس، لكن في تلك اللحظة خرجت إحدى النسوة تبحثُ عن شيء وتركتْ الباب مشقوقاً، فاستطعتُ أن ألمحَ ما كان يجري في الغرفة. لم يرني أحدٌ لأنّ الممر كان مظلماً بينما يسود نور شمعدان شحمٍ وشموع موزّعة في كل مكان في الداخل. كان هناك ثلاثة مجامرٍ في الزوايا تجعلُ الجوّ أكثر دفأً من بقيّة البيت، وقدر يغلين فيه أوراق الكينا فيُشبع الجوّ بعبق غابة طازج. كانت نيبيا ترتدي قميصاً قصيراً وصدارة وجوربين سميكين من الصوف، كانت تجلس القرفصاء على بطانية ممسكة بكلتا يديها بحبلين غليظين معلّقين إلى رافدات السقف تسندها من الخلف *الميكا* التي كانت تتمتم بصوت منخفض بكلمات من لغة أخرى. كان بطن الأم

المنتفخ والمعلّم بالعروق الزرقاء يبدو تحت ضوء الشموع المرتعش مريعاً، كما لو أنّه غريب عن جسدها، لا يبدو حتى إنسانيّاً. كانت نيبيا تَدْفَعُ مبللةً بالعرق، وشعرها ملتصق بجبينها، وعيناها محاطتان بهالتين بنفسجيتين، وشفتاها متورِّمتان. وكانت إحدى عمّاتي تُصلي راكعةً بالقرب من طاولة صغيرة عليها تمثالُ سان رامون نوناتو، حامي النفساوات، وهو القديس الوحيد الذي لم يولد بطريقة طبيعية، بل أخرجوه من شقٍّ في بطن أمّه، وعمة أخرى كانت بجوار الهندية ومعها حوض من الماء الساخن وكومة من الأقمشة النظيفة. حدثت وقفة قصيرة تنفّست فيها نيبيا ووقفت *الميكا* أمامها لتُدَلِّك بطنَها بيديها الغليظتين، كأنّها تهيّئ وضعية الطفل في داخلها. فجأة وإذا بدفق من سائل مختلط بالدم يُبلِّل البطانية. فقطعت عليه *الميكا* الطريق بقطعة قماش تبلّلت على الفور أيضاً، ثمّ بأخرى وأخرى. «بَرَكَة، بَرَكَة، بَرَكَة» سمعتُ الهندية تقول بالإسبانية. تشبّثت نيبيا بالحبلين ودفعت بقوّةٍ جعلت أوتار عنقها وعروقَ صدغيها تبدو كأنّها ستنفجر. زمجرة صمّاء خرجت من بين شفتيها وعندئذٍ أطلّ شيءٌ من بين رجليها، شيءٌ أخذته *الميكا* بنعومة وأسندته برهة، إلى أن أخذت نيبيا نَفَساً ودفعت من جديد، وانتهى الطفل بالخروج. اعتقدت أنّه سيُغشى عليّ رعباً واشمئزازاً، فتراجعت متعثّرةً في الممر الطويل والمشؤوم.

بعد ساعة، وبينما كانت الخادمات يجمعن الخرق الوسخة وغيرها مما استُخدِمَ في الولادة لحرقها - هكذا، كما كانوا يعتقدون، يتمّ تفادي النزيف - وبينما الميكا تلفّ المشيمة وحبلَ السرّةِ لتطمرهما تحت شجرة تين، كما كانت العادة في تلك النواحي، كانت بقية الأسرة قد اجتمعت في القاعة حول الأب تيودورو رييسكو كي تحمدَ اللهَ على ولادة توأمين ذكرين سيحملان بكلّ شرفٍ كنيةَ دِل باليه، كما قال الراهب. عمّتان كانتا تحملان الوليدين بين أذرعهما، ملفوفين جيّداً بطرحتين صوفيتين وقبّعتين منسوجتين على رأسيهما، بينما كلّ عضو من الأسرة يقترب بدوره ليقبّلهما على جبينهما، قائلاً: «حماك الله» لتفادي الإصابة غير المقصودة

بالعين. لم أستطع أن أرحّب بابني عمومتي مثل الآخرين، لأنّهما بديا لي دودتين قبيحتين، ولأن رؤيتي لبطن نيبيا المزرق يلفظهما مثل عجينة دامية سوف يعذّبني للأبد.

في الأسبوع الثاني من آب جاء فريدريك وليامز في طلبنا وهو في غاية الأناقة والهدوء، كما هو دائماً ، كأنّ خطر السقوط في أيدي الشرطة السياسيّة كان مجرّدَ وهمٍ جماعي. استقبلت جدّتي زوجَها مثل عروس، بعينين برّاقتين، وخُدين حمراوين من التأثّر، مدّت إليه يديها فقبّلهما بما هو أكثر من الاحترام، وانتبهتُ لأوّل مرّة أنّ هذين الزوجين الغريبين مرتبطين بأواصر تشبه الودَّ جدّاً. كانت في ذلك الوقت في حدود الخامسة والستين، العمر الذي كانت فيه نساء أخريات عجائز مهزومات بالحداد المتراكم وشقاء الحياة، لكنّ باولينا دِل بالْيِه كانت تبدو لا تُهزم. كانت تصبغ شعرها، الغنج الذي ما من سيّدة من وسطها سمحت به لنفسها آنذاك، وتزيد تسريحتها بإضافة الشعر المستعار؛ وكانت ترتدي ملابسها بالخيلاء المعتاد دائماً، على الرغم من بدانتها، وكانت تتزيّن بدقّة كبيرة بحيث أنّه ما من أحد كان يشكّ باحمرار وجنتيها خجلاً أو سواد أهدابها. كان فريدريك وليامز أكثر شباباً منها بشكلٍ ملحوظ، ويبدو أنّ النساء كن يجدنه جذّاباً جدّاً، لأنّهنّ دائماً كنَّ يحرّكن مراوحهنّ ويتركن مناديلهنّ تسقط في حضوره. لم أره قط يُكافئهنّ على هذه المجاملات، بل يبدو مكرّساً لزوجته كلّياً. وكثيراً ما تساءلتُ ما إذا كانت العلاقة بين فريدريك وليامز وباولينا دِل بالْيِه مجرّد تسوية مصالح، ما إذا كانت أفلاطونية، كما يفترض الجميع، أم إنّه يوجد بينهما بعض الجاذبية. هل أحبَّ بعضُهما بعضاً؟ لا أحد سيستطيع معرفة ذلك لأنّه لم يتطرّق قط إلى الموضوع، وجدّتي التي أصبحت أخيراً قادرة على أن تحكي لي أكثر أشيائها حميمية، حملت معها الجوابَ إلى العالم الآخر.

عرفنا من العم فريدريك أنّهم أطلقوا، بفضلِ تدخّل الرئيس شخصيّاً، سراحَ دون بِدرو تَيْ قبل أن يتمكّن غودوي من انتزاع أيّ

اعتراف منه، وبذلك صار باستطاعتنا أن نعودَ إلى بيت سانتياغو، لأنّ اسم أسرتنا لم ينزل قط في لوائح الشرطة. بعد تسعة أعوام، حين ماتت جدّتي وعدتُ لأرى الآنسة ماتيلدِ بيبِدا ودون بِدرو تَيْ، عرفتُ تفاصيل ما جرى، وما أراد فريدريك ولیامز الطيّب أن يُجنبنا إيّاه. فبعد أن اقتحموا المكتبة، وضربوا المستخدَمين، وعملوا أكواماً من مئات الكتب وأضرموا فيها النار، حملوا معهم صاحب المكتبة الكتلاني إلى الثكنات المشؤومة، حيث أنزلوا به المعاملة المعتادة. بعد العقوبة فقد تَيْ وعيه دون أن ينطقَ بكلمة واحدة، وعندئذ صبّوا فوقه دلوَ ماءٍ مع البراز، وربطوه إلى كرسيّ، وأمضى هناك بقيّة الليل؛ في اليوم التالي وبينما كانوا يقودونه للمثول أمام جلاديه، وصل الوزير الأمريكي الشمالي باتريك إيغون مع مرافق من مرافقي الرئيس ليطالب بتحرير السجين. وقد تركوه يذهب بعد أن حذّروه من أنّه إذا قال كلمةً واحدةً عمّا جرى فسيواجه فصيل الإعدام. حملوه وهو يقطر دماً وخراءً، إلى عربة الوزير التي كان ينتظره فيها فريدريك ولیامز وطبيب. قادوه إلى مفوّضية الولايات المتحدة بصفةِ لاجئ. وبعد شهر سقطت الحكومة وخرج دون بِدرو تَيْ من المفوّضيّة كي يترك المكان لأسرة الرئيس المخلوع التي عثرت على ملاذ لها تحت العلم ذاته. بقي الكُتُبِيُّ عدّة أشهر محطّماً إلى أن شفيت جراحه التي تسبّبت له بها السياط، واستعادت عظام كتفيه حركتها، واستطاع أن يعود لينهض بتجارة كتبه. الفظائع التي عاني منها لم تُرعبه، ولم يخطر بباله أن يعودَ إلى كتالونيا، وبقي دائماً في المعارضة، أياً كانت الحكومة الموجودة. وحين شكرتُهُ بعد سنواتٍ كثيرة على المعاناة الرهيبة التي تحمّلها كي يحمي أسرتي، أجابني أنّه لم يفعل ذلك لأجلنا، بل من أجل الآنسة ماتيلدِ بيبِدا.

كانت جدّتي تُريد البقاء في الريف إلى أن تنتهي الثورةُ، لكنّ فريدريك ولیامز أقنعها بأنّ الصراعَ يمكن أن يدوم عشرة أعوام، وعلينا ألا نتخلى عن المكانة التي كانت لنا في سانتياغو؛ الحقيقة أنّ الإقطاعية مع فلاّحيها المتواضعين، والقيلولات السرمدية والإسطبلات المليئة بالروث والذباب بدت لها قدراً أسوأ من الزنزانة.

ـ دامت الحربُ الأهليةُ أربعَ سنوات في الولايات المتحدة، ويمكن أن تدوم مثلها هنا ـ قال.

ـ أربع سنوات؟ إذن لن يبقى تشيّليٌّ حيّ. يقول ابن أخي سِبِرو إنه في أشهر قليلة بلغ عدد القتلى في المعركة عشرة آلاف قتيل وأكثر من ألف شخص اغتيلوا من ظهورهم ـ ردّت جدّتي.

أرادت نيبيا أن تعود معنا إلى سانتياغو، مع أنّها كانت ما تزال تحمل على كاهلها تعبَ الولادة المضاعفة، وأصرَّت إلى أن أذعنت إليها جدّتي أخيراً. في البداية لم تُكلّم نيبيا بشأن المطبعة، وغفرت لها تماماً حين رأت التوأمين. وسرعان ما وجدنا أنفسنا جميعاً في الطريق إلى العاصمة ومعنا الأحمال التي نقلناها قبل أسابيع، إضافة إلى وليدين حديثين، ومن دون العصافير التي ماتت مخنوقة من الخوف في الطريق. كنّا نحمل الكثير من سلال الزاد، وإبريقاً فيه الشراب الذي يجب على نيبيا أن تتناوله كي تتجنّب فقر الدم، وهو خليط مقرف من نبيذ معتق ودم عجل طازج. قضت نيبيا شهوراً لا تعرف شيئاً عن زوجها، وبدأت، كما اعترفت لنا في لحظة ضعف، تكتئب. لم يخطر ببالها قط أن سِبِرو دِل بالْيِه لن يعود إليها من الحرب سالماً مُعافى؛ فقد كان عندها نوع من البصيرة لمعرفة قدرها. وكما عرفت دائماً أنّها ستكون زوجته، حتى حين أعلن لها أنّه تزوّج في سان فرانسيسكو، تعرف أيضاً أنّهما سيموتان معاً في حادث. سمعتُها تقول ذلك مرّاتٍ كثيرةً، وقد تحوّلت الجملة إلى نكتة في الأسرة. خافت أن تبقى في الريف لأنّه سيكون من الصعب على زوجها الاتصال بها، لأن البريد في معمعة الثورة يضيع عادة، وخاصّة في المناطق الريفية.

منذ بداية حبّها لسِبِرو، حين توضح لها أمر خصوبتها الجامحة، أدركت نيبيا أنّها إذا ما راعت قواعدَ الآداب المعتادة، وحبست نفسها في بيتها مع كلّ حمل وولادةٍ فإنّها ستقضي بقيّة حياتها محبوسةً، عندئذٍ قرّرت ألا تجعل من الأمومة سراً، وتماماً كما كانت تتباهى ببطنها البارز مثل فلاّحة صفيقة، أمام رعب المجتمع «الراقي»، كذلك كانت تلد دون ضجّة أو التزام بالراحة

لأكثر من ثلاثة أيّام ـ بدلاً من الأربعين التي كان يُطالب بها الطبيب ـ ثم تخرج إلى كلّ مكان بما في ذلك اجتماعات النساء المطالبات بحق المرأة بالتصويت، ومعها موكب أطفالها ومربياتهم. كانت الأخيرات مراهقات جيء بهنّ من الريف محكوماتٍ بالخدمة بقيّة حياتهن، إلاّ إذا حملن أو تزوّجن وهو أمر ضعيف الاحتمال. كانت هذه الفتيات الغيريات يكبرن ويجفّ عودهن ويمتن في البيت، ينمن في غرفٍ وسخةٍ بلا نوافذ، ويأكلن فضلات المائدة الرئيسية؛ يعبدن الأطفال الذين يُقدّر لهنّ تربيتهم، خاصّة الذكور منهم، وحين تتزوّج بناتُ الأسرِ، كنّ يحملنهنّ معهنّ كجزء من الجهاز، كي يخدمن الجيلَ الثاني أيضاً. في ذلك الوقت الذي كان كلّ ما يتعلّق بالأمومة سرّياً علّمتني معايشتي لنيبيا، وأنا في الحادية عشرة من عمري، أشياءَ كانت تجهلُها كلّ فتاة من جوّي. في الريف، حين كانت الحيوانات تتسافدُ أو تلد، كانوا يُجبرون البنات على الدخول إلى البيت ويغلقون النوافذ، لأنّهم ينطلقون من قاعدة أنّ تلك الأعمال تضرّ بأرواحنا الحساسةِ، وتُدخلُ في رؤوسنا أفكاراً فاسدة. وقد كانوا على حقّ لأنّ مشهد حصان يمتطي فرساً رأيتُه مصادفةً في إقطاعية أولاد عمومتي ما زال يشعل دمي. واليوم، وفي أوج عام 1910، بينما السنوات العشرون التي تفصل بيني وبين نيبيا اختفت الآن لتصبح صديقتي أكثر ممّا هي عمّتي، علمت أن الولادات السنوية لم تكن قط عائقاً جدّياً أمامها؛ فسواء حملت أم لا كانت تقوم ببهلوانياتها الجسورة مع زوجها. سألتُها في واحد من تلك الأحاديث الحميمة لماذا كان عندها كلّ أولئك الأولاد ـ خمسة عشر، منهم أحد عشر أحياء ـ فقالت لي إنّها لم تستطع تفادي ذلك، فما من دواء من الأدوية العلمية للقابلات الفرنسيات أعطى نتيجة. وقد أنقذتها قوّتها الجسدية الجموحة من التآكل، وساعدها قلبها الفاحش الخفيف كيلا تقع في ورطات عاطفية. كانت تُربّي أولادها بالطريقة ذاتها التي تشتغل بها بالأعمال المنزلية: بالتوكيل. ما إن تلِدَ حتى تعصب صدرها وتشدّه بقوّة وتُسلّم الوليدَ إلى مُرضِعةٍ؛ كان في بيتها من المربيات بقدر ما فيه من الأطفال تقريباً. فقد أنقذت سهولةُ الولادة عند نيبيا صحّتها الجيّدة، وتحرّرها من أولادها أنقذ علاقتها

الحميمة بِسِبِرو، ومن السهل الحدس بالود الحار الذي يوحّد بينهما. وروت لي أنّ الكتب الممنوعةَ التي درستها بدقّة في مكتبة خالها علّمتها إمكاناتِ الحبّ الرائعة، بما في ذلك الأوضاع الهادئة الخاصّة بحبيبين محدودين في قدراتهما البهلوانية، كما كان حالهما: هو بسبب ساقه المبتورة وهي بسبب كرش حملها. لا أدري ما هي الالتواءات المفضّلة عندهما، لكنّني أتصوّر أنّ أمتع لحظاتهما هي اللحظات التي يلعبان فيها في الظلمة، دون إحداث إيّ ضجّة كما لو أنّ في الغرفة راهبةً تتخبّط بينَ إغفاءاتِ الشوكولاتة مع حشيشة القطّة والرغبةِ بالإثم.

كانت أخبارُ الثورة خاضعة إلى رقابة الحكومة الصارمة، ومع ذلك فكلُّ شيءٍ كان يُعرف حتى قبل أن يحدث. كنّا نعلم بالمؤامرة؛ لأنّ أحد أولاد عمومتي الكبار الذي ظهر بحذر في البيت يرافقه مستأجر من الإقطاعية، وخادم وحارس؛ أعلن عنها. حبس نفسه بعد العشاء برهةً طويلة في المكتب مع فريدريك وليامز وجدّتي، بينما تظاهرت بالقراءة في إحدى الزوايا، دون أن تفوتني كلمة واحدة مما كانوا يقولونه. كان ابن عمّي فتى ربِعاً أشقر، أنيقاً له شعر امرأة أجعد وعيناها، مندفعاً، ظريفاً، تربّى في الريف، ويملك معصمين رائعين لترويضِ الجياد، وهذا هو الشيء الوحيد الذي أتذكّره عنه؛ شرح أنّ بعض الشبان، وهو بينهم، كانوا يريدون أن يُفجِّروا بعض الجسور كي يناكدوا الحكومة.

ـ من الذي خطرت له هذه الفكرة اللامعة؟ هل لكم رئيس؟ ـ سألت جدّتي بسخرية لاذعة.

ـ ليس هناك رئيس بعد، ولكننا سنختاره حين نجتمع.

ـ كم عددكم يا بُني؟

ـ في حدود المئة، لكنّني لا أدري كم عدد الذين سيأتون. لا يعرفُ الجميعُ لماذا استدعيناهم، سنقول لهم عن ذلك فيما بعد، لأسباب أمنية، هل تفهمينني يا عمّي؟

ـ أفهمك. وهل جميعهم شبان مُدلّلون مثلك؟ ـ أرادت جدتي أن تعرف، وهي في كلّ مرّة أكثر توتّراً.

ـ يوجد فنّيون، وعمّال، وفلاّحون، وبعض من أصدقائي أيضاً.

ـ ما الأسلحة التي تملكونها؟ ـ سأل فريدريك وليامز.

ـ سيوف، وسكاكين، وأعتقد أنّه توجد بعض البنادق. علينا أن نحصل على البارود طبعاً.

ـ تبدو لي حماقة رفيعة! ـ وضَّحت جدّتي.

حاولا إقناعه فأصغى إليهما بصبر كاذب، كان واضحاً أنّ القرارَ متَّخَذٌ، وليست اللحظة مواتية لتبديل الرأي. حين خرج كان يحمل معه في كيس من جلدٍ بعضَ الأسلحةِ النارية من مجموعة فريدريك وليامز. وعرفنا بعد يومين ما جرى في إقطاعية المتآمرين على بعد كيلومتراتٍ قليلة من سانتياغو. فقد راح المتمرِّدون يصلون نهاراً إلى بيت راعي بقر صغير، اعتقدو أنّهم سيكونون بأمان فيه، وقضوا ساعات يتناقشون، لكن ونظراً لأنّه ليس لديهم إلا القليل جدّاً من الأسلحة، ولأن الخطّة راحت تذوب من كلّ الجهات، فقد قرّروا أن يؤجلوها ويقضوا تلك الليلة هناك برفاقية سعيدة، ليتفرقوا في اليوم التالي. لم يخطر ببالهم أنّه وُشِيَ بهم. وفي الرابعة فجراً هبط عليهم تسعون فارساً وأربعون من المشاة، من قوّات الحكومة في مناورة سريعة ومتقنة، فلم يتمكّن المحاصَرون من الدفاع عن أنفسهم واستسلموا مقتنعين بأنّهم في منجى، لأنّهم لم يرتكبوا أيّة جريمة بعد، غير جريمةِ أنّهم اجتمعوا دون إذن. لكن العقيد المسؤول عن الفصيل، فقد صوابه وأعماه الغضبُ في المناوشة، فجرَّ أوّلَ أسيرٍ وقع أمامه وجعلهم يمزّقونه بالرصاص والحراب، ثمّ اختار ثمانيةً آخرين ورماهم بالرصاص من ظهورهم، وهكذا استمرّ الضرب بالعصي والقتل إلى أن بلغ مع إشراق النهار عدد من مُزّقت أجسادُهم ستة عشر رجلاً. فتح العقيد أقبية نبيذ الإقطاعية وسلّم بعدها نساءَ الفلاحين إلى رجالِ القوّات الثملة الذين زادتهم

حصانتهم تجرُّؤاً. أشعلوا البيت وعذّبوا المدير بوحشية بلغت حدّ أنّهم رموه بالرصاص وهو جالس. خلال ذلك كانت الأوامر تذهب وتجيء من سانتياغو، لكنّ الانتظار لم يهدّئ حماس الجنود، بل زادَ العنفَ حرارةً. في اليوم التالي، وبعد ساعاتٍ جهنّمية كثيرة، وصلت التعليمات مكتوبةً بيد وخطّ الجنرال: «يُعدم الجميعُ فوراً». وهكذا فعلوا. بعدها حملوا الجثث في خمس عربات ليرموها في حفرة جماعية، لكنّ الصخب بلغ حدّاً جعلهم يسلّمونها أخيراً لأُسرِهِم.

عند الغروب أحضروا جثّةَ ابن عمّي، الذي طالبت به جدّتي، مستفيدة من موقعها الاجتماعي وتأثيراتها؛ جاء ملفوفاً ببطانيةٍ ملطخة بالدم؛ وأدخلوه بحذر إلى غرفة كي يُسَوّوا من وضعه قليلاً قبل أن تراه أمّه وأخواته. وبينما كنتُ أتجسّسُ من فوقِ الدرج رأيتُ فارساً بسترة سوداء قصيرة وحقيبة يُغلق على نفسه مع الجثّة، بينما الخادمات يعلّقن بأن الأمر يتعلّق بمعلّم تحنيط، قادر على إزالة آثار الرصاص بالماكياجِ والحشوِ وإبرة الملاحف. حوّل فريدريك وليامز وجدّتي القاعةَ الذهبية إلى مصلّى مضاء بالشموع على روح الميت وأقاما مذبحاً مرتجَلاً وشموعاً صفراء على شمعدانات عالية. حين بدأت تصلُ في الفجر العربات المحمّلة بالأقرباء والأصدقاء، كان البيت ممتلئاً بالأزهار، وابن عمّي نظيفاً، حسنَ الهندام دون أثر للتعذيب، يرقد في تابوت من خشب المغتة المبرشمة بمسامير الفضّة. كانت النساء يجلسن بثياب الحداد الصارمة في صفّ مزدوجٍ من الكراسي، يبكين ويُصلّين، والرجال في القاعة الذهبية يُخطّطون للانتقام، والخادمات يقدمن الشطائرَ لهم كما لو أنّنا في رحلة ريفية، بينما كنّا نحن الأطفال، المرتدين الأسود أيضاً، نلعب لعبة التراشق بالرصاص، تخنقنا ضحكاتنا. سهر الناس على جثمان ابن عمّي وثلاثة من رفاقه، كلٌّ في في بيته، بينما نواقيس الكنائس تُقرع، دون توقّف، حزناً على الفتية المقتولين. لم تجرؤ السلطات على التدخّل. ورغم الرقابة الصارمة لم يبقَ أحدٌ في البلد لم يعلم بما حدث، فقد طار الخبر مثل البارود، وهزّ الرعبُ أنصارَ الحكومة والثوريين على حدٍّ سواء. لم يشأ الرئيس أن يسمع التفاصيل،

ورفض تحمّل أيّة مسؤولية، تماماً كما فعل تجاه الأعمال المخزية التي ارتكبها العسكر الآخرين وغودوي الرهيب.

ـ لقد قتلوهم بدم بارد، بحنق، مثل البهائم. لا يمكن توقّع شيءٍ آخر، فنحن بلد دموي ـ أبدت نيبيا، وهي أكثر حنقاً منها حزناً، وراحت تشرح أنّنا مررنا بخمس حروب خلال ما مضى من القرن، وأننا نحن التشيليين، نبدو وديعين ومشهورين بالجبن، حتى أنّنا نتكلّم بالتصغير (من فُضَيْلِك، أعطني كُوَيسَ ميي) لكن ما إن تُتاح لنا الفرصة الأولى حتى نتحوّل إلى أكلةِ لحوم بشر. كان علينا أن نعلم من أين ننحدر، كي نفهم عرقنا الوحشيّ، كما قالت، فقد كان أسلافنا من أكثر المحتلين الإسبان حِنكةً وقسوةً، والوحيدين الذي تجرّؤوا على الوصول إلى تشيلي سيراً على الأقدام، وقد احمرّت أسلحتهم من حرارة شمس الصحراء، متغلّبين على أسوأ عوائق الطبيعة. واختلطوا بالأروكانيين، الشجعان مثلهم، الشعب الوحيد في القارّة الذي لم يخضع للعبودية قط. كان الهنود يأكلون أسراهم وكان رؤساؤهم ، *التوكي*، يستخدمون الأقنعةَ الاحتفالية المصنوعة من جلود قامعيهم المجفّفة ، مفضّلين جلود أولئك الذين لهم شوارب ولحى، لأنّهم كانوا مُرْداً، منتقمين بذلك من البيض، الذين كانوا يحرقونهم بدورهم أحياء، ويُجلسونهم على الخوازيق، ويقطعون أذرعهم ويسملون عيونهم. «كفى!، أمنعك أن تقولي مثل هذه الفظاعات أمام حفيدتي» قاطعتها جدّتي.

كانت مجزرة الشبان المتآمرين المُفجِّرَ لمعارك الحرب الأهلية الأخيرة. فقد أنزل الثوّار في الأيام التالية جيشاً من تسعة آلاف رجل تُسانِدُهم المدفعيةُ البحريةُ، وتقدَّموا باتجاه ميناء بالبارايسو بكلّ سرعة وبفوضى ظاهرية مثل قبيلة من قبائل الهون، ولكن كان هناك خطّة واضحة جدّاً في تلك الفوضى، لأنّهم سحقوا أعداءهم خلال ساعات قليلة. احتياطي الحكومة فقد ثلاثة من كلّ عشرة رجالٍ، واحتلّ الجيش الثوريُّ بالبارايسو، وسارعوا من هناك ليتقدّموا باتجاه سانتياغو، وليسيطروا على بقيّة البلاد. في هذه الأثناء كان

الرئيسُ يُديرُ المعركةَ بالبرق والهاتف من مكتبه، لكنّ التقارير التي وصلته كانت زائفةً، وأوامره تضيع في شَواشِ الموجاتِ الإذاعية، لأنَّ غالبية عمال الهاتف كانوا ينتمون إلى الفريق الثوري. سمع الرئيسُ خبر الهزيمةِ ساعةَ العشاء. فأنهى عشاءه متجهِّماً، ثمّ أمر أسرته أن تلجأ إلى المفوَّضية الأمريكية، تناول شاله ومعطفه وقبعته، وذهب مشياً على الأقدام مع صديق له إلى المفوضية الأرجنتينية التي كانت على بعد مجموعة أبنيةٍ قليلة عن القصر الرئاسي. هناك كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ المعارضين لحكومته معزولاً، وأوشكا أن يتصادفا في الباب، أحدهما يدخل مهزوماً وآخر يخرج منتصراً. فقد تحوّل المُلاحِق إلى مُلاحَق.

سار الثوريون نحو العاصمة وسط هتافات السكّان الذين كانوا يهتفون قبل أشهر لقوّات الحكومة، وخلال ساعات قليلة انصبّ سكّان سانتياغو في الشوارع بأشرطة حمراء مربوطة إلى أذرعهم، الغالبية للاحتفال والأقلية للاختباء خوفاً من الأسوأ عند العسكر والدهماء المصابة بالعجرفة. وجّهت السلطات الجديدة نداء للتعاون مع النظام والسلام، وفسّرته الدهماء على طريقتها. شُكّلت عصابات على رأس كلّ منها زعيم، جابت المدينة ومعها لائحة بالبيوت التي يجب نهبها، محدّدة على الخريطة مع العنوان الدقيق. وقالوا بعد ذلك إنَّ اللوائح قد وضَعَتها سيّداتُ المجتمع الراقي بخبث وروح انتقامية. هذا ممكن، لكنّني أعلم أن باولينا دِل بالْيِه ونيبيا لم تكونا قادرتين على مثل هذه الخسّة، على الرغم من كراهيتهما للحكومة المسقَطَة؛ بل على العكس، فقد خبّأتا في البيتِ أسرتين ملاحقتين ريثما يهدأ الغضبُ الشعبيُّ ويعود الهدوءُ المُمِلُّ للمرحلة السابقة على الثورة، الذي اشتقنا إليه جميعاً. كان نهب سانتياغو عملاً منهجيّاً، بل وظريفاً، حين يُنظَرُ إليه عن بُعد، طبعاً. فأمام «اللجنة» وهي التسمية الملطفة للعصابات، كان يمضي الزعيمُ يقرع ناقوسَهُ ويُعطي تعليماته: «هنا تستطيعون أن تسرقوا، لكن لا تكسروا شيئاً يا أولاد»، «هنا تخبّئون لي الوثائق بعدها تحرقون البيت»، «هنا تستطيعون أن تحملوا معكم ما تشاءون وتكسّروا كلَّ شيء فقط».

وكانت «اللجنة» تنفّذ التعليمات باحترام، وإذا ما كان أصحابُ البيتِ حاضرين فإنَّهم يُحيّونهم باحترام تامّ ، ثمّ يشرعون بالنهب بلهو ومرح، مثل صبية في عيد. يفتحون المكاتب، وينهبون الأوراق والوثائق الخاصّة التي يُسلّمونها للزعيم، بعدها يُحطّمون الأثاث بالفؤوس، ويحملون ما يحلو لهم، ثم يرشون الجدران بالبارافين ويُضرِمون النار فيها. وكان الرئيس المخلوع بالماثِدا يسمع من غرفته التي يشغلها في المفوّضية الأرجنتينية قصفَ الفوضى في الشوارع، ثمّ وبعد أن حرَّر وصيّته السياسية، وخوفاً من أن تدفع أسرتُه ثمنَ الكراهية، أطلقَ على نفسه رصاصة في صدغه. الخادمة التي حملت إليه العشاء كانت آخر من رآه على قيد الحياة؛ وفي الثامنة صباحاً وجدوه في سريره مرتدياً لباسه بشكل تام، ورأسه على الوسادة الملطخة بالدم. لقد حوّلته تلك الطلقة على الفور إلى شهيدٍ، وسينتقل في السنوات القادمة ليصبح رمز الحريّة والديمقراطية، يحظى باحترام أكثر أعدائها ضراوة. فتشيلي، كما قالت لي جدّتي، بلد سيِّئ الذاكرة. وخلال الأشهر القليلة التي دامتها الثورة مات تشيليون أكثر مما مات منهم في سنوات حرب الباسيفيك الأربع.

ظهرَ سِبِرو دِل بالْيِه، وسط تلك الفوضى في البيت، ملتحياً، موحِلاً، يبحثُ عن زوجته التي لم يرها منذ شهر كانون الثاني. وقد أخذته دهشة كبيرة حين وجدها ومعها ابنين جديدين، لأنّها نسيت في صخب الثورة أن تقول له حين ذهب إنّها حامل. بدأ التوأمان ينتفخان، وأحرزا خلال أسبوعين مظهراً إنسانيّاً إلى هذا الحدّ أو ذاك، فما عادا دُوَيْبتين مجعّدتين وأزرقين كما كانا حين وُلِدا. قفزت نيبيا إلى رقبة زوجها، وعند ذلك رأيتُ لأوّل مرّة في حياتي قبلةً طويلةً على الفم. جدّتي المرتبكة، أرادت أن تُلهيني ، لكنّها لم تنجح، فما زلت حتى الآن أذكر التأثير الرهيب الذي خلّفته فيّ. تلك القبلة حدّدت بدايةَ تحوّلِ المراهقةِ البركانيِّ. وخلال أشهر قليلة صرت غريبة، لا أستطيع أن أعرف الفتاةَ المنطويةَ التي صرتُ إليها، ورأيتُ نفسي سجينةً في جسد متمرّد له مطالبه، يكبر ويثبت، يُعاني

وينبض. بدوت وكأنني مجرّدَ امتدادٍ لبطني، ذلك الكهف الذي تخيّلته تجويفاً دامياً، تختمرُ فيه أمزجةٌ وتنمو نباتاتٌ غريبة ورهيبة. لم أستطِع أن أنسى مشهد نيبيا وهي تلِدُ مقرفصةً على ضوء الشموع، ومشهد بطنها الهائل المتوّج بسرّته الناتئة، وذراعيها الرقيقتين المتشبّثتين بالحبلين المتدليين من السقف. صرت أبكي فجأة دون سبب ظاهر، أو أعاني من ارتعاشاتِ غضبٍ جامحة، أو أستيقظ في الفجر منهكةً غير قادرة على النهوض. عادت أحلام الأطفال ذوي البيجامات السوداء بكثافة وتكرار أكبر؛ كما كنتُ أحلم برجلٍ ناعم تفوح منه رائحةُ بحرٍ يلفُّني بذراعيه، وأستيقظ متشبثة بالوسادةً راغبةً بقنوط أن يُقبّلَني أحدٌ كما قبّلَ سِبرو دِل بالْيِه زوجتَهُ؛ كنت أطير من الحرارة الخارجية وأتجمّد برداً في داخلي. ما عدت أنعم بالسلام للقراءة أو الدراسة، فأركض في الحديقة، أدور مثل ممسوسة، كي أكبح الرغبة بالعواء، وأدخل بملابسي في البركة، وأدوس أزهار النيلوفر وأُخيف الأسماكَ الحمراء، التي هي فخر جدّتي. وسرعان ما اكتشفت أكثر النقاط حساسية في جسدي، وصرت أُداعِبُ نفسي خِلْسَةً، دون أن أدري لماذا هذا الذي يجب أن يكون خطيئة يهدّئني. إنّني أُجَنُّ، مثل الكثير من الفتيات اللواتي ينتهين ليصبن بالهستيريا، خلَصْتُ مرعوبة، لكنّني لم أجرؤ على التحدث بذلك مع جدّتي. باولينا دِل بالْيِه كانت تتحوّل أيضاً، فبينما جسدي يزدهر كان جسدُها يجفّ مخنوقاً بأمراض غامضة لا تتحدّث بها مع أحد، ولا حتى مع الطبيب، مخلصة إلى نظريتها، التي تقول إنّه يكفيها أن تسير بشكل مستقيم وألا تحدث جلبة العجوز كي تُحافظ على نفسها عند حافّة الشيخوخة. كانت البدانة تُثقِل عليها، وعندها في ساقيها دوالٍ، وعظامُها تؤلمها، وينقصها الهواء، وتتبوّل تنقيطاً، وهي أشياء تكهّنتُ بها من علامات صغيرة، وأبقت عليها في سرّية صارمة. الآنسة ماتيلدِ بينِدا كانت ستساعدني كثيراً في هذه المرحلة الانتقالية من المراهقة، لكنّها اختفت كلّياً من حياتي، مطرودةً من جدّتي. وغادرت نيبيا أيضاً مع زوجِها

وأولادها ومربياتها، مرتاحة وسعيدة، كما وصلت، مخلِّفة فراغاً هائلاً في البيت. فبغيابها مع أولادها فاضت غرف، ونقص الضجيج، وتحوّل بيتُ جدّتي إلى ضريح.

احتفلت سانتياغو بسقوط الحكومة بإسهالٍ متواصل من العروض والحفلات والرقصات والولائم؛ ولم تتخلّف جدّتي عن الركب، وعادت وفتحت البيت وحاولت أن تُجدّد حياتها الاجتماعية ومسامراتها الثقافية، لكن الجوّ كان خانقاً، ولم يتمكّن شهر أيلول بربيعه الزاهي أن يبدّله. فآلاف القتلى، والخيانات وأعمال النهب أثقلت على روح المنتصرين والمهزومين على حدٍّ سواء. لقد كنّا نشعر بالعار: فالحربُ الأهلية كانت حفلة مجون دامية.

كانت تلك مرحلة غريبة في حياتي، فقد تبدل جسدي، وتمدّدت روحي، وبدأتُ أتساءل بجدّية من أنا ومن أين أتيتُ. المفجّر كان وصول ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث، أبي، رغمّ أنّني لم أكن أعرفُ ذلك بعد. استقبلته على أنه *العم* ماتيّاس، الذي عرفته قبل سنواتٍ في أوروبا. وقد بدا لي آنذاك هشّاً، لكن حين رأيته من جديد لم أعرفه، فهو لا يكاد يكون أكثر من طائر مصاب بسوء التغذية في كرسّي مُقعد. جاءت به امرأة ناضجة جميلة، ثرية، حليبية البشرة، ترتدي بدلة بسيطة من البوبلين، خردليّة اللون، وشالاً حائل اللون على كتفيها، وأبرز ملمح فيها شعرها الجموح المجعَّد، الأشعث والرمادي المجموع في النقرة بشريطة رقيقة. كانت تبدو مثل ملكة اسكندنافية قديمة في المنفى، ولا يُكلّف تصوّرها على مقدِّمة سفينة فايكنغ تُبحر بين الطبول، أيَّ عناء.

تلقّت باولينا دِل بالْيِه برقيةً تُعلن أنّ ابنها الأكبر سوف ينزل في بالبارايسو، وبدأت على الفور بالعمل للذهاب إلى الميناء معي ومع العم فريدريك وبقيّة الموكب المعتاد. انطلقنا لاستقباله في عربة قطار خاصّة وضعها مدير السكك الحديدية الإنكليزي تحت تصرّفنا. كانت منجّدة بالخشب المصقول، وموشاة بالبرونز ومقاعد المخمل

الأحمر الداكن، ويقوم عليها مستخدمان مرتديان لباساً رسمياً راحا يرعياننا كما لو أنّنا من أصحاب العظمة. نزلنا في فندق أمام البحر وانتظرنا السفينة التي كان يجب أن تصل في اليوم التالي. ذهبنا إلى الرصيف في غاية الأناقة كما لو أنّنا ذاهبون إلى عرس؛ وأستطيع أن أؤكّد ذلك بكلّ ثقة، لأنّني أملكُ صورةً التُقطت لنا في الساحة قبل أن ترسو السفينة بقليل. باولينا دِل بالْيِه ترتدي الحريرَ الخالِص مع كثير من الكشاكش، والثنيات وأطواقِ اللؤلؤ، وتعتمر قبّعةً هائلة عريضة الحواف متوّجة بكميّة من الريش تسقط فوق الجبين مثل شلال، وتحمل شمسية مفتوحة لحمايتها من الضوء. زوجها، فريدريك وليامز، يرتدي بدلة سوداء، وقبّعة عالية ويحملُ عكّازاً؛ أما أنا فكلّي بياض مع شريطة حريرية بيضاء على رأسي وكأنني ربطة علبة هدية عيد ميلاد. مدّوا معبر السفينة ودعانا القبطان بنفسه للصعود إلى السفينة، وأحاطنا باحتفالية كبيرة حتى وصلنا إلى غرفة دون ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث.

آخر ما كانت تنتظره جدّتي هو أن تلتقي بُغتةً بِأماندا لويل. كادت المفاجأةُ أن تقتلها من الانزعاج؛ فوجود منافستها القديمة أدهشها أكثر من منظر ابنها المحزن بكثير. طبعاً لم أكن أملك في تلك المرحلة معلوماتٍ كافية كي أفسِّر ردّة فعل جدّتي، وظننت أنّها أصيبت بنوبة إغماء من الحرّ. بالمقابل لم تُحرِّك رؤية لويل شعرةً واحدة عند فريدريك وليامز البارد، بل حيّاها بإيماءة قصيرة، لكنّها لطيفة، ثم ركّز على تسوية وضع جدّتي في كرسيّ وإعطائها ماء، بينما ماتيّاس يُراقِب المشهد وهو أقرب إلى المرح.

- ماذا تفعل هذه المرأةُ هنا! - تمتمت جدّتي حين تمكّنت من التنفّس.

- أفترض أنّكم ترغبون أن تتحدّثوا في جوّ عائلي، سوف أذهب لأستنشق الهواء - قالت ملكة الفايكنغ، وخرجت بكبرياء لم يُمَس.

- الآنسة لويل صديقتي، لنقل إنّها صديقتي الوحيدة يا أمي. وقد رافقتني حتى هنا، ومن دونها ما كنتُ لأستطيع السفر. هي التي

أصرّت على عودتي إلى تشيلي، معتبرة أنّ من الأفضل لي أن أموتَ بين أهلي من أن أموت مرمياً في مستشفى في باريس ـ قال ماتيّاس بإسبانيّة مقلوبة وبنبرة فرانكوسكسونية غريبة.

عندئذ نظرت إليه باولينا دِل بالْيه لأوّل مرّة وانتبهت، إلى أنّه لم يبق منه غير هيكلٍ عظمي مغطّى بجلد أفعى، كانت عيناه بلوريتين غائرتين في محجريهما، وخداه رقيقين بحيث يُخمّن مكان الأضراس تحت الجلد. كان مستلقياً في كرسيّ تسنده وسائد ويغطّي رجليه شال. وبدا عجوزاً حائراً وحزيناً رغم أنّه لم يكد يبلغ الأربعين من عمره.

ـ يا إلهي، يا ماتيّاس، ماذا بك؟ ـ سألت جدّتي مذعورة.

ـ لا شيء يمكن شفاؤه يا أماه. ستُدركين أن عندي أسبابي القاهرة جدّاً كي أعود إلى هنا.

ـ هذه المرأة...

ـ أعرف قصّة أماندا لويل وعلاقتها كاملة مع أبي، لقد حدث ذلك منذ ثلاثين عاماً على الطرف الآخر من العالم. ألا يمكنك نسيان غيظك. نحن جميعاً الآن في عمر يسمح لنا بأن نلقي بعواطفنا التي لاتفيد في شيء، ونبقي فقط على ما يساعدنا على العيش. والتسامح واحد منها يا أمّي. أنا مدين بالكثير للآنسة لويل، إنّها رفيقتي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً...

ـ رفيقتك؟ ماذا يعني هذا؟

ـ ما تسمعينه: رفيقتي. فهي ليست ممرِّضتي، ولا زوجتي، كما أنها لم تعد عشيقتي. إنها تُرافِقني في أسفاري، في حياتي، والآن، كما ترين، ترافقني في موتي.

ـ لا تتكلّم بهذه الطريقة! لن تموت يا بُني، هنا سنعتني جميعاً بك كما يجب؛ وسرعان ما ستتحسن وتصحّ... ـ أكّدت باولينا دِل بالْيه، لكنّ صوتها تكسّر ولم تستطع الاستمرار.

كانت قد مضت ثلاثة عقود منذ أن أقام جدّي فِليثيانو رودريغِث

دِ سانتا كروث علاقة غرامية مع أماندا لويل، وجدّتي لم ترها إلا مرّتين، ومن بعيد، لكنّها عرفتها على الفور. ولم يكن عبثاً أنّها نامت في كلّ ليلة على السرير المسرحي الذي أوصت عليه إلى فلورنسا كي تتحدّاها، ولا بدّ أنّ هذا ذكّرها في كلّ لحظة بالحنق الذي شعرت به من عشيقة زوجها الفضائحية. وحين انبثقت تلك المرأة أمام عينيها وقد شاخت وأصبحت بلا عجرفة، ولا تشبه أبداً المهرة الرائعة التي كانت تتمكّن من إيقاف المرور في سان فرانسيسكو حين كانت تمرّ في الشارع محرِّكة مؤخّرتها، لم ترها باولينا كما كانت في الواقع، بل كمنافستها الخطيرة التي كانت في السابق. حنقها من أماندا لويل بقي غافياً بانتظار ساعة إزهاره، لكنّها أمام كلمات ابنها بحثت عنه في زوايا روحها ولم تستطع العثور عليه. لكنها بالمقابل عثرت على غريزة الأمومة، التي لم تُشكّل عندها قط ملمحاً مهمّاً، وهي تغزوها الآن بعاطفة مطلقة لا تحتمل. العاطفة لم تدرك الابن المحتَضَر وحسب، بل ومعه المرأة التي رافقته خلال سنوات، وأحبّته بإخلاص، ورعته في مأساة المرض، والآن تعبر العالم لتأتيها به في ساعة موته. بقيت باولينا دِل بالْيِه في كرسيّها ونظرها ثابت على ابنها المسكين، بينما الدموع تتدحرج خرساء على خدّيها، فجأة راحت تصغر، وتشيخ، تصبح هشّة، بينما أنا أربت على ظهرها مواسيةً دون أن أفهم جيّداً ما كان يحدث. لا بدّ أن فريدريك وليامز عرف جدّتي جيّداً، لأنّه خرج دون ضجّة، ومضى يبحث عن أماندا لويل، وقادها عائداً بها إلى الغرفة.

- اعذريني يا سيّدة لويل - تمتمت جدّتي من كرسيّها.

- اعذريني أنتِ يا سيّدتي - ردّت الأخرى وهي تقترب بخجل إلى أن أصبحت أمام باولينا دِل بالْيِه.

أخذت الواحدة بيدي الأخرى، أحدهما واقفة والأخرى جالسة، وكلاهما مخضل العينين من الدموع لبرهة بدت لي أبديّة، إلى أن لاحظتُ فجأة أنّ كتفي جدّتي يهتزان، وانتبهت إلى أنّها كانت تضحك بصوت خافت. وكانت الأخرى تبتسم أيضاً، مغطية فمها أولاً، مرتبكةً، ثم وحين رأت منافستها تضحك أطلقت قهقهة اختلطت

بضحكة جدَّتي، وهكذا كانت الاثنتان تتلويان من الضحك، تصيب الواحدة منهما الأخرى بعدوى فرحتها الجامحة والهستيرية، ماحية بالضحك الخالص سنوات الغيرة غير المجدية، والحقد الذي صار نتفاً، وخيانة الزوج وذكريات بغيضة أخرى.

لقد آوى بيت شارع إخِرْثيتو ليبرتادور أناساً كثيرين في سنوات الثورة المضطربة، لكن ما من شيء كان معقَّداً ومثيراً بالنسبة إليّ مثل مجيء أبي لانتظار الموت. كان الوضع السياسيّ قد هدأ بعد الحرب الأهلية التي انتهت بسنوات كثيرة من تداول الحكومات الليبرالية للسلطة. وقد حقّق الثوريون التغييرات التي جرى من أجلها دمٌ كثير: فقد كانت الحكومة قبل ذلك تفرض مرشّحها عبر الرشوة والتخويف، وبدعم من السلطات المدنية والعسكرية، أمّا الآن فقد صار أربابُ العمل، ورجال الدين والأحزاب؛ هم الذين يقومون بالرشوة على حدٍّ سواء، كان النظام أكثر عدالة، لأنّ ما يدفعه رئيس هذا الجانب يُعدله ما يدفعه رئيس الجانب الآخر، دون أن يُدفَع الفسادُ من الأموال العامّة. وقد سمّي هذا بـ *حرّية الانتخابات*. فرض الثوريون أيضاً نظاماً برلمانيّاً، مثل نظام بريطانيا العظمى، الذي لم يكن ليدوم كثيراً. «نحن إنكليز أمريكا»، قالت جدّتي ذات مرَّة، فردّت عليها نيبيا على الفور إنّ الإنكليز هم تشيليّو أوروبا. في جميع الأحوال لم تكن التجربة البرلمانية لتدوم في أرض الزعماء؛ فالوزراء راحوا يتبدّلون بسرعة أصبح من المحال معها متابعة المتغيّرات؛ في النهاية فقدت حفلة رقص سان فيتو السياسية الاهتمام عند جميع أفراد الأسرة، باستثناء نيبيا، التي كانت تقيّد نفسها على سور مجلس الشيوخ مع سيّدتين أو ثلاث كي تلفت الانتباه إلى حق المرأة بالتصويت، أمام سخرية المارّة، وحنق الشرطة وتذمّر الأزواج.

ـ حين تتمكّن النساء من التصويت، سيفعلن ذلك بصوت واحد. وسيكون لدينا حينذاك من القوّة بحيث نستطيع أن نقلب ميزان القوى ونغيّر البلد ـ كانت تقول.

ـ تُخطئين يا نيبيا، سيُصوّتن لمن يأمرهنّ به الزوج أو القسّ، النساء أغبى مما تتصوَّرين. ومن جهة أخرى، يوجد منا مَن يحكمن من خلف العرش، وقد رأيتِ كيف أسقطنا الحكومة السابقة. أنا لستُ بحاجة لحق التصويت كي أقوم بما يحلو لي ـ دحضتها جدّتي.

ـ لأنّك تملكين ثروة وتربية يا عمّتي. كم يوجد من أمثالك؟ علينا أن نناضِل من أجل التصويت، هذا هو أوّل شيء.

ـ لقد أضعتِ عقلك يا نيبيا.

ـ ليس بعد يا عمّي، ليس بعد...

وضعوا أبي في الطابق الأوّل، في واحدة من القاعات التي تحوّلت إلى غرفة نوم، لأنّه لم يكن باستطاعته صعود الدرج، وعيّنوا له مستخدمةً دائمةً، ترافقه مثل ظلّه، كي تعتني به ليلاً ونهاراً. وقدّم طبيب الأسرة تشخيصاً شاعريّاً، «اضطراب دموي مزمن»، هذا ما قاله لجدّتي لأنّه فضّل ألاّ يواجهها بالحقيقة، ولكنني أظنُّ أنّه كان واضحاً للبقيّة أن ما يُعاني منه والدي كان مرضاً تناسليّاً: لقد كان في مرحلته الأخيرة، حين لم يعد هناك كمّاداتٌ ولا مراهمٌ ولا علاجٌ سُليماني قادر على مساعدته، وهي المرحلة التي قرّر أن يتجنّبها بأيّ ثمن؛ لكنّه اضطرّ لتحمّلها لأنّ شجاعته لم تكفِهِ كي ينتحر قبل ذلك، كما خطّطَ قبل سنوات. لم يكن يستطيع الحركة من ألم العظام تقريباً، وغير قادر على المشي وأوهن تفكيره؛ ويقضي الأيّام أحياناً متورّطاً في كوابيس دون أن يستيقظ كلّياً، يتمتم قصصاً غير مفهومة، وأحياناً يمرّ بلحظاتُ صفاء ذهنيّ عظيم؛ وعندما كان المورفين يُخفّف من كربه يستطيع أن يضحك ويتذكّر؛ فيُناديني كي أجلس بجانبه. لقد كان يقضي النهار جالساً على أريكة أمام النافذة ينظر إلى الحديقة، تسنده الوسائد وتحيط به الكتب والصحف وصواني الأدوية. وكانت المستخدمة تجلس لتحيك على مسافة قصيرة منه، يقظة تماماً لحاجاته، صامتة ومتجهّمة مثل عدوّ، وهي الوحيدة التي كان يتحمّلها بجانبه لأنّها لم تكن تعامله بإشفاق. وقد حاولت جدّتي أن تحيط ابنها بجوّ من الفرح، فوضعت ستائر من التشينتز وورق جدران بمسحة صفراء، وحافظت على وجود باقات

من الزهر المقطوف للتو من الحديقة على الطاولات، وتعاقدت مع فرقة رباعية وترية كانت تأتي عدّة مرات في الأسبوع لتعزف ألحانها الكلاسيكية المفضّلة، ولكن ما من شيء استطاع أن يُخفي رائحةَ الدواء ويقينَ أنّ في تلك الغرفة أحد يتعفّن. في البداية كانت تلك الجثّةُ الحيّةُ تُثير قرفي، لكنّني حين استطعت أن أهزم الخوفَ وبدأت أزوره، تُجبرني على ذلك جدّتي، تبدّلت حياتي. فقد وصل ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث إلى البيت تماماً حين تفتحت مراهقتي، ومنحني ما أحتاج إليه: الذاكرة. ففي واحدة من تجلياته الذكية، حين كان ينعم بعزاء المخدّرات، أعلن أنّه أبي، وكان الكشف عرضياً بحيث إنّه لم يستطع أن يُفاجئني.

ـ أمّك لين سومِّرز، كانت أجمل امرأة رأيتُها. ويُسعِدني أنّك لم ترثي جمالها ـ قال.

ـ ولماذا يا عمّي؟

ـ لا تقولي لي عمي يا أورورا. أنا أبوك. عادة ما يكون الجمالُ لعنةً لأنّه يوقظ أسوأ الغرائز عند الإنسان. إنّ امرأةً باهرة الجمال لا يمكنها أن تهرب من الرغبة التي تُثيرها.

ـ هل صحيح أنك أبي؟

ـ صحيح.

ـ غريب! كنت أعتقد أنّ أبي هو العم سِبِرو.

ـ كان يجب أن يكون سِبِرو والدك، إنّه كرجلٍ أفضل منّي. وأمّك كانت تستحقّ زوجاً مثله. لقد كنت طائشاً دائماً، لذلك ترينني فيما أنا فيه، وقد تحوّلت إلى فزّاعة. في جميع الأحوال، هو يستطيع أن يحكي لك عنها أكثر منّي بكثير ـ وضّح لي.

ـ هل كانت أمّي تُحبك؟

ـ نعم، لكنّني لم أعرف ماذا أفعل بذلك الحبّ فولّيت الأدبار. أنت صغيرة جدّاً كي تعرفي هذه الأشياء يا بُنيّتي. يكفي أن تعرفي أنّ أمّك كانت رائعة، ومن المؤسف أنّها ماتت في عزّ صباها.

كنت من هذا الرأي، وتمنّيت لو أنّني عرفت أمّي، لكنّ فضولي شغلني بأشخاص آخرين من طفولتي الأولى، يظهرون في أحلامي أو في ذكريات من المحال تحديدها بدقة. في أحاديثي مع أبي راح طيفُ جدّي تاو شيين، الذي لم يره ماتيّاس إلا مرّة واحدةً يظهرُ. كفاني أنّه ذكر اسمه كاملاً وقال لي إنّه كان صينيّاً وطويلاً وجميلاً حتى تتسلسل ذكرياتي قطرة فقطرة، مثل المطر. حين أعطى اسماً لذلك الحضور الخفيّ الذي كان يُرافِقُني دائماً، ما عاد جدّي بدعة من خيالي وصار خيالاً واقعياً كأنه شخص من لحم ودم. شعرت براحةٍ هائلة حين تأكّدت أنّ ذلك الرجل الناعم الذي كانت تفوح منه رائحة البحر وأتخيّله، لم يكن موجوداً وحسب، بل وأحبَّني أيضاً، وإذا كان قد اختفى فجأةً فليس لأنّه كان يرغب بهجراني.

ـ أعرف أفهم أنّ تاو شيين قد مات ـ وضّح لي أبي.

ـ كيف مات؟

ـ يبدو لي في حادث، ولكنّني لست متأكّداً.

ـ وماذا جرى لجدّتي إليثا سومّرز؟

ـ ذهبت إلى الصين. اعتقدت أنّك ستكونين في حالٍ أفضل مع أسرتي ولم تُخطِئ في ذلك. فأمّي أرادت دائماً أن تملك ابنةً، وقد ربّتك بحنان أكبر بكثير من الذي منحته لنا أنا وأخوتي ـ أكّدَ.

ـ ماذا يعني *لاي ـ مينغ*؟

ـ ليس عندي فكرة، لماذا؟

ـ لأنّه يبدو لي أحياناً أنّني أسمع هذه الكلمة...

كان المرضُ قد خرّب عظام ماتيّاس الذي كان يتعب على الفور، وليس من السهل استخلاص المعلومات منه؛ وعادة ما يضيع في شرودٍ أبديّ لا علاقة له بما كان يهمّني، لكنّني شيئاً فشيئاً رحت أجمع أجزاء الماضي، نقطة بنقطة، ودائماً من وراء ظهر جدّتي التي كانت تشكر لي زيارتي للمريض، لأنّه لم يكن عندها من الجرأة ما يكفي كي تقوم بذلك؛ كانت تدخل إلى غرفة ولدها مرّتين في اليوم،

تُقبِّله قبلةً سريعة على جبينه وتخرج متعثّرةً والدموع تملأ عينيها. لم تسأل قط عمّا كنّا نتكلّم، طبعاً ولا أنا قلته لها. كما لم أجرؤ على ذكر الموضوع أمام سِبِرو ونيبيا دِل بالْيِه، فقد خفتُ أن يؤدّي أيّ تهوّر من قبلي إلى نهاية أحاديثي مع أبي. كنّا نعرفُ، أنا وهو، دون أن نتفق أنّ أحاديثنا يجب أن تبقى سرّية، وهذا ما وحّدنا في تواطؤٍ غريب. لا أستطيع القول إنّني صرتُ أحبُّ والدي، لأنّه لم يكن هناك وقت لذلك، لكنّه وضعَ، في الأشهر القليلة التي استطعنا أن نعيش فيها معاً، كنزاً بين يديّ، حين منحني تفاصيل قصّتي، وخاصّة قصّة أمي لين سومّرز. لقد ردّد عليّ مرّاتٍ كثيرةً أنني أحمل في عروقي دماً نقيّاً من آل دِل بالْيِه، ويبدو أنّ هذا كان مُهمّاً بالنسبة إليه. ثمّ عرفتُ أنّه، وباقتراح من فريدريك وليامز الذي كان له تأثير كبير على كلّ واحدٍ من أعضاء هذا البيت، أورثني في الحياة حصّته من الإرث العائلي، فضلاً عن عدد من الحسابات المصرفية وأسهم بورصة، أمام خيبة أمل الراهب الذي كان يزوره يوميّاً بأمل الحصول على شيء للكنيسة. وهو رجلٌ كثير الهمهمة وتفوح منه رائحة القداسة - لم يستحمّ أو يبدّل دثاره خلال سنوات - مشهور بعدم تسامحه الديني وبقدرته على تشمّم المحتَضَرين الأثرياء وإقناعهم بأن يُخصّصوا جزءاً من ثرواتهم إلى أعمال الخير والإحسان. وكانت الأسر الثرية عندما تراه يصل تُصاب بالذعر لأنّه يُبشّر بالموت، لكنّ أحداً ما كانَ ليجرؤ على صفق الباب بوجهه. حين علم والدي أنّه وصل إلى نهايته، استدعى سِبِرو دِل بالْيِه الذي لم يكن يتكلّم معه عمليّاً، كي يتفقا حول وضعي. أحضرا كاتباً بالعدل إلى البيت، ووقّع الاثنان سنداً يتنازل فيه سِبِرو عن أبوّته ويعترف فيه ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث بي كابنة له. وهكذا حماني من وَلَدَي باولينا الآخرين، أخويه الأصغرين اللذين استوليا عند موت جدّتي، بعد تسع سنواتٍ، على كلّ ما استطاعوا الحصول عليه.

تعلّقت جدّتي بأماندا لويل بعاطفة متطيرة، معتقدة أنّها ما دامت

قريبة من ماتيّاس، فسيبقى حيّاً. لم تكن باولينا تتوادَدُ مع أحد، إلا معي أحياناً، وكانت تعتبر أنّ غالبية الناس أفظاظ لا مناص من ذلك، وتقول ذلك لكلّ من أراد أن يسمعه، ولم تكن هذه هي أفضل طريقة لكسب الأصدقاء، لكنّ هذه البغيّ الاسكتلندية استطاعت أن تخترق الدرعَ الذي احتمت به جدّتي. لم يكن ممكناً تصوّر امرأتين أكثر اختلافاً، لويل التي لا تطمع في أي شيء، تعيش ليومها، نفورة، حرّةً، وبلا خوف، لا تخاف الفقرَ، أو الوحدةَ أو العجز، وتقبلُ كلَّ شيء بروحٍ طيّبة، والحياة بالنسبة إليها رحلة لطيفة تقود حتماً إلى الشيخوخةً والموت؛ وما من مُبرِّرٍ لتجميع الثروات، طالما أنّنا في جميع الأحوال سنذهب إلى القبر عراة، كانت تؤكّد. لقد تركت خلفها الشابة الساحرة التي زرعت الكثيرَ من الغرام في سان فرانسيسكو، خلفها أيضاً تركت تلك الجميلةَ التي احتلّت باريس؛ وهي الآن امرأة في الخمسين من عمرها، بلا أيّ غنجٍ أو ندم. لم تكن جدّتي تتعب من سماعها تحكي لها ماضيها، تتكلّم عن الناس المشهورين الذين عرفتهم وتتصفّح ألبومات قصاصاتِ الصحفِ والصورِ، التي تظهرُ في عددٍ منها شابّةً، مشعّةً، وأفعى بوا تلفّ جسدها. «المسكينة تُوفّيت دائخة في أحد أسفارها؛ فالأفاعي لا تتحمل السفر»، حكت لنا. ونظراً لثقافتها الكونية وجاذبيّتها ـ القادرة على أن تهزم دون قصدٍ منها نساءً أكثر شباباً وجمالاً ـ صارت روحَ مُسامَراتِ منتدى جدّتي، تُحييها بإسبانيّتها البائسة وفرنسيتها ذات اللكنة الاسكتلندية. ما من موضوع لا تستطيع أن تناقش فيه، أو كتاب لم تقرأه، أو مدينة هامّة في أوروبا لم تعرفها. وأبي الذي كان يُحبّها ويدين إليها بالكثير، كان يقول إنّها هاوية، تعرف قليلاً من كلّ شيء وكثيراً من لاشيء. لكنّ الخيالُ كان يفيض عنها فتعوض ما ينقصها من المعرفة أو التجربة. بالنسبة إلى أماندا لويل، لم يكن هناك مدينة أكثر أناقة من باريس ولا من مجتمع أكثر صلفاً من المجتمع الفرنسي، وهو الوحيد الذي لا تملكُ فيه الاشتراكية، بجلافَتِها المدمِّرَة، أيّ فرصة لتنتصر . وكانت باولينا دِل بالْيه تتفق معها تماماً في هذا. وقد اكتشفت المرأتان أنهما لا تضحكان من الحماقات ذاتها وحسب، بما فيها حماقة السرير الأسطوري، بل

تتفقان أيضاً في جميع المسائل الأساسية تقريباً. وذات يوم بينما كانتا تتناولان الشاي في رواق الحديد المطرّق والزجاج، أسفتا لأنّهما لم تتعارفا من قبل. فهما، بوجود وبعدم وجود فِليثيانو وماتيّاس، كانتا ستصبحان صديقتين جيّدتين، هكذا قرّرتا. وقد عملت باولينا المُمكن للإبقاء عليها في بيتها، فأثقلتها بالهدايا وقدّمتها إلى المجتمع كما لو أنّها إمبراطورة، لكنّ الأخرى كانت طائراً لا يستطيعُ العيش في الأسر. مكثت شهرين، لكنّها اعترفت أخيراً لجدّتي أنّها لا تملك قلباً لحضور تآكل ماتيّاس، ثمّ إنّ سانتياغو بدت لها، بكلٍّ صراحة، مدينةً ريفية، رغم أبّهة وتبجّح الطبقة العليا، التي يمكن مقارنتها بطبقة النبلاء الأوروبية. كانت تضجر، فمكانها باريس، حيث قضت أفضل أيّام حياتها. أرادت جدّتي أن تُودّعها بحفلة راقصة تصبح تاريخاً في سانتياغو، تحضرها صفوة المجتمع، لأنّه ما من أحد سيجرؤ على رفض دعوتها، على الرغم من الشائعات التي تدور حول الماضي المشوّش لضيفتها، لكنّ أماندا لويل أقنعتها بأنّ ماتيّاس مريض جدّاً، وإقامة حفل في مثل هذه الظروف سيكون أمراً سيّئاً جدّاً، ثمّ إنّها لا تملك ما ترتديه لمثل هذه المناسبة. فقدّمت إليها باولينا ملابسها بِنيّة حسنة، دون أن يخطر ببالها كم ستهين لويل بتلميحها إلى أن لهما القياس ذاته.

بعد ثلاثة أسابيع من رحيل أماندا لويل، أطلقت المستخدمة التي كانت تعتني بأبي صوت الإنذار. استدعوا الطبيبَ على الفور، وامتلأ البيت في الحال بالناس، اصطف أصدقاء جدّتي، وأناس من الحكومة، والأقرباء، وعدد لا يُحصى من الرهبان والراهبات، بمن فيهم الراهب رثّ الثياب صائد الثروات الذي يحوم الآن حول جدّتي بأمل أن يتمكن، بألم فقدان ابنها، أن يصرفها للحياة الأفضل. لكن باولينا التي لم تُفكّر بالتخلّي عن هذا العالم، أذعنت منذ زمنٍ طويل لمأساة ابنها الأكبر، وأعتقد أنّها نظرت إلى وصول النهاية بارتياح، فأن يكون المرء شاهداً على هذا العذاب البطيء هو أسوأ من أن يواريه التراب. لم يسمحوا لي برؤية أبي لأنّهم كانوا يظنّون أنّ

الاحتضارَ ليس مشهداً مناسباً للصغيرات، وأنا عانيت ما يكفي من الكرب على قتل ابن عمّي وأعمال عنف أخرى تالية، لكنّني تمكّنت من وداعه وداعاً قصيراً بفضل فريدريك وليامز، الذي فتح لي البابَ للحظة، حين لم يبقَ أحد حولنا. اقتادني من يدي إلى السرير الذي كان يرقد فيه ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث، الذي لم يبق منه شيء محسوس، غير حزمة من عظام رقيقة، مطمورة بين الوسائد والملاحف المطرَّزة. كان ما يزال يتنفّس، لكنّ روحه تسافر هائمة عبر أبعاد أخرى. «وداعاً يا بابا»، قلتُ له. كانت تلك المرّة الأولى التي أناديه فيها هكذا. بقي يُحتَضَر يومين آخرين، وعند فجر اليوم الثالث مات مثل صوص.

كنتُ في الثالثة عشرة من عمري حين أهداني سِبِرو دِل بالْيِه كاميرا تصوير حديثة، تستخدم الورقَ بدل الشرائح القديمة، وكانت لا شكّ واحدة من أوائل الكاميرات التي وصلت إلى تشيلي. كان أبي قد توفّي منذ مدّة قصيرة، والكوابيس تعذّبني إلى حد أنّني لم أكن أريد أن أنام، وأريد أن أتيه في الليالي مثل شبح سارحٍ في البيت، يتبعني عن قرب *كراميلو* المسكين، الذي كان دائماً كلباً غبيّاً وضعيفاً، حتى إنَّ جدّتي باولينا أشفقت علينا وقبلتنا في سريرها الذهبي الفسيح، الذي كانت تملأ نصفه بجسدها الضخم، الدافئ، والمعطّر، بينما أتقوقع في زاويةٍ أمامها، وأنا ارتعدُ خوفاً، و*كراميلو* عند قدميّ. «ماذا سأفعل بكما أنتما الاثنان؟»، كانت جدَّتي تتنهد نصفَ غافية. وكان سؤالاً بلاغيّاً لأنّه لا الكلبُ ولا أنا كان لنا مستقبل، وهناك إجماع عام في الأسرة بأنّ «نهايتي ستكون سيِّئة». كانت قد تخرّجت في تلك المرحلة أوّل أمرأة طبيبة في تشيلي، ودخلت أخريات إلى الجامعة. وهذا ما أوحى لِنيبيا بفكرة أنّني أستطيع أن أعمل شيئاً مماثلاً، حتى ولو من أجل تحدّي الأسرة والمجتمع، لكن كان واضحاً أنّني لا أملك أدنى قابلية للدراسة. عندئذٍ ظهر سِبِرو دِل بالْيه ومعه الكاميرا ووضعها في حضني. كانت كاميرا كوداك جميلة، دقيقة في تفاصيل كلّ برغي، أنيقة، ناعمة، تامّة، خُلِقت لِيَدَيٍّ فنّان. ما زلتُ أستخدِمُها؛ وهي لا تُخطئ

أبداً. ما من فتاة من عمري كان لديها لعبة مثل هذه. أخذتُها باحترام وبقيتُ أنظرُ إليها دون أن أملك أيّ فكرة عن استخدامها. «لنرَ ما إذاً كان باستطاعتك أن تُصوِّري لنا غياهب كوابيسك»، قال لي سِبِرو دّل بالْيِه ممازِحاً، دون أن يخطر بباله أنّ هذا سيكون هدفي الوحيد خلال أشهر، وأنّني بإصراري على تصوير هذا الكابوس سأنتهي إلى عشق العالم. حملتني جدّتي إلى بلاثا دِ أرماس، إلى ستوديو دون خوان ريبِرو، أفضل مصوّر في سانتياغو، الرجل الجاف مثل الخبز اليابس في مظهره، والكريم والعاطفي في باطنه.

ـ ها أنا آتيك بحفيدتي كتلميذة ـ قالت جدّتي واضعةً شيكاً على مكتب الفنان، بينما أتشبَّثُ بفستانها بيدٍ وأمسك الكاميرا القشيبة بالأخرى.

دون خوان ريبِرو، الذي كان أقصر بنصف رأس من جدّتي، ويزن أقلّ من نصف وزنها، سوّى نظارتَه على أنفه، وقرأ الرقمَ المكتوب بانتباهٍ ثمّ أعاده إليها، ناظراً إليها من قدميها إلى رأسها بازدراء لا نهاية له.

ـ المبلغ ليس مهمّاً... حدّد الأجر ـ ردّدت جدّتي.

ـ ليست مسألة سعر، بل موهبة، يا سيّدتي ـ ردَّ وهو يقود باولينا دِل بالْيِه باتجاه الباب.

تمكّنتُ خلال تلك البرهة من إلقاءِ نظرة حولي. كانت أعماله تُغطّي الجدران: مئات الصور لأناس من مختلف الأعمار. كان ريبِرو مصوّر الطبقة العليا المفضّل، ومصوّر الصفحات الاجتماعية، لكنّ من كانوا ينظرون إليّ من على جدران الاستوديو لم يكونوا رفيعي الشأن من ذوي الشعر المستعار ولا ممثلات جميلات، بل هنوداً، عمّال مناجِم، صيادي سمك، غسالات، أطفالاً فقراء، شيوخاً، نساء كثيرات مثل اللواتي تُسعفهنَّ جدّتي بقروضها في نادي السيّدات. هناك كان وجه تشيلي المعذّب والمتعدد الأطوار مُصوّراً. هزّتني تلك الوجوه المصّورة من أعماقي، ووددت أن أعرف قصّة كلّ واحد من هؤلاء الأشخاص، شعرتُ بضغط في صدري، مثل لكمة، وبرغبة

جامحة بالانفجار بالبكاء، لكنّني ابتلعتُ انفعالي ولحقت بجدّتي برأس مرفوع. حاولت أن تواسيني في العربة: لم يكن عليّ أن أهتمّ، قالت لي، سنجد شخصاً آخر يُعلّمني استخدام الكاميرا، فالمصوِّرون أكثر من الفجل، ماذا كان يتصوّر ابن الحرام، حتى يُكلّمها بهذه النبرة المتعجرفة، هي باولينا دِل بالْيِه وليس غيرها. واستمرّت تتكلّم، لكنّني لم أسمعها لأنّني قرّرت أنّه ما من أحد غير دون خوان ريبِرو سيكون مُعلّمي. خرجتُ في اليوم التالي من البيت قبل أن تستيقظ جدّتي، وأشرت إلى الحوذيّ أن يأخذني إلى الاستوديو ووقفت في الشارع مستعدّة كي أنتظر إلى الأبد. وصل دون خوان ريبِرو في حدود الحادية عشرة صباحاً، فوجدني أمام بابه وأمرني بالعودة إلى بيتي. كنت وجلة في ذلك الوقت ـ وما زلتُ كذلك حتى اليوم ـ وصاحبة أنفة، ولم أعتد أن أطلب لأنّهم دلّلوني منذ وُلِدتُ، مثل ملكة، لكنْ يبدو أنّ تصميمي كان قويّاً. لم أتحرَّك من أمام الباب. وبعد ساعتين خرج المصوِّرُ، نظر إليّ نظرة غاضبة، وراح يسير باتجاه أسفل الشارع. وحين عاد من تناول طعام غدائه وجدني ما أزال مسمّرة هناك، وكاميراتي معي مشدودة إلى صدري. «حسن» تمتم مهزوماً، «لكنّني أحذّرك أيّتها الشابّة الصغيرة، من أنّني لن آخذ أيّ اعتبار بتعاملي معك، هل فهمت؟» وافقتُ برأسي، لأنَّ صوتي لم يخرج. جدّتي المعتادة على التفاوض، قبلت شغفي بالتصوير مادمتُ سأستثمر الساعات ذاتها التي سأستثمرها في فروع الدراسة المعتادة في مدارس الرجال، بما في ذلك اللغة اللاتينية واللاهوت، لأنّ ما ينقصني ليس القدرة العقلية بل الصرامة.

ـ لماذا لا ترسلينني إلى مدرسة عامّة؟ ـ طلبتُ منها، متحمِّسة للإشاعات الدائرة حول التربية العلمانية للإناث، التي كانت تحدث ذعراً بين عمّاتي.

ـ هذه المدارس لأناس من طبقةٍ أخرى، لن أسمح بذلك أبداً ـ قرّرت جدّتي.

وهكذا مرّت على البيت صفوف من المعلمين، منهم من كانوا رهباناً مستعدّين لتعليمي مقابل عطايا جدّتي الكبيرة إلى أخوياتهم.

وقد كنت محظوظة، في الواقع، لأنهم عاملوني بتساهل، ولأنّهم لم يكونوا يتوقّعون من عقلي أن يستوعب مثل عقل الذكر. دون خوان ريبِرو، طالبني بالمقابل بما هو أكثر لأنّه على المرأة أن تبذل جهداً هو أكثر ألف مرّة من الجهد الذي يبذله الرجل كي يحصل على مكانة فكرية أو فنّية. علّمني كلّ ما أعرفه عن التصوير، بدءاً من اختيار العدسة وحتى عمليّة التظهير المضنية؛ ولم أملك بعده معلّماً آخر. وحين غادرت الاستوديو بعد سنتين، كنّا قد أصبحنا صديقين. عمره الآن أربعة وسبعون عاماً، وقد انقطع عن العمل منذ عدّة سنوات، لأنّه صار أعمى، لكنّه ما يزال يرشدني في خطواتي المتردّدة ويساعدني. الجدّية هي شعاره. يُشغَف بالحياة، ولم يكن العمى عائقاً أمامه كي يستمر برؤية العالم. وقد طوّر طريقة خاصة لرؤيته؛ فكما أنّ هناك عمياناً عندهم من يقرأ لهم، عنده هو أناس يراقبون ويحكون له. فطلابه وأصدقاؤه وأولاده يزورونه يوميّاً ويتناوبون ليصفوا له ما تأملوا به: منظراً طبيعياً، مشهداً، وجهاً، تأثيراً ضوئياً. يجب أن يتعلّموا المراقبة بدقّة كبيرة كي يتحمّلوا استجواب دون خوان ريبِرو المفرط بالطول، وهكذا تتبدّل حيواتهم، لأنه ما عاد باستطاعتها أن تمضي في العالم بالخفّة المعتادة، لأنّ عليها أن ترى بعيني المُعلّم. أنا أيضاً أزوره بكثرة. يستقبلني في عتمة شقّته الأبدية في شارع مونخيتاس، جالساً في كرسيّه أمام النافذة وقطّ على ركبتيه. وهو دائماً مضياف وحكيم. أطلعه باستمرار على التقدّم التقني في مجال التصوير الضوئي، أصف له بالتفصيل كلّ صورة من صور الكتب التي أوصي عليها إلى نيويورك وباريس، وأستشيره في الأمور التي أشكّ بها. إنّه على اطلاع بكلّ ما يجري في هذه المهنة، وينفعل مع مختلف النزعات والنظريات، ويعرف أبرز معلّمي التصوير في أوروبا والولايات المتحدة بأسمائهم. كان دائماً معارضاً شديداً للوضعيات المصطنعة، والمشاهد المعدّة في الاستوديو، والانطباعات غير المتقنة المصنوعة من عدّة نيكاتيفات موضوعة فوق بعضها بعضاً، التي كانت دارجة جدّاً منذ سنوات. يؤمن بالصورة كوثيقة شخصية: طريقة لرؤية العالم، طريقة يجب أن تكون نزيهة تستخدم

التكنولوجيا كوسيلة لصياغة الواقع وليس لتشويهه. حين مررت بمرحلة كان تصويرُ الفتيات فيها داخل أوعية هائلة من البلور هاجِسي، سألني لماذا، وجاء سؤاله من الازدراء بحيثُ لم أتابع في ذلك الطريق، ولكن حين وصفت له صورة أسرةِ فنّاني سيرك، فقراء عراة ومعطوبين، أبدى اهتماماً كبيراً على الفور. كنتُ قد التقطتُ عدّةَ صورٍ لتلك الأسرة وهي تقف أمام عربةٍ كبيرة محطمة، تُفيدهم للانتقال والسكن، حين خرجت منها طفلة في الرابعة أو الخامسة من عمرها عارية تماماً؛ خطر لي أن أطلب منهم أن يخلعوا ملابسهم. فعلوا ذلك دون خبث ووقفوا أمام الكاميرا بالتركيز الكبير ذاته الذي قاموا به حين كانوا بثيابهم. إنّها إحدى أفضل صوري. وواحدة من الصور القليلة التي نالت جوائز. وسرعان ما توضّح أن الأشخاص يشدّونني أكثر من الأشياء أو المناظر. فحين ألتقطُ صورةً تقوم بيني وبين الموديل علاقة، صحيح أنّها قصيرة، إلاّ أنّها دائماً متواصلة. فالنيكاتيف لا يعكس الصورة وحسب، بل المشاعر التي تتدفق بين الطرفين. كان دون خوان ريبِرو يحب صوري، المختلفة جدّاً عن صوره، ويقول لي: «أنت تشعرين بمشاعر موديلاتك ياأورورا، فلا تُحاولي السيطرة عليها بل افهميها، لذلك سوف تتمكّنين من عرض روحك». كان يحثّني على مغادرةِ جدران الاستوديو الباقية، والخروجِ إلى الشارع، والتنقلِ مع الكاميرا، والنظرِ بعينين مفتوحتين جيّداً، وتخطّي خجلي، والتخلّص من الخوف والاقتراب من الناس. فانتبهت إلى أنّهم بعامّة يُحسنون استقبالي، ويقفون أمام الكاميرا بكلّ جدّية، رغم أنّني كنتُ ما أزال صغيرة: فالكاميرا تمنح الاحترام والثقة، والناس ينفتحون، ويستسلمون. كنتُ محدودة بعمري الصغير، ولم أستطع أن أسافر عبر البلاد، وأدخلَ المناجمَ، والإضراباتِ، وبيوتَ الفقراء المدقعة، والمدارس البائسة، والنزل الرخيصة في الساحات الرملية التي ينحَلُ فيها المتقاعدون، والريفَ وقرى صيادي السمك، إلا بعد سنواتٍ طويلة. «الضوء هو لغة الصورة، روح العالم. لا يوجد ضوء بلا ظل، تماماً كما لا يوجد فرح دون ألم». قال لي دون خوان ريبِرو منذ سبعة عشر عاماً، أثناء الدرس الذي أعطاه لي في ذلك اليوم الأوّل

في استوديو بلاثا دِ أرماس. لم أنسَ ذلك. لكن يجب عليّ ألا أستبق الأمور. فقد قرّرتُ أن أروي هذه القصّة، خطوة بخطوة، وكلمة بكلمة، كما يجب أن تروى.

بينما كنت أمضي متحمّسة للتصوير ومرتبكة من التغيرات التي تطرأ على جسدي، الذي راح يُحرز أبعاداً غير معهودة، لم تكن جدّتي تضيع الوقتَ في تأمل سرّتها، بل كانت تستنبط في دماغها الفينيقي عمليات تجارية جديدة. وقد ساعدها هذا على تخطّي موت ابنها ماتيّاس، ومنحها خيلاء في عمر يضع فيه الآخرون قدماً في القبر. ازدادت شباباً، وتألقت نظرتها، وخفّت مشيتها، وسرعان ما نزعت عنها ثياب الحداد وأرسلت زوجها إلى أوروبا في مهمّة سرّية للغاية. بقي فريدريك وليامز المخلصُ سبعة أشهر غائباً وعاد مُحمّلاً بالهدايا لها ولي، إضافة إلى دخان جيّد له، الرذيلة الوحيدة التي عرفناها فيه. وجاء بين أمتعته بآلاف الأعواد الجافة التي يبلغ طولها خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً، ذات المظهر الذي يوحي بعدم فائدتها، لكنّها كانت طعوم من كروم بوردو تريد جدّتي زراعتها في الأرض التشيلية لتنتج نبيذاً لائقاً. «سوف ننافس النبيذ الفرنسي»، وضّحت لزوجها قبل السفر. ولم يجدِ شيئاً أنّ فريدريك وليامز حاول أن يردعها، بأن الفرنسيين يتفوّقون بذلك علينا بقرون، وأن الظروف هناك فردوسية، ومشروعاً بهذه الأهمية يحتاج لسنوات من العمل.

ـ لا أنتِ ولا أنا في عمرٍ يسمح لنا بانتظار نتائج هذه التجربة ـ ارتأى وهو يتنهّد.

ـ بهذا المعيار لن نصل إلى مكان يا فريدريك. هل تعلم كم جيل من الفنيّين يتطلّب بناء كاتدرائية؟

ـ يا باولينا، نحن لا تهمّنا الكاتدرائيات. فنحن سنقع ميتين بين يومٍ وآخر.

- لن يكون هذا قرن العلوم والتكنولوجيا إذا فكر كلّ مخترع بموته الخاص، ألا ترى ذلك؟ أريد ان أكوِّن سلالة لتستمرّ كنية دِل بالْيِه في العالم، حتى ولو في قاع كأس السكارى الذين يشترون نبيذي - ردّت جدّتي.

لم يكن أمام الإنكليزيِّ إلاّ أن غادر مذعناً إلى فرنسا، بينما باولينا دِل بالْيِه تحيك خيطان الشركة في تشيلي. كانت أولى الكروم التشيلية قد زرعها المبشرون أيّام الاستعمار لإنتاج نبيذ في البلاد والذي جاء بنتيجة لابأس بها، والحقيقة أنّه كان جيّداً إلى درجة أنّ إسبانيا منعت إنتاجه كي تمنع منافسته لنبيذ الوطن الأم. ثم انتشرت صناعة النبيذ بعد الاستقلال. ولم تكن باولينا هي الوحيدة التي حملت فكرة إنتاج النبيذ ذي النوعية الجيِّدة. لكن بينما كان الآخرون يشترون الأراضي في محيط سانتياغو للراحة، ولكي لا يكون عليهم أن ينتقلوا مسيرة أكثر من يوم، بحثت هي عن أراضٍ أبعد، ليس لأنّها كانت أرخص ثمناً وحسب، بل لأنّها ملائمة أكثر. ودون أن تقول لأحد ما كان يجول في فكرها، جعلتهم يُحلّلون خلاصة التربة، شوارد الماء وحركة الرياح، بادئة بتلك الحقول التي كانت تعود لأسرة دِل بالْيِه. دفعت مبالغ زهيدة مقابل أراضٍ فسيحة مهجورة لاأحد أعطاها قيمة، لأنّه ليس فيها من ماء للسقاية غير المطر. ووضّحت لي جدّتي بأن ألذّ أنواع العنب، والتي تنتج أفضل الخمور قواماً وعطراً، وأحلاها وأكرمها، لا تنمو في الأرض الوفيرة، بل في الأرض الوعرة؛ فالنبتة تنتصر على العوائق بعزيمة الأم، حتى تصل عميقاً جدّاً بجذورها وتستغلّ كلّ قطرة ماء، وهكذا تتركّز المذاقات في العنب.

- الكرمة مثل البشر يا أورورا، كلّما كانت الظروفُ أكثر صعوبة كانت الثمارُ أفضل. من المؤسف أنّني اكتشف هذه الحقيقة متأخّرة جدّاً، لأنّني لو علمت بها من قبلُ لكنت استخدمت اليد القاسية مع أولادي ومعك.

- لقد حاولتِ معي يا جدّتي.

- كنت طريّة جدّاً معك، كان عليّ أن أرسلك إلى مدارس الراهبات.

ـ لكي أتعلّم التطريز والصلاة؟ الآنسة ماتيلدِ...

ـ أمنعك من ذكر اسم هذه المرأة في بيتي!

ـ حسناً يا جدّتي، على الأقل أتعلّم الآن التصوير. أستطيع بهذا أن أكسب عيشي.

ـ كيف تخطر لك مثل هذه الحماقة؟ ـ هتفت باولينا دِل بالْيِه ـ. لايمكن لحفيدتي أن تكون مضطرة لكسب عيشها. ما يُعلِّمه لك ريبِرو هو للتسلية، وليس مستقبلاً لفتاة من آل دِل بالْيِه. لن يكون قدرك أن تصبحي مصوّرة في ساحة، بل أن تتزوّجي من شخصٍ من طبقتك وتأتي بأطفال أصحّاء إلى العالم.

ـ أنت فعلت أكثر من ذلك يا جدّتي.

ـ أنا تزوّجتُ من فِليثيانو، وأنجبتُ ثلاثة أولادٍ وحفيدة. وكلّ ما عدا ذلك كان إضافيّاً.

ـ بصراحة لا يبدو لي الأمر كذلك.

تعاقد فريدريك وليامز في فرنسا مع خبيرٍ، وصل بعد مدّة قصيرة ليساعِد في الناحية التقنية. كان رجلاً صغيراً مُوَسْوَساً، جاب أراضي جدّتي على الدرّاجة وقد ربط منديلاًعلى فمه وأنفه لأنّه كان يعتقد أن رائحة روث البقر والغبار التشيليّ يُسبِّبان سرطان الرئة، ولكن لم يشكّ أحدٌ بمعارفه العميقة بزراعة الكرمة. كان الفلاّحون يراقبون بذهول ذلك الفارس الذي يرتدي ملابس المدينة وهو ينزلق على الدراجة بين الصخور ويتوقّف من حين لآخر ليشمّ الأرضَ مثل كلب يتتبع أثراً. وبما أنّهم لم يكونوا يفهمون كلمة واحدة من خطبه الطويلة بلغة موليير، فقد كان على جدّتي شخصيّاً أن تلحق بدراجة الفرنسي، بخفّها وقبّعتها، كي تترجم كلامه. وأوّل ما لفت انتباه باولينا هو أنّ الأغراس لم تكن متساوية، كان هناك على الأقل ثلاثة أنواع مختلفة ومختلطة. فوضّح لها الفرنسيّ بأنّ بعضها ينضج قبل الآخر، بحيث إنّه إذا خرّب الطقسُ أكثرها نعومة، يبقى هناك دائماً إنتاج من البقية. كما أكّد أنّ العملية تحتاج إلى سنوات، فالأمر لا يتعلّق فقط بجني أفضل الأعناب، بل أيضاً بإنتاج نبيذ فاخر

وتسويقه في الخارج، حيث عليه أن يُنافس النبيذ الفرنسيّ والإيطالي والإسباني. تعلّمت باولينا كلّ ما استطاع أن يُعلّمها إيّاه الخبير، وحين شعرت بالثقة بنفسها صرفته إلى بلاده . كانت وقتذاك قد أنهكت، وأدركت أنّ الشركة تحتاج إلى شخصٍ أكثر شباباً وخفّةً منها، شخص مثل سِبِرو دِل بالْيِه، ابن أخيها المُفضَّل، الذي تستطيع أن تثق به. فأغوته قائلة :«إذا بقيت تقذف بالأولاد إلى العالم فسوف تحتاج إلى مالٍ كثير كي تُعيلهم. ولن تستطيع ذلك كمحامٍ إلاّ إذا سرقت ضعف ما يسرقه الآخرون، لكنَّ النبيذ سيجعلك ثريّاً». وكان سِبِرو ونيبيا دل باليه قد أنجبا في ذلك العام بالذات ملاكاً، كما يقول الناس، طفلةً جميلة مثل جنّية مصغّرة سمّياها روزا. فقالت نيبيا إنّ كلّ أولادها السابقين كانوا مجرّد تمرين كي تنتج أخيراً تلك المخلوقة التامّة. وربّما يكون الله قد رضي الآن، ولن يرسل إليهم مزيداً من الأولاد، فقد صار عندهم قطيعاً منهم. بدا مشروعُ الكروم الفرنسية لسِبِرو نوعاً من الجنون، لكنّه كان قد تعلّم احترام حدْسَ عمّته التجاري، وفكّر أنّ الأمر يستحق التجريب؛ ولم يكن يعلم أنّ الكروم ستغيّر مجرى حياته خلال أشهر قليلة. وما إن تأكّدت جدّتي من أنّ سِبِرو دِل بالْيِه صار مهووساً بالكروم مثلها، حتى قرّرت أن تجعل منه شريكاً لها، وتتركَ الحقل على عاتقه، وتغادر مع وليامز ومعي إلى أوروبا، لأنّني كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري وأصبحت في عمر مَنْ تتطلب الحصول على تلميعٍ كوني وجهاز عرس، كما قالت.

- أنا لا أفكّر بالزواج يا جدّتي.

- ليس الآن، ولكن عليكِ أن تفعلي ذلك قبل العشرين وإلاّ ستبقين لترتدي لباس الراهبات - ختمت حاسمةً.

لم تُخبِر أحداً بالسبب الحقيقي للرحلة. فقد كانت مريضة، وتعتقد أنّهم سيتمكنون من إجراء العمليّة لها في إنكلترا. فالجراحة هناك تطوّرت أكثر بكثير منذ اكتشاف المخدّر والتعقيم. وقد فقدت في الأشهر الأخيرة شهيّتها، وعانت لأوّل مرّة في حياتها بعد وجبةٍ ثقيلةٍ من الغثيان والمغص في كرشها. لم تعد تأكل لحماً، وصارت

تفضّل أشياء طريّة، البطاطا بالسكر، والحساء والحلوى، التي لم تتنازل عنها حتى ولو نزلت مثل الحجارة في جوفها. كانت قد سمعتهم يتحدّثون عن العيادة الشهيرة التي أسّسها طبيب يُدعى إبانيزر هوبّز، المتوفّى منذ أكثر من عقد، حيث كان يعمل أفضل أطباء أوروبا. وهكذا ما إن انقضى الشتاء وعاد الطريق عبر جبال الأنديز ليصبح سالكاً، حتى شرعنا بالسفر إلى بوينس آيرس، التي سنستقل منها عابرة المحيط إلى لندن. كنّا نحمل معنا، كما هي العادة، موكباً من الخدم، وطنّاً من الأمتعة، وعدداً من الحرّاس المسلحين لحمايتنا من اللصوص الذين يكثرون في تلك المناطق الموحشة، لكنّ كلبي *كراميلو* لم يستطع مرافقتي هذه المرّة ، لأنّ سيقانه وهنت. كان عبور الجبال بالعربة، وعلى الجياد، ثم أخيراً على البغال، في المنحدرات التي كانت تنفتح على كلا الجانبين مثل حفر جهنّمية مستعدة لالتهامنا، أمراً لا يُنسى. كان الدرب يبدو أفعى لا نهاية لها ضيقة تنسلّ عبر تلك الجبال الهائلة، التي تشكل العمودَ الفقري بالنسبة لأمريكا. كانت تنمو بين الحجارة بعض الأشجار القصيرة التي تهزّها قسوة الطقس وتُغذّيها خيوط واهنة من الماء. ماء في كلّ مكان، شلالات، وجداول، وثلوج سائلة؛ الصوت الوحيد كان الماء وحوافر الحيوانات على قشرة جبال الأنديز القاسية. حين نتوقف، يلفنا صمتٌ جهنّمي مثل معطف ثقيل، فقد كنّا دخلاء نخترق حرمة الوحشة التامّة لتلك المرتفعات. جدّتي، التي كانت تصارع الدوار والعللَ التي انهالت عليها ما إن بدأنا السير نحو الأعالي، تمضي تسندها إرادتها الحديدية وعناية فريدريك وليامز، الذي كان يبذل كل ما بوسعه لمساعدتها. كانت ترتدي معطف سفر سميك وقفّازين جلديين وقبّعةً مكتشف وأوشحة سميكة، لأنّه ما من شعاع شمس مهما كان واهناً لامس جلدها يوماً، لذلك تفكّر أن تصل إلى القبر دون أي تجعيدة. وأنا كنت أمضي مبهورة. لقد قمنا بهذه الرحلة من قبل، حين جئنا إلى تشيلي، لكنّني كنتُ صغيرة أكثر من اللازم كي أُقدّر تلك الطبيعة الجليلة. كانت الحيوانات، المصعوقة في تلك الهاويات المقطوعة بالمعول وجدران الصخور الخالصة الشاهقة، التي تسرّحها الريح ويصقلها الزمن، تتقدّم خطوة

فخطوة. كانت الريحُ رقيقةً مثل وشاحٍ شفاف، والسماءُ بحراً فيروزيَّ اللون، يعبرها أحياناً نسرٌ يُبحِر بأجنحته الزاهية، سيّداً مطلقاً لتلك الممالك. انحدرت الشمسُ بسرعة، فتبدّل المشهد تماماً، والسلام الأزرقُ لتلك الطبيعة الوقورة والصارمة اختفى ليخطو خطوة في كونٍ من الظلال الهندسية التي تتحرّكُ مهدِّدة من حولنا، تُحاصِرنا، وتلفّنا. خطوة خاطئة وتتدحرجُ البغال بنا ونحن فوقها إلى أعمق أعماق تلك الأجراف، لكنّ الدليلَ كان قد حسب المسافةَ، فالتقانا الليلُ في بيت مدقع وسخ مبني من ألواح خشبية، هو ملجأ للمسافرين. أنزلوا الحمولة عن الحيواناتِ وسوّينا وضعنا على الركائب المصنوعة من جلود الغنم والبطانياتِ، تُضيء لنا مشاعل مدهونة بالقطران، رغم أنّه لم يكن هناك حاجة للنور تقريباً، فقد كان يسود قبّة السماء قمر متوهِّجٌ يطلّ مثل شعلة فلكية فوق الحجارة العالية. كنّا نحمل معنا حطباً، فأشعلوا به صلاءً كي نتدفأ ونغلي ماءً للمتّة؛ وسرعان ما دار ذلك النقيع من الأعشاب من يدٍ إلى يدٍ، وجميعنا نمصّ من المصّاصة ذاتها؛ فأعاد ذلك الهمّة واللون لجدّتي المسكينة، التي أمرت بأن يأتوها بسلالها وجلست، مثل بائعة خضار في السوق، توزِّع الزاد كما لو أنها تخدع الجوعَ. راحت تظهر زجاجات الأغوارديينتِ والشمبانيا، وأجبان الريف الفوّاح، ومقدّد الخنزير المحضّر في البيت، والخبز والعجة الملفوفة في مناديل كتّانية بيضاء، لكنّني لاحظتُ أنّها تأكل قليلاً جداً ولا تذوق الكحول. كان الرجال المهرة، في أثناء ذلك، قد ذبحوا بسكاكينهم عنزتين جئنا بهما معنا خلفَ البغال، ثم نزعوا جلديهما، وراحوا يشوونهما مخترقتين بعصاتين. لم أدرِ كيف مضى الليلُ، فقد غرقت في النوم وكأنه الموت، ولم أستيقظ حتى الصباح حين بدأت مهمّة إنعاش الجمر لصنع القهوة والتهام ما تبقى من العنزتين. وقبل أن نذهب تركنا حطباً، وكيس فاصولياء، وبعض زجاجات الخمر للمسافرين التالين.

القسم الثالث

1896 ـ 1910

تأسّست عيادة هوبّز، الجراح الشهير إبانيزر هوبّز، في مسكنه بالذات، وهو بيت ذو مظهر قويّ وأنيق وسط حي كينسيغتون. راحوا يهدمون منه جدراناً، ويغلقون نوافذ ويزرعون زُليجاً حتى حوّلوه إلى شيءٍ غير معقول. وجود العيادة في ذلك الشارع الراقي كان يزعج الجيرانَ، إلى حدّ أنّ أسلاف هوبّز لم يجدوا صعوبةً في شراء البيوت الملاصقة لتوسيعها، لكنّهم حافظوا على الواجهات الإدواردية، بحيث إنّه لم تكن تختلف من الخارج عن صفوف البيوت في الشارع، فجميعها متماثلة. من الداخل كانت متاهة من الغرف والأدراج والممرات والنوافذ الداخلية الصغيرة التي لا تطلّ على مكان. ولم يكن يوجد كما في مستشفيات المدينة القديمة رمل العمليات التقليدية التي لها مظهر ساحة مصارعة الثيران ـ ميدان مركزي مُغطّى بالنشارة أو بالرمل ومحاط بالمقصورات للمتفرجين ـ بل قاعات عمليات جراحية صغيرة، جدرانها وسقفها وأرضها مغطاة بالبلاط والألواح المعدنية، التي كانت تُسحَجُ كلَّ يوم بمحلول الصودا والصابون، لأنّ الطبيب المتوفى هوبز كان من أوائل من قبل بنظريّة انتشار التهابات كوخ (عصيات) وتبنّي وسائل ليستر للتعقيم، التي كانت غالبية الهيئة الطبية ما تزال ترفضها تعالياً أو كسلاً. لم يكن من السهل تغيير العادات القديمة، والحفاظ على الصحة كان مملاً ومعقّداً، ويتعارض مع سرعة العمليات، التي تعتبر علامة مميزة للجرّاح الجيّد لأنّه يقلّص احتمال الصدمة وفقدان الدم. وبخلاف

معظم معاصريه، الذين رأوا أنّ الالتهابات تتولّد تلقائياً في جسد المريض، أدرك إبانيزر هوبز على الفور أنّ البؤرَ الجرثومية موجودة في الخارج، في الأيدي، على الأرض والأدوات والجوّ، لذلك كان يرشُّ كلّ شيءٍ، بدءاً من الجرح وانتهاءً بجو غرفة العمليات، بوابل من الفيرول. استنشق المسكين من الفيرول ما قرّحَ جلدَهُ ومات قبل أوانه بالتهاب كلوي، مما أفسح المجال للمفترين بالتمسك بأفكارهم البالية. ومع ذلك حلّل تلامذة هوبز الهواء واكتشفوا أن الجراثيم لا تسبح في الهواء مثل طيور جارحة خفيّة جاهزة للانقضاض الخفيّ، بل كتجمعاتٍ على السطوح الوسخة، وأن الالتهابات تحدث نتيجة الاحتكاك المباشر، بحيث إنَّ الجوهري هو تنظيف الأدوات بعمق، واستخدام ضماداتٍ معقّمة، وأن الجراحين ليس عليهم أن يغسلوا أيديهم بقوّة وحسب، بل وأن يستخدموا إن أمكن قفّازات من المطاط. لم يكن الأمر يتعلّق بالقفازات السميكة التي يستخدمها رجال التشريح لتحنيط الجثث، أو بعض العمال لمعالجةِ بعض المواد الكيميائية، بل بمنتَجٍ دقيقٍ وناعم مثل بشرة الإنسان، مصنوع في الولايات المتحدة. وقد كان لهذا المنتج أصل رومانسيّ: طبيب عاشق لممرضة، أراد أن يحميها من الأكزيما الناتجة عن استخدام المطهرات، فأمر بصناعة أوّل قفازاتٍ مطاطية، وتبناها الجراحون فيما بعد للعمليات. كلّ ذلك قرأته باولينا دِل بالْيه بإمعانٍ في بعض المجلات العلمية التي أعارها إيّاها قريبُها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا، الذي كان آنذاك مريضاً بالقلب ومعتزلاً في قصره في بينيا دِل مار، لكنّه ما يزال الدارس كما كان دائماً. وجدّتي لم تُحسن اختيار الطبيب الذي كان سيجري له العملية وتتصل به من تشيلي قبل أشهرٍ وحسب، بل أوصت أيضاً على عدّة أزواجٍ من القفازات المطاطية الشهيرة من بالتيمور، وكانت تحملها في صندوق ثيابها الداخلية محكمة التغليف.

أرسلت باولينا دِل بالْيه فريدريك ولِيامز إلى فرنسا ليستقصي عن الخشب المستخدم في صناعة براميل تخمير النبيذ، ويبحث في صناعة الأجبان، لأنّه ليس هناك من سبب كيلا تكون الأبقار التشيلية

قادرة مثل أبقار فرنسا، البلهاء مثلها، على إنتاجِ أجبان لذيذة. استطعتُ خلال عبوري جبال الأنديز، وبعدها في عابرة المحيطات أن أراقب جدَّتي عن قرب وانتبهت إلى أنَّ شيئاً أساسياً بدأ يهنُ فيها؛ شيئاً لا علاقة له بالإرادة، أو العقل أو الطمع، بل بالضراوة. صارت ناعمة، طرية، وفي غاية الشرود، حتى أنّها تسير على ظهر السفينة مرتدية الموسلين والمجوهرات، لكن دون أن تضع طقم أسنانها الاصطناعية. كان واضحاً أنّها تقضي ليالي صعبة، فمحاجرها مزرقة وتمضي دائماً ساهية. لقد فقدت كثيراً من وزنها، وكان لحمُها يترهل حين تخلعُ المشدَّ. كانت تريدني دائماً إلى جانبها، «كيلا تُغازلي البحّارة»، وهي مزحة قاسية، نظراً لأنّ خجلي في ذلك السنّ كان حاسماً، بحيث تكفيني نظرة بسيطة من ذكرٍ كي أحمرَّ مثل جرادة بحر مسلوقة. والسبب الحقيقي هو أنّ باولينا دِل بالْيِه كانت تشعر بنفسها واهنةً، وتحتاجني إلى جانبها كي تُلهي الموتَ. لم تكن تذكر أمراضها، على العكس من ذلك، كانت تتكلّم عن قضاء بعض الأيّام في لندن والمتابعة بعدها إلى فرنسا من أجل موضوع البراميل والأجبان، لكنّني تكهّنتُ من البداية أنّ خططها كانت غير هذه، كما بدا جليّاً ما إن وصلنا إلى لندن، وبدأت عملها الدبلوماسي لإقناع فريدريك وليامز بالذهاب وحده، بينما نقوم نحن ببعض المشتريات قبل أنِ نجتمع به فيما بعد. لا أدري ما إذا كان وليامز قد ذهب دون أن يشكّ بأنّ زوجته مريضة، أو أنّه تكهّن بالحقيقة وأدرك حياءها فتركها بسلام، المسألة هي أنّه أنزلنا في فندق سافوي، وما إن اطمأنَّ إلى أنّه لا ينقصنا شيءٌ، حتى أبحر عبر قنال المانش دون كثيرِ حماس.

لم تكن جدّتي ترغب بوجود شهود على تدهور حالتها الصحية وكانت حذرة بشكل خاص أمام وليامز. وكان هذا يُشكّل جزءاً من الغنج الذي أحرزته عندما تزوّجت منه، إذ لم يكن موجوداً عندها حين كان رئيساً للخدم. لم يكن هناك وقتذاك ما يمنعها من أن تُظهر له أسوأ ما في طبيعتها، وتحضر أمامه بأيّة طريقة، لكنّها صارت تُحاول بعد ذلك أن تُدهشه بأفضل زينتها. لقد كانت تلك العلاقة

الخريفية تهمّها كثيراً، ولم تشأ أن تُزعزِعَ صحّتُها السيّئة بناءَ خيلائها المتين، لذلك حاولت إبعاد زوجها، ولولا أنّني عزمتُ لكانت نبذتني أيضاً؛ فقد خضتُ معها معركة حتى استطعتُ أن أجعلها تسمح لي بمرافقتها في زيارات الطبيب، وأذعنت أخيراً أمام عنادي وضعفها. كانت تتألّمُ، وتكادُ لا تستطيعُ أن تبلع الطعام، لكنّها لا تبدو خائفة، وأن كانت تمازح حول عوائق الجحيم وملل الجنّة. كانت عيادة هوبز توحي بالطمأنينة منذ العتبة، بقاعة استقبالها المحاطة برفوف الكتب والصور الزيتية للجرّاحين الذين مارسوا مهنتهم بين تلك الجدران. استقبلتنا سيّدة مهيبة، وقادتنا إلى مكتب الدكتور، وهي قاعة مريحة فيها مدخنة تُطقطق فيها نار قطع حطب كبيرة، وأثاث إنكليزي جلدّي بنيّ وأنيق. كان مظهر الدكتور جيرالد سوفّولك مدهشاً مثل سمعته؛ له مظهر توتونيّ (ألماني) ضخم وأحمر، مع ندبة جرح كبيرة على خدّه التي كانت تجعله لا يُنسى، إضافة إلى أنّها لا تُقبِّحه. على مكتبه كان يضع الرسائل التي تبادلها مع جدّتي، وتقارير الاختصاصيين التشيليين الذين استشارتهم، ورزمة قفّازات من المطاط، التي أوصلتها إليه في ذلك الصباح بالذات بواسطة مراسل. عرفنا بعد ذلك أنّه كان احتياطاً لا ضرورة له، فقد كانت تُستَخدم هناك منذ ثلاث سنوات. رحّب بنا سوفّولك كما لو كنّا في زيارة مجاملة، مُقدِّماً إلينا قهوة تركية معطّرة بالهال. حمل جدّتي إلى غرفة مجاورة ثمّ عاد إلى المكتب بعد أن فحصها. وراح يُقلّبُ كتاباً ضخماً ريثما تظهر هي. وسرعان ما عادت المريضة وأكّد الطبيبُ تشخيص الأطباء التشيليين السابق: كانت جدّتي تُعاني من ورم في الجهاز الهضميّ. وأضاف إنّ في العمل الجراحي مخاطرة بالنسبة إلى عمرها، ولأنّ هذا العمل الجراحي مازال في مرحلة التجريب، لكنّه طوّر تقنية تامّة لمثل هذه الحالات، ويأتيه أطباء من جميع أنحاء العالم ليتعلّموا منه. كان يتكلّم بنوع من الاستعلاء ذكّرني برأي أستاذي دون خوان ريبرا، الذي كان يرى أنّ العجرفة امتياز الجهلة؛ فالعالِمُ متواضِع لأنّه يعلم ضآلة ما يعرفه. طالبته جدّتي أن يشرح لها بالتفصيل ما يُفكّر أن يفعله معها، وهو ما أدهش الطبيب المعتاد على استسلامِ المرضى إلى سلطة

يديه، التي لا تقبل الجدل، بسلبية الدجاج، لكنّه سرعان ما استغلّ المناسبة ليسهب في محاضرة انشغل فيها بإدهاشنا ببراعة مبضعه أكثر مما براحة مريضته البائسة. رسم الأمعاء والأجهزة التي تبدو مثل آلة شيطانية، وأشار إلى مكان الورم وكيف يفكّر باستئصاله، منهياً درس خياطة الجرح، المعلومة التي تلقتها باولينا دِل بالْيِه بلا مبالاة، لكنّها ضعضعتني فكان عليّ أن أخرج من المكتب. جلست في قاعة الصور أصلّي بيني وبين نفسي. والحقيقة أنّني كنتُ خائفةً على نفسي أكثر من خوفي عليها، ففكرة أن أبقى في العالم وحدي أرعبتني. وكنت في هذا أدمدم بيتمي المحتمل حين مرّ من هناك رجلٌ لابد أنه قد لاحظ شحوبي، لأنّه توقّف. «هل بك شيء، يا صغيرة؟» سأل بقشتالية تشيلية النبرة. نفيت بحركة من رأسي، مندهشة دون أن أجرؤ على النظرِ إليه مواجهةً، ولكن لا بدّ أنّني تفحصته شذراً، لأنّني استطعتُ أن أقدِّر أنّه شاب، حليق الوجه، عالي الوجنتين، ثابت الفك، وأزور العينين. يُشبه صورة جنكيز خان في كتاب التاريخ، وإن كان أقلّ ضراوةً. كان كلُّه عسليَّ اللون، والشعر، والعينان والبشرة، لكن لا شيء عسلي في نبرته حين وضّح لي أنّه تشيليّ مثلنا وسيساعد الدكتور سوفولك في العملية.

ـ السيّدة دِل بالْيِه بين أيدٍ أمينة ـ قال دون أيّ ملمح من التواضع.

ـ ماذا سيحدثُ إذا يجروا لها العملية؟ ـ سألتُ متلعثمة، كما يحدث لي دائماً حين أكون عصبيّة جدّاً.

ـ سيستمرّ الورم بالنمو. لكن لا تنشغلي يا صغيرتي، فالجراحة تطوّرت جدّاً، وقد أحسنت جدّتك عملاً بمجيئها إلى هنا. ـ ختم.

أردتُ أن أتحقّق مما يفعله تشيليّ في تلك الجهات، ولماذا له مظهر تتري ـ لم يكن يُكلّف كثيراً تصوّره هكذا يحمل رمحاً في يده وتغطّيه الجلود ـ لكنّني سكتّ مضطربة. فلندن، والعيادة، والأطباء ومأساة جدّتي كانت بالنتيجة أكثر مما أستطيع التعامل معه وحدي. وكان يصعب عليّ فهم خجل باولينا دِل بالْيِه من صحتها، وأسباب إرسالها فريدريك وليامز إلى الجانب الآخر من القنال في وقت نحن

فيه بأمسّ الحاجة إليه. ربت جنكيز خان ربتة ملاطفة على يدي وذهب.

على العكس من كلّ توقّعاتي المشؤومة عاشت جدّتي متخطية الجراحة، وبعد الأسبوع الأوّل التي كانت ترتفع فيه الحرارة وتنخفضُ عصيّة على التحكّم، استقرّ وضعها وبدأت تتمكّن من تناول بعض الأغذية الصلبة. لم أتحرّك من جانبها، إلا كي أذهب مرّة في اليوم إلى الفندق كي أستحمّ وأبدِّل ثيابي، لأنّ رائحة المخدر والأدوية والمعقِّمات كانت تنتج مزيجاً دبِقاً يلتصق بالجلد. كنت أنام للحظات، جالسةً على كرسيٍّ بجانب المريضة. وعلى الرغم من الرفض القاطع لجدّتي أرسلتُ برقيّة إلى فريدريك وليامز يومَ العملية، ووصل هو إلى لندن بعد ثلاثين ساعةً. رأيته يفقد توازنه النموذجي أمام السرير الذي توجد فيه زوجته المشوَّشة من المخدّر، تئنُّ مع كلِّ زفرة، وأربع شعرات في رأسها ودون أسنان، مثل عجوز صارت رقّاً. ركع بجانب باولينا دِل بالْيِه ووضع جبينه على يدها الواهنة هامساً باسمها؛ وحين نهض كان وجهُهُ مبلّلاً بالدمع. جدّتي التي كانت تؤكّد أن الشبابَ ليس مرحلة من عمر الإنسان، بل حالة نفسية يملك فيها الإنسان الصحة التي يستحقّها، ظهرت مهزومة في سرير المستشفى. هذه المرأة ، التي كانت شهيّتها للحياة تعادل نهمها تجاه الحلوى، أدارت ظهرها إلى الجدار غيرَ مبالية بما حولها، ومستغرقة في ذاتها. فقوّةُ إرادتها الهائلة، وصرامتُها، وفضولُها، وشعورُها بالمغامرة بل وحتى طمعُها، كلّ ذلك امّحى أمام عذاب الجسد.

في تلك الأيّام ملكت فرصاً كثيرة لرؤية جنكيز خان، الذي كان يراقب حالةَ المريضة، فتبين أنه، كما كان متوقّعاً، أسهل في التعامل من الدكتور المشهور سوفولك أو ممرضات المؤسسة المتجهمات. ما كان يجيب على قلق جدّتي بأجوبة المؤاساة الغامضة، بل بتوضيحات عقلانية، وكان الوحيد الذي يُحاول أن يُخفِّف من ضعفها، فالبقيّة كانوا يهتمون بحالة الجرح والحرارة، لكنّهم يتجاهلون تألّمَ المريضة. أتراها تريد ألا تتألّم؟ كان عليها أن تغلق

فمها وتشكرهم لأنّهم أنقذوا حياتها. بالمقابل لم يكن الطبيب التشيلي يوفِّر مورفيناً إلا ويقدمه لها، لأنّه كان يعتقد أنّ الألم المتواصل ينهي المقاومة الجسدية والمعنوية عند المريض، يؤخِّر أو يمنع الشفاء، كما وضّح لِ وِلْيامز. عرفنا أنّه يُدعى إيفان رادوفيك، وأنه وسليل أسرة أطباء، وقد هاجر أبوه من البلقان إلى تشيلي في نهاية الخمسينات، وتزوّج من معلّمة تشيليةٍ من الشمال، وأنجب ثلاثة أولاد، اثنان منهما تبعا خطواته في الطب. وقال إن والده مات بالتيفوس خلال حرب الباسفيك، حيث عمل جرّاحاً خلال ثلاثة أعوام، وكان على الأم أن تدفع بالأسرةِ قدماً. استطعت أن أُراقب طاقمَ العيادة على هواي، كما سمعت تعليقات لم تكن موجّهة إلى مسامع كمسمعي، لأنّه لم تبدر من أيٍّ منهم، باستثناء الدكتور رادوفيك، أيّة علامة تدلُّ على أنّه انتبه إلى وجودي. كنت سأتمّ السادسةَ عشرة من عمري، وما يزال شعري مربوطاً بشريطة وملابسي منتقاة من قبل جدّتي. التي كانت تأمر بأن يفصلوا لي ملابسَ طفلةٍ صغيرة مضحكة، كي تحتجزني في الطفولة أطول مدّة ممكنة. والمرّة الأولى التي ارتديتُ فيها شيئاً مناسِباً لعمري كانت حين حملني فريدريك وليامز إلى وايتنيس دون أذن منها ووضع المحل كله تحت تصرّفي. حين عدنا إلى الفندق ومَثَلْتُ أمامها بشعرٍ مجموعٍ في كعكة ولباسِ آنسة، لم تعرفني، لكنّ هذا حدث بعد أسابيع. لا بدَّ أن باولينا دِل بالْيِه كانت تملكُ قوّةَ ثور، فقد فتحوا لها معدتها واستأصلوا منها ورماً بحجم ليمونة هندية، وخاطوها مثل حذاء، وعادت قبل مرور شهرين كما كانت دائماً. لم يبقَ من هذه المغامرة الرهيبة إلاّ غرزات كندبة قرصان تخترق الكرش، وشهيّة نهمة للحياة، وللطعام أيضاً. انطلقنا إلى فرنسا ما إن استطاعت أن تمشي دون عكاز. واستبعدت تماماً الوجبة التي أشار إليها بها الدكتور سوفولك، لأنّه، كما قالت، لم تأتِ من مؤخِّرةِ العالم إلى باريس لتأكلَ عصيدةَ حديثي الولادة. وبحجّة دراسة صناعة الجبن وعراقةِ المطبخ الفرنسي، أُتخمت من كل الملذّات التي كان باستطاعة ذلك البلد أن يُقدّمه إليها.

وما إن سوّينا وضعنا في الفندق الذي استأجره ولیامز في بوليفار هاوسمان، حتى اتصلنا بأماندا لويل التي كانت ما تزال تحتفظ بمظهرِ ملكةِ فايكنغ في المنفى. في باريس كانت في جوٍّها، تعيشُ في علّية مُعَثَّثَة لكنّها لطيفة، تظهر من نوافذها الحمائم على سطوح أبنية الحيّ وسماوات المدينة التامّة. وتبيّنا أنّ حكاياتها عن الحياة البوهيمية وصداقاتها مع الفنّانين المشهورين كانت صحيحة تماماً، وزرنا بفضلها مُحْتَرَفات سيزان، وسيسلي، وديغا، ومونيه وآخرين. وكان على لويل أن تعلّمنا كيف نقيّم تلك اللوحات، لأنّنا لم نكن نملك العينَ الخبيرةَ بالانطباعية، لكن سرعان ما سُحرنا تماماً. وقد اشترت جدّتي مجموعة جيّدة من الأعمال التي أحدثت عندما عُلِّقت في البيت في تشيلي موجة من الضحك؛ فما من أحدٍ قدّر سماوات فان كوخ الشاذة أو فرشاة لِوتريك المتعبة، واعتقدوا أنّهم غشّوا باولينا دِل بالْيِه في باريس. وحين رأت أماندا لويل أنّني لاأنفصل عن آلة تصويري، وأُمضي ساعة محبوسة في غرفة مظلمة ترجّلتها في الفندق الصغير، عرضت أن تُعرِّفني على أشهر مصوّري باريس. كانت مثل مُعلّمي دون خوان ريبِرو، تعتبر أنّ الصورةَ لاتُنافِسُ اللوحةَ، وأنّهما مختلفتان في الجوهر؛ فالرسام يُفسِّرُ الواقع والكاميرا تُصوِّرُهُ. كلّ ما في اللوحة خيال، بينما ما في الصورة هو مجموع الواقعي إضافة إلى حساسية المُصوِّر. ريبِرو لم يكن يسمح لي بالخدع العاطفية أو الاستعراضيّة، ويرفض ترتيب الأشياء أو النماذج كي تبدو لوحةً؛ كان عدّواً للتركيب المصطنع، كما لم يكن يسمح لي أن أتلاعب بالنيكاتيفات أو الصور، وبعامة كان يزدري تأثير الضوء أو البؤر الغامضة، كان يريد الصورةَ نظيفةً وبسيطةً، وإن كانت واضحة في أدقّ تفاصيلها. «إذا كان ما تريدينه هو تأثيرات اللوحة، فارسمي يا أورورا. وإذا كان ما ترغبين به هو الحقيقة، فتعلّمي استخدامَ الكاميرا»، كان يُردِّدُ عليَّ. لم تُعاملني أماندا لويل قط كطفلة، وعاملتني منذ البداية بجدّية. هي أيضاً كانت تسحرها الصورةُ، التي لم يُسمّها أحدٌ حتى ذلك الوقت فنّاً، وكانت بالنسبة إلى الكثيرين مجرّد تفاهة من التفاهات الكثيرة عديمة الفائدة لهذا القرن الطائش. «أنا ما عدتُ أصلحُ لتعلّم التصوير، بينما

تملكينَ أنتِ عيني شابّة يا أوروا، وتستطيعين أن ترى العالمَ وتُجبرين الآخرين على رؤيته على طريقتك. إنّ الصورة الجيّدة تحكي قصّة، تكشف عن مكانٍ، أو حدث، أو حالةٍ نفسية، إنّها أقوى من صفحاتٍ وصفحاتٍ مكتوبة»، كانت تقول لي. بالمقابل كانت جدّتي تتعامل مع شغفي بالكاميرا كنزوةٍ مراهِقَةٍ، وكانت مهتمّة أكثر بكثير بإعدادي للزواج واختيار جهازي. وضعتني في مدرسة للآنساتٍ، حيث كنتُ أحضر دروساً يوميّة كي أتعلّم صعودَ وهبوطَ الدرج بملاحة، وطيَّ المناديل للولائم، وإعدادَ مختلف الوجبات حسب المناسبة، وتنظيمَ ألعاب الصالون وإعدادَ أكاليل الزهر، وهي المهارات التي كانت تعتبرها جدَّتي كافية للنجاح في الحياة الزوجية. كانت تُحب الشراء، فكنّا نقضي أمسياتٍ بكاملها في محلات الألبسة ننتقي الخرق، تلك الأمسيات التي كنتُ سأستفيدُ منها أكثر لو جبت باريس ومعي الكاميرا في يدي.

لا أدري كيف انقضى العامُ. حين تعافت باولينا ظاهريّاً من أمراضها، وتحوّلَ فريدريك وليامز إلى خبير في خشب براميل النبيذ وصناعة الأجبان، بدءاً من أكثرها تعفناً وانتهاء بأكثرها ثقوباً، تعرَّفنا على دييغو دومينْغِثْ في حفلة رقص في المفوّضية التشيلية بمناسبة الثامنِ عشر من أيلول، يوم الاستقلال. قضيت ساعات أبديّة بين يدي الحلاّق، الذي بنى فوق رأسي برجاً من اللفافات والجدائل الصغيرة المزيّنة باللؤلؤ، كانت مأْثَرَة حقيقيّة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ شعري كان مسترسلاً مثل شعر عرف الجواد. وكان فستاني بدعة رغوية من حلوى البيض والسكر المرشوش بالخردل، التي راحت تنفرط خلال الليل وتزرع أرض المفوّضية بالحصى البرّاقة. «لو كان باستطاعة أبيك أن يراكِ الآن!»، هتفت جدّتي مندهشة حين انتهيت من زينتي. كانت هي مغطاة من قدميها حتى رأسها بالبنفسجي، لونها المُفضّل، وتضع عقداً من اللؤلؤ الوردي في عنقها، وخصلاً من الشعر المستعار متراكمةً فوق بعضها مثل شجرة مُغنة، وأسناناً خزفية دقيقة، ودثاراً من المخمل الأسود

المطرّز بالزبرجد من العنق وحتى الأرض. دخلنا إلى الرقص هي إلى ذراع فريدريك وليامز، وأنا إلى ذراع بحّار إحدى سفن الأسطول التشيلي التي تقوم بزيارة مجاملة إلى فرنسا، وهو شاب مُبتذل لا أستطيع أن أتذكّر وجهه ولا اسمه، والذي أخذ على عاتقه، بمبادرة ذاتية منه، أمر تدريبي على الأسطرلاب لأهدافٍ مِلاحِيّة. شكّل وقوف دييغو دومينغِث أمام جدّتي ليُقدّم نفسه إليها، بكلّ ألقابه. ويسألها ما إذا كان باستطاعته أن يرقص معي، راحةً هائلة لي. هذا ليس اسمه الحقيقيّ، لقد بدّلتُه في هذه الصفحات لأنّ كلّ ما يتعلّق به وبأسرته يجب أن يبقى في مأمنٍ. يكفي أن نعرف أنّه وُجِد، وأنّ قصّته صحيحة وأنّني غفرتُ له. لمعت عينا باولينا دِل بالْيِه حماساً حين رأت دييغو دومينغِث، فها قد صار عندنا أخيراً خاطبُ ودٍّ مقبولٌ بالاحتمال، ابن ناس معروفين، وغنيّ بكلّ تأكيد، ويتمتّع بآداب تامّة، بل ووسيم أيضاً. هي وافقت، وهو مدّ لي يده وخرجنا لنبحر. أخذ السيّدُ دومينغِث بعد أوّلِ فالس بطاقةَ رقصي، وملأها بيده وخطّه، مقصياً بضربة ريشة خبير الأسطرلاب وطامحين آخرِين للرقص معي. عندئذٍ نظرتُ إليه بحذرٍ أكبر وكان عليّ أنّ أقبل بأنّه يبدو ممتازاً، فهو يُشِع صحّة وقوّة، وله وجه لطيف، وعينان زرقاوان، وهيئة رجولية. كان يبدو منزعجاً في بدلته الرسمية، لكنّه يتحرّك بثقة ويرقص جيّداً، حسن، في جميع الأحوال كان أفضل منّي، فأنا أرقص مثل إوزّة رغم سنة الدروس المكثّفة التي تلقيتها في مدرسة الآنسات؛ ثمّ إنّ الاضطراب زاد من ارتباكي. في تلك الليلة، عشقت بكلّ وَلَهِ وطيشِ الحبِّ الأوّل. كان دييغو دومينغِث يقودني بيدٍ ثابتة في حلبة الرقص، ينظر إلي بتركيز وصمت شبه دائم، لأنّ محاولاته لإقامة حوار كانت تتحطّم على صخرة أجوبتي المبتورة. كان خجلي يُعذّبني، فلم أستطع أن أتحمل نظرته، ولا أعرف أين أوجه نظراتي؛ وحين شعرت بحرارة أنفاسه تُلامس خدّيّ، انحلّت ساقاي، واضطررت أن أُصارع يائسةً إغواء الخروج راكضةً لأختبئ تحت إحدى الطاولات. لا شكّ أنّني لعبتُ دوراً حزيناً، وهذا الشاب سيّئ الحظّ تسمّر بجانبي جرّاء الصلف الذي ارتكبه حين ملأ بطاقتي باسمه. وفي لحظة ما قلتُ له إنّه ليس مُجبراً على الرقص

معي، إذا كان لا يريد. فأجابني بقهقهة كانت الوحيدة في تلك الليلة، وسألني كم عمري. ما كنتُ قبل ذلك بين ذراعي رجل أو شعرتُ قط بضغط من راحة كفٍّ ذكرٍ على فجوة خصري. كانت يداي ترتاحان واحدة على كتفه وأخرى في يده المُقَفَّزَة، ولكن ليس بخفّة الحمامة المطوّقة كما كانت تطلب معلّمةُ الرقص، لأنّه كان يضغطُ عليّ بتصميم؛ ويُقدِّم إليَّ في بعض الوقفات القصيرة كؤوس شمبانيا شربتُها لأنّني لم أجروً على رفضها، والنتيجة هي أنّني صرت أدوس على قدميه بتواتر أكبر خلال الرقص. وحين بدأ الوزير التشيلي بإلقاء كلمة في نهاية الحفل كي نشرب نخب الوطن البعيد وفرنسا الجميلة، وقف دييغو دومينغث خلفي وهو من القرب بقدر ما سمحت له بذلك دارةُ فستاني الرغوي، وهمس في رقبتي إنّني «لذيذة» أو شيئاً من هذا القبيل.

في الأيام التالية هُرِعَت باولينا دِل بالْيِه إلى أصدقائها الدبلوماسيين كي تتحقّق دون أدنى مداراة كلّ ما تستطيع معرفته عن أسرة وسوابق دييغو دومينغِث، قبل أن تأذن له بأن يحملني للقيام بجولة على الحصان في حقول الإليزيه، تراقبني من مسافة حكيمة هي والعم فريدريك في العربة. بعدها تناولنا نحن الأربعة مثلجاتٍ تحت بعض المظلات، ورمينا لبّ الخبز للبط، واتفقنا أن نذهب إلى الأوبرا في ذلك الأسبوع ذاته. ومن مشوار إلى مشوار، ومن مثلجات إلى مثلّجات وصلنا إلى تشرين الأوّل. كان دييغو قد سافر إلى أوروبا مرسلاً من قبل والده في المغامرة الإجبارية التي على كلّ تشيلي من الطبقة العليا أن يقومَ بها، مرّة في حياته، كي يَتَفَتَّحَ. وبعد أن جاب عدداً من المدن وزار بعضَ المتاحِف والكاتدرائيات كي يقوم بواجبه، ويتشرّب بالحياة الليلية والشيطنات الغرامية، التي ستشفيه افتراضاً وللأبد من تلك الرذيلة وتمنحه مادّة للتبجّحِ أمام أصدقاء السوء، كان جاهزاً للعودة إلى تشيلي، ليركّز تفكيره، ويعمل ويتزوَّجَ ويؤسّس أسرته الخاصّة. كان دييغو دومينغِث بالمقارنة مع سِبرو دِل بالْيِه، الذي عشقته دائماً في طفولتي، قبيحاً، وبالمقارنة مع ماتيلدِ بينِدا غبيّاً، لكنّني لم أكن في وضع يسمحُ لي

بالقيام بهذه المقارنات : كنتُ واثِقةً من أنّني عثرتُ على الرجل الكامل وأكاد لاأصدّق أنّه ركّز عليّ. فريدريك وليامز رأى أنّه ليس من الحكمة التمسّك بأوَّلِ عابر طريق، فأنا ما أزال في أوّل شبابي وسيفيض عنّي المريدون بما يسمح لي بأن أختار بهدوء، لكنَّ جدّتي أكّدت أنّ ذلك الشاب أفضل ما يُقدّمه سوقُ الزواج، على الرغم من عائق أنّه مُزارع ويعيش في الريف بعيداً جدّاً عن العاصمة.

ـ بالباخرة والقطار يمكن السفر دون مشاكل ـ قالت.

ـ لا تستبقي الأمور كثيراً يا جدّتي، فالسيّد دومينغِث لم يُلمِّح إليّ بشيء مما تتصوَّرين ـ وضّحتُ لها وقد احمررت حتى أذنيَّ.

ـ خير لك أن تفعلي ذلك سريعاً وإلاّ اضطررت أن أحصره بين الجدار والسيف.

ـ لا! ـ هتفتُ مذعورة.

ـ لن أسمح بأن تُلدغ حفيدتي. ولا نستطيع أن نُضيّع الوقتَ. إذا لم يكن هذا الشاب جادّاً بنواياه، فعليه أن يُخلي الساحة الآن فوراً.

ـ لكن، لماذا السرعة ياجدّتي؟ لقد تعارفنا للتو...

ـ هل تدرين كم عمري يا أَوْرورا؟ ستة وسبعون عاماً. قليلون هم من يعيشون كلّ هذا العمر. عليّ أن أتركك متزوّجة بشكلٍ لائق قبل أن أموت.

ـ أنت خالدة يا جدّتي.

ـ لا يا بُنيّي، فقط بالمظهر. ـ ردّت.

لا أدري ما إذا كانت قد أوقعت دييغو دومينغِث في مصيدتها، أم أنّه أدرك التلميحات واتخذ قراره بنفسه. الآن، وأنا أستطيع أن أرى ذلك الفصل عن مسافة معيّنة وببعض المرح، أُدرِكُ أنّه لم يعشقني قط، فقط شعر بأنّه مُحظوظ بحبّي غير المشروط. ولا بدّ أنّه وضع في الميزان ميّزات الارتباط بي. ربّما كان يشتهيني، فكلانا كان شابّاً ومستعدّاً للحب؛ وربّما فكّر أنّه سيتوصّل مع الزمنِ إلى أن يُحبّني، وربّما تزوّج مني كسلاً ومصلحةً. كان دييغو مكسباً وأنا

كذلك: فقد كنتُ أملك تحت تصرّفي الإيرادات التي خلّفها لي والدي، ويُفترَض أنّني سأرث أيضاً ثروة من جدّتي. ومهما كانت دوافعه، فما جرى هو أنّه طلب يدي ووضع في إصبعي خاتماً من الماس. علامات الخطر كانت واضحة لكلّ من ملك عينين في وجهه، إلاّ لجدّتي التي أعماها الخوف من أن تتركني وحدي، وبالنسبة إليّ، أنا التي كنتُ مجنونةً حبّاً، لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبةِ إلى العم فريدريك الذي أصرّ منذ البداية على أنّ دييغو دومينغِث لم يكن الرجل المناسب لي. وبما أنّه لم يكن يُحبّ أن يقترب منّي أحد خلال السنتين الأخيرتين، فإنّنا لم نولِ رأيه اهتماماً، واعتقدنا أنّها غيرة أبويّة. «يبدو لي هذا الرجل ذا مزاج باردٍ إلى حدّ ما»، علّق أكثرَ من مرّة، وردّت عليه جدّتي بأنّها لم تكن برودة، بل احتراماً، كما يليقُ بفارس تشيلي كامل.

دخلت باولينا دِل بالْيِه حمّى الشراء. ومع السرعة راحت الصرر تنتهي إلى الصناديق دون أن تُفتَح، ثم، وحين أخرجناها إلى النور في سانتياغو، وجدنا أنّ هناك قطعتين من كلّ شيء، وأن نصفها ليس على مقاسي. وحين علمتْ أنّ دييغو دومينغِث سيرجع إلى تشيلي اتفقتْ معه على العودة في الباخرة ذاتها، وهذا سيمنحنا بضعَ أسابيع كي نتعارف بشكلٍ أفضل، كما قالوا. مطّ فريدريك وجهَهُ وحاول أن يُخَرِّب هذه الخطط، لكن لم تكن هناك قوّة في هذا العالم تستطيع مواجهة تلك السيِّدة حين تُدخِلُ شيئاً في رأسها، وهوسها في تلك اللحظة هو تزويج حفيدتها. ما أتذكّره من الرحلة قليل، وقد مضى في ضباب التنزّه على سطح الباخرة، ولعب الكرة والورق والكوكتيل والرقص حتى بوينس آيرس، حيث افترقنا لأنّه كان عليه أن يشتري بعض ثيران التلقيح ويقودها عبر دروب جبال الأنديز الجنوبية إلى إقطاعيته. قليلة هي الفرص التي أتيحت لنا كي نلتقي على انفرادٍ أو نتحدَّث دون شهود، وقد عرفتُ الجوهريّ من سنوات ماضيه الثلاث والعشرين وأسرته، لكنّني لم أعرف شيئاً تقريباً عن أذواقه، معتقداته وطموحاته. قالت له جدّتي إنَّ والدي ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث قد تُوفّي، وإن أمي أمريكية لم نعرفها لأنّها

ماتت عندما ولدتني وهو ما كان يتفق مع الحقيقة. لم يُبدِ دييغو فضولاً لمعرفة المزيد؛ كما أنّ ولعي بالتصوير لم يُثر اهتمامه، وحين وضّحت له أنّني لا أفكّر بالتنازل عن التصوير، قال إنّه لايمانع، فأخته كانت ترسم رسوماً مائية، وزوجة أخيه تطَرِّز الكنويشة «الكنفا». ولم نستطع أن نتعرَّف معرفة حقيقية أثناء عبورنا الطويل للبحر ، لكنّنا رحنا نَعْلَقُ في نسيج جدّتي القوي الذي حاكته بأفضلِ قصدٍ حولنا.

وبما أنّه كان لا يوجد إلاّ القليل مما يستحقّ التصوير في الدرجة الأولى من عابرة المحيط، باستثناء ثياب السيّدات والتزيينات النباتية في المطعم، كثيراً ما كنت أنزل إلى الطوابق السفلية كي ألتقط صوراً، وخاصّة لأناس الدرجة الأخيرة، الذين كانوا يمضون مكدّسين في بطنِ السفينة: عمّال، مهاجرون في طريقهم إلى أمريكا ليتلمسوا حظّهم، روس، وألمان، وإيطاليون، ويهود، وأناس يُسافرون بالقليلِ جداً مما يحملون في جيوبهم، لكن بقلب مفعم بالأمل. بدا لي أنّ الركّابَ على الرغم من الإزعاج وانعدام الإمكانات يتسلّون أفضل مما في الدرجة العليا، حيث كلّ شيء كان متصنعاً، واحتفاليّاً ومُمِلاً. كانت تقوم بين المهاجرين رفقة أسهل، الرجال يلعبون بالورق والدومينو، والنساء يشكلن مجموعاتٍ ليحكين لبعضهن بعضاً عن حياتهن. الأطفال يرتجلون قصب صيد ويلعبون لعبة الاختباء، وفي المساء تزدهي الكيتارات والأكورديونات والنايات والكمنجات، ويقيمون حفلات بهيجة من الغناء والعزف والرقص والبيرة. لم يبد أنّ أحداً يهتم بوجودي، لم يسألوني، وبعد أيّام قليلة قبلوني كواحدة منهم، وهذا ما سمح لي بأن أصوّرهم على هواي. لم يكن باستطاعتي أن أبيّض النيكاتيفات في السفينة، لكنّني صنّفتها بعناية كي أقوم بذلك فيما بعد في سانتياغو. وفي واحدة من تلك النزهات التي قمت بها إلى طبقات السفينة السفلى التقيت فجأة بآخر شخص كنت أتوقّع أن أراه هناك.

ـ جنكيز خان! ـ هتفتُ حين رأيته.

ـ أعتقد أنّك تخلطين بيني وبين آخر يا آنسة...

ـ عفواً يا دكتور رادوفيك ـ توسّلتُ، شاعرة بأنّني بلهاء.

ـ هل نعرف بعضنا بعضاً؟ ـ سأل مستغرباً.

ـ ألا تذكرني؟ أنا حفيدة باولينا دِل بالْيِه.

ـ أورورا؟ عجباً، ما كنتُ لأعرفك أبداً. كم تغيّرت!

صحيح أنّني تغيّرتُ. فقد عرفني قبل سنة ونصف وأنا بلباس طفلة، والآن يجد أمامه امرأة بكلّ معنى الكلمة، ومعها كاميرا معلّقة إلى عنقها وخاتم خطبة في إصبعها. في هذه الرحلة بدأت الصداقة التي ستُغيّر مع الزمن مسار حياتي. الدكتور إيفان رادوفيك، مسافر الدرجة الثانية، لم يكن يستطيع أن يصعد إلى سطح الدرجة الأولى دون دعوة، أما أنا فاستطيع الهبوط لزيارته، وقد قمت بذلك كثيراً. حكى لي عن عمله بالحماس ذاته الذي كلّمته به عن التصوير؛ كان يراني أستخدم الكاميرا، لكنّني لم أستطع أن أريه شيئاً مما فعلته من قبل، لأنّه كان في أسفل صناديق الأمتعة، إلاّ أنّني وعدته أن أفعل ذلك عند وصولنا إلى سانتياغو. ومع ذلك لم تحدث هكذا، لأنّني خجلت من دعوته من أجل هذا الهدف؛ فقد بدا لي ذلك نوعاً من العبث، ولم أشأ إضاعةَ وقتِ رجلٍ مشغول بإنقاذ حياة الناس. وحين علمت جدّتي بوجوده على ظهر السفينة دعته على الفور لتناول الشاي في شرفة جناحنا. «بوجودك هنا أشعر بالأمان في عباب البحر يا دكتور. وإذا ما ظهرت كتلةٌ أخرى في بطني فسوف تستأصلها بسكين من سكاكين المطبخ»، قالت مازحة. وتكرّرت الدعوات لتناول الشاي مرّات كثيرة، تبعها لعب الورق. وقد حكى لنا إيفان رادوفيك أنّه أنهى تدريباته في عيادة هوبّز، وهو عائد إلى تشيلي ليعمل في مستشفى.

ـ لماذا لا تفتتح عيادة خاصّة بك يا دكتور؟ ـ اقترحت جدّتي، التي شعرت بودّ تجاهه.

ـ لن أملك أبداً الرأسمال والاتصالات التي يتطلّبها ذلك يا سيّدة دِل بالْيِه.

ـ أنا مستعدّة للتمويل، إذا رأيت ذلك.

ـ لا أستطيع ولا بشكلٍ من الأشكال أن أسمح بـ ...

ـ لا أفعل ذلك لأجلك، بل لأنّه يشكل استثماراً جيّداً يا دكتور رادوفيك ـ قاطعته جدّتي ـ فالجميع يمرضون، الطب تجارة عظيمة.

ـ أعتقد أنّ الطبّ ليس تجارة، بل حقّ يا سيّدتي. أنا كطبيب مُجبرٌ عليّ أن أخدم الناس، وآمل أن تصبح الصحة ذات يومٍ في متناول كلّ تشيلي.

ـ هل أنت اشتراكيّ؟ ـ سألت جدّتي بحركة اشمئزاز، لأنّها بعد «خيانة» الآنسة ماتيلدِ بيبِدا فقدت الثقة بالاشتراكية.

ـ أنا طبيب يا سيّدة دِل بالْيِه. وكلّ ما يهمّني هو أن أشفي الناس.

عدنا إلى تشيلي في نهاية كانون الأوّل من العام 1898، ووجدنا أنفسنا أمام بلد في عزّ أزمته الأخلاقية. لا أحد، بدءاً من الإقطاعيين حتى معلمي المدارس وعمّال ملح البارود، كان راضياً عن نصيبه أو الحكومة. بدا أنّ التشيليين مذعنين لعيوب عريكتهم، مثل الثمالة والكسل والسرقة والعيوب الاجتماعية، مثل العوائق البيروقراطية والبطالة وعدم فعالية العدالة، والفقر الذي يتناقض مع التبجح الوقح للأثرياء والذي راح يخلق حنقاً متنامياً وأخرس راح ينتشر من الشمال إلى الجنوب. لانتذكر أن سانتياغو كانت بتلك الوساخة، والناس البؤساء الكثيرين، وبيوت الدعارة الموبوءة بالصراصير الكثيرة، والأطفال الكثيرين الميتين قبل أن يدركوا سن المشي. الصحافة تؤكّد أنّ مؤشّر الوفيات في العاصمة يُعادل مثيله في كالكوتا. بيتنا في شارع إخِرثيتو ليبِرادور كان قد بقي تحت رعاية عمّتين بعيدتي القرابة فقيرتين، من الأقرباء الكثيرين التي تذخر بهم كلّ أسرة في تشيلي، وبعض المستخدمين. كان قد مضى على العمّتين أكثر من سنتين وهما تسودان في تلك الأملاك، واستقبلتانا دون حماس كبير، يرافقهما كراميلو الذي شاخ إلى حدّ أنّه لم يعرفني. كانت الحديقة قد أصبحت مسرحاً للأعشاب الضارة،

والنوافير الإسلامية عطشى، والقاعات تفوح منها رائحة القبور، المطابخ تبدو إسطبلات، ويوجد خراء فئران تحت الأسرّة، لكن لا شيء من هذا أزعج باولينا دِل بالْيِه، التي وصلت مستعدةً للاحتفال بعرس القرن، ولم تكن لتسمح لشيء، لا لعمرها، ولا لحرّ سانتياغو، ولا لمزاجي الانطوائي أن يمنعها من ذلك. كانت تملك أشهر الصيف التي يخرجُ فيها الجميعُ إلى الشاطئ أو الريف، كي تُحدِّثَ البيت، لأنّ الحياة الاجتماعية يزداد زخمها في الخريف، ويجب التحضير لزواجي في أيلول. في بداية الربيع، شهر الأعياد الوطنية والأعراس، تماماً بعد عام من لقائنا أنا ودييغو. أخذ فريدريك ليامز على عاتقه أمر التعاقد من جيش من البنّائين والنجارين والجنائنيين والخدم انكبّوا على مهمّة تجديد تلك الفاجعة بالسرعة المعتادة في تشيلي، دون سرعة مفرطة. جاء الصيف مغبرّاً وحارقاً، برائحة دراقه وصيحات باعتِهِ المتجوّلين يدلّلون على ملذّات الفصل. المقتدرون ذهبوا إلى الريف أو إلى الشاطئ؛ فكانت المدينة تبدو ميتة. ظهر سِبِرو دِل بالْيِه في زيارة ومعه أكياس من الخضار، وسلال من الفاكهة وأخبار سارّة عن الكروم؛ جاء محمّصَ الجلدِ، وأضخمَ جسماً وأجملَ من أيّ وقتٍ مضى. نظر إليّ فاغر الفم، مستغرباً أن أكون أنا الصغيرة التي ودّعها قبل سنتين، جعلني أدور مثل خذروفٍ كي يراني من كلّ الزوايا، ولسان حاله الكريم يقول إنّ لي ملمحاً يشبه ملمح أمّي. تلقّت جدّتي ذلك التعليق متشائمة، إذ إن ماضيَّ لم يكن يُذكر بحضورها، فحياتي بالنسبة إليها تبدأ في الخامسة من عمري، حين عبرت عتبة قصرها في سان فرانسيسكو، وما سبق لا وجود له. بقيت نيبيا في الإقطاعية مع الأولاد لأنّها توشك أن تلد من جديد، وكانت أثقلَ من اللازم كي تقوم بالرحلة إلى سانتياغو. وقال سِبِرو دِل باليه إن تباشير إنتاج العنب جيّدة في ذلك العام، وقد فكّر أن يجني عنب النبيذ الأبيض في آذار، والأحمر في نيسان، وأضاف إنّ هناك دواليَ للنبيذ الأحمر مختلفة تماماً تنمو مختلطة بالأخرى، كانت أكثر حساسية وتصاب بالمرض بسرعة، وتتأخّر بالنضج. رغم أنّها كانت تُعطي ثمراً رائعاً، إلاّ أنّه كان يُفكّر باقتلاعها كي يُوفِّر على نفسه المشاكلَ. وعلى الفور شنّفت باولينا

دِل بالْيِه أذنيها، ورأيت في عينيها بريق الطمع ذاته الذي يدلّ دائماً على فكرة شيء مُربِح.

ـ تنقلها وتزرعها منفصلة ما إن يبدأ الخريف. اعتنِ بها وفي العام القادم سنصنع منها نبيذاً خاصّاً ـ قالت.

ـ ولماذا سنحشر أنفسنا في هذا؟ ـ سأل سِبِرو.

ـ إذا كانت هذه الأعناب تنضج متأخِّرة فيجب أن تكون أكثر نعومة وتركيزاً. وبالتأكيد سيكون النبيذ أفضل بكثير.

ـ نحن ننتج أفضل نبيذ في البلد يا عمّتي.

ـ ارضني يا ابن أخي، وافعل ما أطلبه منك... ـ توسّلت إليه جدّتي بالنبرة المتملّقة التي تستخدمها قبل أن تُعطي أمراً.

لم أستطع أن أرى نيبيا إلاّ يوم زواجي ذاته، حين وصلت مع ابن حديث الولادة على ظهرها لتشي إليّ بسرعة بالمعلومات الأساسية التي على كلّ عروس أن تعرفها قبل شهر العسل، ولم يزعج أحد نفسَهُ في إعطائها لي قبل ذلك. ومع ذلك فعذريتي لم تحمني من الخوف من الوله الغريزي الذي لم أكن أعرف كيف أسميه، كنتُ أفكِّر بِدييغو ليلاً ونهاراً ولم تكن أفكاري دائماً عفيفة. كنتُ أشتهيه، لكنّني لم أكن أعرف تماماً لماذا. أريد أن أكون بين ذراعيه، أن يُقبّلني كما فعل مرّتين أو أكثر، وأن أراه عارياً. لم أرَ رجلاً قط عارياً، وأعترفُ أنّ الفضول كان يؤرقني. هذا هو كلّ شيء، وبقية الطريق لغزٌ. كانت نيبيا بنزاهتها الجسورة الوحيدة القادرة على تدريبي، لكن لن يكون ذلك إلاّ بعد سنواتٍ عدّة، حين ملكنا الوقت والفرصةَ لتعميق صداقتنا، ولتحكي لي أسرار حميميّتها مع سِبِرو دِل بالْيِه وتصف لي بالتفصيل وهي تموت ضحكاً الوضعيات التي تعَلَّمها من مجموعة خالها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا. في تلك المرحلة كنت قد خلّفت ورائي البراءة، ولكنّني مازلت جاهلة جدّاً في الموضوع الإيروسي، كما هو حال جميع النساء تقريباً، وغالبية الرجال أيضاً، حسب ما تؤكّد لي نيبيا. «لولا كُتب خالي، لأنجبت الخمسة عشر ولداً دون أن أدري كيف» قالت لي. وقد

أفادتني نصائحُها، التي لو سمعتها عمّاتي لوقفت شعور رؤوسهنّ كثيراً، في حبّي الثاني، لكنّها ما كانت لتفيدني بشيءٍ في حبي الأوّل.

عشنا ثلاثةَ أشهر طويلة مُتَكوّمين في أربعة غرف من بيت إخِرثيتو ليبرادور، ونحن نلهث من الحرّ. لم أملّ، لأنّ جدّتي سرعانَ ما جدّدت أعمالها الخيرية، رغم أنّ جميع عضوات نادي السيّدات قد ذهبن للاصطياف. كان الانضباطُ قد تراخى أثناء غيابها، وعليها أن تُمسك من جديد بزمام الرحمة الإجبارية؛ عدنا لنزور المرضى والأرامل والمجانين، ونوزِّعَ الطعام، ونشرف على القروض للنساء الفقيرات . هذه الفكرة التي سخروا منها حتى في الصحافة، لأنّه ما من أحدٍ فكّر أنّ المنتفعات ـ جميعهنّ في الدرك الأخير من الفاقة ـ سيُعدن المال، وقد جاءت النتائج رائعة، بحيث إنّ الحكومة ذاتها قامت بمحاكاتها. لم تكن النساء يدفعن القروضَ بدقة وعلى شكل أقساط شهرية وحسب، بل يُساندن بعضهنّ بعضاً أيضاً، وهكذا حين يوجد من لا تستطيع أن تُسدّد، تفعل البقيّة ذلك عنها. أعتقد أنّ باولينا دِل بالْيه قد خطر لها أنّها تستطيع أن تأخذ منهنّ فائدة وتحوّل الإحسانَ إلى تجارة، لكنّني أوقفتُها بخشونة. انتهرتُها: «لكلّ شيء حدّ يا جدّتيّ، حتى الطمع». مراسلاتي المتحمّسة مع دييغو أبقتني متعلّقة بالبريد. واكتشفت أنّني قادرة على التعبير بالرسائل عمّا لم أكن لأجروَ قط على التعبير عنه وجهاً لوجه؛ فالكلمة المكتوبة مُحرِّرة بشكل عميق. فاجأت نفسي أقرأ شعراً غرامياً بدل الروايات التي كانت تُعجبني في السابق. إذا كان شاعر ميت على الطرف الآخر من العالم يستطيع أن يصف مشاعري بكلّ تلك الدقّة، فعليّ أن أقبل بتواضع أنّ حبّي ليس استثناءً، ولم أبتدع شيئاً، فجميع الناس يعشقون بالطريقة ذاتها. كنتُ أتصوَّرُ خطيبي يخبّ على جوادٍ في أراضيه، بطلاً أسطوريّاً، عريض المنكبين، نبيلاً، راسخاً، أنيقاً، رجلاً ضخماً سأكون بين يديه في أمان؛ وسيجعلني سعيدةً ويوفِّر لي الحمايةَ والأولادَ والحبَّ الخالد. كنتُ أتخيّل مستقبلاً من قطن مندوفٍ وسكّر نطفو فيه متعانقين للأبد. كيف كانت رائحة جسد الرجل الذي أحبّ؟ رائحة ذُبالٍ كالغابات التي يأتي منها، أو عبق

فرن الخبز العذب، أو ربما رائحة البحر، إنها كالعبق الطلق الذي يغزو أحلام طفولتي. وسرعان ما تصبح الحاجة لشمّ دييغو قوية مثل نوبة ظمأ، فأرجوه في رسالتي أن يرسل إليّ أحد مناديله التي يضعها على رقبته أو أحد قمصانه غير المغسولة. كانت أجوبة خطيبي على هذه الرسائل الجيّاشة أخباراً هادئة عن الحياة في الريف ـ الأبقار، القمح، العنب، سماء الصيف بلا مطر ـ وتعليقات معتدلة حول أسرته. طبعاً لم يرسل قط أيّاً من مناديله أو قمصانه. وفي الأسطر الأخيرة يُذكّرني كم يُحبّني، وكم سنكون سعيدين في البيت الطيني والقرميدي الرطب الذي كان يبنيه أبوه لنا في المزرعة، تماماً كما كان قد بنى من قبل بيتاً لأخيه إدواردو، حين تزوّج من سوزانا، وكما سيفعل أيضاً بالنسبة إلى أخته أدِلا عندما ستتزوّج. عاشَ آل دومينغِث لأجيال معاً، وكان حبُّ المسيح، ووحدةُ الأخوة، واحترامُ الأب والعمل القاسي، كما كان يقول، أساس الأسرة.

مهما كتبتُ وتنهّدتُ وأنا أقرأ الأشعار، كان يفيض عنّي الوقت، بحيث إنّني عدتُ إلى استديو دون خوان ريبِرو، وطفتُ في المدينة ملتقطة صوراً، وعملتُ ليلاً في غرفة التحميض التي أنشأتها في البيت. جرّبتُ الطباعة بالبلاتين، وهي تقنيّة جديدة تنتج صوراً جميلةً جداً. الطريقة كانت بسيطة جدّاً، وإن كانت مُكلفة أكثر، لكنّ جدّتي كانت تتحمّل النفقات. يُدهن الورق بمحلول البلاتين بالفرشاة، والنتيجة صور رائعة في تدرّجات ألوانها الناعمة وإضاءتها ووضوحها، وعمقها الكبير بحيث تبقى ثابتة لاتتبدّل. مضت عشر سنوات ومازالت هي أروع صور في مجموعتي. حين أراها، تنبثق أمامي ذكريات كثيرة بنقاء تلك الصور المطبوعة بالبلاتين الرائع. أستطيع أن أرى جدّتي، سِبِرو، نيبيا، الأصدقاء والأقرباء، كما أستطيع أيضاً أن أرى نفسي في بعض صوري الذاتية تماماً، كما كنت آنذاك، قبل الأحداث التي ستبدّل مجرى حياتي.

حين جاء فجر ثاني ثلاثاء من آذار كان البيت يزدهي بحلّته الجديدة، فقد أُحدثت فيه تمديدات غاز جديدة وهاتف ومصعد لجدّتي، وورق جدران أُحضر من نيويورك وسجاد جدران قشيب في

الغرف، خشب الأرض مصقول بالشمّع حديثاً، والبرونز قد لمُّعَ، والبلور مغسول، ومجموعة اللوحات الانطباعية قد علقت في القاعات. جيش جديد من الخدم بلباس موحد بقيادة رئيس خدم أرجنتيني، انتزعته باولينا دِل بالْيِه من فندق كريليون دافعة له ضعفَ أجره.

- سينتقدوننا يا جدّتي. لا أحد عنده رئيس خدم ، هذا تحذلق - نبّهتها.

- لا يهمّ. لا أفكّر أن أناطح هنديّات مابّوتشيات ينتعلن الشبشب ويرمين الشعر في الحساء، ويلقين بالأطباق على الطاولة - ردّت، عازمةً على إدهاش مجتمع العاصمة بعامّة، وأسرة دييغو دومينغِث بخاصّة.

وهكذا انضمّ المستخدمون الجدد إلى الخادمات القديمات اللواتي مضى عليهنّ أعوام في البيت، ولا يمكن صرفهنّ طبعاً. فبلغ عددُ أشخاص الخدمة ما جعلهم يتمشون بلا عمل ويتعثر بعضهم ببعض، ويحدثون من القيل والقال والسفالات الشيء الكثير حتى تدخّل فريدريك وليامز أخيراً لينظم الأمور، لأنّ الأرجنتيني لم يكن يعرف من أين يبدأ. وقد أثار هذا اهتياجاً، إذ لم يحدث أن شُوهد سيّد البيتِ يتنازل إلى مستوى الخادم، لكنّه فعل ذلك بكلّ دقّة؛ لشيء ما أفادته تجربته الطويلة في المهنة. لا أظنّ أنّ دييغو دومينغِث وأسرته، وهم أوّل زوّارنا، قد قدّروا أناقةَ الخدمة، بل على العكس ارتبكوا أمام كلّ تلك الفخامة. كانوا ينتمون إلى سلالة عريقةٍ من ملاّكِ أراضي الجنوب، لكنّهم وعلى العكس من أصحاب الإقطاعيات في تشيلي، الذين يقضون شهرين في أراضيهم ويعيشون بقيّة الوقت من ريعها في سانتياغو أو أوروبا، كانوا يولَدون، يكبرون ويموتون في الريف. كانوا ذوي تقاليد عائلية راسخة، عميقةً في كاثوليكيّتهم وبساطتهم، ليس عندهم أيّ تفنّن من النوع الذي فرضته جدّتي، وبدا لهم ذلك دون شك منحطّاً قليلاً، ليس فيه من المسيحية إلاّ القليل. لفت انتباهي أنّ عيونهم جميعاً زرقاء، باستثناء سوزانا، زوجة أخ دييغو، ذات الجمال الأسمر والهيئة الواهنة ، مثل

لوحة زيتية إسبانية. وقد ارتبكوا أمام صف الأطباق والأكواب الستة على المائدة، وما من أحد منهم ذاقَ البطّ بالبرتقال، وخافوا قليلاً حين وصلت صحون الحلوى مشتعلةً. وتساءلت دونيا إلڤيرا، والدة دييغو، حين رأت استعراضَ الخدم بلباسهم الموحّد، لماذا كلّ هؤلاء العسكر في البيت. صُعقوا أمام اللوحات الانطباعية، واثقين من أنّني أنا من رسم تلك الترهات وأنّ جدّتي، نتيجة خرفها التام، علّقتها إلى الجدار، لكنّهم قدّروا قليلاً كونشرتو الجُنك والبيانو الذي قدّمناه في قاعة الموسيقى. كان الحديث معهم يموت مع الجملة التالية حتى جاء الحديث عن ثيران التلقيح التي أفسحت المجال للحديث عن تكاثر المواشي، وهو ما أثار كثيراً اهتمامَ باولينا دِل بالْيِه، التي كانت تُفكِّر دون شكّ بصناعة الأجبان، نظراً لعدد الأبقار التي يملكونها. وإذا كان هناك من شكّ بحياتي المستقبلية في الريف إلى جانب قبيلة زوجي، فقد بددتها تلك الزيارة. لقد أحببت هؤلاء الريفيين ذوي السلالة العريقة، الطيّبين دون إدعاء، الأب الطافح اللون، الضحوك، الأمّ البريئة للغاية، الأخ الأكبر اللطيف والرجولي، زوجة الأخ الغامضة والأخت الصغرى المرحة مثل كناري، الذين قاموا برحلة دامت عدّة أيّام كي يتعرَّفوا عليّ. وقد قبلوا بي بطبيعية وأنا واثقة من أنّهم ذهبوا مرتبكين قليلاً من طريقتنا في الحياة، لكن دون أن ينتقدونا، لأنّهم غير قادرين على التفكير بمثل هذا الشكل السيّئ. اعتبروني، نظراً لاختيارِ دييغو لي، جزءاً من الأسرة، كان هذا يكفيهم. بساطتهم سمحت لي بالاسترخاء، الشيء الذي نادراً ما يحدث لي مع الغرباء، وبعد فترة قصيرة وجدتُ نفسي أتحدّثُ مع كلّ واحد منهم، أحكي لهم عن رحلة أوروبا، وعن هوايتي للتصوير. «أرِني صورك ياأورورا»، طلبت منّي دونيا إلڤيرا، وحين فعلت ذلك لم تستطع أن تُخفي خيبة أملها. أظنّ أنّها كانت تأملُ شيئاً أكثر إراحة من فصائل العمّال المضربين، البيوت البائسة، الأطفال مرتدي الأسمال الذين يلعبون في السواقي، التمرد الشعبي العنيف، بيوت الدعارة، المهاجرين المعذّبين يجلسون على أمتعتهم في باخرة. «لكن يا بُنيّتي، لماذا لا تلتقطين صوراً حلوة؟، لماذا تحشرين نفسك في هذه المجاهل؟ في تشيلي مناظر جميلة كثيرة...» همست المرأة

القديسة. كنت على وشك أن أوضِّح إليها أنّ الأشياء الحلوة لا تهمّني، وتهمّني هذه الوجوه المحمّصة من التعب والمعاناة، لكنّني أدركتُ أنّها لم تكن اللحظة المناسبة. سيكون أمامي متسع من الوقت كي أُعرِّف حماتي المستقبلية وبقيّة الأسرة بنفسي.

ـ لماذا أريتهم هذه الصور؟ آل دومينغِث عقلية قديمة، كان عليكِ ألاّ تُخيفيهم بأفكارِك الحديثة يا أورورا ـ أنّبتني باولينا دِل بالْيِه حين ذهبوا.

ـ في جميع الأحوال كانوا قد خافوا من فخامة هذا البيت واللوحات الانطباعية، ألا ترين ذلك يا جدّتي؟ ثمّ إنّ على دييغو وأسرته أن يعرفوا أيّ نوع من النساء أنا ـ رددتُ.

ـ لم تُصبحي امرأة بعد، ما زلت طفلة. ستتبدّلين، سيصبح عندك أولاد، وعليك أن تتأقلمي مع جوّ زوجك.

ـ سأبقى دائماً الشخص نفسه، ولا أريدُ أن أتخلّى عن التصوير. فهذا ليس مثل لوحات أخت دييغو المائية أو تطريز امرأة أخيه، إنّه جزء أساسي من حياتي.

ـ حسن. تزوّجي أوّلاً ثم افعلي ما يحلو لك ـ خلصت جدّتي.

لم ننتظر حتى أيلول، كما كان مُخطّطاً، واضطررنا أن نتزوّج في أواسطَ شهر نيسان، لأنّ دونيا إلْڤيرا دومينغِث أصيبت بنوبة قلبية خفيفة، وبعد أسبوع، حين تعافت بما يكفي كي تخطو عدّة خطوات لوحدها، عبّرت عن رغبتها بأن تراني وقد أصبحتُ زوجةً لابنها دييغو قبل أن تمضي إلى العالم الآخر. كانت بقيّة الأسرة موافقة لأنّه لو ماتت السيّدة فسيتأجل الزواج لمدّة عام على الأقل مراعاة للحداد المعتاد. أذعنت جدّتي للإسراع بالأشياء، ونسيان الاحتفال الملكي الذي كانت تُخطّط له فتنفّستُ الصعداء، لأنّ فكرة أن أعرض نفسي أمام عيون نصف سانتياغو وأنا أدخل الكاتدرائيةَ مستندة إلى ذراع فريدريك وليامز أو سِبِرو دِل بالْيِه، تحت وابل من القصاصات البيضاء، كما كانت تطمح جدّتي، كان يُقلقني جدّاً.

ما الذي أستطيع قوله عن أوّل لقاء حبّ مع دييغو دومينغِث؟

القليل، لأنّ الذاكرة تطبع الأمور بالأبيض والأسود؛ والرماديّ يضيع في الطريق. ربّما لم تكن الأمورُ بائسة جدّاً كما أتذكّر، لكنّني نسيتُ التفاصيلَ، وأحتفظ فقط بإحساس عام من الخيبة والحنق. بعد حفلة العرس الخاصة في بيت إخِرثيتو ليبرادور، ذهبنا إلى الفندق لقضاء تلك الليلة، قبل أن ننطلق لأسبوعين من شهر العسل إلى بوينس آيرِس، لأنّ صحّة دونيا إلڤيرا غير المستقرّة لم تسمح لنا بالابتعاد كثيراً. أحسَسْتُ عندما ودّعتُ جدّتي أنّ جزءاً من حياتي انتهى إلى الأبد. وحين عانقتُها أيقنت بمدى حبّي لها ومدى انكماشها، فقد تدلّت ثيابها منها وأنا أطول منها بنصف رأس. أحسستُ أنّه لم يبقَ أمامها وقت طويل، بدت صغيرة الحجم، هشّةً، عجوزاً مرتعشةَ الصوتِ، صوفيّةَ الركبتين. قليل هذا الذي بقي من السيّدة الرهيبة التي بسطت نفوذها على امتداد سبعين عاماً، وأدارت قدر الأسرة على هواها. وكان فريدريك وليامز يبدو بجانبها ابناً لها، لأن الأعوام لم تكن تمسّه، كما لو أنّه منيع على خطوب الفانين. حتى اليوم السابق على زواجي بقي العم فريدريك ينصحُني من وراء ظهر جدّتي ألاّ أتزوّج إن لم أكن متأكّدة، وأجبته في كلّ مرّة بأنّني لم أكن في حياتي بمثل تلك الثقة. لم أشك بحبّ دييغو دومينغِث. وكان اضطرابي يزدادُ مع اقتراب موعد العرس؛ أنظرُ إلى نفسي في المرآة عارية أو شبه مغطاة بقمصان النوم المطرّزة الرقيقة التي اشترتها لي جدّتي من فرنسا، وأتساءل متلهفة ما إذا كان يراني جميلة. كانت الشامة على عنقي، أو حلمتاي الداكنتان تبدو لي عيباً رهيباً. هل يشتهيني كما أشتهيه؟ وقد تحقّقت من ذلك في ليلة الفندق الأولى. كنّا متعبين، فقد أكلنا كثيراً، وشرب هو أكثر من اللازم، وكنت أنا أيضاً قد ملأت جسدي بثلاثة أكواب من الشمبانيا. حين دخلنا الفندق تظاهرنا باللامبالاة، لكنّ خيط الأرز الذي رحنا نخلّفه على الأرض وراءنا وشى بوضعنا كزوجين جديدين. بلغ خجلي من وجودي وحيدة مع دييغو، ومن تصوّرِ أنّ أحداً في الخارج يتصوّر أنّنا نمارس الحبَّ حدَّ أنني أغلقت الحمّام على نفسي مصابة بالغثيان لفترة طويلة، إلى أن قرع زوجي القشيب الباب بنعومة ليتأكّد مما إذا كنتُ ما أزال حيّة. أخذني من يدي إلى الغرفة، وساعدني على نزع

القبّعة المعقّدة، وأفلت دبابيس كعكة الشعر وحرّرني من سترة الشمواه ، فكّ أزرار لؤلؤ البلوزة الألف، وخلّصني من الفستان الثقيل وبقية الثياب، فلم يبق عليّ غير قميص داخليّ من الباتسيتة ارتديته تحت المشدّ. شعرتُ، بينما راح يخلع عنّي ملابسي، أنّني أذوب مثل الماء، أتبخّر، أتقلّص لأصبح مجرّد هيكل وهواء. قبّلني دييغو على شفتيّ، ليس كما تخيّلتُ مرّاتٍ ومرات كثيرةً في الأشهر السابقة، بل بقوّة واستعجال؛ ثم راحت قبلته تصبح أكثر سطوة بينما راحت يداه تشدّان قميصي، الذي حاولت أن أشدّ عليه، لأنّ فكرة أن يراني عارية كانت يرعبني. المداعبات المستعجلة وظهور جسده فوق جسدي وضعني في حالة دفاع وتوترٍ إلى حدّ أنّني رحتُ أرتعد كما لو أنّني أصبتُ بالبرد، سألني منزعجاً ما بي، وأمرني أن أحاول الاسترخاء، وحين رأى أن ذلك يزيد الأمر سوءاً بدّل نبرته، أضاف بأنّ عليَّ ألا أخاف ووعدني بأن يكون حذراً. نفخ المصباح وتدبّر أمره ليقودني إلى السرير، وأما ما تبقى فحدث بسرعة. لم أفعل شيئاً كي أساعده. بقيتُ بلا حراكٍ مثل دجاجة مصعوقة، أحاول عبثاً أن أتذكّرَ نصائح نيبيا. اخترقني سيفه خلال لحظات، وتمكّنت من أن أوقف صرخة وشعرتُ بطعم الدم في فمي. أصفى ذكرى عن تلك الليلة هي خيبة الأمل. هل هذه هي العاطفة التي طالما استهلك الشعراءُ الحبرَ لأجلها؟ واساني دييغو قائلاً إنّ المرّة الأولى هي هكذا دائماً، وإنّنا سنتعلّم مع الزمن كيف نتعارف وسيصبحُ كلّ شيء أفضل، ثم قبّلني قبلة عفيفة على جبيني، وأدار ظهره لي دون أيّة كلمة أخرى، ونام مثل وليد، بينما سهرت في الظلمة وخرقة بين ساقيّ وألم حارق في بطني وروحي. كنتُ جاهلة إلى حدّ لا يسمح لي بأن أعرف سبب خيبتي، لم أكن أعرف حتى كلمة رعشة، لكنّني سبرت جسدي وعرفت أنّه في مكان ما منه تختبئ هذه اللذّة الزلزالية القادرة على أن تقلب الحياة. دييغو شعر بها في داخلي، كان هذا واضحاً، بينما لم أَخْبَر أنا غير الكرب. شعرتُ بأنني ضحيّة ظلم بيولوجيٍّ هائل: الجنس بالنسبة إلى الرجل سهل ـ يمكنه الحصول عليه حتى بالقوّة ـ بينما هو بالنسبة إلينا من دون لذّة وذو نتائج خطيرة. هل علينا أن نُضيف إلى لعنة آلام الولادة الإلهية لعنةَ الحبّ دون متعة؟

حين استيقظ دييغو في صباح اليوم التالي، كنتُ قد ارتديتُ ملابسي قبل برهة طويلة وقرَّرتُ أن أعود إلى بيتي وألوذَ إلى ذراعي جدّتي الآمنين، لكنّ الهواء الرطب والسير في شوارع مركز المدنية، شبه الخالية في تلك الساعة من يوم الأحد، هدّأني. كان مهبلي، الذي ما أزال أشعر بحضور دييغو فيه، يحرقني، لكن شيئاً فشيئاً راح غضبي يتلاشى، وتهيّأت لمواجهة المستقبل كامرأة وليس كطفلة تافهة سيئة التربية. كنتُ واعية كم كنتُ مدلّلة خلال التسعة عشر عاماً من حياتي، لكنّها مرحلة انقضت؛ والليلة السابقة ابتدأتُ حياتي كمتزوجة، وعليّ أن أعمل وأفكّر بنضج، وخلصتُ وأنا أبتلع دموعي إلى أنّ مسؤولية سعادتي هي حصراً مسؤوليّتي. زوجي لن يجلب لي السعادة السرمديةِ هديةً ملفوفة في ورقٍ من حرير، عليّ أن أصنعها يوماً بيوم بذكاء وجهد. من حسن الحظ أنّني أحببتُ ذلك الرجل وآمنت تماماً، كما قال لي، بأن الأمور ستتحسّن كثيراً مع الزمن والممارسة. مسكين دييغو، فكّرتُ، لا بدّ أنّه خائب مثلي. عدتُ إلى الفندق في الوقت المناسب كي أغلق حقائبي وأنطلق في رحلة شهر العسل.

إقطاعية كاليوفو المنزَّلة في أجمل مناطق تشيلي، جنّةٌ وحشية من الغابات الباردة والبراكين والبحيرات والأنهار، وتعودُ ملكيتها إلى آل دومينغِث منذ أيّام الاستعمار، حين تمّ توزيع الأراضي على شرفاء الفتح البارزين. كانت الأسرة قد زادت ثروتها بشراء المزيد من الأراضي من الهنود ببعضِ زجاجات الأغوارديينتِ، حتى ملكوا إحدى أكثر إقطاعيات المنطقة ازدهاراً. لم تُقسّم تلك المُلكية قط، وكان يرثها كاملةً بالتقليد أكبرُ الأولاد، الذي يتوجب عليه أن يُقدّم العمل لأخوته، ويساعدهم ويعيلهم ويقدّم الجهاز لأخواته ويرعى المستأجرين. كان حمويَ، دون سِباستيان دومينغِث، واحداً من أولئك الأشخاص الذين قاموا بما كان يُنتَظَر منهم، يشيخ مرتاحَ الضمير وممتناً لما أثابتْهُ به الحياة وخاصّة حبّ زوجته، دونيا إلْقيرا. كان في شبابه شيطاناً أشمط، هو نفسه كان يقول ذلك

ويضحك، والدليل على ذلك عدد من الفلاحين في إقطاعيته عيونهم زرقاء، لكنّ يد دونيا إلڤيرا الناعمة والثابتة راحت تُروِّضه دون أن ينتبه هو نفسه لذلك. كان يمارس أبوَّته بطيبة، والمستأجرون يلجؤون إليه بمشاكلهم قبل أيّ شخص آخر، لأنّ ابنيه إدواردو ودييغو كانا أكثر صرامة منه، ودونيا إلڤيرا لا تفتح فمها خارج جدران بيتها. الصبر الذي كان يُظهره دون سِباستيان مع المستأجرين، الذين يُعاملهم مثل أطفال قاصرين قليلاً، كان يتحوّل إلى صرامة حين يواجه ولديه الذكرين. «نحن محظوظون، وبالتالي عندنا مسؤوليات أكبر. بالنسبة إلينا لا يوجد أعذار ولا ذرائع. واجبنا أن نفي بذمّتنا أمام الله ونساعد ناسنا، هذا ما سنُحاسب عليه في السماء»، كان يقول. لا بدّ أنه كان في الخمسين من عمره، لكنّه يبدو أصغر لأنّه يعيش حياة صحّية جداً، فهو يُمضي نهارَه على صهوةِ جواده يجوب أراضيه، وهو أوّل من يستيقظ وآخر من يذهب إلى فراشه، ويكون حاضراً في البيدر، وعند ترويض وتطويق الماشية، يُساعد بنفسه في وضع علامة الماشية المميّزة وخصيها. يبدأ نهاره بفنجان من القهوة الداكنة وست ملاعق من السكّر ودفقة براندي؛ وبذلك يوفّر لنفسه القوّة لأعمال الحقل حتى الثانية ظهراً، فيتناول غداءً مكوناً من أربعة أطباق وثلاثة أطباق حلوى مسقيّة بكثير من النبيذ برفقة الأسرة كلها. لم نكن كثيرين في ذلك البيت الفسيح؛ والألم الأكبر بالنسبة إلى حمويَّ هو أنّهما لم يُنجِبا إلاّ ثلاثة أولاد. هكذا أرادت مشيئة الله، كما كانا يقولان. كنّا نجتمع في ساعة العشاء جميعنا نحن الذي كنّا أثناء النهار متفرّقين في أعمال متنوّعة، ولا يمكن أن يغيب أحد. كان إدواردو وسوزانا يعيشان مع أولادهما في بيت آخر، بُني لهما على بعد مئتي متر عن البيت الكبير، لكنّهما لم يكونا يتناولان هناك غير طعام الإفطار، أمّا بقية الوجبات فيتناولانها على مائدة حمويَّ. ونظراً إلى أنّه وجب تقديم موعد زفافنا، فإن البيت المخصّص لنا، أنا ودييغو، لم يكن جاهزاً، فقد عشنا في جناح من بيت حمويَّ. كان دون سِباستيان يجلس على رأس الطاولة في كرسّي أكثر ارتفاعاً وأكثر زخرفة؛ على الطرف الآخر تجلس دونيا إلڤيرا وعلى

الجانبين نتوزّع نحن والأولاد ونساؤهم، وعمتان أرملتان، وبعض أولاد العمومة أو الأقرباء، وجدّة هي من الشيخوخة بحيث إنّهم كانوا يطعمونها في رضاعة، إضافة إلى المدعوين، الذين لا يخلو منهم البيت أبداً. كانت توضع عدةُ كراسٍ إضافية للضيوف الذين يهبطون عادة دون سابق إعلام ويمكثون أحياناً أسابيع. دائماً كانوا يلقون الترحاب، لأنّ الزيارات في عزلة الريف كانت أكبر تسلية. ولولا أن عدة عائلات تشيلية، ومستوطنين ألمان كانوا يعيشون إلى الجنوب منّا وفي منطقة الهنود؛ لبقيت المنطقةُ شبهَ متوحشة. كان المسافر في أملاك آل دومينغث، التي تصل حتى حدود الأرجنتين يحتاج لكي يقطعها إلى عدّة أيام على الجواد. كانوا في الليل يُصلّون، والتقويم العام يعتمد على التواريخ الدينية، التي تُراقب بصرامة وفرح. انتبه حمواي إلى أنّ تربيتي ليس فيها من المبادئ الكاثوليكية إلا القليل جدّاً، لكنّ لم تحدث مشاكل بهذا الاتجاه، لأنّني كنتُ شديدة الاحترام لمعتقداتهم، وهم لم يُحاوِلوا أن يفرضوها عليَّ. وضّحت لي دونيا إلڤيرا أنّ الإيمان هبة مقدّسة، فقالت: «الله ينادي باسمك، ويختارك». وكان هذا يُحرّرني من الإثم في أعينهم، فالله لم ينادِني باسمي بعد، ولكنّه طالما وضعني في هذه الأسرة المسيحية جدّاً، فسرعان ما سيفعلُ. حماسي لمساعدتها في أعمال الإحسان بين المستأجرين عوّض عن قلّة حماسي الديني؛ كانت تعتقد أنّ الأمر يتعلّق بروحي الرحيمة، وهذا دليل على طبيعتي الطيّبة، ولم تكن تعلم أنّ تلك الأعمال مثلت تسليتي في نادي سيّدات جدّتي، وأن اهتمامي العادي هو معرفة عمّال الريف وتصويرهم. لم يكن يخطر ببال أحدٍ منهم حجمُ العالم، باستثناء دون سِباستيان وإدواردو ودييغو، الذين تربوا في مدارس داخلية جيّدة وقاموا بالرحلة الإجبارية إلى أوروبا. لم تكن الروايات مسموحة في ذلك البيت، وأظنّ أنّ دون سِباستيان كانت تنقصه الهمّة كي يُراقبها ويمنع أن يقرأ أحدٌ إحدى الأعمال المنطوية في لائحة الكنيسة السوداء، فقد كان يُفضّلُ أن يبترها من أساسها كلّها. كانت الصحف تصل متأخرة جدّاً، بحيث لم تكن تأتي بأخبارٍ بل بتاريخ. كانت دونيا إلڤيرا تقرأ كتبَ صلواتها، وأدِلا، أخت دييغو الصغرى تملك عدّة

مجلّدات شعرية، وسير بعض الشخصيات التاريخية وكتب الرحلات التي تقرؤها وتعيد قراءتها مرة بعد الأخرى. بعد ذلك عرفت أنّها كانت تحصلُ على روايات الألغاز، تنزع أغلفتها وتستبدلها بأغلفة الكتب المرخّص بها من قبل والدها. وحين وصلت صناديقي وأمتعتي من سانتياغو وظهرت مئات الكتب، طلبت منّي دونيا إلڤيرا بعذوبتها المعتادة ألاّ أعرضها أمام بقيّة الأسرة. في كلّ أسبوع كانت تُرسل إليَّ جدّتي أو نيبيا موادَّ للقراءة، فأحتفظ بها في غرفتي. لم يكن حمواي يقولان لي شيئاً، واثقين كما أفترض أنّ هذا الشرَّ سيزول حين يصبح لدينا أطفال، فلا تفيض عنّي كلّ تلك الساعات من الفراغ، كما كان حال سلفتي سوزانا، التي كان عندها ثلاثة أولاد رائعين وخادمات سيّئات جداً. ومع ذلك لم يعترضوا على التصوير، ربّما لأنّهم تكهّنوا أنّه يصعب لَيُّ ذراعي في هذا الجانب، لم يبديا قط فضولاً لرؤية عملي، وخصّصوا لي غرفة في عمق البيت حيث استطعت أن أقيم مخبري.

ترعرعت في المدينة، في جوّ بيت جدّتي المريح والكوزموبولتي، وبحرّية أكثر من أيّة تشيلية في ذلك الحين، لأنّنا وإن كنّا في نهاية العقد الأوّل من القرن العشرين، فالأشياء لم تتطوّر كثيراً بالنسبة للفتيات في تلك النواحي. لقد كان تغيُّر الأسلوب حين نزلتُ في حضن آل دومينغِث قاسياً، رغم أنّهم عملوا الممكنَ كي أشعر بالراحة. لقد تصرّفوا بشكلّ رائع معي، وكان سهلاً عليّ أن أتعلم على محبّتهم؛ وقد غطّى حبّهم لي على طبيعة دييغو المحافظة والفظّة، الذي كان يُعاملني أمام الناس كأخت وحين نكون وحيدين لا يكاد يُكلّمني. كانت الأسابيع الأولى التي حاولت أن أتأقلم فيها معهم مهمّة جّداً. أهداني دون سِباستيان فرساً سوداء وعلى جبينها نجمة بيضاء جميلة، وأرسلني دييغو مع خولي (مراقب عمال) لأجوب الأقطاعية وأتعرّف على العمال والسكان المقيمين على بعد كيلومترات كثيرة، فكانت تستغرق كلّ زيارة ثلاثة أو أربعة أيّام. كان زوجي يخرج مع أخيه وأبيه إلى أعمال الحقل والصيد، ويعسكرون أحياناً في الخارج لعدّة أيّام. لم أكن أتحمّل ضجر

البيت، وعمليّة إرضاع أولاد سوزانا التي لا تنتهي، وصناعة الحلوى والمحفوظات، والتنظيف والتهوية الخياطة والحياكة؛ وحين كنتُ أنهي عملي في مدرسة أو مستوصف الإقطاعية أرتدي بنطلوناً من بنطلونات دييغو وأنطلق على الجواد. حذّرتني حماتي من أن أمتطي منفرجة الساقين كالرجل، لأنّني سأعاني من «مشاكل نسائية»، العبارة الملطّفة التي لم أستطع قط أن أتبيَّنها تماماً، لكن ما من أحدٍ يستطيع أن يمتطي جانبياً في تلك الطبيعة ذات الهضاب والصخور دون أن يهشم رأسه في سقطة. كان المنظر يقطع أنفاسي، يدهِشني بمفاجآته لي عند كلّ منعطفٍ في الطريق. كنت أركب صاعدةً الهضاب ونازلةً الوديان حتى أصل الغابات الكثيفة، جنة من الملَزِ والغار والقرفة والمانييو والريحان والأراوكاريا الألفية، الخشب الناعم الذي يستثمره آل دومينغِث في مناشرهم. كانت تُسكرني رائحة الغابة المبللة، عبق الأرض الحمراء الحسيّ، عبق النسغ والجذور؛ سلام الكثافة المحروس بأولئك العمالقة الخضر الصامتين؛ همس النباتات السرّي؛ خرير المياه الخفيّة، رقصة الهواء المشتبك بالغصون، هسيس الجذور والحشرات، هديل حمائم الطوق الناعمة، وصياح الطوقان الفاضح. كانت الدروب تنتهي إلى المنشرة، وبعدها عليّ أن أشقّ طريقي في الكثافة واثقة من غريزة فرسي، التي كانت أرجلها تغوص في وحل بترولي اللون، كثيف وعبق كدم نباتيّ. كان النور يتسرّب عبر قبّة الشجر الهائلة على شكل أشعّة لامعة ومائلة، لكن كان هناك مناطق جليدية تقبع فيها نمور البوما والكوجر تتجسّس عليّ بعيون ملتهبة. كنتُ أحمل بندقية صيد مربوطة إلى السرج، ولم أكن لأستطيع إخراجها في أيّة حالة طارئة، في جميع الأحوال ما كنتُ لأطلق نارها أبداً. صوَّرتُ الغابات القديمة، بحيرات الرمل الأسود، أنهار الحجارة الصادحة الهائجة؛ البراكين المندفعة التي تتوِّج الأفقَ مثل تنينات نائمة في أبراجٍ من رماد. أيضاً التقطتُ صوراً لمستأجري الإقطاعية التي كنت أحملها إليهم بعد ذلك هديّةً فيتلقّونها مرتبكين، دون أن يدروا ماذا يفعلون بصورتهم تلك التي لم يطلبوها. كانت تفتنني وجوههم المحروقة بتقلبات الطقس والفقر، لكنّهم لم يكونوا يُحبّون أن يُرَوا كذلك، كما

هم في الواقع، بخرقهم وآلامهم التي تثقل كاهلهم، كانوا يريدون صوراً ملوّنة باليد يظهرون واقفين فيها بالبدلة الوحيدة التي يملكونها، بدلة العرس، مغسولين جيّداً ومسرّحي الشعور ومعهم أولادهم بلا مخاط.

كانوا يوقفون العملَ أيّامَ الآحاد ويُقام القداس ـ حين يكون هناك كاهن ـ أو «تبشير» تقوم نساءُ الأسرة خلالها بزيارة المستأجرين في بيوتهم لتعليمهم أصول الدين. وهكذا كنّ يُحاربن من خلال الهدايا والإصرار معتقداتِ السكان الأصليين التي تختلط مع المقدسات المسيحية. لم أكن أُشارك في العظات الدينية لكنّني كنت أستغلُّ المناسبة للتعرف على الفلاّحين. كثيرون منهم كانوا هنوداً خالصين ما زالوا يستخدمون كلماتٍ بلغاتهم ويُحافظون على عاداتهم حيّةً، وآخرون كانوا خلاسيين، جميعهم متواضعون وخجلون في الحالة الطبيعية، لكنّهم معربدون وكثيرو الضوضاء حين يشربون. كان الكحول بلسمهم المُخفّف لساعات قليلة من حزن أيّام حياتهم كلّها، بينما هو يقضم أحشاءهم، مثل فأر عدّو. وكان السكر والشجار بالسلاح الأبيض يكلف عقوبة، مثله مثل الأخطاء الأخرى كقطع شجرة دون إذنٍ، أو ترك الحيوانات على غاربها خارج منطقة نصف الكوادرا المخصصة لكلّ واحدٍ كي يزرع فيها حاجة أسرته. كانت عقوبة السرقة أو التطاول على الرؤساء هي الضرب بالعصي، لكنّ دون سِباستيان كان يمقتُ العقاب الجسدي؛ كما أنّه ألغى حق «الافتضاض»، التقليد القديم الذي يعود إلى المرحلة الاستعمارية ويسمح للملاّكين بفضّ بكارة بنات الفلاحين قبل أن يتزوجن من آخرين. وكان هو نفسه مارسه في شبابه، لكنّ هذه الحرّيات انتهت بعد أن وصلت دونيا إلفيرا إلى الإقطاعية. كما أنّه لم يكن يُوافق على زيارة مواخير القرى المجاورة، ويُصرُّ على تزويج أولاده في سنّ الشباب لتفادي الإغواء. كان إدواردو وسوزانا قد تزوّجا قبل ستّة أعوام حين كانا في العشرين من عمريهما، أما دييغو الذي كان وقتذاك في السابعة عشرة من عمره

فقد عيّنوا له فتاة تربطهم بها صلة قربى، لكنّها ماتت غرقاً في البحيرة قبل إتمام الخطبة. وكان إدواردو، الأخُ الأكبر، أكثر مرحاً من دييغو، وموهوباً في رواية النكات والغناء، ويعرف كلّ أساطير وقصص المنطقة، ويُحب تبادل الحديث ويعرف الإصغاء. كان مولهاً تماماً بسوزانا؛ فعيناه تتألق حين يراها ولا تُقلقُه أبداً حالتها النفسية المزاجية. كانت سوزانا تُعاني من ألم في رأسها، يجعلُ مزاجها يسوء جدّاً، فتُغلق بابَ غرفتها على نفسها بالقفل والمفتاح، ولا تأكل، وكانت هناك أوامر بعدم إزعاجها مهما كانت الأسباب، لكن ما إن تزول عنها آلامها حتى تظهر معافاةً، مبتسمةً وودودةً ؛ وكأنها امرأة مختلفة. وقد انتبهتُ إلى أنّها تنام وحدها ولاتسمح لزوجها أو أولادها بالدخول إلى غرفتها دون دعوة، فالباب يبقى دائماً مغلقاً. كانت الأسرة معتادة على نوبات شقيقتِها واكتئابها، لكنّ رغبتها بالانعزال كانت تبدو لهم إهانةً، تماماً كما استغربوا أنّني لا أسمح لأحدٍ أن يدخل دون إذن منّي إلى غرفتي الصغيرة المظلمة حيث كنتُ أُظهّر صوري، رغم أنّني وضّحت لهم الضررَ الذي يمكن لشعاع نور أن يوقِعه بنيكاتيفات صوري. لم يكن يوجد في كاليوفو أبواب ولا غرف بأقفال، باستثناء الأقبية وصندوق المكتب الحديدي. وكانت تُرتكب أعمال نشل طبعاً، لكنّها لم تكن تأتي بنتائج وخيمة لأنّ دون سِباستيان يغضّ الطرف عنها. «هؤلاء الناس جهلة جدّاً، لا يسرقون لرذيلة فيهم أو حاجة عندهم، بل نتيجة عادة سيّئة»، كان يقول، رغم أنّ المستأجرين كانوا أكثر حاجة مما يسمح به المالِكُ. كان الفلاحون أحراراً، لكنّهم عمليّاً عاشوا لأجيالٍ في تلك الأرض، ولم يكن يخطر لهم أنّه يمكن أن تكون حياتهم غير ذلك، كما أنه لم يكن عندهم مكان يذهبون إليه. وقليلون منهم كانوا يُدركون سنّ الشيخوخة؛ وكثير من الأطفال يموتون في سن الطفولة بالالتهابات المعوية، وعضّات الجرذان، والتهاب الرئة، أما النساء ففي الولادة والضنى، والرجال في الحوادث، والجراح الملتهبة والتسمم الكحولي. كان أقرب مستشفى يعود إلى الألمان، وفيه طبيب

بافاري مشهور جداً، لكنهم لايزورونه إلاّ في حالات الضرورة القصوى، كانت الأمراض العادية تعالج بأسرار الطبيعة، والصلوات، ونجدة الساحرات «الميكا»، طبيبات السكان الأصليين الشعبيات، اللواتي كنّ يعرفن قوّة أعشاب المنطقة أفضلَ من أيّ شخص آخر.

في نهاية أيّار هبط الشتاء بلا مخفّفات بستائرِ مطره التي تغسل المشهدَ مثل غاسلة صبورة وبظلمته المبكرة، والتي كانت تُجبرنا على اللجوء إلى البيت في الرابعة مساءً وتحوّل الليل إلى أبدية. لم يعد باستطاعتي أن أخرج في ركوبي الطويل، أو أن أصوّر أهل الإقطاعية. كنّا معزولين ، فالطرقات موحلة ولا أحد يزورنا. كنتُ أتسلى في الغرفة المظلمة بتجريب تقنيات تحميض مختلفة، وبالتقاط الصور للأسرة. رحتُ أكتشف أنّ كلّ ما هو موجود كان على علاقة بعضه ببعض من جانب تصميم مكثف، فما يبدو للوهلة الأولى شبكة من المصادفات يتكشف أمام مراقبة الكاميرا الدقيقة عن تناسقات تامّة. لا شيء مصادفة، لا شيء عبثي. تماماً كما في الفوضى النباتية الظاهرية للغابة يوجد علاقة وطيدة بين السبب والنتيجة، على كلّ شجرة آلاف العصافير، ومن أجل كلّ طائر هناك آلاف الحشرات، ومن أجل كلّ حشرة هناك ملايينِ الجُزيئات العضوية؛ وكذلك هو الأمر مع الفلاحين في أعمالهم وأسرهم باحتمائهم من الشتاء في بيوتهم إذ يشكّلون أجزاء لا غنى عنها في لوحة هائلة. الجوهري عادة ما يكون خفّياً، لا تلتقطه العينُ بل القلب وحده، لكنّ الكاميرا تحزر ملامح من هذا الجوهر. وهذا ما كان يُحاول ريبِرو أن يحصل عليه بفنّه، وحاول أن يُعلّمني إيّاه: تخطّي ما هو محض وثيقة والوصول إلى اللبّ، إلى روح الواقع نفسها. هذه الترابطات الماهرة التي كانت تظهر على ورق التصوير كانت تؤثّر بي عميقاً وتُشجّعني على الاستمرار بالتجريب. في انزواء الشتاء ازداد فضولي. وكلمّا راح المحيط يصبح أكثر ضغطاً وضيقاً، أقضي الشتاء بين تلك الجدران السميكة، يصبح عقلي أكثر قلقاً. بدأت أسبرُ بإفراط محتوى البيت وأسرار الغرف. فحصتُ بعينين جديدتين الجوّ العائليّ، كما لو أنّني أراه لأوّل مرّةٍ دون أن أفترض شيئاً. كنتُ أترك

نفسي أهتدي بالغريزة، مبعدةً الأفكار المسبقة «لا نرى إلا ما نُريدُ أن نراه» هذا ما كان يقوله خوان ريبِرو، ويُضيف إنّ عملي يجب أن يكمن في إظهار ما لم يره أحدٌ من قبل. في البداية كان آل دومينغِث يقفون أمام الكاميرا بابتسامة مفتعلة، لكنّهم سرعان ما اعتادوا على وجودي الحذر وانتهوا إلى تجاهل الكاميرا، وعندئذٍ استطعتُ التقاط الصور في غفلة منهم، تماماً كما هم في الواقع. حمل المطر معه الأزهار والأوراقَ، وانغلق البيت بأثاثه الثقيل وفضاءاته الكبيرة الفارغة أمام الخارج، وبقينا مُحاصَرين في أسرٍ منزليّ غريب. كنّا نطوف في الغرف مستضيئين بالشموع، متفادين تيارات الهواء الجليدية، وكانت الأخشابُ تصرُّ مثل أنين أرملةٍ، وتُسمَع خطوات الفئران الهاربة أثناء نشاطها الدؤوب، كانت تسود رائحة طين وقرميدٍ مبلل وثياب معفنة. وكان الخدم يُشعلون المجامر والمدافئ، والمستخدمون يأتوننا بزجاجاتٍ من المياه الساخنة والبطانيات وفناجين كبيرة من الشوكولاتة التي يتصاعد منها البخارُ، لكنّه لم يكن هناك من طريقة للتحايلِ على الشتاء الطويل. وعندئذٍ أذعنتُ للعزلة.

كان دييغو شبحاً.أُحاول الآن أن أتذكّر لحظة مشتركة ما ، ولكنّني لا أستطيع أن أراه إلاّ كممثل صامت على الخشبة بلا صوت، ومفصولاً عنّي بخندق عريض. في عقلي ـ وفي مجموعة صوري ذلك الشتاء ـ صور كثيرة له تُظهره أثناء أعمال الحقل وداخل البيت، مشغولاً دائماً بالآخرين، بعيداً وغريباً. كان من المحال التوادّ معه، فهناك هوّة كبيرة من الصمت بيننا، وكانت محاولاتي لتبادل الأفكار معه أو التأكّد من مشاعره تتكسّر على نزوعه العنيد إلى الشرود. كان يؤكّد أنّ كلّ ما بيننا قد قيل، وإذا كنّا قد تزوّجنا فلأنّنا كنّا نُحِبّ بعضنا بعضاً، فما الفائدة من الغوص في ما هو جليّ. في البداية كان يُهينني بصمته، لكنّني أدركتُ بعد ذلك أنّه يتصرف بهذا الشكل مع الجميع باستثناء أولاد أخيه. يستطيع أن يكون رقيقاً وناعماً مع الأطفال، وربّما كان يرغب بأن يملك أولاداً مثلي، لكنّنا في كلّ شهر

كنّا نشعر بالخيبة. أيضاً لم نكن نتكلّم عن هذا، فقد كان موضوعاً آخر من الموضوعات الكثيرة المتعلّقة بالجسدِ أو الحبّ التي لم نتطرّق إليها خجلاً. حاولتُ في بعض المناسبات أن أقول له كيف أحبّ أن يُداعِبني، لكنّه سرعان ما يتخذ موقف الدفاع، فالمرأة المحتشمة بنظره يجب ألاّ تشعر بهذا النوع من الحاجات، فما بالك أن تقوم بإظهارها. وسرعان ما انتصب تكتّمه وخجلي وكبرياؤنا، نحن الاثنين، سوراً صينياً بيننا. كنتُ على استعداد لأنّ أقدّم أيّ شيءٍ مقابل أن أعثر على من أحدِّثه عمّا كان يجري خلف بابنا المغلق، لكنّ حماتي كانت أثيريّةً مثل ملاك، ولم يكن بيني وبين سوزانا صداقة حقيقيّة. ولم تكن أدِلا قد أتمّت السادسة عشرة من عمرها. ونيبيا بعيدة أكثر من اللازم، ولم أكن أجرؤ على كتابة هذا القلق. بقينا أنا ودييغو نمارس الحبَّ ـ كي نسميه بطريقة ما ـ بين الحين والآخر، دائما مثل المرّة الأولى. لم يقرِّب التعايش بيننا، وكان هذا يؤلمني أنا وحدي، أما هو فكان يشعر بأنّه مرتاح جدّاً للحالة التي نحنِ فيها. لم نكنِ نتناقش، وكنّا نتعامل بكثير من التهذيب المفتعل، وإن كنتُ أفضِّلُ ألف مرّة حرباً مُعلنة على صمتنا الماكر. كان زوجي يستبعد فرص بقائه معي على انفراد؛ ففي الليل كان يطيل ألعاب الورق حتى أذهب، بعد أن يهزمني التعب، إلى النوم. وفي الصباح يقفز من السرير مع صياح الديكة حتى أيّام الآحاد، حين كانت بقيّة الأسرة تنهض متأخّرة، وكان يجد الذرائع كي يخرج باكراً. بالمقابل كنت أعيشُ رهن حالته النفسية، أتقدّم لخدمته بآلاف التفاصيل، وفعلتُ المستحيل كي أجذبه وأجعل حياته أكثر فرحاً؛ وكان قلبي يطرق صدري حين أسمع خطوه أو صوته. لم أكن أتعب من النظر إليه، إذ يبدو لي جميلاً مثل أبطال الحكايات، وفي الفراش كنتُ ألمس كتفيه العريضين والقويين محاولة ألاّ أوقظه، شعره المجعد والكثيف، عضلات ساقيه وعنقه. كنتُ أحب رائحته، رائحة العرق والتراب والخيل فيه عندما كان يعود من الحقل، والصابون الإنكليزي بعد الحمّام. كنتُ أغوص بوجهي في ثيابه كي أستنشق عبق الرجل عنده، طالما أنّني لا أجرؤ على فعل ذلك في جسده. الآن، ومن منظور الزمن والحرّية التي حصلتُ عليها

في السنوات الأخيرة، أُدرك كم تذلّلت من أجل الحبّ. فقد تركتُ كلّ شيء جانباً، بدءاً من شخصيّتي حتى عملي، كي أحلمَ بجنّة منزلية لم تكن لي.

خلال الشتاء الخمول والطويل لا بدّ أن الأسرة استخدمت مختلف الوسائل لمكافحة السأم. جميعهم كانوا يملكون آذاناً حسنة للموسيقى، ويعزفون عدداً من الآلات، وهكذا كانت تمرّ الأماسي في حفلاتٍ مرتجلة. كانت سوزانا تُبهجنا ملفوفة بعباءة من القطيفة البالية وعمامة تركية على رأسها، وعينين مسوّدتين بالفحم، مغنّية بصوتٍ غجرية أجش. نظّمت دونيا إلفيرا وأدِلا دروسَ خياطة للنساء، في محاولة للإبقاء على نشاط المدرسة الصغيرة، ولكن وحدهم أبناء المستأجرين الذين يعيشون قريبين كانوا يستطيعون تحدّي الطقس والوصول إلى الدروس، يوميّاً كانوا يُصلون صلاة السبحة الشتوية التي تشدّ الكبار والصغار لأنّهم يُقدّمون بعدها الشوكولاتة والحلوى. وخطر لسوزانا فكرة أن تُحضّر عملاً مسرحيّاً لتُسرِّع بنهاية القرن، وهذا ما شغلنا لأسابيع بكتابة المسرحية وحفظ أدوارنا وتركيب الديكور في أحد مخازن الحبوب، وخياطة الأقنعة وأعمال التدريب. طبعاً كان الموضوع مجازاً معروفاً حول رذائل ومصائب الماضي المهزومة من قبل سيف العلوم المتوهّج والتقنية وتقدّم القرن العشرين. وإضافة إلى المسرح أقمنا مسابقات رمي وكلمات القاموس، وبطولات من كلّ الأنواع، بدءاً من الشطرنج حتى صناعة الدمى وبناء القرى بأعواد الثقاب، لكن دائماً كانت تفيض عنّا الساعات. حوّلتُ أدِلا إلى مساعدة لي في مخبر التصوير، وصرنا نتبادل الكتبَ خِلسةً، أنا أعيرها ما كانوا يرسلونه إليّ من سنتياغو، وهي تعيرني روايات ألغازها، التي كنتُ ألتهمها بشغف. تحوّلت إلى مفتّش خبير، فقد كنت أتكهّنُ بشكلٍ عام بهويّة القاتل قبل الصفحة الثمانين. لقد كانت لائحة الكتبِ محدودة ورغم أنّنا حاولنا أن نُطيلَ القراءةَ إلاّ أن الكتب انتهت بسرعةٍ، وعندئذٍ لعبتُ مع أدِلا لعبة تعديل القصص واختراع جرائم

معقّدة على الأخرى أن تحلّها. «ماذا تتمتمان؟» كثيراً ما كانت تسألنا حماتي. «لا شيء يا ماما، نُخطِّط لجرائم قتل» كانت أدِلا تردّ بابتسامة الأرنب البريئة. وكانت دونيا إلفيرا تبتسم غيرَ قادرةٍ على أن تعرف كم كان جوابُ ابنتها صحيحاً.

كان على إدواردو بحكم أنّه الابن البكرُ أن يرث الأملاك بعد موت دون سِباستيان، ولكنّه أقام مع أخيه شراكةً لإدارتها معاً. كنتُ أحبّ أخا زوجي، فهو ناعم ولعوب، ويمازحني عادة أو يأتيني بهدايا صغيرة، عقيقاً برّاقاً من سرير النهر، أو طوقاً متواضعاً من محفوظات المابوتشيين، أو أزهاراً بريّةً، أو مجلّة موضة يوصي عليها إلى القرية، محاولاً أن يُعوِّض لامبالاة أخيه، التي كانت جليّةً لكامل الأسرة، معي. كان يأخذ يدي عادة ويسألني بقلق عمّا إذا كنتُ بخير، أو أحتاج شيئاً، أو أشتاقُ لجدّتي، أو أملّ كاليوفو. بالمقابل كانت سوزانا الغارقة في وهنها الذي يُقارِبُ الكسل تتجاهلني معظمَ الوقت وتُدير لي ظهرها بطريقة وقحة، تاركة الكلمة عالقة في فمي. كانت ميسورة، ذهبيّة البشَرَة كبيرة العينين الداكنتين، وجميلة ، لكنّني لا أعتقد أنّها كانت واعية لجمالها. لم يكن هناك من تزدهي أمامهم إلاّ الأسرة، ولذلك قليلاً ما كانت تولي زينتها الشخصية اهتماماً، حتى أنّها لم تكن تسرِّح شعرها أحيانا، وتمضي النهار متلفعة بدثار النوم، وبخفّين من جلد الغنم. أَرِقَة وحزينة. وفي مرات أخرى تظهر متألِّقة مثل أميرة عربية، بشعرها الداكن الطويل المجمع في كعكة بمشابك من صدف السلاحف، وقلادة ذهبية تحدّد محيط العنق التام. وحين تكون رائقة المزاج، كانت تُحب أن تقف أمامي لألتقط لها صوراً. ومرّة اقترحت ونحن على المائدة أن أُصوِّرها عاريةً. فكان ذلك استفزازاً سقط على تلك الأسرة المحافظة جدّاً مثل قنبلة، كادت دونيا إلفيرا تُصاب بنوبة قلبيّة أخرى، ودييغو المستنكر نهض بعنف أسقط الكرسيّ. ولولا أنّ إدواردو ألقى نكتة، لوقعت مأساة. أدِلا الأخت الصغرى الأظرف بين الأخوة دومينغِث، بوجه الأرنب وعينيها الزرقاوين الضائعتين في بحرٍ من النّمَش، كانت دون شك الأظرف. كانت سعادتها تبدو واثقة من نفسها ثقة

النور في كلّ صباح. وكان باستطاعتنا أن نعتمد عليها لرفع المعنويات حتى في أعمق ساعات الشتاء، حيث الريح تعوي بين قرميد السطوح، ونكون قد سئمنا من لعب الورق على ضوء الشمعة. كان والدها دون سِباستيان يعبدُها، ولا أحد يستطيع أن ينكر ذلك، وكان يطلب منها نصف مازح ونصف جادٍّ أن تبقى عازبة كي تعتني به في شيخوخته.

جاء الشتاء ومضى حاملاً معه طفلين وشيخاً ماتوا من التهاب الرئة، أيضاً ماتت الجدّة التي كانت تعيشُ في البيت، والتي عاشت حسب تقديرهم أكثر من قرن، لأنّها تناولت أول قربان ربّاني حين أعلنت تشيلي استقلالها عن إسبانيا في العام 1810. جميعهم دُفنوا بقليل من الطقوس في مقبرة كاليوفو، التي تحوّلت إلى موحلة من غزارة المطار. لم تتوقّف الأمطار حتى شهر أيلول، حين بدأ الربيع ينبعث في كلّ مكان، واستطعنا أخيراً الخروج إلى فناء الدار لتشميس الثياب والفرش المتعفّنة. وقد قضت دونيا إلفيرا تلك الأشهر متلفعة بشالاتها ، من السرير إلى الكرسي الكبير، وهي في كلّ مرّة أضعف. ومرّة كلّ شهرٍ كانت تسألني بتهذيب «هل هناك أخبار جديدة؟» وبما أنّه لم يكن يوجد جديد كانت تزيد من أدعيتها كي نمنحها أنا ودييغو مزيداً من الأحفاد. وعلى الرغم من ليالي ذلك الشتاء الطويلة جدّاً إلاّ أن الحميمية مع زوجي لم تتحسّن. كنّا نلتقي في العتمة صامتين، مثل عدوّين تقريباً، وأنا ما ازال دائماً أملك شعور الخيبة والضيق الحتميّ ذاته الذي شعرت به في المرّة الأولى. بدا لي أنّنا لا نتعانق إلاّ عندما أُبادر أنا، لكن قد أكون مخطئة، فربّما لم يكن الأمر كذلك دائماً. عدتُ مع مجيء الربيع لأخرج وحدي في رحلٍ إلى الغابات والبراكين، فبالخببِ في تلك الفساحة كان جوع الحبّ يخفّ، وكان التعب والمقعد المرصوص من الركوب يتخطى الرغبات المكبوتة. كنتُ أعود في المساءات مبلّلة من رطوبة الغابة وعرق الحصان، فأحضّر حماماً ساخناً وأنقع نفسي لساعاتٍ في الماء المعطّر بأوراق البرتقال. «انتبهي يا بُنيّتي، فالركوب

والحمامات سيّئة على البطن، فهما يسبّبان العقم»، كانت حماتي المحزونة تحذّرني. كانت دونيا إلفيرا امرأة بسيطة، خالصة الطيب خدومة الروح، لها نفس رضيّة تنعكس في ماء عينيها الزرقاوين الوديع، إنها الأم التي كنتُ أرغب أن تكون لي. كنتُ أقضي الساعات إلى جانبها، هي تحيك لأحفادها وتحكي لي مرّة بعد أخرى قصص حياتها وكاليوفو الصغيرة ذاتها، وأنا أصغي إليها بحزن من تعلم أنّها لن تبقى طويلاً في هذا العالم. في ذلك الوقت كنتُ قد بدأت أشكّ في أن ولداً لن يُقصّر المسافة بيني وبين دييغو، لكنّني كنتُ أرغب به فقط كي أقدّمه هديّةً إلى دونيا إلفيرا. وحين كنتُ أتصوّر حياتي في الإقطاعيةِ دونها كنتُ أشعر بكربٍ لا خلاص منه.

كان القرن ينتهي والتشيليون يصارعون من أجل الانضمام إلى التقدّم الصناعي في أوروبا وأمريكا الشمالية، لكنّ آل دومينغِث، مثلهم مثل الكثير من العائلات المحافظة، كانوا ينظرون برعب إلى موضوع الابتعاد عن التقاليد والنزوع لتقليد الأجانب. «نحن متاع الشيطان» كان دون سِباستيان يقول حين يقرأ عن التقدم التكنولوجي في صحفه المتأخرة. كان ابنه إدواردو هو الوحيد المهتم بالمستقبل، أما دييغو فكان يعيش شارداً، وسوزانا تقضي وقتها مع نوبات شقيقتِها، وأدِلا لم تخرج من القمقم بعد. ومهما كنّا بعيدين فقد كانت أصداء التقدّم تُدركنا ولم يكن باستطاعتنا أن نتجاهل التغيّر في المجتمع. في سانتياغو كان قد بدأ هيجان الرياضة والألعاب والنزهات في الهواء الطلق، المناسب للإنكليز غريبي الأطوار أكثر مما للمتحدرين من أشراف قشتالة وليون المرتاحين. عاصفة من الفن والثقافة القادمة من فرنسا كانت تُرطِّب الجوَّ، وصرير آلات ألمانية يقطع قيلولة تشيلي الإستعمارية الطويلة. وراحت تظهر طبقة وسطى وصولية ومتعلمة تحاول أن تعيش مثل الأثرياء. الأزمة الاجتماعية التي كانت تهزّ أسس البلد بالإضرابات والعنف والبطالة وحملات الشرطة الخيّالة بسيوفها المسلولة، كانت همساً بعيداً لا يُبدّل إيقاع وجودنا في كاليوفو، لكن ورغم أنّنا كنّا

ما نزال في الإقطاعية نعيش مثل أجداد أجدادنا الذين ناموا على ذات الأسرّة قبل مئة عام، فإنّ القرن العشرين قد داهمنا نحن أيضاً.

كانت حالةُ جدّتي باولينا قد ساءت كثيراً، فقد روى لي فريدريك وليامز ونيبيا دِل بالْيِه في رسالة أنها كانت تستسلم لأسقام الشيخوخة وهاجِس الموت. لقد أدركوا كم شاخت حين حمل لها سِبِرو دِل بالْيِه أوائل زجاجات النبيذ المنتجة من عنب الدوالي التي تنضج متأخّرةً، وتذوّقوها وكانت تدعى كارمِنِر، النبيذ الأحمر الناعم والشهي، الذي لا يحتوي إلاّ على القليل جداً من حمص التانيك، وهو جيّد مثل أفضل الخمور الفرنسية. والذي دشّنوه باسم كرمة باولينا. أخيراً صار بين أيديهم إنتاجاً فريداً سيمنحهم الشهرةَ والمالَ. جرّبته جدَّتي برقّةٍ وقالت «من المؤسف أنّني لن أستطيع التمتّع به، سيشربه آخرون»، ولم تعد بعدها لذكره قط. لم يحدث انفجار الفرح والتعليقات المتعالية التي ترافق عادةً انتصاراتها في أعمالها؛ فهي بعد حياةٍ حرة طليقة تجد نفسها تصبح متواضعة. ومن أكثر علامات ضعفها وضوحاً كان الحضور اليوميّ للكاهن المعروف بدثاره المخطّط الذي كان يجول على المحتَضَرين كي ينتزع منهم ثروتهم. لا أدري ما إذا كان باقتراحٍ من جالب النحس العجوز هذا قد نفت إلى عمق أحد الأقبية سريرَها الأسطوري الشهير، الذي قضت عليه نصف حياتها، ووضعت مكانه سريراً فردياً من أسرّة الجنود بفراش من شعر عرف الحصان. بدا لي هذا عرَضاً مُقلِقاً جداً، ولم يكد يجفّ وحل الطرقات حتى أعلنتُ لزوجي بأنّ عليّ الذهاب إلى سانتياغو كي أرى جدّتي. كنت أتوقّع بعض المعارضة، ولكن كلّ شيء جاء بالعكس تماماً، فقد نظّم دييغو سفري خلال أقلّ من أربع وعشرين ساعةً في عربة حتى الميناء، حيث سأركب السفينة إلى بالبارايسو، ومن هناك أتابع بالقطار إلى سانتياغو. كانت أدِلا تتقد رغبة لمرافقتي، وكم جلست في حضن أبيها، وعضّته من أذنيه، وشدّته من سالفيه وتوسّلته، حتى أنّ دون سِباستيان لم يستطع أخيراً أن ينكر عليها هذه النزوة الجديدة، رغم

أنّ دونيا إلفيرا وإدواردو ودييغو لم يكونوا موافقين. لم يضطروا لتوضيح أسبابهم. تكهّنت أنّهم لا يعتبرون الجوّ الذي أحسوا به في بيت جدّتي مناسباً، كانوا يُفكرون بأنّني لست ناضجة كي أعتني بالصغيرة كما يجب. انطلقنا إذن إلى سانتياغو، يُرافقنا ألمانيان صديقان كانا يذهبان في الباخرة ذاتها. وقد كنّا نحمل معنا وشاح القلب المقدَّس معلّقاً إلى الصدر كي يحمينا من كلّ سوء، آمين، والنقود مخاط عليها في كيس صغير تحت المشدّ، وتعليمات دقيقة كيلا نتكلّم مع غرباء، وأمتعة أكثر مما نحتاج كي نجول حول العالم.

قضينا أنا وأدِلا شهرين في سانتياغو، وكان من الممكن أن يكونا رائعين لولا أنّ جدّتي مريضة. لقد استقبلتنا بحرارة مفتعلة، وكلّها مشاريع للنزهات والذهاب إلى المسرح، وركوب القطار إلى بينيا دِل لامار لنستنشق هواءَ الساحِل، لكنّها كانت ترسلنا في آخر ساعةٍ مع فريدريك وليامز وتبقى هي في الخلف. هكذا حدث حين شرعنا بالسفر في عربة لزيارة سِبِرو ونيبيا في الكروم، وكانوا ينتجون في ذلك الوقت زجاجات نبيذ التصدير الأولى. فقد اعتبرت جدّتي أن كرمة باولينا اسم أوروبّي أكثر من اللازم، وأرادت أن تُبدّله بشيء من الفرنسية، كي تبيعه في الولايات المتحدة، حيث لم يكن يوجد فيها حسب قولها من يفهم بالنبيذ، لكنّ سِبِرو اعترض على مثل هذه الحيل. وجدتُ نيبيا وكعكة شعرها مرشوشة بالشيب، وقد صارت ثقيلة قليلاً، رغم أنّها ما تزال رشيقة، وقحة وجسورة محاطة بأولادها الصغار. «أعتقد أن التغيير قد بدأ يصيبني أخيراً، صار باستطاعتنا أن نُمارس الحبّ دون خوف من مجيء طفل آخر»، همست في أذني، دون أن تتصوّر أبداً أن كلارا، التي من الواضح أنّها مختلفة عن كلّ المخلوقات التي ولدت في هذه العشيرة الكبيرة العدد والعجيبة، ستأتي بعد عدّة سنوات. كانت الصغيرة روسا، التي أثار جمالها الجدل، في الخامسة من عمرها. يؤسفني أن الصور لا يمكنها أن تلتقط لونها، فهي تبدو أشبه بمخلوقة من مخلوقات البحر بعينيها الصفراوين وشعرها الأخضر كالبرونز العتيق. لقد كانت آنذاك كائناً ملائكيّاً، متخلّفة قليلاً بالنسبة إلى عمرها، وتمر طافية

مثل شبح. «من أين خرجت؟ لا بدّ أنّها ابنة الروح القدس»، كانت أمُّها تمزحُ. لقد جاءت هذه الطفلة الجميلة لتواسي أمّها عن فقدانها لاثنين من صغارها اللذين ماتا بالدفتريا، هذا المرض المديد الذي كان يفتك برئتي طفل ثالث من أبنائها. حاولتُ أن أتكلّم مع نيبيا حول هذا الموضوع ـ يقولون إنّه لا يوجد معاناة أفظع من فقدان الولد ـ ولكنّها كانت تُغيّر الموضوع. أقصى ما استطاعت قوله لي إنّ النساء عانين من ألم الولادة ودفن أولادهنّ قروناً وقروناً، ولن تكون هي الاستثناء. «سيكون عجرفة كبيرة منّي افتراض أنّ الله يُباركني بمنحي أولاداً كثيرين، وأن يجعلهم فوق ذلك يعيشون أكثر منّي»، أضافت.

لم تكن باولينا دِل بالْيِه ولا حتى ظلاً مما كانت عليه، فقد فقدت اهتمامها بالأكل والتجارة، لا تكاد تستطيع السير لأنَّ ركبتيها كانتا تخونانها، ولكنّها أكثر بصيرة من أيّ وقتٍ مضى. على طاولة نومها كانت تصطفُّ عبوات الأدوية، وكانت هناك ثلاث راهباتٍ يتناوبن على رعايتها. كانت جدّتي تتكهنّ أنه لن يكون أمامنا فرص كثيرة كي نكون معاً، واستعدّت لأوّل مرّة في تاريخ علاقتنا كي تُجيب على أسئلتي. تصفحّنا ألبومات الصور، التي راحت تشرحها لي واحدة بواحدة، حكت لي عن أصول السرير الذي أوصت عليه إلى فلورنسا، وتنافسها مع أماندا لويل، من منظور عمرها الذي كان مثيراً للضحك، وحدّثتني عن أبي وعن دور سِبِرو دِل بالْيِه في طفولتي، لكنّها تجنّبت عن قصدٍ الحديث عن جدّيَ لأمّي وعن تشايناتاون، قالت لي إنّ أمّي كانت موديلاً أمريكيّاً جميلاً، فقط. ليس أكثر. كنّا نجلس في بعض المساءات في رواق الزجاج لنتحدّث مع سِبِرو ونيبيا دِل بالْيِه. بينما كان هو يتكلّم عن سنوات سان فرانسيسكو وتجاربه اللاحقة في الحرب، ذكّرتني هي ببعض تفاصيل ما حدث خلال الثورة، حين كنت في الحادية عشرة من عمري فقط. لم تكن جدّتي تتذمّر، لكنّ العمّ فريدريك نبّهني إلى أنّها تُعاني من آلام حادّة في معدتها، وتُعاني كثيراً جدّاً في ارتداء ملابسها في كلّ صباح. ومخلصة إلى اعتقادها بأنّ للمرء العمر الذي يظهر عليه، بقيت تصبغ

الشعرات القليلة التي ما تزال تُطلّ من رأسها، لكنّها ما عادت تتبختر بمجوهرات الإمبراطورة، كما كانت تفعل سابقاً، «لم يبق عندها إلا القليل» همس لي زوجُها بغموض. كان البيتُ يظهر مهملاً مثل صاحبته، واللوحات الناقصة تركت مساحات فاتحة على ورق الجدران، كان هناك أثاث وسجّاد أقل، والنباتات الاستوائية في الرواق صارت خليطاً متعفّناً ومغبرّاً، والعصافير صامتة في أقفاصها. ما استبق به العمّ فريدريك في رسائله حول السرير العسكري الإفرادي كان دقيقاً. لقد شغلت دائماً أكبر غرفة في البيت، وشغل سريرها الأسطوريّ الشهير المركزَ مثل عرش بابوي، ومن هناك كانت تُديرُ إمبراطوريّتها. فتقضي الصباحات بين الملاحف محاطة بالكائنات المائية الملوّنة، التي نحتها حرفي فلورنسي فنّان قبل أربعين عاماً، تراجع دفاتر حساباتها، وتملي رسائلَ، وتبتدع صفقات تجارية. كانت بدانتُها تختفي تحت الملاحف، وتمكّنت من أن تخلق وهماً بالرشاقة والجمال. التقطت لها عدداً لايُحصى من الصور في ذلك السرير الذهبيّ، وخطر لي أن ألتقط لها صوراً في قميص نومها، وشال الجدّة في سرير التوبة، لكنّها رفضت رفضاً قاطعاً. لاحظت أنّ الأثاث الفرنسي المغلف بالحرير قد اختفى من غرفتها، وكذلك مكتب خشب الورد الكبير المطعّم بالصدف المستجلب من الهند، والسجاد واللوحات، وكلّ ما وُجِدَ هناك من زينة اقتصرت على مسيح مصلوب. «إنّها تهدي الأثاث والمجوهرات إلى الكنيسة»، وضّح لي فريدريك وليامز، ولذلك قرّرنا أن نستبدل الراهبات بممرضات وإيجاد طريقة ولو بالقوّة لمنع زيارات الكاهن المريع، لأنّه بالإضافة إلى أنّه راح يحمل معه أشياء، فقد كان يزرع الذعر. إيفان رادوفيك، الطبيب الوحيد الذي كانت باولينا دِل بالْيه تثق به، اتفق تماماً مع هذه الإجراءات . والشيء الجيد هو العودة لرؤية هذا الصديق القديم ـ الصداقة الحقيقية تُقاوِم الزمن والمسافةَ والصمتَ، كما قال ـ واعترافي له، ونحن نضحك، بأنّه يظهر دائماً في ذاكرتي مقنّعاً بجنكيز خان. «إنّهما الحنكان السلافيان» وضّح لي بمزاجٍ رائق. فمايزال يعلوه ملمحُ زعيمٍ تتري، لكنّ الاحتكاك بالمرضى في مستشفى الفقراء الذي كان يعملُ فيه خفّف من ذلك، ثمّ إنّه في تشيلي

لم يبدُ بالغرابة التي بدا فيها في إنكلترا. كان من الممكن أن يكون زعيماً حربيّاً أروكانياً أطول وأنظف. كان رجلاً صموتاً، يُصغي باهتمامٍ كبيرٍ حتى إلى ثرثرة أدِلا التي لا تنقطع، والتي عشقته على الفور، وباعتيادها على إغواء أبيها كما كان حالها، استخدمت الأسلوب ذاته لاستمالة إيفان رادوفيك. ومن سوء حظّها أنّ الدكتور كان يتلقاها كطفلة بريئة وظريفة، لكنّها طفلة على كلّ حال. لم يكن جهل أدِلا المطبق والغطرسة التي تؤكّد بها حماقاتها الهائلة تُزعجانه، على العكس أعتقد أنّهما كانا يُسليانه، رغم أنّ انفعالات غنجها الساذجة راحت تجعله يحمرّ خجلاً. كان الدكتور يدبّ الثقة في النفوس، وكان من السهل عليّ التحدّث إليه بموضوعاتٍ نادراً ما كنتُ أذكرها أمام أشخاص آخرين خوفاً من إصابتهم بالملل، مثل الحديث عن التصوير. كان يهمّه ذلك، لأنّه بدأ يُستخدم في الطبّ منذ عدّة سنواتٍ في أوروبا والولايات المتحدة، وطلبَ منّي أن أعلّمه استخدامَ الكاميرا كي يعمل سجلاً للعمليات التي يُجريها وللأعراض الخارجية لمرضاه لتوضيح محاضراته ودروسه بالصور. بهذه الحجّة ذهبنا لزيارة دون خوان ريبِرو، لكنّنا وجدنا الاستديو مُغلقاً وعليه إعلان للبيع. وقد ضّح لنا الحلاّقُ المجاورُ أنّ المُعلّم ما عاد يعمل، لأنّه مصاب بالماء الأزرق في كلتا عينيه، ولكنّه أعطانا عنوانه وذهبنا لزيارته. كان يعيش في بناء صار قديماً، وتتقاطع فيه الأشباح في شارع مونخيتاس، بعد أن عرف أزمنةً أفضلَ. قادتنا مستخدمة عبر عدّة غرفٍ متصلة ببعضها، ومغطاة من الأرض وحتى السقف بصور ريبِرو، بما في ذلك قاعة مفروشة بأثاثٍ قديم من خشب المُغنة، وكراسي مضعضعة من المخمل. لم يكن هناك مصابيح مضاءة، واحتجنا إلى عدّة ثوانٍ كي نعوّد عيوننا على نصف النور ونلمح المُعلّم جالِساً، وقطّ على ركبتيه، بجانب النافذة حيث كانت آخر انعكاسات المساء. نهض على قدميه وتقدّم بثقة كبيرةٍ ليحيّينا، وما من شيءٍ في خطواته وشى بعماه.

ـ آنسة دِل بالْيِه! عفواً، الآن سيّدة دومينغِث، أليس صحيحاً؟ ـ هتف وهو يمدّ كلتا يديه.

ـ أورورا يا مُعلِّم، أورورا نفسها التي كانت دائماً ـ رددتُ معانقة إيّاه. ثمّ قدّمت إليه الدكتور رادوفيك وحكيت له رغبته بتعلّم التصوير لأهدافٍ طبّية.

ـ ما عدتُ أستطيع أن أُعلِّمَ شيئاً يا صديقي. فالسماء عاقبتني في أكثر المناطق إيلاماً: في النظر. تصوّر، مصوِّر أعمى! ياللسخرية!

ـ ألا ترى أيّ شيء، أيها المعلّم؟ ـ سألتُ مذعورة.

ـ بعينيَّ لا أرى شيئاً، ولكنّني ما زلتُ أرى العالم. قولي لي ياأورورا، هل تغيّرتِ كثيراً، كيف أنت الآن؟ أوضح صورة عندي لك هي صورة طفلة في الثالثة عشرة واقفة أمام باب الاستديو بعناد بغلة.

ـ ما زلتُ أنا نفسي، يا دون خوان، الخجولة، البلهاء والعنيدة.

ـ لا، لا، قولي لي مثلاً كيف هي تسريحتك، وما اللون الذي ترتدينه.

ـ السيّدة ترتدي فستاناً أبيض، خفيفاً مطرّزاً على تقويرة الصدر، لا أعرف نوع النسيج ، لأنّني لا أفهم بهذه الأشياء، وتضع حزاماً أصفر، مثل شريطة القبّعة. أوكّد لك إنّها تبدو حلوة جدّاً. ـ قال رادوفيك.

ـ لا تُخجّلني يا دكتور، أرجوك ـ قاطعته.

ـ والآن صار خدّا السيّدة محمرّين خجلاً... ـ أضاف، وضحكا بصوتٍ واحد.

قرع المُعلِّم جرساً، فدخلت المستخدمة بصينية القهوة. قضينا ساعةً مسلّية جدّاً بالحديث عن التقنيات الجديدة والكاميرات التي تُستخدَم في بلدانٍ أخرى، ومقدار التقدّم في التصوير العلمي، وقد كان دون خوان مطلعاً على آخر المستجدات في كلّ شيء.

ـ أورورا عندها الشدّة والتركيز والصبر الذي يحتاجه كلّ فنّان. وأعتقد أنّه ذاته الذي يحتاجه الطبيب الجيّد، أليس صحيحاً؟

اطلب منها أن تُريك أعمالها يا دكتور، إنّها متواضعة وهي لن تفعل ذلك ما لم تُلح عليها ـ اقترح المعلم على إيفان رادوفيك عندّما ودّعنا.

بعد أيّام جاءت مناسبة لذلك. فقد أصبحت جدّتي على ألم رهيب في معدتها، ولم تستطع مسكّناتها المعتادة أن تُساعدها، فاستدعينا الدكتور رادوفيك، الذي هرع وأعطاها الودونم (صبغة الأفيون). تركناها ترتاح في سريرها، وخرجنا من الغرفة، وقد وضّح لي في الخارج أنّ المسألة هي ورم آخر، لكنّها أصبحت عجوزاً أكثر من اللازم كي يُحاول إجراء عمل جراحيّ جديد، فهي لا تستطيع أن تتحمل المخدِّر. فقط يستطيع أن يُحاول التحكّم بالألم ومساعدتها لتموت بسلام. أردتُ أن أعرف كم بقي لها، لكنّه لم يكن من السهل تحديد ذلك، لأنّ جدّتي وعلى الرغم من عمرها كانت قويّة جدّاً، والورم ينمو ببطء. «حضّري نفسك يا أورورا، لأنّ النهاية يمكن أن تكون خلال أشهر قليلة»، قال. لم أستطع أن أتفادى دموعي، فقد كانت باولينا دِل بالّيه تُمثّل جذري الوحيد، ولولاها لبقيت تحت رحمة التيار، وكون أنّ دييغو زوجي لم يُخفّف من إحساسي بالغرق، بل كان يزيده. ناولني رادوفيك منديلَهُ وبقي صامتاً، دون أن ينظر إليّ مرتبكاً من بكائي. جعلته يعدني بأن يُخبرني مسبقاً كي آتي من الريف لأرافق جدّتي في لحظاتها الأخيرة. فعل صباغ الأفيون مفعوله وسكنت بسرعة؛ وحين غفت رافقت إيفان رادوفيك إلى المخرج. عند الباب سألني ما إذا كان باستطاعته أن يبقى برهة، لأنّ لديه ساعة حرّة والحرّ شديد في الشارع. كانت أدِلا تنام القيلولة، وفريدريك وليامز ذهب للسباحة في النادي، وبدا بيت شارع إخِرثيتو ليبِرادور الفسيح سفينة بلا حراك. قدّمت له كأساً من مرطّب اللوز وجلسنا في قاعة نباتات السرخس وأقفاص العصافير.

ـ اصفر، يا دكتور رادوفيك ـ اقترحتُ عليه.

ـ ماذا أُصَفّر؟ ولماذا؟

ـ حسب اعتقاد الهنود فإن الصفير يستدعي الريح. ونحن بحاجة إلى نسمة هواء لتخفيف الحر.

ـ لماذا لا تأتينني بصورِكِ، ريثما أُصفّر؟ أحبّ جدّاً أن أراها ـ طلب مني.

أحضرتُ عدّة علب وجلستُ بجانبه لأحاول أن أوضّح له عملي. أريته أوّلاً بعض الصور الملتقَطَة في أوروبا، حين كنت ما أزال أهتمّ بالجمال أكثر من المضمون، ثم صور سانتياغو والهنود ومستأجري الإقطاعية، وأخيراً صور آل دومينغِث المطبوعة بالبلاتين. تمعّن فيها بالاهتمام ذاته الذي كان يفحص به جدّتي، سائلاً عن هذه أو تلك بين الفينة والأخرى. وتوقّف عند صور أسرة دييغو.

ـ من هذه المرأة الجميلة جدّاً؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ إنها سوزانا، زوجة إدواردو، شقيق زوجي.

ـ وأعتقد أنّ هذا هو إدواردو، أليس صحيحاً؟ ـ قال مشيراً إلى دييغو.

ـ لا، هذا هو دييغو. لماذا تظنّه زوج سوزانا؟

ـ لا أدري، هكذا بدا لي...

في تلك الليلة وضعتُ الصورَ على الأرض وبقيت أتاملها ساعاتٍ. ثم ذهبت إلى السرير متأخرة جدّاً، ومتكدرة.

اضطُرِرتُ أن أُودّع جدّتي لأنّ ساعة العودة إلى كاليوفو قد حانت. شعرت باولينا دِل بالْيِه في كانونِ الأوّل سانتياغو القائظ أنها أفضل ـ فالشتاء كان طويلاً جدّاً وموحشاً بالنسبة إليها أيضاً ـ ووعدتني أن تزورني مع فريدريك وليامز بعد رأس السنة، بدل أن تذهب للاصطياف على الشاطئ، كما كان يفعل من يستطيعون الهرب من قيظ سانتياغو. وقد كانت في حالة جيدة إلى حدّ أنّها رافقتنا في القطار إلى بالبارايسو، حيث أخذنا أنا وأدِلا السفينةَ إلى الجنوب. عدنا إلى الريف قبل عيد الميلاد، لكنّه لم يكن باستطاعتنا أن نكون غائبتين في أهمّ الأعياد بالنسبة إلى آل دومينغِث. فقبل أشهر كانت دونيا إلفيرا تتفقّد الهدايا للفلاحين، المصنوع في البيت منها والمشترى من المدينة: ثياب وألعاب للأطفال، أقمشة للملابس

وصوف للحياكة للنساء، ومعدّات عمل للرجال. كانوا يوزّعون في مثل ذلك التاريخ حيوانات وأكياس طحين وبطاطا، وتشانكاكا أو سكّر أسود، وفاصولياء وذرة، وتشاركي أو لحم مقدّد، ومتّة وملح وقوالب حلوى السفرجل المعدّة في قدور هائلة من النحاس على المواقد في الهواء الطلق. وصل مستأجرو الإقطاعية من جهات الأرض الأربع، بعضهم سار أيّاماً مع نسائه وأولاده لحضور العيد. ذُبحت أبقار وماعز، وطبخت البطاطا وعرانيس الذرة الطازجة، وأُعدت قدور من الفاصولياء. وكان من نصيبي تزيين الطاولات الطويلة الموضوعة في فناء الدار بالأزهار والأكاليل، وتحضير أباريق النبيذ الممدّد بالماء والسكّر، الذي لم يكن يُسكر الكبار ويشربه الأطفال مخلوطاً مع الدقيق المحمّص. جاء كاهن وبقي يُعمّد أطفالاً يومين أو ثلاثة أيّام، متلقياً اعترافات الخاطئين ومزوجاً المتعايشين، ومديناً الزناة. وفي منتصف ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول حضرنا قدّاس الديكِ أمام مذبح مرتجَلٍ في الهواء الطلق، لأن مصلّى الإقطاعية الصغير لم يكن ليتّسع لكلّ أولئك الناس، وعند الفجر وبعد إفطار مبشم من القهوة بالحليب والخبز المحمص والقشدة والمربّى والفواكه الصيفية، ساروا بتمثال الطفل الربّ في موكب سعيد كي يستطيع كلّ واحد أن يُقبِّل قدميه الخزفيين. وكان دون سِباستيان يُعيّن أبرز أسرة في سلوكها الأخلاقي ليسلّمها الطفل. ويبقى الصندوق البلوريّ مع التمثال الصغير عاماً، حتى عيد الميلاد التالي يشغل مكان الصدارة في كوخ هؤلاء الفلاّحين، ليجلب لهم البركة. فما دام موجوداً هناك، لا يمكن أن يحدث لهم أيّ أذى. وكان دون سِباستيان يتدبّر الأمرَ كي يَمنح كلّ أسرة فرصة لتؤوي يسوعَ تحت سقفها. وكان لدينا في ذلك العام المسرحية المجازية عن مجيء القرن العشرين، التي شاركنا فيها جميع أعضاء الأسرة ، باستثناء دونيا إلفيرا، الضعيفة أكثر من اللازم، ودييغو الذي فضّل أن يأخذ على عاتقه الجانب التقني، مثل المصابيح والستائر الخلفية. قبل دون سِباستيان، بمزاجٍ حسنٍ دورَ العام القديم الذي كان يمضي مدمدماً، بينما مثّلَ العامَ الجديدَ أحد أولاد سوزانا ـ الذي كان ما يزال في اللفافة.

وعلى صوت الكوميديا المجانية جاء بعض الهنود الأفظاظ. كانوا فقراء جدّاً ـ فقد فقدوا أراضيهم، وخطط التطوير الحكومية تتجاهلهم ـ لكنّهم ونظراً لأنفتهم لم يكونوا يصلون خالبي الأيدي، بل يأتون معهم ببعض التفاح تحت معاطفهم، ويقدّمونها إلينا مليئة بالعرق والوسخ، وأرنب ميتاً تفوح منه رائحة الجيفة؛ وبعض ثمار القرع المعبأة بالموتشي، وهو مشروب روحي معدّ من ثمر صغير بنفسجي اللون يمضغونه ويبصقونه في مغرفة ممزوج باللعاب، ويتركونه بعد ذلك كي يختمر. كان رئيس القبيلة يأتي مع نسائه الثلاث وكلابه، يتبعه ما يقارب العشرين من أعضاء قبيلته، ولم يكن الرجال يُفلِتون رماحَهم، فهم على الرغم من أربعة قرونٍ من التمادي والهزائم لم يفقدوا مظهر الضواري. ولم يكن عند النساء أي خجلٍ، فقد كنّ من الاستقلالية والقوّة مثل الرجال، كان هناك مساواة بين الجنسين، ولابد أن نيبيا دِل فالْيِه كانت ستُرحّب بها. راحوا يُحيّون بلغتهم باحتفاليةٍ منادين دون سِباستيان وأولاده بالأخوة، وهم الذين رحّبوا بهم ودعوهم للمشاركة في الوجبة الهائلة، لكنّهم كانوا يُراقبونهم عن قرب، لأنّهم يسرقون عند أيّة غفلة. كان حموي يؤكّد أنّهم لا يملكون إحساساً بالمُلكية لأنّهم معتادين على العيش الجماعي والمشاركة في كل شيء، لكنّ دييغو يدّعي أنّ الهنود السريعين في تلقّف ما ليس لهم، لا يسمحون لأحدٍ أن يلمس أشياءهم. وخوفاً من أنٍ يسكروا ويتحوّلوا إلى عنيفين قدّم دون سِباستيان للرئيس برميلاً من الغوارديينتِ كحافز على ذهابهم، لأنّهم لا يستطيعون أن يفتحوه في أملاكه. جلسوا في دائرة كبيرة ليأكلوا ويشربوا ويُدخِّنوا جميعاً من الغليون ذاته، ويلقوا خطابات طويلة لا أحد يسمعها، دون أن يختلطوا بمستأجري كاليوفو، وإن كان الأطفال جميعهم يتراكضون معاً. لقد منحني هذا العيدُ الفرصة كي أُصوِّر الهنودَ على هواي، وإقامة صداقة مع بعض النساء بهدف أن يسمحنَ لي بزيارتهنَّ في معسكرهنّ على الجانب الآخر من البُحيرة، حيث نزلوا لقضاء الصيف. فحين كان ينفد المرعى أو يملّون من المنطقة؛ يقتلعون الدعامات التي تسند السقوف، ويلفون قماش الخيام، وينطلقون بحثاً عن أماكِن جديدة. لو أن باستطاعتي أن

أقضي بعضَ الوقت معهم، لربّما اعتادوا على حضوري وحضور الكاميرا. كنتُ أرغبُ أن أصوِّرهم في أعمالهم اليومية، الفكرة التي أرعبت حمواي، إذ كانت تدور كلّ أنواع القصص التي يقشعرّ لها البدن حول عادات هذه القبائل، التي لم يكد عمل المبشّرين المتأنّي يترك فيها مسحةً من أثر.

لم تأتِ جدّتي لزيارتي في ذلك الصيف، كما وعدتني. كان السفر في القطار أو السفينة محتملاً، لكنّ يومي السفر في العربة التي تجرّها الثيران من الميناء إلى كاليوفو أخافاها. كانت رسائلها الأسبوعية تمثّل احتكاكي الوحيد مع العالم الخارجي، ومع مرور الأسابيع راح حنيني يزداد. تبدّلت نفسيّتي، صرتُ فظّة، وأمضي أكثر صمتاً من المعتاد، أجرجر أذيال الخيبة مثل ذيل ثوب العروس. العزلة قرّبتني من حماتي، تلك المرأة الناعمة والمحتشمة، التابعة تماماً لزوجها، دون أفكار خاصّة لديها، وغير القادرة على أن تبذل أدنى جهد في الحياة، لكنها تُعوِّضُ نقص معرفتها بطيبتها الهائلة. وكانت نوبات صمتي تتفتّت بحضورها، إذ إن دونيا إلفيرا تملك ميّزة أنّها تجعلني أركز وتُخفّف من لهفتي التي تخنقني أحياناً.

شُغلنا في ذلك الصيف بالمحاصيل، والحيوانات الوليدة وصناعة المحفوظات؛ كانت الشمسُ تغيب في التاسعة ليلاً، والنهارات صارت سرمديّة. وأصبح البيت الذي بناه حمويَ لي ولدييغو جاهزاً وقويّاً ورطباً وجميلاً ومحاطاً بالممرات المسقوفة على الجوانب الأربعة، تفوح منه رائحة الطين الطازج، والخشب المقطوع للتوّ، والحبق الذي زرعه الفلاحون على امتداد الجدران لإبعاد الحظّ السيّئ والسحر. أعطانا حمواي بعض الأثاث الذي ملكته الأسرة أجيالاً، أما البقيّة فقد اشتراها دييغو من البلدة دون أن يسألني عن رأيي. فبدلاً من السرير العريض الذي نمنا عليه حتى ذلك الوقت اشترى سريرين فرديين من البرونز، وفصل بينهما بطاولة صغيرة. كانت الأسرة تأوي إلى غرفها بعد الغداء حتى الساعة الخامسة في استراحة إجبارية ، لأنّهم كانوا يفترضون أنّ الحرّ يوقف عملية الهضم. كان دييغو يستلقي في سرير معلّق تحت الدالية

ليدخّن برهةً يذهب بعدها ليسبح في النهر. كان يحب أن يذهب لوحده، وفي المرّات القليلة التي أردتُ أن أُرافقه فيها انزعج، بحيث أنّني لم أعد أصر على ذلك. ونظراً إلى أنّنا لم نكن نقضي ساعات القيلولة هذه في حميمية غرفتنا، فقد خصّصتها للقراءة والعمل في مختبر تصويري الصغير، لأنّني لم أتمكّن من الاعتياد على النوم وسط النهار. لم يكن دييغو يطلبُ منّي شيئاً، يسألني شيئاً، لا يكاد يبدي اهتماماً بنشاطاتي أو مشاعري؛ لم يقلق قط لحالاتي النفسية المتبدّلة، أو لكوابيسي، التي عادت بتكرار أكثر وكثافة أكبر، أو لصمتي الماكر. كانت تمرّ أيّامٌ دون أن نتبادَل كلمةً واحدةً، لكنه يبدو كما لو أنّه لا يلحظ ذلك. كنتُ أتقوقع في الصمتِ مثل الدرع، أعدُّ الساعاتِ لأرى إلى متى نستطيع إطالة الحالةَ، لكنّني كنت أذعن أخيراً لأنّ الصمتَ يثقل عليَّ أكثر منه بكثير. سابقاً حين كنّا نتقاسم السرير ذاته، كنتُ أقتربُ منه متظاهرةً بالنوم، ألتصق بظهره أشبك ساقيّ بساقيه، وهكذا كنتُ أردم أحياناً الهوّة التي راحت تنفتح سحيقة بيننا. لم أكن أبحث في تلك العناقات النادرة عن متعة، لأنّني أعرف أنّها ليست ممكنة، بل عن عزاء ورفقة. كنتُ أعيش في بعض الساعات وهم أنّني استرددته ، لكن الصباح كان يأتي بعد ذلك ويعودُ كلّ شيء إلى ماكان عليه دائماً. وحين انتقلنا إلى بيتنا الجديد اختفت حتى هذه الحميمية المؤقتة، لأنَّ المسافة بين السريرين كانت بالنتيجة أعرض وأكثر عدوانية من مياه النهر الجارفة. ومع ذلك حين كنتُ أستيقظ أحياناً مُحاصَرةً بالأطفال ذوي البيجامات السود في أحلامي، كان ينهضُ ويأتي ويعانقني بقوّة حتى أهدأ، ربّما كانت تلك اللقاءات العفوية الوحيدة بيننا. كانت تشغله تلك الكوابيس، ويعتقد أنّها يمكن أن تؤدّي إلى الجنون، لذلك حصل على زجاجة أفيون راح يُعطيني أحياناً قطراتٍ منها مذابة في مشروب البرتقال الكحولي، ليساعدني على النوم بأحلام سعيدة. وقليلاً ما كنّا أنا ودييغو نقضي الوقت معاً إلاَ خلال النشاطات المشتركة مع بقيّة الأسرة. وكثيراً ما كان يذهب في رحلاتٍ عابراً سلسلة الجبال باتجاه باتاغونيا الأرجنتينية، أو يذهب إلى القرية لشراء المؤَن، وقد يضيع أحياناً ليومين أو ثلاثة أيّام دون

توضيحاتٍ بينما أنا أغرق في الضيق متصوّرةً وقوع حادث، لكنّ إدواردو كان يهدِّئني بذريعة أنّ أخاه هو دائماً هكذا، انعزالي وتربّى في تلك الفساحة الهائلة من تلك الطبيعة البرّية، ومنذ صغره يحتاج إلى الفضاءات الكبيرة، له روح صعلوك، ولولا أنّه وُلِد بين شباك تلك الأسرة المترابطة لربّما خرج بحّاراً. كان قد مضى على زواجنا عام، وأنا أشعر أنّني مذنبة، لم أكن فقط غير قادرة على أن أمنحه ابناً، بل أيضاً لم أستطيع أن أجعله يهتمّ بي، وأقل من ذلك بكثير أن يعشقني: ثمة شيء أساسي كان ينقصني في أنوثتي. وكنت أفترض أنّه اختارني لأنّه كان في عمر الزواج، وضغط والديه أجبره على البحث عن زوجة، فكنت الأولى، وربّما الوحيدة التي وقعت في طريقه. دييغو لم يكن يُحبّني. عرفت ذلك منذ البداية، لكن بكبرياء الحبّ الأوّل والأعوام التسعة عشر لم يبدُ لي شيئاً لا يمكن إنقاذه، اعتقدتُ أنّ باستطاعتي إغواءه بالعناد والفضيلة والغنج، كما في القصص الرومانسية. في ضيق التحقّق من سؤال ما الذي كان يخفق فيَّ، خصّصت ساعاتٍ وساعاتٍ لالتقاط صور لنفسي، بعضها أمام مرآة كبيرة نقلتُها إلى مختبري، وأخرى بوقوفي أمام الكاميرا. التقطتُ مئات الصور، بعضها بملابسي وأخرى وأنا عارية، تفحصتُ نفسي من كلّ الزوايا، والشيء الوحيد الذي اكتشفته كان حزناً غير واعٍ.

كانت دونيا إلفيرا تُراقِب من كرسيِّ مرضها حياةَ الأسرةِ دون أن تُضيّع تفصيلاً، وقد انتبهت إلى غيابات دييغو الطويلة وكآبتي. جمعت اثنين مع اثنين ووصلت إلى بعض النتائج. رقّتُها والعادة التشيلية القائمة على عدم الكلام عن المشاعر كانا يمنعانها من مواجهة المشكلة مباشرةً، ولكن خلال الساعات الكثيرة التي قضيناها معاً وحيدتين راح يظهر نوع من التقارب الحميم بيننا، وتوصلنا لأنّ نكون مثل الأم والابنة. وهكذا حكت لي بحشمة، وقليلاً قليلاً عن الصعوبات التي عانت منها في البداية مع زوجها. لقد تزوّجت وهي شابّة جدّاً، ولم تُنجِب ولدها الأوّل إلاّ بعد خمسة أعوام، وبعد عدّة إجهاضاتٍ أضنت روحها وجسدها. كان سِباستيان دومينغِث في ذلك الوقت خالياً من أيّ نضجٍ وشعورٍ

بالمسؤولية تجاه الحياة الزوجيّة؛ مندفعاً، مرحاً ومضاجعاً، طبعاً هي لم تستخدم هذه الكلمة، لا أظنّ أنّها كانت تعرفها. كانت دونيا إلفيرا تشعر بنفسها معزولة، بعيدة جدّاً عن أسرتها، ووحيدة، وخائفةً، مقتنعةً بأنّ زواجها كان خطأً رهيباً، المخرج الوحيد منه هو الموت. «لكنّ الله سمع توسلاتي، وجاءنا إدواردو، وبين ليلة وضحاها تغيّر سِباستيان كلّياً، لا يوجد أب ولا زوج أفضل منه، مضى علينا معاً أكثر من ثلاثين عاماً، وأنا في كلّ يوم أحمد السماءَ على السعادة التي نتقاسمها. يجب أن تُصلّي يا بُنيّتي، فهذا يُساعد كثيراً»، قالت ناصحة. صلّيتُ، لكن بالتأكيد ليس بالشدّة والمثابرة المطلوبتين، إذ لا شيء تبدّل.

كانت الشكوك قد بدأت قبل أشهر، لكنّني استبعدتُها مشمئزّة من نفسي؛ لم يكن باستطاعتي قبولها دون أن أظهر بوضوح شيئاً شريراً في طبيعتي ذاتها. وكنتُ أكرِّر على نفسي بأنّ مثل تلك التخمينات لا يمكن أن تكون إلاّ أفكاراً شيطانيّةً، راحت تتجذّر وتنتش مثل الأورام القاتلة في دماغي، هذه الأفكار التي عليّ أن أحاربها بلا رحمة، لكنّ الضغينة كانت أقوى من نواياي الطيّبة. في البداية كانت صور الأسرة التي أريتها لإيفان رادوفيك. وما لم يكن واضحاً للنظرة البسيطة ـ نظراً لعادة أنّنا لا نرى إلاّ ما نريد رؤيته، كما يقول معلّمي خوان ريبِرو ـ ظهر منعكساً بالأبيض والسود على الورق. لغة الجسد التي لا تخطئ، والحركات، والنظرات راحت تظهر هناك. وبدءاً من هذه الظنون لجأت إلى الكاميرا أكثرَ وأكثر؛ وبحجّة أنّني أريد أن أصنع ألبوماً لدونيا إلفيرا رحتُ ألتقطُ في كلّ لحظة صوراً تلقائية للأسرة، أُظهّرها فيما بعد في وحدة مختبري وأدرسها باهتمام خبيث. وهكذا توصّلت إلى أن أصبح عندي مجموعة بائسة من البراهين الصغيرة، بعضها من الذكاء بحيث إنّني أنا وحدي المسمّمة بالضغينة أستطيع الانتباه إليها. فبوضع الكاميرا أمام وجهي، كقناع يجعلني خفيّةً، كان باستطاعتي تسليط الضوء على المشهد، وفي الوقت ذاته أبقي على مسافة جليدية. نحو

نهاية شهر نيسان ، حين انخفض الحرّ، وتتوّجت قمم البراكين بالغيوم وبدأت الطبيعةُ تستجمع نفسها للخريف، بدت لي العلائم الملتقطة في الصور كافيةً فبدأت مهمّة مراقبة دييغو الكريهة مثل أيّة امرأة غيورة. حين وعيت أخيراً لتلك البراثن التي تُمسكني من حنجرتي واستطعت أن أعطيها اسماً موجوداً في القاموس، شعرتُ بأنّني أغوص في مستنقع. الغيرة. من لم يشعر بها لا يستطيع أن يعرف كم هي مؤلمة، ولا أن يتصوَّرَ أعمال الجنون التي تُرتَكَبُ باسمها. لم أعانِ منها في سنواتي الثلاثين إلاّ في تلك المرّة، لكنّ الحروق كانت من الوحشية بحيث إنّ الندوب لم تمّحي وآمل ألاّ تمّحي أبداً، كعبرة كي أتفادها في المستقبل. لم يكن دييغو لي ـ فما من أحدٍ يمكن أن ينتمي لآخر أبداً ـ وكوني زوجته لم يكن يمنحني حقّاً عليه أو على مشاعره، فالحبُّ عقدٌ حرٌّ يبدأ بشرارةٍ ويمكن أن ينتهي بالطريقة ذاتها. ألف خطر يُهدِّده، فإذا دافع الزوجان عنه يمكن أن يُنقَذ وينمو مثل شجرة ويفيء بظلّه ويُعطي ثماره، ولكنّ هذا لا يحدث إلاّ إذا ساهم الاثنان في ذلك. ودييغو لم يفعل ذلك قط، وعلاقتنا كانت منذ البداية محكومة. اليوم أفهم ذلك، لكنّني وقتذاك كنتُ عمياء، في البداية من الحنق الخالص، وبعدها من الغمّ.

حين رحتُ أتجسّسُ على زوجي والساعة في يدي، رحتُ انتبه إلى أنّ غياباته لم تكن تنطبق على توضيحاته. فحين يخرج ظاهرياً للصيّد مع أخيه إدواردو، كان يعود قبل أو بعد أخيه بساعاتٍ كثيرة، وحين تكون بقية رجال الأسرة في منشرة الخشب أو في الحظيرة يَسِمون الماشية، يظهر فجأة في الفناء، وإذا ما طرحت الموضوع فيما بعد على المائدة يظهر أنّه لم يكن معهم طوال النهار؛ وحين يذهب إلى البلدة ليشتري، يعود عادة بلا شيء، بزعمه أنه لم يجد ما يبحث عنه، حتى ولو كان ما يريده ترهة مثل فأس أو منشار. طوال الساعات التي تقضيها الأسرة مجتمعة يتحاشى الأحاديث بكلّ وسيلة، وكان هو من يُنظّم دائماً لعب الورق أو يطلبُ من سوزانا أن تُغنّي. وإذا ما أُصيبت بنوبة شقيقة سرعان ما يملّ ويذهب ممتطياً حصانه وبندقيته على كتفه. لم يكن باستطاعتي أن ألحق به في

رحلاته دون أن يُلحظ ذلك وأثير الشكوك في الأسرة، ولكنّني بقيت مستنفرةً كي أراقبه حين يكون قريباً. وهكذا لاحظتُ أنّه ينهض أحياناً في منتصف الليل ولا يذهب إلى المطبخ ليأكلَ شيئاً كما كنتُ أفكرُ، بل يرتدي ملابسه ويخرج إلى الفناء ويغيب لساعة أو ساعتين، ليعود بعدها بصمتٍ إلى الفراش. كان اللحاق به في الظلمة بالنتيجة أسهل مما في النهار، حين تكون هناك اثنتا عشرة عيناً تنظر إلينا. كلّ شيء كان يتعلّق ببقائي يقظة متجنّبة النبيذ على العشاء وقطرات الأفيون الليلية. وذات ليلة في أواسط أيّار لاحظت أنّه ينسلّ من الفراش، وعلى نور مصباح الزيت الخفيف الذي كنّا نُبقي عليه مضاءً دائماً أمام الصليب، رأيته يرتدي بنطلونه وجزمته، ويأخذ قميصَه وسترته ويذهب. انتظرتُ لحظاتٍ، ثم نهضتُ بعدها بسرعةٍ وتبعته وقلبي يكاد ينفجر في صدري. لم يكن باستطاعتي أن أراه داخل البيت الغارق في الظلمة، لكنّه حين خرج إلى الفناء برز طيفُه على ضوء القمر الذي كان يظهر للحظاتٍ كاملاً في قبّة السماء المغطاة جزئيّاً بالغيوم التي راحت تُغطّي القمر للحظات، وتلفّنا الظلمة. سمعتُ الكلابَ تنبَحُ وفكّرت أنّها إذا اقتربت فستفضح وجودي، لكنّها لم تجئ، وعندئذ اكتشفتُ أنّ دييغو قد ربطها باكراً. دار زوجي دورةً كاملة حول البيت، وتوجّه بسرعةٍ إلى أحد الإسطبلات ، الذي توجد فيها أحصنة ركوب الأسرة التي لاتُستَخدم لأعمال الحقل، رفع مرتاج البوّابة ودخل. بقيت أنتظر يحميني سواد شجرة دردار موجودة على بعد أمتارٍ قليلة من الإسطبلات، حافية وليس عليّ غير قميص نوم رقيق، دون أن أجرؤ على التقدّم خطوة أخرى ، مقتنعة بأنّ دييغو سيظهر على جوادٍ ولن أستطيع أن أتبعه. مرّ زمن بدا لي طويلاً جدّاً دون أن يحدث شيء. وسرعان ما لمحت نوراً من شقّ البوّابة المفتوحة، ربّما كانت شمعة، أو مصباحاً صغيراً. كانت أسناني تصطكّ وأنا أرتعد مرتجفة من البرد والخوف. أوشكت أن أعلن هزيمتي وأعود إلى فراشي حين رأيت هيئة أخرى تقترب من الإسطبل من الجانب الشرقيّ ـ كان واضحاً أنّها لم تكن قادمة من البيت الكبير ـ ودخلت إليه أيضاً مغلقةً الباب خلفها. تركت ربع ساعة تمرّ تقريباً قبل أن أقرّر، بعدها جهدتُ كي

أتقدّم بعض الخطواتِ، كنتُ متخدّرة لا أكاد أستطيع الحركة. اقتربت من الإسطبل مذعورةً دون أن أدري كيف ستكون ردّة فعل دييغو إذا ما اكتشف أنّني أتجسَّسُ عليه، ولكنّني كنت عاجزة على التراجع. دفعت البوّابة بنعومة فانصاعت دون مقاومة، لأنّ المرتاجَ كان من الخارج، ولا يمكن إغلاقها من الداخل، واستطعتُ أن أنسلّ مثل لصّ عبر الشقّ الدقيق. كان الداخل مظلماً، لكن في العمق يتلألأ نور واهنٍ، فتقدّمت باتجاهه على رؤوس أصابعي، دون أن أتنفّس تقريباً، وهو حذر غير مُجدٍ، لأنّ التبن كان يمتصّ وقع خطواتي، وعدد من الحيوانات كان مستيقظاً ، وأستطيع أن أسمعها تتحرّك وتشخر في معالفها.

رأيتُهما على ضوء خافت من فانوس معلّق إلى دعامة، تهزّه نسمة تنسلّ عبر الألواح الخشبية. كانا قد وضعا بعض البطانيات على حزمة من التبنِ، مثل عشّ، وكانت مستلقية فيها على ظهرها، ترتدي معطفاً ثقيلاً مفتوح الأزرار، تمضي عارية تحته. كانت مفتوحة الذراعين والساقين، ورأسها يميل جانباً، وشعرها الأسود يُغطّي وجهها وبشرتها تلمعُ مثل خشبٍ أشقرَ تحت ضوء الفانوسِ البرتقاليّ الخافت . دييغو، الذي لا يكاد يُغطّيه القميص، كان راكعاً أمامها، يلعقُ عضوها. وكان موقف سوزانا والعاطفة المكبوتة في حركات دييغو من الاستسلام بحيث إنّني أدركتُ على الفور كم كنتُ غريبةً على كلٍّ ذلك. حقيقة لم يكن لي وجود، وكذلك إدواردو والأولاد الثلاثة، لا أحد آخر غيرهما يتحابّان حتماً. لم يُداعِبني زوجي قط بهذه الطريقة. كان من السهل إدراك أنّهما مرّا بهذه الحالة ألف مرّة من قبل، ويُحبّان بعضهما منذ سنوات؛ وفهمت أنّ دييغو تزوّج منّي لأنّه كان يحتاج إلى ستارة يُغطّي بها على غرامياته مع سوزانا. وخلال لحظات شغلت أجزاء هذه الصورة التركيبية مكانها، واستطعت أن أتبينّ لامبالاته تجاهي، وغياباته التي تلتقي مع نوبات شقيقة سوزانا، وعلاقته القويّة جدّاً بأخيه إدواردو، والطريقة المواربة التي كان يتصرّف بها مع بقيّة أفراد العائلة، وكيف يتدبّر أمره كي يبقى دائماً بجانبها، يلمسها، قدمه على قدمها،

ويده على مرفقها أو كتفها، وأحياناً كما لو بالمصادفة على فجوة ظهرها أو عنقها، العلامات المؤكدة التي كشفتها لي الصورُ. تذكّرتُ كم كان دييغو يُحبُّ الأطفالَ، وخطر لي بأنهم ربّما لم يكونوا أولاد أخيه، بل أولاده، فالثلاثة عيونهم زرقاء، علامة آل دومينيث المميزة. بقيتُ بلا حراكٍ، أكادُ أتجمّدُ ، بينما هما يُمارسان الحبَّ بشهوانية، يتذوّقان كلّ لمسة، كل أنّةٍ، دون استعجال، كما لو أنّ الحياة بكاملها ماتزال تحت تصرّفهما. لم يبدوَا عشيقين في لقاء سرّي مستعجل، بل زوجين حديثين في الأسبوع الثاني من شهر عسلهما، حين تكون العاطفة ماتزال على حالها بعد، لكنّ تمّت الثقة وتعارف اللحم المتبادل. بينما أنا لم أمر بمثل هذه الحميمية مع زوجي، كما لم أكن قادرة على استنباطها ولا حتى في أكثر خيالاتي جرأة. كان لسانُ دييغو يجوب داخل فخذي سوزانا، من ركبتيها وإلى الأعلى متوقّفاً بين فخذيها ليهبط من جديد، بينما يداه تتسلّقان خصرها، وتعجنان نهديها الدائريين والفاخرين، مُداعِباً الحلمتَين المنتصبتين واللامعتين مثل حبّتي عنب. كان جسد سوزانا الطريّ والناعم يهتزّ ويتموّج، كسمكة في نهر، ورأسها يدور من جانبٍ إلى جانب في قنوط اللذة، وشعرها دائماً على وجهها وشفتاها مفتوحتان في تأوّه طويل، ويداها تبحثان عن دييغو كي تهدياه عبر تضاريس جسدها الجميلة، إلى أن جعلها لسانه تنفجر متعةً. قوّست سوزانا ظهرها إلى الخلف من النشوة التي اخترقتها مثل صاعقة وأطلقت صرخة جشّاء أطفأها دييغو مطبقاً فمه على فمها. أخذها بعد ذلك بين ذراعيه وهو يُهدهدها ويُداعبها مثل قطّةٍ، ويهمس في أذنها سبحةً من كلمات سريّة برقّة ورهافة لم أعتقد قط أنّه يملكهما. وفي لحظة جلست على القَشّ، خلعت المعطفَ وراحت تُقبّله، في البداية على جبينه، ثمّ أهدابه، فصدغيه ففمه مطوّلاً، ولسانها يسبر أذني دييغو بجرأة لتقفز إلى حنجرته، ملامسة عنقه، أسنانها تنقر وتعضّ الحلمتين الذكوريتين، أصابعها تتشابك بشعر الصدر. وعندئذ جاء دوره بالاستسلام تماماً لمداعباتِها، فاستلقى على بطنه فوق البطانية، وامتطت ظهرَه وهي تعضّ نقرته وعنقَه متنزّهة بقبل قصيرة لعوبة على كتفيه هابطة حتى إليتيه، سابرة مشتمّة إيّاه،

متذوقة تاركة خيطاً من لعابٍ في طريقها. انقلب دييغو حينها، ولفّ فمها عضوه المنتصب والنابض في انهماك بالمتعة لا ينتهي، أخذاً وعطاءً في أخفى خفايا الحميمية، إلى أن لم يعد باستطاعته أن يُقاوِم وارتمى فوقها، وولجها، وتدحرجا مثل عدوَّين في تشابك من الأذرع والسيقان والقبلات واللهاث والتنهدات وتعابير الحبّ التي لم أسمع بها قط. غفيا بعدها في عناق دافئ مغطّيين بالبطانية ومعطف سوزانا، مثل طفلين بريئين. تراجعت بصمت وشرعتُ طريق العودة إلى البيت، بينما برد الليل الجليدي يستولي على روحي بلا رحمة.

هوّة انفتحت أمامي، شعرتُ بالدوار يجرفني نحو القاع، وإغواء قفزي وضياعي في أعماق المعاناة والرعب. إن خيانة دييغو والخوف من المستقبل تركاني أطفو بلا سند، ضائعة حزينة؛ والغضب الذي هزّني في البدايةِ لم يدُم كثيراً، إذ سرعان ما هزمني إحساسٌ بالموت، وبالحداد المُطلَق. كنتُ قد أسلمتُ حياتي لِدييغو، ووثقت من حمايته الزوجية، وصدّقتُ حرفيّاً كلمات طقس الزواج: متحدان حتى الموت. ما من مهرب. مشهد الإسطبل وضعني أمام واقع كنتُ أُحسّ به منذ وقت، لكنّني كنتُ أرفضُ مواجهته. أوّل ردّة فعلٍ فكرت بها كانت الجري باتجاه البيت الكبير، والوقوف في وسط الفناء، والعواء مثل مجنونة، وإيقاظ الأسرة، والمستأجرين، والكلابَ لأُشهدهم على الزنى وغشيان المحارم. ومع ذلك فخوفي كان أقوى من قنوطي، لذا تجرجرت صامتة، ومتلمسة طريقي في الظلمة إلى الغرفة التي كنتُ أتقاسمها مع دييغو، وجلستُ على السرير أرتعد برداً، بينما دموعي تجري على خدّيّ وتبلل صدري والقميص. ملكت الوقت خلال الدقائق أو الساعات التالية كي أفكّر فيما جرى وأقبلَ بعجزي. لم يكن الأمر يتعلّق بمغامرة جسدية؛ لأن ما يجمع دييغو وسوزانا كان حبّاً مختَبَراً، مستعداً للتعرّض لكلّ المخاطر، ولجرف كلّ ما يعترض طريقه، مثل نهر من حمم ملتهبة لا يرحم. لم نكن أنا وإدواردو في الحسبان، كنّا مرفوضَين، لا نكاد نكون حشرتين في رحابة المغامرة العاطفية لهما. وقررت أنه يجب قول ذلك لحميّ قبل

أيّ إنسانٍ آخر، لكن حين تصوّرت الضربة التي سيوقعها ذلك الاعتراف في حياة ذلك الرجل الطيّب، أدركتُ أنّني لا أملك الجرأة على فعل ذلك. فإدواردو سيكتشف الأمر بنفسه ذات يوم، أو ومن حسن الحظ لن يعلم به أبداً. ربّما كان يشكّ به مثلي، لكنّه لا يرغب بالتأكّد منه كي يبقي على توازن أوهامه الهشّ؛ فهناك ثلاثة أطفال، وحبّه لسوزانا، والتماسك الصلب للعشيرة العائلية.

عاد دييغو في وقت من الليل، قبل الفجر. فرآني على ضوء مصباح الزيت جالسة على السرير، محتقنة من البكاء، غير قادرة على النطق بكلمة، فظنّ أنّني استيقظتُ على كابوس آخر من كوابيسي. جلس بجانبي وحاول أن يشدّني إلى صدره، كما كان يفعل في مثل تلك الحالات، لكنّني انكمشت في حركةٍ غريزية، ويبدو أنّه صدرت منّي حركة حنق رهيبة، لأنّه تراجع على الفور. بقينا ينظر الواحدُ منّا إلى الآخر، هو مفاجأ وأنا كارهة، إلى أن انتصبت الحقيقة بين السريرين حتميّة وقطعية مثل تنين.

ـ ماذا سنفعلُ الآن ـ كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي استطعت أن أتمتم به.

لم يُحاول أن يُنكر أو يُبرّر، بل تحدّاني بنظرة من فولاذ، مستعدّاً للدفاع عن حبّه بأيّ طريقة، حتى ولو اضطرَّ لقتلي. وعندئذٍ تشظّى سدُّ الكبرياء، والتربية، والأخلاق الحميدة، الذي لجمني خلال أشهرٍ من الخيبة، وتحوّل التوبيخ الصامت إلى تيّارٍ جارف من العتاب الذي لا ينتهي، تلقاه بقساوة وصمت، ولكن بانتباه إلى كلّ كلمة. اتهمته بكلّ ما خطر في ذهني من اتهامات، ورجوته أخيراً أن يتفكّر، قلت له إنّني مستعدّة كي أغفر له وأنسى، أن نذهب بعيداً ، إلى حيث لن يعرفنا أحد، وإنّ باستطاعتنا أن نبدأ من جديد. حين انتهت كلماتي ودموعي كان النهار قد سطع. ردم دييغو المسافة التي تفصل بين سريرينا، وجلس بجانبي، أخذ يديَّ ووضّح لي بهدوء وجدّية أنّه يُحبّ سوزانا منذ سنواتٍ كثيرة، وأنّ هذا الحب هو أهمّ ما في حياته، أهمّ من شرفه، وبقيّة أسرته، ومن خلاص روحه؛ ويستطيع أن يعدني بأنّه سينفصل عنها كي يُريحني، كما قال، لكنّه

سيكون وعداً زائفاً. ثم أضاف أنّه حاول ذلك حين ذهب إلى أوروبا، مبتعداً عنها طوال ستّة أشهر، لكنّ دون نتيجة. بل إنّه توصّل إلى الزواج منّي عساه يستطيع أن يقطع تلك العلاقة الرهيبة مع زوجة أخيه، لكن الزواج وبعيداً عن أن يساعده في قراره بالابتعاد عنها سهّل له الأمور، لأنّه خفّف من شكوك إدواردو وبقيّة الأسرة. ومع ذلك كان سعيداً لأنّني اكتشفتُ الحقيقة في النهاية، فقد كان يحزنه خداعه لي؛ وعدم قدرته على مواجهتي بشيء، كما أكّد لي، فقد كنتُ زوجة رائعةً ويحزنه جدّاً أنّه لايستطيع منحي الحبَّ الذي أستحقُّ. كان يشعر بنفسه بائساً في كلّ مرّة ينسلّ فيها من جانبي ليكون بجانب سوزانا، وإنه لمن المريح أنّه لن يضطرّ للكذب عليّ بعد الآن. فقد اتضّحت الحالة.

- وإدواردو ألا يؤخذ بالحسبان؟ - سألتُه.

- ما يجري بينه وبين سوزانا مسألة تتعلّق بهما. العلاقة بيننا هي التي يجبُ أن نُقرِّرها الآن.

- لقد قرّرتها يا دييغو. ليس عندي ما أفعله هنا، سأعود إلى بيتي - قلتُ له.

- هذا هو بيتُك الآن، نحنُ متزوّجان يا أورورا. ما جمعه الرب لا يمكن تفريقه.

- أنت من اخترق حرمة عدّة مبادئ إلهية - وضّحتُ له.

- نستطيع أن نعيش كأخوين، لن ينقصك شيء بجانبي، وسأحترمك دائماً، وستكون لك حمايتي وحرّيتك كي تتفرّغي لصورك أو ما تشائين. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو ألاّ تثيري فضيحة.

- لم يعد باستطاعتك أن تطلب منّي شيئاً يا دييغو.

- لا أطلبه لي. فجلدي سميك وقاس وأستطيع أن أواجه كرجل. أطلبه منك من أجل أمّي. فهي لن تستطيع أن تُقاوم...

وهكذا بقيت من أجل دونيا إلفيرا. لا أدري كيف استطعتُ أن أرتدي ملابسي، وأن أمرّ بالماء على وجهي، وأسرّح شعري،

وأتناول قهوتي وأخرج من البيت للقيام بأعمالي اليومية. لا أدري كيف واجهتُ سوزانا ساعةَ الغداء، ولا التفسير الذي قدّمته لحمويَّ بسبب انتفاخ عينيَّ. لقد كان ذلك اليوم هو الأسوأ، كنتُ أشعر بنفسي مضروبة بالعصي ومصعوقة، وعلى وشك الانفجار بالبكاء أمام أوّل سؤال. في الليل أصابتني حمى وآلمتني عظامي، لكنّني في اليوم الثاني كنتُ أكثر هدوءاً، فأسرجتُ جوادي وانطلقت باتجاه الهضاب. وسرعان ما بدأت تُمطِرُ، فتابعت خببي حتى لم يعد باستطاعة الفرس المسكينة أكثر، وعندئذٍ ترجّلتُ وبدأت أشقّ طريقي بين الحراج والوحل وتحت الأشجار، منزلقة وساقطة لأعود وأنهض صارخة ملءَ رئتيّ، بينما الماء يتصبّب منّي. كانت العباءة الأمريكية تزن جداً، إلى حدّ أنني تركتها مرميةً على الأرض وتابعت أرتعدُ برداً وأحترق في داخلي . عدتُ عند غياب الشمس، محمومة وبلا صوت، شربتُ نقيعاً ساخناً ودخلت في السرير. قليل ما أتذكّره فيما عدا ذلك، لأنّني في الأسابيع التالية كنتُ مشغولة جدّاً أصارعُ الموتَ، ولم أملك الوقت ولا المعنويات كي أفكّر بمأساة زواجي. فالليلة التي قضيتها شبه عارية في الإسطبل والخبب تحت المطر سبّبا لي التهاب رئة كاد يودي بي. حملوني بالعربة إلى مستشفى الألمان، حيث بقيت بين يدي ممرِّضةٍ توتونية (ألمانية) شقراء الجدائل، أَنْقَذَتْ حياتي بمحض العناد. كانت تلك الفالكيرية المسكينة قادرة على أن ترفعني مثل وليدٍ بين ذراعيها اللذين لحطّاب، وقادرة أيضاً على إعطائي مرقَ الدجاج بالملعقة بصبر مُرضعةٍ.

في بداية شهر تموز، حين استقرّ الشتاء نهائيّاً وصار المشهد ماءً خالصاً ـ أنهار جارفة، فياضانات، مواحل ، أمطار ومزيد من الأمطار ـ ذهب دييغو مع بعض المستأجرين ليحضروني من المستشفى، وحملوني في طريق العودة إلى كاليوفو مدثَّرةً بالبطانيات والجلود، مثل رزمة. كانوا قد وضعوا مظلة مشمَّعة في العربة، وسريراً ومجمرة مشتعلة لمكافحة الرطوبة. وقد قطعت طريق العودة إلى البيت وأنا أتصبّبُ عرقاً في لفافات أغطيتي، بينما دييغو يمضي على جواده بجانبي. كانت عجلات العربة كثيراً ما

تتورّط في الوحل، فلا تكفي قوّة الثيران لجرّ العربة، ويجب على الرجال أن يضعوا ألواحاً خشبية على الوحل ويدفعوها. لم نتبادل أنا وديبغو كلمة واحدة على امتداد ذلك اليوم الطويل من السفر. خرجت دونيا إلفيرا، عندما وصلنا إلى كاليوفو، لاستقبالي باكية من الفرح، عصبيّة، ومُعجّلة المستخدمات كيلا يسهين عن المجامر وزجاجات الماء الساخن، وحساء دم العجول كي يعيد إليّ اللون والرغبة بالعيش. صلّت لأجلي حتى رقّ الله لي، كما قالت. وبذريعة أنّني ما أزال أشعر بنفسي منهكة طلبت منها أن تسمح لي بالنوم في البيت الكبير، فأنزلتني في غرفة بجانب غرفتها. ولأوّل مرّة في حياتي تلقيت رعاية أمّ. فجدّتي باولينا دِل باليه، التي أحبّتني جدّاً، وعملت لأجلي كثيراً لم تكن ميّالة إلى مظاهر الحنان، رغم أنّها كانت في أعماقها عاطفيّة جدّاً. كانت تقول إنّ الرقّة، ذلك الخليط المحلّى من العاطفة والشفقة الذي عادة ما يُمَثّل في التقاويم بأمّهات شاردات الذهن أمام أطفالهنّ في المهد، كان مقبولاً حين يُقدّم لحيواناتٍ عزلاء، كالقطط حديثي الولادة مثلاً، ولكنه حماقة كبرى بين البشر؛ فنادراً ما كنّا نتلامس، إلاّ عندما كنّا ننام معاً في طفولتي، وبشكل عام كنّا نعامل بعضنا بفجاجة، الشيء الذي أراحنا نحن الاثنتين. وحين كنت أريد أن ألوي يدها؛ ألجأ إلى رقّةٍ ساخرة، وقد استطعتُ ذلك دائماً، لأنّ جدّتي العجيبةَ كانت تطرى بسهولة كبيرة، تهرّباً من المظاهر العاطفية أكثر مما هو ضعف في طبيعتها. دونيا إلفيرا من جهة أخرى، كانت كائناً بسيطاً، ولو استخدمت معها سخرية لاذعة من تلك التي كنت أستخدمها أنا وجدّتي لشعرت بالإهانة. فهي حنونة بطبعها، تأخذ يدي وتبقيها بين يديها، تُقبّلني وتعانقني، وتُحبّ أن تمشّط لي شعري، وكانت تُقدّم لي بنفسها مقوّيات نقيّ العظام والباكالاو، وتضع لي كمّادات الكافور للسعال، وتجعلني أتعرّق الحمى بتدليكي بزيت الأوكاليبتوس لافّةً إيّاي بالبطانيات الساخنة. كانت تهتمّ بأن آكل جيّداً وأرتاح، تُعطيني ليلاً قطرات الأفيون، وتبقى وهي تصلي إلى جانبي حتى أنام. وكانت تسألني كلّ صباحٍ عمّا إذا رأيتُ كوابيس وتطلب منّي أن أصفها لها بالتفصيل، «لأنّه بالكلام عن هذه الأمور نفقد الخوف منها»، كما

كانت تقول. لم تكن حسنة الصحّة، لكنني لا أدري من أين كانت تستخرج قوّة لخدمتي ومرافقتي، بينما أتظاهر بوهنٍ أكبر من الوهن الذي كنتُ أشعر به فعلاً، كي أُطيل نجواي مع حماتي. «تحسّني بسرعة يا بُنيّتي، فزوجك يحتاج إليك بجانبه» كانت تقول لي ذلك عادةً بقلق، رغم أنّ دييغو كان يُكرِّر عليها في كل مناسبة أفضلية قضائي الشتاء في البيت الكبير. شكّلت تلك الأسابيع التي قضيتها تحت سقفها أتعافى من التهاب الرئة بالنسبة إليّ تجربة غريبة. فقد قدّمت لي حماتي العناية والحنان اللذين ما كنت لأحصل عليهما قط من دييغو. هذا الحبُّ الناعم وغير المشروط كان له فعل البلسم، وراح يشفيني ببطء من الرغبة بالموت ومن الحنق الذي كنتُ أشعر به تجاه زوجي. استطعتُ أن أتفهّم مشاعرَ دييغو وسوزانا، وقدرية ما جرى الحتمية؛ فلا بدّ أن عاطفتيهما قوّةٌ أرضيّة، زلزالٌ جرفهما بحتمية. تصوّرتُ كيف كافحا ضدّ تلك الجاذبيّة قبل أن ينهارا أمامها، فكم من التابوات كان عليهما أن يهزما كي يلتقيا معاً! وكم كان عذابهما اليومي رهيباً بالتظاهر أمام العالم بعلاقة أخوية، بينما هما يضطرمان رغبة في داخلهما! ما عدتُ أسأل نفسي كيف يمكن ألا يستطيعا التغلّب على شبقهما، وكيف تمنعهما أنانيتهما من رؤية الغرق الذي يمكن أن يتسبَّبا به لأقرب الناس إليهما، لأنّني تكهنت بمدى التمزّق الذي هما فيه. كنتُ قد أحببتُ دييغو بيأس، ويمكنني أن أفهم ما تشعر به سوزانا تجاهه. هل كنتُ سأتصرّف أنا أيضاً مثلها لو أن لي ظروفها. كنتُ أفترض لا، لكن كان من المحال التأكيد. رغم أنّ انطباع الفشل كان ما يزال على حاله، إلاّ أنّني استطعتُ أن أتخلّص من مشاعر الكراهية، وأن أتخذ مسافةً وأضع نفسي مكان صاحبيّ هذه المصيبة؛ وقد أشفقت على إدواردو أكثر ممّا تألمتُ على حالي، فلديه ثلاثة أولاد، وهو عاشق لزوجته، فمأساة هذه الخيانة الغاشية للمحارم كانت أسوأ عليه مما هي بالنسبة إليّ. أيضاً كان عليّ أن ألتزم الصمت لأجل شقيق زوجي، لكنّ السرّ ما عاد يثقل مثل حجر الطاحونة على كاهلي، لأنّ الإحساس بفظاعة دييغو خفَّ، غسلته يدا دونيا إلفيرا. امتناني لتلك المرأة أُضيف إلى الاحترام والعاطفة اللذين شعرتُ بهما تجاهها منذ

البداية؛ فتعلّقتُ بها مثل كلب الحضن؛ وكنتُ بحاجة إلى حضورها، صوتها، شفتيها على جبيني. كنتُ أشعر بنفسي مُجبرة على حمايتها من الكارثة التي كانت تتشكّل في حضن الأسرة، كنتُ مستعدّة أن أبقى في كاليوفو أتغلّب على ذلّي، ذلّ الزوجة المرفوضة، لأنّني إذا ذهبتُ واكتشفتْ هي الحقيقة فستموتُ ألماً وعاراً. وجودها كان يدور حول هذه الأسرة، وحاجات كلّ شخص من الأشخاص الذين يعيشون بين جدران بيتها، كان هذا هو كل عالمها. واتفاقي مع دييغو كان أن أقوم بما عليّ ما دامت دونيا إلفيرا حيّة، وبعدها أصبح حرّة، سيتركني أذهب ولن يعود ليحتك بي أبداً. كان عليّ أن أتحمّل وضعي - المذل بالنسبة للكثيرين - كـ «امرأة منفصلة» ولا أستطيع أن أتزوج من جديد، لكن على الأقل لن أكون مجبرة على العيش مع رجل لا يُحبّني.

في أواسط شهر أيلول، حين لم يعد هناك من ذريعة كي أبقى في بيت حمواي، وحانت لحظة عودتي للعيش مع دييغو، وصلتني برقيّة إيفان رادوفيك. في سطرين أخبرني الطبيب بأنّ عليّ العودة إلى سانتياغو لأنّ يوم جدّتي الأخير يقترب. كنتُ بانتظار هذا الخبر منذ أشهر، ولكنّني حين تلقيت البرقية نزلت عليّ المفاجأة والألم مثل ضربة هراوة، فبقيتُ مصعوقة. كانت جدّتي سرمدية، لا تموت. لم أستطع أن أتصوّرها، بالحالة التي وصلت إليها حقاً، عجوزاً صغيرة صلعاء وهشّة؛ بل مثل حورية الغابات ، بشعرين مستعارين، محبّة للأكل وداهية كما كانت منذ سنوات. أخذتني دونيا إلفيرا بين ذراعيها وقالت لي إنّ عليَّ ألاّ أشعر بالوحدة، فقد صار عندي أسرة، وأنا انتمي إلى كاليوفو، وهي ستُحاول العناية بي وحمايتي كما فعلت باولينا دَل باليه من قبل. ساعدتني على توضيب حقيبتيّ وعادت لتعلّق في عنقي وشاح قلب يسوع المقدّس، وخنقتني بألف توصية، فسانتياغو بالنسبة إليها كانت وكراً للضياع، والسفر مغامرة في غاية الخطورة. كانت تلك فترة إعادة تشغيل المنشرة بعد توقفّها شتاءً، وهذا ما كان بالنسبة لِدييغو حجّة جيّدة كيلا يُرافِقني إلى سانتياغو، رغم إصرار أمه أن يفعل ذلك. رافقني إدواردو حتى

السفينة. وفي باب بيت كاليوفو الكبير كانوا جميعاً يُلوّحون إليّ مودّعين: دييغو، حمواي، أدِلا، سوزانا والأطفال، وعدد من المستأجرين. ولم أكن أعرف أنّني لن أعود لأراهم.

فتّشتُ قبل سفري المخبر الذي لم تطأه قدمي منذ ليلة الإسطبل المشؤومة، واكتشفتُ أنّ أحداً سحب صور دييغو وسوزانا، ولكنّه ونظراً لجهله بعمليه التظهير لم يبحث عن النيكاتيفات. ما كانت لتفيدني تلك البراهين البائسة في شيء، لذا خرّبتها. وضعت نيكاتيفات الهنود، وسكان كاليوفو وبقية الأسرة في حقائبي، لأنّني لم أكن أعلم كم سأغيب، ولم أرغب بأن تصاب بالعطب. قمنا بالرحلة مع إدواردو على الجواد، وقد حزمنا الأمتعة على بغل، نتوقّف في المزارع للراحة وتناول الطعام. كان لشقيق زوجي، ذلك الرجل الضخم مظهر الدب، وله طِبع أمّه الناعم، السذاجة شبه الطفولية ذاتها. وفي الطريق ملكنا الوقت لنتحدّث على انفراد، كما لم نفعل من قبل قطّ. اعترف لي بأنّه كان يكتب الشعر منذ كان طفلاً، «كيف لا يفعل المرء ذلك إذا كان يعيش بين كلّ ذلك الجمال؟» أضاف، وهو يشير إلى منظر الغابة والمياه التي كانت تحيط بنا. قال لي إنّه لا يطمح إلى شيء، ولا يشعر بالفضول تجاه آفاقٍ أخرى، مثل دييغو، فقد كانت تكفيه كاليوفو. وإنه حين سافر إلى أوروبا في شبابه شعر بالضياع والشقاء العميق، فهو لايستطيع العيش بعيداً عن تلك الأرض التي يُحبّها. كان الله كريماً جدّاً معه، كما قال، فقد وضعه وسط جنّة الأرض. ودّع كل منا الآخر في الميناء بعناق حار، «حماك الله دائماً يا إدواردو»، قلت له هامسة في أذنه. فارتبك قليلاً من هذا الوداع الوقور.

كان فريدريك وليامز بانتظاري في المحطّة، وحملني في العربة إلى بيت إخِرثيتو ليبِرادور. استغرب وجدتي رؤيتي بذلك الهزال، ولم يُرضه توضيحي بأنّني كنت مريضة جدّاً، كان يُراقِبني بطرف عينه، سائلاً بإلحاح عن دييغو، وعمّا إذا كنتُ سعيدة، وكيف كانت أسرة حمواي، وعمّا إذا تلاءمت مع الريف. كان بيت جدّتي قد انتقل، كونه من أبهى قصور ذلك الحيّ ليصبح أكثرها تداعياً، مثل

صاحبته. عدّة درفات متدلّية من مفصلاتها، والجدران تبدو حائلة اللون، والحديقة مهجورة تماماً، لم يلمسها الربيع، وبقيت غارقة في شتاء حزين. وكان الخراب في الداخل أسوأ. فقاعات أيّام زمان الجميلة كانت شبه فارغة، الأثاث والسجاد واللوحات اختفت؛ لم تبق لوحة واحدة من اللوحات الانطباعية التي تسبّبت بكثير من الفضائح قبل سنواتٍ. وقد وضّح لي العمّ فريدريك بأنّ جدّتي قد تبرّعت بكل شيء للكنيسة. استعداداً للموت. «لكنّني أظنّ أنّ أموالها ما تزال على حالها يا أورورا، فهي ما تزال تُحافظ على حساب كلّ سنتيم، ودفاتر حساباتها تحت السرير»، أضاف بغمزة خبيثة. فهي التي لم تكن تدخل إلى معبد إلا كي يشاهدها الناس، وتَمْقُتُ مثل تلك الحشود من الرهبان المتسوّلين والراهبات البشوشات اللواتي يحفْنَ باستمرار حول بقيّة الأسرة، خصّصت في وصيّتها مبلغاً معتبراً للكنيسة الكاثوليكية. وهي الماكرة في التجارة دائماً استعدّت كي تشتري في موتها الشيء الذي لم يفدها في الحياة. لقد كان وليامز يعرف جدّتي أفضل من أيّ شخص آخر، وأعتقد أنّه كان يحبّها تماماً مثلي، وضد كلّ تقوّلات الحسّاد، لم يسرق ثروتها كي يهجرها في شيخوختها، بل دافع عن مصالح الأسرة لسنوات، وكان زوجاً جديراً بها، ومستعدّاً لمرافقتها حتى آخر نفس من أنفاسها، وسيعمل أكثر من ذلك لأجلي، كما ثبت في السنوات التالية. لم يكن قد بقي من ذكاء باولينا إلا القليل جدّاً، فمخدرات تهدئة الألم أبقت عليها في ليمبوس بلا ذكريات ولا رغبات. صارت خلال تلك الشهور جلداً خالصاً لأنّه لم يكن باستطاعتها أن تبتلع وراحوا يُغذّونها بالحليب بواسطة ماسورة من المطّاط أدخلوها من أنفها. لم يبقَ في رأسها إلا خصلات قليلة من الشعر الأبيض، وعيناها السوداوان صغرتا وأصبحتا نقطتين صغيرتين في خريطة من التجاعيد. انحنيتُ كي أقبّلها، لكنّها لم تعرفني وأشاحت بوجهها عني، بينما يدُها تبحث في الهواء عن يد زوجها، وحين أخذها ساد وجهها ملمح سلام.

ـ إنّها لا تتألّم يا أورورا، فنحن نعطيها الكثير من المورفين ـ وضّح لي العمّ فريدريك.

ـ هل أخبرتَ ولديها؟

ـ نعم، أرسلتُ إليهما برقيّةً منذ شهرين، لكنّهما لم يُجيبا ولا أظنّهما سيصلان في الوقت المناسب، لم يبقَ أمامها الكثير ـ قال متأثّراً.

وهكذا كان، فقد ماتت باولينا دِل باليّه في اليوم التالي بصمت. كنّا أنا وزوجها والدكتور رادوفيك، وسِبرو، ونيبيا إلى جانبها، وولداها لم يظهرا إلا بعد ذلك بوقت طويل ليتشاجرا على إرثٍ لم يزاحمهما عليه أحد. كان الطبيب قد انتزع أنبوب التغذية من جدّتي، وألبسها وليامز قفازين، لأنّ يديها كانتا مثلجتين. ازرقّت شفتاها وشحب لونها، راحت تتنفّس بشكلٍ لايكاد محسوساً، بلا ضيق، وفجأة توقّفت ببساطة عن فعل ذلك. جس رادوفيك نبضها، مرّت دقيقة، ربّما اثنتان، وعندئذٍ أعلن أنّها رحلت. ساد هدوء عذب في الغرفة، شيء غامض كان يحدث، ربّما هي روح جدّتي انفصلت وراحت تحومُ مثل عصفور مشوّش فوق جسدها، لتوَدّعه. وداعها أحدث عندي كآبةً هائلةً، وانتابني شعور غامِض عرفته من قبل، لكنّني لم أستطع تسميته ولا تفسيره إلا بعد عامين، حين اتضح لغز ماضيّ أخيراً، وأدركتُ أن موتَ جدّي تاو شيين ، قبل ذلك بأعوام كثيرة، قد أغرقني في ضيقٍ مماثِل. كان الجرح ما يزال نابضاً والآنَ انفتح بالألم الحارق ذاته. الإحساس باليتم الذي خلّفته عندي جدّتي كان مماثلاً تماماً للذي أصابني وأنا في الخامسة من عمري، حين اختفى تاو شيين من حياتي. أعتقد أنّ أحزان طفولتي القديمة ـ ضياع بعد ضياع ـ المطمورة لأعوام تحت طبقات الذاكرة الأعمق، رفعت رأسها، رأس الميدوزا المُتوعِّدُ كي يبتلعني: أمي التي ماتت وهي تلدني، أبي الجاهل بوجودي، جدّتي لأمّي التي هجرتني دون تفسيرات بين يدي باولينا دِل باليه، وبصورة خاصّة الغياب المباغت لأحبّ كائن عندي، جدّي تاو شيين.

مضت تسعة أعوام منذ ذلك اليوم من أيلول الذي رحلت فيه باولينا دِل باليه؛ وخلفي بقيت هذه الفاجعة وفواجع أخرى، والآن أستطيع أن أتذكّر جدّتي العظيمة بقلب مرتاح. لم تختفِ في ظلمة

الموت المطلق الهائلة، كما بدا لي في البداية، فقسم منها بقي في هذه النواحي ويبقى دائماً يحوم حولي مع تاو شيين، روحان مختلفتان ترافقاني وتساعداني، الأولى للأمور العملية والثانية لحل المسائل العاطفية؛ ولكن حين توقّفت جدّتي عن التنفّس في سرير الجنديّ، الذي قضت فيه أيّامها الأخيرة، لم أفكّر أنّها ستعودُ، فحام الحزن حولي. لو كنتُ قادرة على إظهار مشاعري، ربّما عانيتُ أقلّ، لكنّها تبقى مُحاصرة في الداخل، مثل كتلة هائلة من الجليد، ويمكن أن تمضي سنوات قبل أن يبدأ الجليدُ بالذوبان. لم أبكِ حين رحلت. بدا الصمتُ في الغرفة خطأً بروتوكوليّاً، لأنّ امرأة عاشت كما عاشت باولينا دِل باليه يجب أن تموتَ وهي تُغنّي مع جوقة، كما في الأوبرا، بينما كان وداعها صامتاً، الشيء الوحيد المحتشم الذي قامت به في حياتها. خرج الرجالُ من الغرفة وألبسناها أنا ونيبيا برقّة من أجل رحلتها الأخيرة لباس راهبات الكرمليات الذي كانت قد علّقته في خزانتها قبل عام، لكنّنا لم نُقاوم إغواء أن نُلبسها تحته أفضل ملابسها الداخلية الفرنسية الحريرية الخبازية اللون. حين رفعنا جسمها لاحظت كم خفّ وزنُها، لم يبق منها إلاّ هيكل عظمي هش وبعض الجلد المترهّل. شكرتُها بصمت على كلّ ما فعلته لأجلي، قلتُ لها كلمات الود التي ما كنتُ لأجرؤ قط على النطق بها لو أنها تسمعني، قبّلت يديها الجميلتين، أهدابها السلحفاتية، جبينها النبيل وطلبتُ منها أن تغفر لي مشاكسات طفولتي المفتعلة، وعن وصولي متأخّرة لوداعها، وعن الضبّ الجاف الذي بصقته في نوبة السعال الزائفة، والمزاحات الأخرى الثقيلة التي لا بدّ تحمّلتها، بينما نيبيا كانت تستغلّ الذريعة الجيّدة التي قدّمتها إليها باولينا دِل باليه كي تبكي دون ضجّة على أطفالها الميتين. بعد أن ألبسنا جدّتي رششناها بعطر الغاردينيا، وفتحنا الستائر والنوافِذ كي يدخل الربيعُ كما كانت تُحب. لا بكاء، لا خرق سوداء، ولا تغطية للمرايا، فقد عاشت باولينا دِل باليه باستهتار إمبراطورة وتستحق أن يُحتفى بها بنور أيلول. هكذا فهم وليامز الأمر أيضاً، فذهب شخصيّاً إلى السوق وملأ العربةَ بالأزهار الطازجة لتزيين البيت.

حين وصل الأقرباء والأصدقاء ـ بملابس الحداد والمناديل في أيديهم ـ أثاروا فضيحة، فهم لم يروا قط سهراً على ميت في مكان يدخله ضوء الشمس، وبأزهار عرس ودون دموع. راحوا يُدمدمون بالمكائد. وبعد مضي عام بقي هناك من يُشير إليّ بإصبعه. مقتنعاً بأنّي فرحتُ حين ماتت باولينا دِل باليه لأنّني كنتُ أطمع بالاستيلاء على إرثها. ومع ذلك لم أرث شيئاً، لأنّ ولديها سرعان ما أخذا هذا على عاتقيهما بمساعدة المحامين، كما أنّني أيضاً لم أكن أحتاج كي أفعل ذلك، لأنّ أبي ترك لي ما يكفيني كي أعيش بحشمةٍ، والباقي أستطيع أن أغطّيه بالعمل. وعلى الرغم من النصائح والدروس اللامتناهية التي أعطتني إيّاها جدّتي لم أتمكّن من تطوير حاسّة شمي للصفقات التجارية الجيّدة، لن أصبح غنيّة أبداً، وأنا سعيدة بذلك. كذلك فردريك وليامز لم يكن مضطرّاً للشجار مع المحامين، إذ إنّ المال كان يهمّه أقلّ بكثير مما راحت تتقوّل به ألسنة السوء خلال سنوات. ثمّ إنّ زوجته أعطته الكثير أثناء حياتها، وتمكن، هو الرجل الحذر من وضعه في أمان. لم يستطع ابنا باولينا إثبات أنّ زواج أمّهما من رئيس خدمها القديم كان غير شرعيّ، واضطرا إلى ترك العمّ فريدريك بسلام، كما أنّهما لم يستطيعا الاستيلاء على كروم العنب، لأنّها كانت مسجلة باسم سِبِرو دِل باليه، ولذلك أفلتوا المحامين على الرهبان ليروا ما إذا كان باستطاعتهما أن يسترجعا الأموال الي حصل عليها هؤلاء من خلال تخويف المريضة من الجحيم، لكنّ أحداً لم يكسب حتى الآن حكماً واحداً ضدّ الكنيسة الكاثوليكية، التي يقف الله إلى جانبها كما يعرف العالم كلّه. في جميع الأحوال كان هناك أموال فائضة وقد استطاع الابنان، وعدد من الأقرباء، بل وحتى المحامون أن يعيشوا منها حتى اليوم.

الفرحة الوحيدة في تلك الأسابيع الضاغطة كان عودة الآنسة ماتيلدِ بينِدا للظهور في حياتنا. فقد قرأت في الصحف أنّ باولينا دِل باليه توفّيت، وتسلّحت بالشجاعة كي تمثل في البيت الذي خرجت منه مطرودة في أيّام الثورة. جاءت ومعها إكليل زهر هديّة، يُرافِقها

المكتبي بِدرو تِي. كانت قد نضجت خلال تلك السنوات، ولم أعرفها في البداية، بينما بقي هو الرجل الصغير الأصلع نفسه بحاجبيه الشيطانيين الكثيفين وبؤبؤيه المتوقدين.

بعد المقبرة والصلوات المرتلة، والتساعيات التي طلبوا ترتيلها وتوزيع الصدقات وأعمال الإحسان التي أوصت بها جدّتي المتوفاة. حطّ غبار الجنازة الفخمة، ووجدت نفسي أنا وفريدريك وليامز وحيدين في البيت الفارغ. جلسنا معاً في رواق الزجاج نأسف على غياب جدّتي برصانة، لأنّنا لسنا صالحين للبكاء، ونتذكّرها في أعمالها العظيمة الكثيرة وحالات بؤسها القليلة.

ـ ماذا تفكّر أن تفعل الآن، يا عمّ فريدريك؟ ـ أردتُ أن أعرف.

ـ هذا يتعلّق بك يا أورورا.

ـ بي؟

ـ لم أستطع إلاّ أن ألحظ شيئاً غريباً فيك يا صغيرتي ـ قال بتلك الطريقة النبيهة الخاصّة به في السؤال.

ـ لقد كنتُ مريضة جدّاً، ورحيل جدّتي يجعلني في غاية الحزن، ياعم فريدريك. هذا كلّ شيء، لا يوجد أي شيء غريب، أؤكّد لك ذلك.

ـ يؤسفني أنّ تُقلّلي من قيمتي يا أورورا. يجب أن أكون غبيّاً جدّاً، أو غير محب لك كيلا أنتبه لحالتك النفسية. قولي لي ماذا يجري، لأرى إن كان باستطاعتي مساعدَتكِ.

ـ لا أحد يستطيع أن يُساعِدني يا عمّي.

ـ ضعيني على المِحكّ، لنرى... ـ طلب منّي.

وعندئذٍ أدركتُ أنّني لا أملك أحداً سواه أثق به في هذا العالم، وأنّ فريدريك وليامز قد أثبت أنّه ناصح رائع، والشخص الوحيد في الأسرة الذي يتمتع بالحكمة، وباستطاعتي تماماً أن أحكي له مأساتي. أصغى إليّ حتى النهاية باهتمام بالغ، دون أن يُقاطعني ولو مرّة واحدة.

ـ الحياةُ طويلة يا أورورا. الآن ترين كلّ شيء أسودَ، لكن الزمن يُداوي ويمحو كلَّ شيء. وأنت في هذه المرحلة كمن يسير في نفق على عماها، ويبدو لك أنّه لا يوجد مخرج، لكنّني أعدك بأن يوجد. تابعي سيرك يا صغيرتي.

ـ ماذا سيحلّ بي يا عمّ فريدريك؟

ـ سيكون لك حبّ آخر، وربّما صار عندك أولاد، أو ستصبحين أفضل مصورة في هذه البلاد ـ قال لي.

ـ أشعر بأنني مشوشة ووحيدة تماماً.

ـ لست وحدك، يا أورورا، أنا الآن معك، وسأبقى معك ما دمتِ تحتاجين إليّ.

أقنعني بأن عليّ ألاّ أعود إلى زوجي، وأنّ باستطاعتي أن أجد عشرات الأعذار كي أؤخّر عودتي لسنوات، على الرغم من ثقته بأن دييغو لن يُطالب بعودتي إلى كاليوفو، فمن صالحه أن يبقي عليّ بعيدة أكثر ما يمكن. أمّا بالنسبة إلى دونيا إلفيرا الطيّبة، فلم يبق من مخرج إلا أن أواسيها بالكتابة الكثيفة، فالأمر يتعلّق بكسب الوقت، وحماتي قلبها ليس في حالة جيّدة، وهي لن تعيش كثيراً، حسب تشخيص الأطباء. وأكّد لي العم فريدريك أنّه ليس مستعجلاً على مغادرة تشيلي، وأنّني أسرته الوحيدة، وأنه يُحبّني كابنة أو حفيدة.

ـ أليس عندك أحد في إنكلترا؟ ـ سألته.

ـ لا أحد.

ـ هل تدري أنّ هناك شائعات تدور حول أصلك، يقولون إنّك نبيل مفلس، وإن جدّتي لم تكذّب ذلك قط.

ـ ليس هناك ما هو أبعد عن الصحة من هذا يا أورورا! ـ هتف وهو يضحك.

ـ إذاً أليس عند شعار سلاح مخبّأ هناك؟ ـ ضحكتُ بدوري.

ـ انظري يا صغيرتي ـ ردّ عليّ.

ـ خلع سترته، وفتح قميصه، ثم رفع قميصه الداخليّ وأراني ظهره. كان تتقاطع عليه آثار ندب جراح رهيبة.

ـ إنها ضربات سوط. مئة جلدة لأنّني سرقت تبغاً من مستعمرة لإصلاح السجناء في أوستراليا. وقد نفّذت خمس سنوات حكم قبل أن أهرب في طوف. ثم التقطتني سفينة قراصنة صينية في عباب البحر، وشغّلوني كعبدٍ، لكن ما إن اقتربنا من البر حتى هربتُ من جديد. وهكذا من قفزة إلى قفزة وصلتُ أخيراً إلى كاليفورنيا. الشيء الوحيد الذي عندي من النبالة الإنكليزية هو اللكنة، وقد تعلّمتُها من لوردٍ حقيقيّ، كان ربّ عملي الأوّل في كاليفورنيا. كما علّمني أيضاً مهنة رئيس الخدم. وقد تعاقدت معي باولينا دِل باليه في العام 1870 ومنذ ذلك الوقت بقيتُ إلى جانبها.

ـ وهل كانت جدّتي تعرف هذه القصّة يا عمّ؟ ـ سألته حين استرحت قليلاً من المفاجأة واستطعت أن أخرج صوتي.

ـ طبعاً. وكان يسرّ باولينا جدّاً أن يخلط الناسُ بين مذنب مدان وأرستقراطي.

ـ ولماذا أدانوك؟

ـ لأنّني سرقتُ حصاناً وأنا في الخامسة عشرة من عمري. كان من الممكن أن يشنقوني، لكن الحظّ حالفني، وخفّفوا العقوبة وانتهيت بالوصول إلى أوستراليا. لا تنشغلي يا أورورا، لم أسرق ثانية ولاحتى سنتيماً واحداً في حياتي، لقد شفتني السياط من تلك الرذيلة، لكنّها لم تشفني من متعة التبغ ـ ضحك.

وهكذا بقينا معاً. باع ابنا باولينا دِل باليه بيتَ إخِرثيتو ليبِرادور، الذي تحوّل اليوم إلى مدرسة للبنات، وباعوا بالمزاد القليل من الأثاث المتبقي في البيت. أنقذتُ السريرَ الأسطوريَّ بإخراجه قبل وصول الوَريثين، وخبّأته مفكّكاً في مستودعٍ في مستشفى إيفان رادوفيك العام، وبقي هناك حتى تعب المحامونَ من البحث في الزوايا عن آخرِ أثر من ممتلكات جدّتي القديمة. اشتريتُ أنا وفريدريك وليامز بيتاً ريفياً في ضواحي المدينة، على الطريق

إلى الجبال؛ فصار عندنا هكتارين من الأراضي المحاطة بالحور المترنح، المغزو بالياسمين الفواح المروي بجدول متواضع، حيث ينمو كلّ شيء دون إذن. هناك راح وليامز يربّي كلاباً وجياداً أصيلة، ويلعب الكروكيت، ونشاطات أخرى مضجرة خاصّة بالإنكليز. هناك كانت إقامتي الشتوية. البيتُ قديم ومتداع لكنه ينطوي على بعض السحر، فيه فضاء لمختبر تصويري وللسرير الفلورنسي الشهير، الذي ينتصب بمخلوقاته البحرية الملوّنة في وسط غرفتي. عليه أنام تحميني روح جدّتي الحارسة باولينا، التي تظهر في الوقت المناسب كي تبعد ضرباً بالمكنسة أطفال كوابيسي ذوي البيجامات السوداء. ستنمو سانتياغو بالتأكيد باتجاه محطّة المركزية وستتركنا بسلام في حقل الحور، والروابي الرعوية.

بفضل خالي «محظوظ»، الذي نفخ لي أنفاسه المحظوظة حين ولدتُ، وبفضل حماية جدّتي الكريمة وأبي، أستطيع القول إنني أعيش حياة طيّبة. فأنا أملك الوسائل والحريّة كي أفعل ما أشاء، أستطيع أن أكرس نفسي كلّياً لأجوب جغرافيا تشيلي الوعرة وكاميرتي في عنقي، تماماً كما فعلت في الأعوام الثمانية أو التسعة الأخيرة. الناس يتكلّمون عنّي من وراء ظهري؛ وهذا شيء حتمي، كثير من أقربائي ومعارفي قاطعوني، وإذا رأوني يتظاهرون بأنّهم لا يعرفونني، فهم لا يستطيعون قبول أن تهجر امرأة زوجها. هذه الإزعاجات لا تحرمني من النوم: ليس عليّ أن أرضي جميع الناس، بل فقط من يهمّني أمرهم فعلاً، وهم ليسوا كثراً. النتائج المحزنة لعلاقتي بِدييغو دومينغِث لا بدّ أخافتني للأبد من العلاقات الغرامية المستعجلة والملتهبة، ولكنّ الأمرَ لم يكن كذلك. صحيح أنّني بقيتُ لأشهر مجروحة الروح، أجرجر نفسي يوماً بيومٍ بإحساس مطلق بالهزيمة، لأنّني لعبتُ ورقتي الوحيدةَ وخسرتُ كلّ شيء. وصحيح أيضاً أنّني محكومة بأن أكون امرأة متزوّجة وبلا زوج، وهو ما يمنعني من «إعادة ترتيب» حياتي، كما تقول عمّاتي، لكنّ هذا الشرط الغريب يمنحني حرّية كبيرة. بعد عام من انفصالي عن دييغو عدت وعشقتُ من جديد، وهو ما يؤكّد أنّ جلدي سميك ويلتئم بسرعة.

الحبّ الثاني لم يكن صداقة ناعمة تحوّلت مع الزمن إلى رومانسية مجرّبة، بل كان ببساطة اندفاع عاطفة أخذنا على حين غرّة، وبالمصادفة جاء حسناً... حسن، حتى الآن هو جيد، لكن من يدري كيف سيكون في المستقبل. كان يوماً صيفيّاً، يوماً من أيّام المطر الأخضر والمتواصل، والبروق المدوية والكآبة في النفس. عاد ولدا باولينا دِل بالْيِه مع حقوقييهم ليعملوا بالوثائق التي لا تنتهي، كلّ واحدٍ بثلاث نسخ وأحد عشر طابعاً، كنتُ أوقِّعها دون أن أقرأها. كنّا أنا وفريدريك ولیامز قد غادرنا بيت إخْرِثيتو ليبِرادور، ومانزال نقيم في فندق، لأنّهم لم ينهوا بعد الإصلاحات في البيت الريفي الذي نعيش فيه اليوم. وقع العم فريدريك في الشارع على الدكتور إيفان رادوفيك، الذي لم نره منذ بعض الوقت، واتفقا أن يذهبا معي لمشاهدة فرقة للأوبريت الإسبانية، التي كانت تقوم بجولة في أمريكا الجنوبية، لكن في اليوم الموعود سقط العم فريدريك طريحَ الفراش من نزلة بردٍ، وبقيتُ أنتظرُ وحدي في قاعة الفندق، بيديّ المثلجتين، وقدميّ الموجوعتين لأنّ الحذاء كان يضغط عليهما. كان هناك شلاّل من الماء على بلور النوافذ، والريح تهزُّ، مثل منفضة، أشجارَ الشارع، ولم يكن الليل يُشجّع على الخروج، فحسدتُ لبرهةٍ زكامَ العمّ فريدريك، الذي يسمح له بالبقاء في السرير، ومعه كتاب جيّد وفنجان شوكولاتة ساخن، ومع ذلك فدخول إيفان رادوفيك أنساني حالة الطقس. جاء الدكتور مبلّل المعطف، وحين ابتسم لي أدركتُ أنّه أجملُ مما أذكر. نظرنا إلى عيون بعضنا بعضاً، وأظنّ أنّنا رأينا بعضاً لأوّل مرّة، على الأقل أنا تأمّلتُهُ بجدّية وأعجبني ما رأيتُ. ساد صمتٌ طويل، وقفة لو كانت في ظروف أخرى لجاءت ثقيلة، لكنّها بدت آنذاك نوعاً من الحوار. ساعدني على ارتداء الدثار وسرنا ببطء إلى الباب، متردّدين، متعلقاً كل منا بعيون الآخر. ما من أحد منا أراد أن يتحدّى العاصفة التي تُمزِّقُ السماء، لكنّنا أيضاً لم نبغ الافتراق. ظهر بوّاب ومعه مظلّة كبيرة وعرض علينا أن يرافقنا حتى العربة التي كانت تنتظر في الباب، وعندئذ خرجنا دون أن ننطق بكلمة، متردّدين. لم أملك شرارة أيّ تجلّ عاطفي، أيّ حدس استثنائي بأنّنا روحان توأمان، لم أبصر حبّاً روائيّاً، لا شيء من

هذا، فقط سجّلت قفزات قلبي، والهواء الذي نقصني، والحرارة والدغدغة في البشرة، والرغبة الرهيبة بلمس ذلك الرجل. أخشى ألا يكون في ذلك اللقاء أيّ شيء روحي، بل مجرّد شهوانية، رغم أنني كنتُ في ذلك الوقت قليلة الخبرة جداً، ومفردات قاموسي محدودة جداً كي أعطي هذا الصخب الاسم الذي يملكه في القاموس. الاسم هو آخر ما يهمني، المهم هو أنّ هذا الاضطراب في أحشائي كان أقوى من خجلي، وفي العربة، حيث لم يكن هناك مهرب سهل أخذت وجهه بين يديَّ وقبّلته، دون أن أفكّر بالأمر مرّتين، على فمه، تماماً كما رأيتُ قبل سنواتٍ كثيرة نيبيا وسِبرو دِل باليه يقبّل أحدهما الآخر بتصميم وشراهة. كان عملاً بسيطاً ولا مناص منه. لا أستطيع الدخول في تفاصيل ما جاء بعد ذلك، لأنّ من البساطة تخيّله، ولو قرأه إيفان في هذه الصفحات لقام بيننا عراك هائل. لابد من قول ذلك، فمعاركنا جديرة بالذكر كما أن مصالحاتنا حارّة؛ هذا ليس حبّاً هادئاً وحلواً، ولكن يمكن أن نقول لصالحه، إنّه حبٌ مستمر؛ ويبدو أنّ العوائق لم تُضعِفه بل حصّنته. الزواج شيء على علاقة بالشعور العام، وهو غير موجود عندنا نحن الاثنين. وكوننا لسنا متزوّجين يُسهّل علينا الحب الصالح، وهكذا يستطيع كل منّا أن يتفرّغ لأشيائه. لنا فضاؤنا الخاص بنا، وحين نوشك على الانفجار نجد دائماً مَخْرجاً في انفصالنا لعدّة أيّام وعودتنا للقّاء حين يهزمنا الحنين للقبل. مع إيفان رادوفيك تعلّمت أن أخرج صوتي ومخالبي. لو باغته في خيانة ـ لاسمح الله ـ كما حدث لي مع دييغو دومينغِث، فلن أستنفد نفسي بالبكاء، كما في ذلك الوقت، بل سأقتله دون أدنى حدود الندم.

لا، لن أتكلّم عن الحميمية التي أتقاسمها مع حبيبي، لكنْ هناك فصل لا أستطيع كتمانه لأنّه على علاقة بالذاكرة، وهذا بعد كلّ شيء هو السبب في كتابتي لهذه الصفحات. إن كوابيسي رحلة على عماها باتجاه الكهوف المظلمة حيث تغفو أقدم ذكرياتي، المحاصرة بطبقات الوعي العميقة. التصوير والكتابة هما محاولة للإمساك باللحظات قبل أن تتلاشى، تثبيت الذكريات لإضفاء معنى على

حياتي. منذ أشهر وأنا أعيش مع إيفان، لقد تأقلمنا ورتابة رؤيتنا لبعضنا بتكتم، بفضل العم الطيّب فريدريك، الذي كان يحمي حبّنا منذ البداية. كان على إيفان أن يلقي محاضرة طبّيّة في مدينة شمالية ورافقته بذريعة التصوير، حيث شروط العمل غير مستقرّة إطلاقاً، فأصحاب الشركات الإنكليز يرفضون الحوار مع العمّال، ويسود جوّ من العنف المتنامي، وهو الذي انفجر بعد سنوات. حين حدث ذلك في العام 1907، كنتُ هناك بالمصادفة، وصوري هي الوثيقة الوحيدة التي لا تُدحَض وتبرهن أن مجزرة إيكيكِ قد وقعت، لأنّ الرقابة الحكومة محت عن وجه التاريخ القتلى الألفين الذين رأيتهم بنفسي في الساحة. لكنّ هذه قصّة أخرى وليس لها مكان في هذه الصفحات. في المرّة الأولى التي ذهبتُ فيها مع إيفان إلى تلك المدينة لم أتصوّر المأساة التي كان من نصيبي أن أشهدها فيما بعد، فقد كانت الرحلة بالنسبة لكلينا شهر عسلٍ قصير. سجّلنا في الفندق منفصلين، وبعد أن قام كلّ منّا بعمله، جاء في تلك الليلة إلى غرفتي، حيث كنتُ أنتظره ومعي زجاجة نبيذ كرمة باولينا. لقد كانت علاقتنا حتى تلك الفترة مغامرة للجسد، وسبر للحواس، وكان ذلك أساسياً بالنسبة إليّ، لأنّني بفضلها تمكّنت من تخطّي ذلّ رفض دييغو لي، وفَهِم أنّني لم أكن امرأة فاشلة، كما كنتُ أخشى. في كلّ لقاء لي مع إيفان كنتُ أحقّق مزيداً من الثقة ، أنتصر على خجلي وحيائي، ولكنّني لم أنتبه إلى أنّ هذه الحميمية المجيدة قد فتحت الطريق أمام حبّ عظيم. نمنا في تلك الليلة متعانقين متكاسلين بسبب النبيذ الطيّب وتعب النهار، وببطء، مثل جدّين حكيمين مارسا الحبّ تسعمئة مرّة وما عاد باستطاعتهما أن يُفاجأا أو يتدالسا. ما الخاص بالأمر بالنسبة إليّ لا شيء على ما أعتقد، باستثناء تراكم التجارب السعيدة مع إيفان، والتي أدركت في تلك الليلة الرقم الحرج الضروريّ لتدمير دفاعاتي. حدث أنّني عند العودة من الرعشة، وبينما أنا ملفوفة بذراعي حبيبي القويّين، أنني شعرت بحشرجة تهزّني بكاملي، وبعدها أخرى ثمّ أخرى، إلى أن جرفني مدّ جامح من البكاء المتراكم. بكيتُ وبكيتُ، مستسلمة، مذعنة، آمنة بين ذينك الذراعين ، كما لا أتذكّر أنّني كنتُ قط من قبل. جرْفٌ من جليد تحطّم

في داخلي وطفح ذلك الألم مثل ماء ثلج ذائب. لم يُوجّه إيفان أي أسئلة إليّ ولم يُحاول مواساتي، بل شدّني بقوّة إلى صدره، وتركني أبكي إلى أن انتهت دموعي، وحين أردت أن أشرح له أغلق فمي بقبلة طويلة. فيما عدا ذلك لم يكن عندي في تلك اللحظة أيّ تفسير، كنتُ سأخترعه، ولكنّني أعلم الآن - لأنّ الأمر حدث في عدّة مناسبات أخرى - أنّني حين أشعر بنفسي بمنجاة تامّة، مدثرة ومحمية ، بدأت ذاكرة سنوات حياتي الخمس الأولى تعود، السنوات التي غطّتها جدّتي باولينا وآخرون بغطاء من السرية. في البداية، وبلمحة برق جلي رأيت صورة جدّي تاو شيين يتمتم باسمي بالصينية، لاي - مينغ. كانت لحظة قصيرة جدّاً لكنّها وضّاءة مثل القمر، بعدها عدتُ وعشتُ مستيقظةً الكابوسَ المتكرّر الذي عذّبني دائماً، وفهمت عند ذلك أن هناك علاقة مباشرة بين جدّي المعبود وأولئك الشياطين ذوي البيجامات السوداء. اليد التي تفلتني في الحلم هي يد تاو شيين. والذي يسقط ببطء على الأرض هو تاو شيين. والبقعة التي تنتشر بحتمية على حجارة الشارع هي دماء تاو شيين.

كان قد مضى عليَّ أكثر من عامين بقليل وأنا أعيش رسميّاً مع فريدريك وليامز، لكنّني في كلّ مرّة كنت أكثر استسلاماً في علاقتي مع إيفان رادوفيك، الذي ما عاد باستطاعتي أن أتصوّر قدري بدونه، حين ظهرت في حياتي جدّتي لأمّي إليثا سومّرز. عادت كما هي، بعبق سكّرها والفانيلا، عصيّة على التآكل من ظلمات النسيان. عرفتُها من أوّل نظرة، على الرغم من انقضاء سبعة عشر عاماً منذ أن ذهبت لتتركني في بيت باولينا دِل باليه، ولم أر خلال كلّ ذلك الوقت صورة لها أو سمعت اسمها يلفظ إلا في مرّات نادرة جدّاً بحضوري. بقيت صورتها عالقة في مسنّنات حنيني وتبدّلت قليلاً، حيث إنّها حين تمثّلت في عتبة بابنا وحقيبتها في يدها، بدا لي أنّنا تودّعنا يوم أمس، وأنّ كل ما حدث خلال تلك السنوات كان وهماً. الشيء الجديد الوحيد هو أنّها بدت أقصر مما أتذكّر، لكنّ هذا يمكن أن يكون من تأثير قامتي أنا، فالمرّة الأخيرة التي كنّا فيها معاً كنت

«أم مخطة» ابنة خمس سنوات وكنت أنظر إليها من أسفل. ما زالت منتصبة مثل أميرال، لها الوجه الفتيّ ذاته والتسريحة الوقورة ذاتها، رغم أنّ شعرها كان مرشوشاً بالخصلات البيضاء. بل كانت تضع طوق اللؤلؤ الذي رأيته دائماً عليها، والذي أعرف الآن أنّها لا تخلعه حتى حين تنام. أحضرها سِبِرو دِل باليه، الذي بقي على احتكاك معها طيلة تلك السنوات، لكنّه لم يقل لي ذلك لأنّها لم تسمح له بذلك. فقد أعطت إليثا سومرز كلمتها لباولينا دِل باليه بألا تحاول الاتصال بحفيدتها، ووفت بوعدها حرفيّاً إلى أن حرّرها موت الأخرى من هذا الوعد. حين كتب لها سِبِرو كي يحكي لها ذلك، حزمت صناديقها وأغلقت بيتها، تماماً كما فعلت مرّاتٍ كثيرةً قبل ذلك، وركبت السفينة إلى تشيلي. حين ترمّلت في العام 1885 في سان فرانسيسكو، شرعت بالحج إلى الصين بجسد زوجها المحنّط لتواريه التراب في هونغ كونغ. كان تاو شيين قد قضى القسم الأعظم من حياته في كاليفورنيا، وكان واحداً من المهاجرين الصينيين القلائل الذين حصلوا على الهويّة الأمريكية، لكنّه دائماً أظهر رغبة بأن تنتهي عظامه تحت الأرض الصينية، وبذلك لا تضيع روحه في فساحة الكون دون أن تعثر على باب السماء. لم يكن هذا الحذر كافياً، لأنّني واثقة من أنّ شبح جدّي تاو شيين الخارق مايزال في هذه العوالم، وإلاّ فكيف أفسّر شعوري بأنّه يحوم حولي. هذا ليس مجرّد تخيّل، فجدتي إليثا أكّدت لي بعض البراهين، مثل رائحة البحر التي تلفّني أحياناً، والصوت الذي يهمس بكلمة سحرية: هي اسمي بالصينية.

ـ مرحباً، يا لاي ـ مينغ ـ تلك كانت تحية هذه الجدّة الرائعة حين رأتني.

ـ *وي بوا* ـ هتفت.

لم أقل هذه الكلمة ـ أي جدّتي لأمّي بالكانتونية ـ منذ المرحلة البعيدة التي كنتُ أعيش فيها معها فوق عيادة للعلاج بالوخز بالإبر في الحي الصيني في سان فرانسيسكو، ولكنّني لم أنسها. وضعت

يداً على كتفي وتفحّصتني من قدميّ إلى رأسي، ثمّ أكّدت برأسها وعانقتني أخيراً.

- يُسعِدني أنك لستِ جميلة كأمّك - قالت.

- هذا تماماً ما كان يقوله أبي.

- أنت طويلة مثل تاو. وسِبِرو يقول لي إنّك ذكيّة أيضاً مثله.

في أسرتنا يُقدَّم الشاي حين يكون الموقف حرجاً، وبما أنّني أشعر بنفسي مرتبكة طوال الوقت، فإنّني أقضي الوقت وأنا أقدّم الشاي. لهذا المشروب فضيلة أنّه يُساعِدني على التحكّم بأعصابي. كنتُ أموت رغبة بأن آخذ جدّتي من خصرها وأرقص معها الفالس، أحكي لها دفقاً حياتي كلّها، وأن أعاتبها العتاب الذي كنت أهمهِم به في داخلي لسنوات، لكنّني لم أستطع فعل أيّ شيء من ذلك. فإليثا سومّرز ليست ذلك النوع من الأشخاص الذي يشجّع على الإلفة، فكبرياؤها بالمحصّلة مهيبة، ويجب أن تمرّ أسابيع قبل أن نبدأ أنا وهي بالحديث باسترخاء. من حسن الحظ، أنّ الشاي، ووجود سِبِرو دِل باليه وفريدريك وليامز، الذي عاد من واحد من مشاويره في المزرعة مزيّناً مثل كشّاف في أفريقيا، خفّفوا من التوتر. ولم يكد فريدريك وليامز يتخلص من فضوله ويخلع نظارته المغبشة ويُرى إليثا سومّرز، حتى تبدّل شيء في موقفه: فقد نفخ صدره ورفع صوته وانتفخت رئتاه. تضاعف إعجابه حين رأى الصناديق والحقائبَ وعليها أختام السفر، وعرف أنّ تلك السيّدة الصغيرة هي واحدة من الأجانب القليلين الذين وصلوا إلى التيبت.

لا أدري ما إذا كان الدافع الوحيد لمجيء جدّتي إلى تشيلي هو التعرّف عليّ، يخالطني شك بأنّها تهتم بمتابعة السفر إلى القطب المتجمّد الجنوبي، حيث ما من امرأة وضعت قدمها بعد، لكن ومهما كان السبب فقد كانت زيارتها جوهرية بالنسبة إليّ. ولولاها لبقيت حياتي مزروعة بمناطق مظلمة، ولما استطعتُ كتابة هذه المذكرات. فجدّتي لأمّي هذه هي التي منحتني القطع الناقصة لتركيب أحجية حياتي، حدّثتني عن أمّي، عن ظروف ولادتي، وأعطتني المفتاح

الأخير لكوابيسي. وهي أيضاً من سيرافقني فيما بعد إلى سان فرانسيسكو كي أتعرّف على خالي محظوظ، التاجر الصيني المزدهر، البدين والأعرج والساحر بشكل مطلق، ومن سيساعدني لأنبش الوثائق الضرورية لربط الأعقاب الفالتة لقصّتي. إن العلاقة بين إليثا سومّرز وسِبرو دِل باليه عميقة عمق الأسرار التي كانا يتقاسمانها خلال سنواتٍ كثيرة؛ وهي تعتبره أبي الحقيقيّ، لأنّه الرجل الذي أحبَّ ابنتها وتزوّج منها. أما الوظيفة الوحيدة التي لعبها ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث فهي تقديم بعض الحيوانات المنوية بشكل عرضي.

ـ والدك لا يهمّ كثيراً، يا لاي ـ مينغ، فهذا أمر يمكن أن يقوم به أيّ شخص. سِبرو هو الذي منحك كنيته وتحمل مسؤوليتك ـ أكّدت لي.

ـ في هذه الحاله باولينا دِل باليه كانت أمّي وأبي، فأنا أحمل اسمها، وهي التي أخذتني على مسؤوليتها. أما البقيّة فمرّوا مثل الشهب في طفولتي دون أن يتركوا أثراً من غبار فلكي ـ رددت.

ـ قبلها كنت أنا وتاو أباك وأمّك، فنحن ربّيناك، يا لاي ـ مينغ ـ وضّحت لي ذلك محقة، لأنّ جديّ لأمي هذين كان لهما أثر كبير عليّ، بحيث حملتهما لأكثر من ثلاثين عاماً في داخلي كحضور ناعم، وأنا واثقة أنني سأبقى أحملهما فيما تبقى من حياتي.

إليثا سومّرز تعيش بعداً آخر إلى جانب تاو شيين، الذي كان موته عائقاً خطيراً، لكنّه لم يكن عائقاً كي تبقى مستمرة بحبّه كما هو الأمر دائماً. جدّتي إليثا هي واحدة من الكائنات المكرسة لحب وحيد وعظيم، وأظنّ أنّه ما من أحد آخر يتسع في قلبها المترمل. فبعد أن وارت زوجها الثرى إلى جانب قبر لين، زوجته الأولى، والقيام بالطقوس الجنائزية البوذية كما كان يرغب، وجدت نفسها حرّة. كان باستطاعتها أن تعود إلى سان فرانسيسكو لتعيش مع ابنها «محظوظ» وزوجته الشابّة التي أوصى عليها من شانغهاي من خلال كتالوج، ولكن فكرة التحوّل إلى حماة مرهوبة ومحترمة كان يُعادل الاستسلام للشيخوخة. لم تكن تشعر بالوحدة أو الخوف من

المستقبل، إذ إن روح تاو شيين الحامية معها دائماً، حقيقة إنّهما معاً أكثر من الماضي، وما عادا يفترقان لحظةً واحدة. لقد اعتادت أن تحدّث زوجها بصوت منخفض، لكي لا تبدو مسكونة أمام أعين الآخرين، وفي الليل تنام على جانبها الأيسر من السرير لتفسح له مكاناً على اليمين، كما كانت عادتهما. روح المغامرة التي دفعتها للهرب من تشيلي وهي في السادسة عشرة من عمرها في كرش سفينة شراعية للذهاب إلى كاليفورنيا، استيقظت عندها بعد أن ترمّلت. تذكّرت لحظة ظهورها في الثامنة عشرة من عمرها، في أوج حمّى الذهب، حين أيقظها صهيل جوادها وأوّل خيوط الفجر على فساحة منظر برّي وموحش. في ذلك الفجر اكتشفت عظمة الحرّية. كانت قد أمضت الليلة وحيدة تحت الأشجار، محاطة بألف خطر: لصوص لا يعرفون الرحمة، هنود متوحّشون، أفاعٍ ، دببة وضوارٍ أخرى، ومع ذلك للمرّة الأولى لم تشعر بالخوف. كانت قد تربّت في مشدّ يضغط جسدها وروحها وخيالها، مرعوبة حتى من تفكيرها، لكن تلك المغامرة أطلقت أعنتها. اضطرّت أن تُطوّر قوة ربّما كانت كافية فيها دائماً، لكنّها كانت حتى تلك اللحظة تجهلها، لأنّها لم تملك الحاجة لاستخدامها. غادرت حماية بيتها وهي ما تزال طفلة، متتبعة أثر حبيبها الفرور، أبحرت حاملاً وخفيةً في سفينة، حيث أجهضت وكادت تفقد حياتها، ووصلت إلى كاليفورنيا، فارتدت ملابس الرجال، واستعدّت كي تجوبها من أقصاها إلى أقصاها، دون أيّ سلاح أو أداة غير دافع الحبّ اليائس. استطاعت أن تعيش وحدها في بلاد الفحول حيث يسود الجشع والعنف، وخلال ذلك اكتسبت الجرأة وتذوّقت طعم الاستقلال. ونشاط المغامرة الهائل لم تنسه قط. وعاشت من أجل الحب أيضاً ثلاثين سنة كزوجة محتشمة لتاو شيين، وأمّ وبائعة حلوى تقوم بواجبها دون أيّ أفق آخر غير بيتها في تشايناتاون، ولكنّ جرثومة الترحال التي انزرعت في روحها استمرّت على حالها، جاهزة للظهور في اللحظة المؤاتية. حين اختفى تاو شيين، بوصلة حياتها الوحيدة، كانت لحظة الإبحار على غير هدى قد حانت. «في أعماقي دائماً كنت رحّالة، ما أريده هو أن أسافر دونما هدف ثابت» كتبت ذلك في رسالة لابنها

«محظوظ» ومع ذلك قرّرت أن عليها قبل ذلك أن تفي بالوعد الذي قطعته لأبيها جون سومرز، بألاّ تهجر عمّتها روز في شيخوختها. من هونغ كونغ ذهبت إلى إنكلترا مستعدة لمرافقة السيّدة العجوز في سنواتها الأخيرة؛ كان هذا الحدّ الأدنى الذي يمكنها أن تفعله من أجل تلك المرأة التي كانت مثل أمّها. كانت روز سومّرز قد تجاوزت السبعين، وبدأت صحّتها تتدهور، لكنّها واصلت كتابة رواياتها الغرامية، وجميعها تقريباً متماثلة، متحوّلة إلى أشهر كاتبة رومانسية باللغة الإنكليزية. كان هناك فضوليون يسافرون من مناطق بعيدة كي يلمحوا هيئتها الضئيلة وهي تنزّه الكلب في الحديقة، وكانوا يقولون إنّ الملكة فيكتوريا تتسلّى في شيخوختها بقراءة قصص حبها المنتصر المحلاة. وصول إليثا، التي كانت تُحبّها مثل ابنتها شكّل عزاءً عظيماً لروز سومّرز، لأسباب من بينها أنّ نبضها صار يخونها، وصار الإمساك بالريشة يُكلّفها في كلّ مرّة جهداً أكثر. ومنذ ذلك الحين صارت تملي عليها رواياتها، وفيما بعد، وحين خانتها البصيرة، صارت إليثا تتظاهر بأنّها تكتب ماتقوله، لكنّها في الحقيقة تكتبها بنفسها، دون أن ينتبه الناشر أو القرّاء، فالمسألة كانت مجرّد تكرار الصيغ. وعند موت روز سومّرز، بقيت إليثا في البيت الصغير ذاته من الحي البوهيمي ـ الذي ارتفعت قيمته لأنّ المنطقة صارت مرغوبة ـ وورثت رأس المال الذي جمعته أمّها بالتبنّي من كتب الحبّ. وأوّل ما فعلته هو أنّها زارت ابنها «محظوظ» في سان فرانسيسكو، وتعرفت على أحفادها الذين بدوا لها قبيحين جدّاً ومملّين جدّاً، بعدها مضت إلى مناطق أكثر غرابة محقّقة أخيراً قدر الصعلكة عندها. كانت واحدة من تلك المسافرات اللواتي يسعين للانتقال إلى تلك الأماكن التي يهرب منها الآخرون. لم يكن هناك ما يرضيها مثل أن ترى أختام السفر وصور البلاد التي لم يسمع بها أحد على الكوكب؛ ما من شيء يمنحها الفخار مثل أن تصاب بوباء أو أن تلدغ من حشرة غريبة. هامت على وجهها خلال سنوات بصناديق الكشافة، لكنّها كانت دائماً تعودُ إلى البيت الصغير في لندن، حيث تنتظر مراسلات سِبِرو دِل باليه التي تحمل أخباري. وحين علمتْ أن باولينا دِل باليه ما عادت في هذا العالم، قرّرت أن

تعودَ إلى تشيلي، حيث وُلِدَتْ، ولم تفكّر بها خلال أكثر من نصف قرن، لتلتقي بحفيدتها.

ربّما تذكّرت جدّتي إليثا سومّرز، خلال العبور بالباخرة سنواتها السبع عشرة في تشيلي، هذا البلد الرشيق والأنيق، وطفولتها برعاية هندية طيّبة القلب والآنسة روز الجميلة؛ حياتها الوديعة والأمينة، حتى ظهر الحبيب الذي تركها حبلى، وهجرها ليتعقّب ذهب كاليفورنيا، ولم يظهر عنه بعد أيّ دليل على أنه حي. وبما أنّ جدّتي إليثا تؤمن *بالكرما*، فيجب أن تكون قد خلصت إلى أنّ رحلتها البحرية الطويلة كانت ضرورية كي تلتقي مجدداً بتاو شيين، والذي ستحبّه في كلّ تقمّص من تقمّصاته. «ما أقلّ ما في هذه الفكرة من مسيحية»! علّق فريدريك ليامز حين حاولتُ أن أشرح له لماذا لا تحتاج إليثا سومّرز لأحد.

جاءت جدتي بصندوق مفكك كهدية، وسلّمته إليّ بغمزة خبيثة من بؤبؤي عينيها الداكنتين. كان يحتوي على مخطوطات مصفرّة مكتوبة من قبل سيّدة مجهولة. إنها تلك الروايات البورنوغرافية المكتوبة من قبل روز سومّرز في شبابها، وهذا سرّ آخر من أسرار الأسرة محفوظ تماماً. قرأتُها بعناية، وبنيّةٍ تعليمية خالصة لمنفعة إيفان رادوفيك المباشرة. ذلك الأدب الظريف ـ كيف تخطر مثل هذه الجسارة لعانس فيكتورية؟ ـ ومسارّات نيبيا دِل باليه ساعدتني على مكافحة الخجل، الذي كان في البداية عائقاً لا نجاة منه بيني وبين إيفان. صحيح أنّني يوم العاصفة، حين كان علينا أن نذهب إلى الأوبرا الإسبانية ولم نذهب، اندفعت لتقبيله في العربة قبل أن يتمكّن الرجل المسكين من الدفاع عن نفسه، ولكن هذا حدّ جرأتي الذي لم تتخطّاه، بعدها أضعنا وقتاً رائعاً نتناقش بين عدم ثقتي الرهيبة وتردّده، لأنّه لم يكن يريد «أن يُدمِّر سمعتي» كما قال. لم يكن من السهل إقناعه بأنّ سمعتي كانت محطمة قبل أن يظهر هو في الأفق. وستبقى كذلك، لأنّني لا أفكّر بالعودة أبداً إلى حيث زوجي، ولا أن أتنازل عن عملي أو استقلالي، التي يُنظر إليها في هذه البلاد بشكلٍ سيِّئ جدّاً. بعد تجربتي المهينة مع دييغو، بدا لي من المحال أن

أوحي بالرغبة أو بالحب . فإلى جانب جهلي المطلق بالأمور الجنسية أضيف شعوري بالدونية، فقد اعتقدت نفسي قبيحة، وغير مناسبة، وقليلة الأنوثة، وكنتُ أخجل من جسدي ومن العاطفة التي يوقظها إيفان في نفسي. روز سومّرز ، أمّ جدّتي البعيدة التي لم أعرفها، قدّمت لي هديّة خيالية حين منحتني هذه الحرّية اللعوب الضرورية جدّاً لممارسة الحبّ. فعادة ما يتناول إيفان القضايا بجدّية زائدة ، لأن عريكته السلافية تنزع إلى المأساوي؛ فهو يغرق أحياناً في اليأس لأنّنا لا نستطيع أن نعيش معاً حتى يموت زوجي، وعندئذ لا شكّ أننا سنكون قد أصبحنا كهلين جدّاً. حين تعتم هذه السحب السوداء نفسيته أستعين بمخطوطات *السيّدة المجهولة*، حيث أكتشف دائماً أساليب جديدة كي أمتعه أو على الأقل أُضحكه. وفي مهمّة تسليته خلال لقاءاتنا الحميمية، رحت أفقد خجلي، وأكتسب ثقة لم أملكها قط. لا أشعر بنفسي جذّابة، فتأثير المخطوطات الأيجابي لم يصل إلى هذا الحدّ، ولكنّني على الأقل لم أعد أخاف أن آخذ بزمام المبادرة كي أدفع إيفان قدُماً، والذي، بطريقة أخرى، يمكن أن يكتفي بالرتابة ذاتها دائماً. من الخسارة أن نمارس الحب مثل زوجين عجوزين طالما أنّنا لسنا متزوّجين. فميّزة أن يكون المرء حبيباً عشيقاً تكمن في أنّ علينا رعاية علاقتنا كثيراً، لأنّ كلّ شيء يتعاضد كي يفصلنا. وقرار أن نعيش معاً يجب أن يُجدّد مرّة وأخرى، فهذا ما يُحافظ على رشاقتنا.

هذه هي القصّة التي حكتها لي جدّتي إليثا سومّرز.

لم يغفر تاو شيين لنفسه موت ابنته لين. وعبثاً كرّرت عليه زوجته و«محظوظ» أنّه لم يكن هناك من قوّة إنسانية يمكنها أن تمنع قضاء القدر، وطالما أنّه زهونغ ـ يي فقد عمل الممكن، فعلوم الطب ماتزال عاجزة عن منع أو وقف حالات النزيف المشؤومة التي تقتل الكثير من النساء أثناء الولادة. كان الأمر بالنسبة لتاو شيين كما لو أنّه يدور في حلقات ليجد نفسه في المكان الذي كان فيه قبل ثلاثين عاماً، في هونغ كونغ، حين ولدت زوجته الأولى لين طفلة.

هي أيضاً بدأت تنزف، ونذر، خلال تلهفه في إنقاذها، للسماء أيّ شيء مقابل حياة لين. الطفلة ماتت بعد دقائق قليلة، وفكّر أنّ ذاك كان ثمن إنقاذ حياة زوجته. ولم يتصوّر قط أنّه بعد ذلك بكثير، وعلى الطرف الآخر من العالم، عليه أن يدفع أيضاً من جديد الثمن ابنته لين.

ـ لا تتكلّم، هكذا يا أبي، من فضلك ـ كان محظوظ يردّ عليه ـ. القضية ليست قضية مبادلة حياة بحياة، فهذا تطيّر لا يليق برجل له ذكاؤك وثقافتك. لا علاقة لموت أختي بموت زوجتك الأولى أو بك. فهذه المآسي تحدث في كلّ لحظة.

ـ وما فائدة كل تلك السنين من الدراسة والتجربة إذا لم أستطع إنقاذها؟ ـ راح تاو شيين يتحسّر.

ـ راح ملايين النساء يمتن أثناء الولادة، وأنت فعلت ما استطعت من أجل لين...

إليثا سومّرز كانت مخنوقة مثل زوجها حزناً على ضياع ابنتهما الوحيدة، ولكنّها كانت أيضاً تحمل مسؤولية رعاية اليتيمة الصغيرة. فبينما كانت تنام وهي واقفة من التعب كان تاو شيين لا يُغمض له جفن، راح يقضي الليل متأمّلاً، يدور حول البيت مثل مسرنم ويبكي خلسةً. لم يُمارِس الحبَّ منذ أيّام ولا يظهر في الأفق، كما تدلّ الحالة النفسية في البيت، أنّهما سيستطيعان ذلك في المستقبل المنظور. بعد أسبوع اختارت إليثا الحل الوحيد الذي خطر لها: وضعت حفيدتها بين ذراعي تاو شيين، وأعلنت له أنّها ليست في وضع يجعلها قادرة على تربيتها، فقد أمضت أكثر من عشرين عاماً من حياتها وهي تربي ابنيها «محظوظ» ولين مثل عبدة، وقواها ماعادت تكفيها لتبدأ من جديد بتربية الصغيرة *لاي ـ مينغ*. وجد تاو شيين نفسه يحمل على عاتقه وليدة بلا أمّ، عليه أن يُغذّيها كلّ نصف ساعة بالحليب الممدد بالماء، بواسطة قطّارة، لأنّها تكاد لاتستطيع البلع، وعليه أن يهدهدها دون كللٍ لأنّها كانت تبكي من المغص ليلاً ونهاراً. لم تخرج الصغيرة مقبولة للنظر، فقد كانت

ضئيلة ومجعّدة، وصفراء الجلد من اليرقان، وملامحها مفلطحة من جرّاء الولادة الصعبة، وبلا أيّة شعرة في رأسها، لكنّ بعد أربع وعشرين ساعة من عنايته بها صار باستطاعة تاو شيين أن ينظر إليها دون خوف. وبعد أربعة وعشرين يوماً من حمله لها في كيس معلّق إلى كتفه، يطعمها بالقطّارة، وينام معها، بدأت تبدو له ظريفة. وبعد أربعة وعشرين شهراً من تربيتها عشق تاو شيين حفيدته تماماً، كما لو أنّه أمّ، واقتنع أنها ستصبح أكثر جمالاً من لين، رغم أنّه لم يكن هناك أدنى أساس يفترض ذلك. لم تعد تلك الصغيرة الرخوية عندما وُلِدت، ولكنّها بعيدة الشبه عن أمّها. رتابات تاو شيين، التي كانت تقتصر على عيادته وساعات الإلفة القليلة التي يقضيها مع زوجته تبدّلت تماماً. صار توقيته يدور حول *لاي ـ مينغ*، تلك الطفلة التي لها متطلباتها والتي تعيش ملتصقة به، وعليه أن يحكي لها حكايات كي يجعلها تنام أحياناً، ويجبرها على الأكل، ويحملها للمشوار، ويشتري لها أجمل الملابس من الدكاكين الأمريكية ودكاكين تشايناتاون، ويقدّمها لكلّ الناس في الشارع، لأنّه لم تُر طفلة بذكائها قط، كما كان يعتقد الجدُّ المبهور من شدّة عاطفته. كان واثقاً من أنّ حفيدته عبقرية، ولكي يبرهن على ذلك راح يُكلّمها بالصينية والإنكليزية، وهو ما أضيف إلى رطانة الإسبانية التي كانت تستخدمها الجدّة، مسبباً بذلك بلبلة هائلة. *لاي ـ مينغ*، كانت تردّ على تحريضات تاو شيين مثل أيّ طفل ابن سنتين، ولكن إجاباتها النادرة بدت برهاناً لا يُدحض على ذكاء فائق. قلّص ساعات عيادته لعدّة ساعات مسائية، وهكذا صار باستطاعته أن يقضي الصباح مع حفيدته يُعلّمها حيلاً جديدة، مثل قرد مدرَّب. وكان يسمح لإليثا على مضض أن تحملها معها إلى قاعة الشاي في المساء، بينما هو يعمل، لأنّه ركّب في رأسه أنّه يستطيع أن يبدأ بتدريبها على الطب منذ الطفولة.

ـ في أسرتنا هناك ستة أجيال من *الزهونغ ـ يي*، و*لاي ـ مينغ* ستكون السابعة، نظراً لأنّه ليس لديك أيّ قابلية لذلك يا محظوظ. ـ أبلغ تاو شيين ابنَهُ «محظوظ».

ـ ظننت أن الرجال وحدهم يستطيعون أن يُصبحوا أطباء ـ علّق محظوظ.

ـ كان هذا في السابق. ستصبح *لاي* ـ مينغ أوّل امرأة زهونغ ـ يي في التاريخ ـ ردّ تاو شيين.

لكنّ إليثا سومّرز لم تسمح له بأن يحشو رأس حفيدتها بنظريات طبيّة في هذا العمر المبكّر جدّاً؛ لأنه سيكون هناك وقت لذلك فيما بعد، وإذ ذاك كان من الضروري إخراج المخلوقة من تشايناتاون عدّة ساعات في اليوم من أجل أمركتِها. كان الجدّان متفقين في هذه النقطة على الأقل، يجب على *لاي* ـ مينغ أن تنتمي إلى عالم البيض، حيث ستملك فرصاً أكثر مما بين الصينيين. وكان من مصلحتهما أنّ الصغيرة لا تحمل أيّة ملامح آسيوية، فقد جاءت إسبانية تماماً مثل عائلة أبيها. وإمكانية أن يعود سِبِرو دِل باليه ذات يوم بهدف المطالبة بابنته المزعومة، ويحملها معه إلى تشيلي أصبحت هاجساً لايطاق، ولذلك كانوا لا يذكرونها، افترضوا فقط أنّ الشابّ التشيليّ سيحترم ما تم الاتفاق عليه ، فقد قدّم براهين زائدة على نبله. لم يمسا المال الذي خصّصه للطفلة، فقد وضعوه في حساب مصرفي من أجل تربيتها المستقبلية. وفي كلّ ثلاثة أو أربعة أشهر كانت إليثا سومّرز تكتب ملاحظة صغيرة إلى سِبِرو دِل باليه تحكي له فيها عن «محميّته»، كما تُسمّيها، كي يبقى واضحاً أنّها لا تعترف بأبوّته لها. لم تتلق في السنة الأولى جواباً، لأنّه كان ضائعاً في جِداده وحربه، ولكنّه تدبّر أمره بعد ذلك كي يكتب إليها من حين إلى آخر. ولم يروا باولينا دِل باليه ثانيةً لأنّها لم تعد إلى صالون الشاي، ولم تنفّذ تهديدها قط بانتزاع الحفيدة منهما وتدمير حياتهما.

وهكذا مرّت خمسة أعوام من الانسجام في بيت آل شيين، إلى أن أُفلِتت الأحداث التي ستمزّق الأسرة. كلّ شيءٍ بدأ بزيارة امرأتين، أعلنتا أنّهما مبشّرتين مشيخيّتين، وطلبتا الكلام على انفرادٍ مع تاو شيين. استقبلهما *الزهونغ* ـ يي في عيادته، لأنّه ظن أنّهما جاءتا لأسباب تتعلّق بالصحة، إذ ليس هناك من تفسير لأن تحضر امرأتان

من البيض إلى بيته بغتة. بدتا أختين، كانتا شابّتين، طويلتين، ورديّتي اللون، فاتحتيّ لون العيون مثل ماء الخليج، وكلتاهما تبدي مظهر الثقة المشعة الذي يرافق الغيرة الدينية عادةً. قدّمتا نفسيهما باسم التعميد دونالدينا ومارتا، وشرعتا تشرحان له أنّ مهمة المشيخية في تشايناتاون قد سارت حتى تلك اللحظة بكثير من الحذر والفطنة كيلا يسبّبوا إهانة للجالية البوذية، ولكنْ لديهما الآن أعضاء جدد عازمون على فرض الحدّ الأدنى من الحشمة المسيحية في هذا القطّاع، الذي، وكما قالتا، «ليس أرضاً صينيّة، بل أمريكية، ولا يمكن أن يُسمَح بأن يُخترق القانون والأخلاق هناك». كانتا قد سمعتا عن فتيات الـ *سينغ ـ سونغ* ولكن توجد مؤامرة من الصمت حول تجارة الطفلات العبدات لأهداف جنسية. والمبشرتان تعرفان أنّ السلطات الأمريكية تتلقّى رشاوى وتغضُّ الطرف. وهناك من أشار إليهما بأنّ تاو شيين سيكون الوحيد الذي يملك الجرأة الكافية كي يحكي لهما الحقيقة ويساعدهما، لذلك جاءتا. كان *الزهونغ ـ يي* قد انتظر هذه اللحظة عقوداً. ففي عمله البطيء القائم على إنقاذ هذه البائسات المراهقات، لم يلق دعم أحد غير المساندة الصامتة من بعض الأصدقاء من طائفة الكويكرز الذين كانوا يأخذون على عاتقهم إخراج العاهرات الصغيرات من كاليفورنيا والبدء بحياة جديدة بعيداً عن *التونغات* والقوّادين. كان عليه أن يشتري بالقدر الذي يستطيع دفع ثمنه منهنّ في المزايدات السريّة، ويستقبل منهن المريضات جداً اللواتي لايستطعن الخدمة في المواخير، يُحاوِل أن يشفي أجسادهنّ ويواسي أرواحهنّ، لكنّه لم يستطع تحقيق ذلك دائماً، فكثيرات منهن مُتْنَ بين يديه. في بيته كان هناك غرفتان لحماية فتيات الـ *سينغ ـ سونغ*، مشغولتان دائماً تقريباً، لكنّ تاو شيين كان يشعر أنّه، ومع نموّ الجالية الصينية في كاليفورنيا، كانت مشكلة العبدات تزداد سوءاً، وهو لا يستطيع أن يفعل إلا القليل للتخفيف من ذلك. هاتان المبشرتان نزلتا من السماء، أوّلاً لأنّهما تتلقيان دعم من الكنيسة المشيخية الجبّارة، ثمّ إنّهما كانتا بيضاوين، هما تستطيعان أن تستنفرا الصحافة، والرأي العام، والسلطات الأمريكية، للقضاء على تلك التجارة التي لا ترحم. بحيث

إنّه حكى لهما بالتفصيل كيف كانوا يشترون أو يختطفون تلك المخلوقات في الصين، وكيف أنّ الثقافة الصينية تحتقر الطفلات، فقد كان من المعتاد في ذلك البلد أن يعثر على مولودات مخنوقاتٍ في آبار، أو مرميّات في الشارع، وقد نهشتها الجرذان والكلاب. لم تكن الأسر تريدهنّ، لذلك كان من السهل الحصول عليهنّ ببعض السنتيمات، والمجيء بهنّ إلى أمريكا، حيث يستطيعون استغلالهنّ بآلاف الدولارات. فهم ينقلونهن مثل الحيوانات في صناديق كبيرة في قاع السفن، ومن كنّ ينجين من الموت بالتجفاف والكوليرا يدخلن في الولايات المتحدة بعقود زواج مزيّفة. فجميعهنّ كنّ عرائس أمام أعين موظّفي الهجرة، أما صغر سنهن، والحالة الجسدية المؤسفة وتعبير الذعر الذي يبدو على وجوههن، فلم يكن يثير الشكوك ظاهرياً. لم تكن لتلك الفتيات أية أهمية. ما يجري لهنّ «شأن من شؤون السماويين» ولاعلاقة للبيض به. شرح تاو شيين لِدونالدينا ومارتا متوسط الحياة لفتيات الـ *سينغ ـ سونغ* منذ أن يبدأنِ مهنتهنّ بأنه من ثلاث أو أربع سنوات: يستقبلن حتى ثلاثين رجلاً في اليوم، ويمتن بأمراض الزهري، والإجهاض، والتهاب الرئتين، والجوع وسوء المعاملة؛ وإن بلوغ عاهرة صينية العشرين من عمرها لهو أمر مستغرب. لا أحد لديه سجلّ لحياتهنّ، لكن وبما أنّهن يدخلن إلى البلد بوثيقة شرعية فلابد من وجود سجلّ لموتهنّ، إن كان هناك من يسأل عنهم، وهذا أمر غير وارد. كثيرات أُصبن بالجنون. وكنّ رخيصات يمكن استبدالهنّ بلمح البصر، وما من أحد كان يستثمر ماله على صحّتهنّ أو يجعلهن يعشن طويلاً. وقد دلّ تاو شيين المبشّرتين على العدد التقريبي للطفلات العبدات في تشايناتاون، ومتى تتم المزايدات وأين تقع المواخير، بدءاً من أكثرها بؤساً، التي تتلقّى فيها الفتيات معاملة الحيوانات المحبوسة في أقفاص، وحتى أكثرها رفاهية الذي تديره *آه توي* الشهيرة، التي تحوّلت إلى أكبر مستوردة للحلم الطازج من البلد. كانت تشتري طفلات في الحادية عشرة من أعمارهن في الصين، وأثناء الرحلة إلى أمريكا تُسلّمهنّ إلى البحارة، بحيث إنهنّ يعرفن حين يصلن قول «ادفع أوّلاً»، وكيف يميزن الذهب الحقيقي من البرونز، كيلا

يغشوهنّ بمعدن البلهاء. كانت فتيات *آه توي* يُخترن من بين أجمل الفتيات، وحظّهن أفضل من حظّ الأخريات اللواتي كان مصيرهنّ في المزايدات مثل المواشي، ويخدمن أتعس الرجال وبالطرق التي يطلبونها ، بما فيها أكثرها قسوة وإهانة. كثيرات كنّ يتحوّلن إلى متوحّشات، ويتصرفن كالحيوانات الضارية، وعليهم أن يربطوهنّ بالسلاسل إلى الأسرّة، والإبقاء عليهنّ فاقدات الوعي بالمخدّرات. أعطى تاو شيين أسماءَ التجارِ الصينيين الأثرياء، وأصحاب الامتياز الثلاثة أو الأربعة، ومن بينهم ابنه «محظوظ» نفسه، الذين يستطيعون أن يُساعدوهما في مهمّتهما، والوحيدين الذين يتفقون معه في القضاء على هذا النوع من التجارة. فسجلت دونالدينا ومارتا، بيدٍ مرتعشة وعيون مبلّلة بالدمع، ملاحظةً عن كلّ ما قاله تاو شيين، ثمّ شكرتاه وحين ودّعتاه سألتاه عمّا إذا كان باستطاعتهما أن تعتمدا عليه حين تحين لحظة الفعل.

ـ سأفعل ما باستطاعتي فعله ـ ردّ *الزهونغ ـ يي*.

ـ ونحن أيضاً، يا سيّد شيين. إنّ البعثة المشيخية لن يهدأ لها بال حتى تضع نهاية لهذا الفساد، وتنقذ هذه الطفلات المسكينات، حتى ولو اضطررنا أن نفتح أبواب أوكار الفساد تلك بالفؤوس ـ أكّدتا له.

حين علم «محظوظ شيين» بما فعله أبوه أثقل عليه سوء الفأل. كان يعرف جوّ تشايناتاون أفضل من تاو بكثير، وانتبه إلى أنّ أباه قد ارتكب تهوّراً لا يمكن إصلاحه. لقد كان لدى محظوظ أصدقاء من كلّ مستويات الجالية الصينية بفضل مهارته ولطفه؛ فقد مضى عليه سنوات وهو يمارس تجارة مربحة، كان يكسب باعتدال لكن باستمرارية، على طاولات *الفان ـ تان*. وعلى الرغم من صغر سنّه فقد تحوّل إلى شخصية محبوبة ومحترمة من الجميع، بما فيهم عصابات *التونغات*، الذين لم يُزعِجوه قط. ساعد والده لسنواتٍ في إنقاذ فتيات الـ *سينغ ـ سونغ* بالاتفاق الضمني على عدم التدخل في الورطات الكبرى، وكان يعرف تماماً ضرورة الحصافة المطلقة من أجل العيش في تشايناتاون، حيث إنّ القاعدة الذهبية هي عدم

الاختلاط بالبيض - *الفان - غوي* المرهوبين والمكروهين - وحلّ كلّ شيء، وخاصّة الجرائم ، بين أبناء البلد. وآجلاً أو عاجلاً سيعرف أنّ والده أخبر المبشرتين، وأن هاتين بدورهما أخبرتا السلطات الأمريكية. لم يكن هناك من صيغة لإبعاد المصيبة، وكلّ فأله الحسن لن يكفي لحمايتهم. هذا ما قاله لتاو شيين وهذا ما حدث في تشرين الأوّل من العام 1885، الشهر الذي أتممتُ فيه الخامسة من عمري.

قدر جدّي تقرّر يوم الثلاثاء المشهود الذي وصلت فيه إلى تشايناتاون المبشرتان في وضح النهار يرافقهما ثلاثة رجال شرطة إيرلنديين أقوياء والصحافي العجوز جاكوب فريمونت، المتخصّص بالجرائم. توقّف النشاط في الشارع واجتمع حشد ليلحق بموكب *الفان - غوي*، غير المعهود في الحي، والذي كان يتوجّه بخطى ثابتة إلى بيت بائس يُطل من بابه الضيّق المحصّن بالقضبان وجها فتاتين من فتيات الـ *سينغ - سونغ* مطليان بمسحوق الأرز والأحمر القاني، عارضتين نفسيهما على الزبائن بموائهنّ وأثدائهنّ، التي لكلبتين، الصغيرة والعارية. حين رأتا البيض يقتربون اختفت الفتاتان في الداخل وهما تطلقان صرخات الذعر، وظهرت مكانهما عجوز غاضبة ردّت على الشرطة بسلسلة من الشتائم بلغتها. وبإشارة من دونالدينا ظهر فأس في يد أحد الإيرلنديين وشرعوا بالإطاحة بالباب أمام ذهول الحشد. اندفع البيض عبر الباب الضيّق، وسُمع صراخ، وجري، وأوامر بالإنكليزية، وقبل انقضاء خمس عشرة دقيقة ظهر المهاجمون وهم يسوقون نصف دزينة من الطفلات المذعورات، والعجوز التي جاءت ترفس يجرّها أحد رجال الشرطة، وثلاثة رجال يسيرون خافضي الرؤوس تحت تهديد المسدس. قامت في الشارع بلبلة، وحاول بعض الفضوليين التقدم متوعّدين، ولكنّهم توقّفوا جامدين حين سُمعت عدّة طلقات في الهواء. صعد *الفان - غوي* بالفتيات والآخرين الموقوفين في سيّارة شرطة مُغلقة وانطلقت الجياد بالحمولة. قضى أهل تشايناتاون بقيّة النهار بالتعليق على ما حدث. لم يسبق أن تدخّلت الشرطة قطّ في الحيّ

لأسباب لا تتعلّق مباشرة بالبيض. فقد كان هناك تسامح كبير من قبل السلطات مع «عادات الصفر»، كما يصفونهم، ولا أحد أزعج نفسه في التحقيق حول مدخّني الأفيون، وكهوف القمار، وأقل من ذلك الطفلات العبدات، التي اعتبروها واحدة من مفاسد *السماويين* الفجّة، مثل أكل الكلاب المطبوخة بصلصة الصويا. الوحيد الذي لم يُظهر دهشة، وأظهر سعادة كان تاوشيين؛ *الزهونغ ـ يي* الشهير الذي كاد يتعرّض لاعتداء من قبل قاتلين من إحدى عصابات *التونغات* في مطعم كان يتناول فيه دائماً طعام غدائه مع حفيدته، حين أعرب بصوت عال بما يكفي كي يُسمع رغم لغط المحل، عن رضاه لأنّ سلطات المدينة بدأت تأخذ دورها أخيراً في مسألة فتيات الـ *سينغ ـ سونغ*. ورغم أنّ معظم الزبائن على الطاولات الأخرى كانوا يعتبرون الفتيات العبدات، في مجتمع يكاد يكون بالكامل ذكور، مادّة استهلاكية لا غنى عنها، تقدّموا للدفاع عن تاو شيين لأنّه كان الشخصيّة الأكثر احتراماً بين الجالية. ولولا تدخّل صاحب المطعم المناسب لحدثت مشاجرة. انسحب تاو شيين غاضباً، وهو يمسك بيدٍ حفيدته، وباليد الأخرى غداءه ملفوفاً في قطعة من الورق.

ربّما لم يكن ليترتّب عن حادث الماخور نتائج أعظم لولا أنّه تكرّر بعد يومين بطريقة مشابهة في شارعٍ آخر: المبشرتان نفسهما، الصحافيّ جاكوب فريمونت نفسهُ، ورجال الشرطة الإيرلنديين أنفسهم، لكنّهم أحضروا معهم هذه المرّة أربعة ضبّاط مساندة، وكلبين ضخمين شرسين يشدّان سلسلتيهما بقوة. دامت المناورة ثماني دقائق، وحملت دونالدينا ومارتا معهما ست عشرة طفلة، وقوّادتين، وقبضايين، وعدداً من الزبائن خرجوا وهم يمسكون ببنطلوناتهم. دبّ الصوت بما تهدف إليه البعثة المشيخية وحكومة *الفان ـ غوي* مثل البارود في تشايناتاون، ووصلت إلى الزنزانات الحقيرة حيث تعيش فيها العبدات. ولأوّل مرّة في حياتهنّ هبّت نسمة أمل. لم تُجْدِ التهديدات بسحقهن ضرباً بالعصي إذا ما تمرّدن، أو القصص المخجلة التي رُويت لهن عن الشياطين البيض الذين سيحملونهنّ ليمتصّوا دماءهنّ، ومنذ تلك اللحظة بحثت الفتيات

عن طريقة للوصول إلى أسماع المبشرات، وما هي إلاّ أسابيع حتى ازدادت مداهمات الشرطة، ترافقها مقالات في الصحف. هذه المرّة وُضعت ريشة جاكوب فريمونت الماكرة في خدمة الصواب، هازّة ضمائر المواطنين ببلاغة حول المصير المريع للعبدات الصغيرات في قلب سان فرانسيسكو. الصحافي العجوز سيموت بعد قليل دون أن يدرك الصدمة التي أحدثتها مقالاته، بينما سترى دونالدينا ومارتا مستقبل حماستهما. فقد تعرّفتُ عليهما بعد ثمانية عشر عاماً في إحدى رحلاتي إلى سان فرانسيسكو، وما زالتا تحافظان على لون بشرتيهما الوردي، وعلى الحماس التبشيري في نظرتهما، وما زالتا تجوبان تشايناتاون يوميّاً، تراقبان طوال الوقت، لكنّ ما عاد من يناديهما *بالفان - غوي* الملعونتين، ولا أحد يبصق حينَ تمرّان. ينادونهما الآن *لو - مو*، الأم الحنون، وينحنون لتحيّتهما. لقد أنقذتا آلاف المخلوقات، وقضيا على تجارة الطفلات الوقحة، رغم أنّهما لم تتمكّنا من القضاء على أشكالٍ أخرى من الدعارة. ولا بدّ أن جدّي تاو شيين راضٍ جدّاً.

في الأربعاء الثاني من شهر تشرين الثاني ذهب تاو شيين، كما في كلّ الأيام في طلب حفيدته *لاي - مينغ* في صالون الشاي زوجته في ساحة الوحدة. فالطفلة تبقى مع جدّتها إليثا في المساءات حتى ينتهي *الزهونغ - يي* من آخر مريض في عيادته ويذهب ليأخذها. لم تكن المسافة إلى البيت تزيد على سبع كوادرات، لكنّ تاو شيين اعتاد أن يجوب الشارعين الرئيسيين في تشايناتاون في تلك الساعة، حين كانت الفوانيس الورقية تضاء في الحوانيت، فالناس يُنهون أعمالهم ويخرجون لشراء لوازم العشاء. كان يتنزّه ممسكاً بيد حفيدته في الأسواق، حيث تتكوم الفواكه الغريبة المجلوبة من الجانب الآخر من البحر، وطيور البط المزيّن المعلّق بخطافات، والفطر، والحشرات، والبحريات، وأعضاء الحيوانات والنباتات التي يمكن أن توجَد هناك فقط. وبما أنّه ما من أحد كان يملك الوقتَ كي يطبخ في بيته، فقد كان تاو شيين يختار بدقّة الصحون التي يحملها معه للعشاء، وهي ذاتها على الدوام تقريباً، لأنّ *لاي - مينغ* كانت مزاجية في

الطعام. كان جدّها يغريها بإعطائها لُقيمات من الطبخ الكانتوني الرائع الذي يبيعونه في بسطات الشارع، ولكنّه كان يكتفي دائماً بتنويعات *التشاو ـ مِيِنْ* وأضلاع الخنزير ذاتها. في ذلك اليوم كان تاو شيين قد استخدم لأوّل مرّة طقماً جديداً، من صنع أفضل خيّاطٍ صينيّ في المدينة، والذي لا يخيط إلا للرجال المتميّزين. كان قد ارتدى ملابس على الطريقة الأمريكية زمناً طويلاً، ولكنّه منذ أن حصل على المواطنية الأمريكية كان يحاول أن يفعل ذلك بأناقة دقيقة، كعلامة احترام تجاه وطنه الذي تبناه. كان يبدو جميلاً جدّاً في طقمه الداكن المتقن، والقميص ذي الياقة مع ربطة العنق القديمة، ومعطف الجوخ الإنكليزي، والقبّعة العالية والقفازين المصنوعين من جلد الماعز العاجيّ اللون. وكان مظهر الصغيرة *لاي* ـ مينغ يتناقض مع زيّ جدّها الغربي، فهي ترتدي بنطلوناً سميكاً، وجاكيتاً من الحرير المحشوّ ذي اللون الأصفر والأزرق اللامعين، سميكةً إلى حدّ أنّ الطفلة كانت تتحرّك كتلة واحدة، مثل دبّ، وقد جمع شعرها في جديلة مشدودة، وقبّعة سوداء مطرّزة على طريقة هونغ كونغ. وكلاهما كان يلفت الانتباه بين الحشود المختلطة، التي تكاد تكون كلّها ذكوراً، وترتدي السراويل التقليدية والعباءات السود، المعروفة، بحيث إنّ الجالية الصينية تبدو موحّدة اللباس. كان الناس يتوقّفون ليحيّوا *الزهونغ ـ يي*، فمن لم يكن مريضه كان يعرفه بالنظر والاسم، وكان التجار يهدون الصغيرة أشياء محبّبة كي يسترضوا جدّها: جُعل فسفوري في قفصه الخشبيّ، أو مروحة ورقية، أو لقيمة لذيذة. وعند حلول الليل كان يسود تشايناتاون جوّ احتفاليّ دائماً، وجلبة حوارات بصوت عال، ومساومات وتدليل على بضائع؛ وتفوح رائحة المقالي والتوابل، والسمك والقمامة، لأنّ الفضلات راحت تتكوّمُ وسطَ الشارع. تنزّه الجدُّ والحفيدةُ في المحلات التي يبتاعون منها أشياءهم عادة، تحدثا مع الرجال الذين كانوا يلعبون *الماه* ـ جونغ، جالسين على الأرصفة، وذهبا إلى حانوت بائع الأعشاب البائس ليأخذا بعض الأدوية التي أوصى عليها *الزهونغ* ـ يي من شانغهاي، وتوقّفا برهة في إحدى المقامر كي يروا طاولات *الفان ـ تان* من الباب، لأنّ تاو شيين كان يحس

بنفسه مفتوناً بالمراهنات، ولكنّه يتجنّبها كما يتجنّب الوباء. كما شربا فنجان شاي أخضر في حانوت الخال «محظوظ». حيث استطاعا أن يتأمّلا آخر شحنة عادياتٍ وأثاث محفور وصلت للتو، واستداروا على الفور نصف دورة كي يقطعا طريق العودة إلى البيت بخطى بطيئة. فجأة اقترب فتى أسيرُ هياج كبير يرجو *الزهونغ - يي* كي يُهرع راكضاً، لأنّ حادثاً قد وقع: رجل رُفس في صدره من قبل جوادٍ، وهو يبصق دماً. تبعه تاو شيين بكلّ سرعة دون أن يفلت يد حفيدته في زقاق جانبي ثم آخر، فآخر، داخلاً في ممرات ضيّقة من طوبوغرافيا الحي الشيطانية، إلى أن وجدا نفسيهما وحيدين في زقاق مُغلَق لا تكاد تضيئه فوانيس الورق في بعض النوافذ، والتي تلمع مثل حباحب شبحي. كان الفتى قد اختفى. استطاع تاو شيين أن ينتبه إلى أنّه قد وقع في مكيدة، فحاول التراجع، لكنّ الوقت كان قد تأخّر. فقد خرج من الظلمة عدد من الرجال المسلحين بالهراوات، وأحاطوا به. كان *الزهونغ - يي* قد درس بعض الفنون القتالية في شبابه، ويحمل دائماً سكيناً في حزامه تحت الجاكيت، ولكنّه لم يكن يستطيع الدفاع عن نفسه دون أن يفلت يدَ الصغيرة. ملك لحظات ليفكر بما يريدون، ماذا يجري. وسمعَ اسم *آه توي*، بينما الرجال ببيجاماتهم السوداء، ووجوههم المغطاة بالمناديل، يرقصون حوله، ثم تلقّى الضربة الأولى على ظهره. شعرت *لاي - مينغ* بأنها تُشدُّ إلى الخلف، وحاولت أن تبقى متشبّثةً بجدّها، لكن اليدَ العزيزةَ أفلتتها. رأت الهراوات ترتفع وتهبط على جسد جدّها، ورأت دفقاً من الدم ينبثق من رأسه، ورأته يسقط على وجهه على الأرض، ورأت كيف استمرّوا بضربه إلى أن أصبح مجرّد كتلة دامية على حجارة الشارع.

«حين جاؤوا بتاو على حمالة مرتجلة ورأيتُ ما فعلوه به، تحطّم شيء في داخلي إلى ألف شظيّة، مثل كأس من بلور، وانسفحت قدرتي على الحب للأبد. جففتُ من داخلي. لم أعد نفسي بعد ذلك قط. إنني أشعر بالودّ تجاهك، وتجاه «محظوظ» وأولاده، يا *لاي - مينغ*، وشعرت به تجاه الآنسة روز، لكنّ الحب لم أشعر به إلاّ تجاه تاو.

لاشيء يهمّني كثيراً دونه؛ وكلّ يومٍ أعيشه هو يوم ينقص من انتظاري الطويل للاجتماع به من جديدٍ». هذا ما اعترفت لي به جدّتي أليثا سومّرز. وأضافت إنّها حزنت لأجلي، لأنّه كان من نصيبي أن أحضر استشهاد أعز كائن بالنسبة إليها، ولكنّها افترضت أنّ الزمنَ سيمحو الصدمة النفسية. ظنّت أنّ حياتي بجانب باولينا دِل باليه، بعيداً عن تشايناتاون، ذلك كافٍ كي أنسى تاو شيين. لم تتصوّر أنّ مشهد الزقاق المغلق سيبقى للأبد في كوابيسي، وأنّ رائحة وصوت وملمس يدي جدّي الناعم سيلاحقني في يقظتي.

وصل تاو شيين حيّاً إلى ذراعي زوجته، وبعد ثماني عشرة ساعة استردّ وعيه، وبعد أيّام استطاع أن يتكلّم. استدعت إليثا سومّرز طبيبين أمريكيين لجأا في عدّة مناسباتٍ إلى معارف *الزهونغ - يي*. فحصاه بحزن: لقد كسروا عمودَه الفقري، وفي حال بقائه على قيد الحياة، وهذا غير محتمل، سيكون نصف جسده مشلولاً. لا تستطيع العلومُ فعل شيءٍ لأجله، كما قالا. فاقتصرا على تنظيفِ جراحه، وتسوية العظام المكسرة قليلاً، وخياطةِ جراح رأسِه، وتركِ جرعاتٍ قويّة من المخدّر لتعطى له. وخلال ذلك كانت الحفيدة التي نسيها الجميع منكمشة بجانب سرير جدّها وهي تناديه بلا صوت - *وي غوا! وي غوا...!* - دون أن تفهم لماذا لا يردّ عليها، ولماذا لا يسمحون لها بالاقتراب، ولماذا لا تستطيع أن تنام مُهدهَدَةً بين ذراعيه كما هي الحال دائماً. أعطت إليثا سومّرز المريضَ جرعات المخدّر بالصبر ذاته الذي جعلته يبلع به الحساء بالقمع. لم تسمح للقنوط بأن يجرفها؛ وسهرت إلى جانب زوجها هادئة دون بكاء أيّاماً، إلى أن استطاع أن يُكلّمها عبر شفتيه المتورّمتين وأسنانه المحطّمة. عرف *الزهونغ - يي* دون أدنى شك أنّه لا يستطيع ولا يرغب أن يعيش في هذه الظروف، هكذا عبّر لزوجته، طالباً منها ألاّ تُطعِمه أو تسقيه. ولأن الحبّ العميق والحميمية المطلقة التي تقاسماها لأكثر من ثلاثين سنة كانت تسمح لكلٍّ منهما أن يتكهّن بتفكير الآخر، لم يكن هناك حاجة للكثير من الكلمات. لو ملكت إليثا إغواء أن تتوسّل زوجها بالعيش معطّلاً في فراشه، لمجرّد ألاّ يهجرها في هذا العالم، فقد ابتلعت الكلمات، لأنّها كانت تُحبّه كثيراً

ولا يمكنها أن تتوسّل إليه مثل هذه التضحية. من جهته لم يكن على تاو شيين أن يوضّح شيئاً، لأنّه يعرف أنّ زوجته ستفعل الضروريَّ كي تساعده على الموت بكرامة، تماماً كما سيفعل هو لو أنّ الأمور جرت بطريقة أخرى. وفكّر أنّه أيضاً ليس هناك ضرورة للإلحاح في نقل جثمانه إلى الصين، لأنّ ذلك لم يعد يبدو له مهمّاً فعلاً، وهو لا يرغب بأن يُضيف على كاهلها حملاً إضافياً، لكنّها قرّرت أن تفعل ذلك في جميع الأحوال. لا أحد منهما كان متحمّساً لمناقشة ما هو بالمحصّلة واضح. فقط قالت له إليثا إنّها ليست قادرة على أن تتركه يموت جوعاً وعطشاً، لأنّ ذلك قد يستغرق أيّاماً كثيرةً، بل وربّما أسابيع، وهي لن تسمح بأن يُعاني من احتضار طويل إلى هذا الحد. فأشار إليها تاو شيين كيف تفعل ذلك. طلب منها أن تذهب إلى عيادته، وأن تبحث في أحد الدروج وتأتيه بقارورة زرقاء. كانت قد ساعدته في العيادة خلال السنوات الأولى من علاقتهما، وبقيت تفعل ذلك حين يغيب المساعد، وكانت تعرف قراءة علامات القوارير بالصينية، وتتقن إعطاء الحقن. دخل «محظوظ» ليتلقّى مباركة أبيه وخرج على الفور يهزّه انتحابه. «لا لاي ـ مينغ ولا أنت يجب أن تنشغلا يا إليثا، لأنّني لن أتخلّى عنكما، وسأبقى دائما قريباً منكما كي أحميكما، وما من شيءٍ سيِّئ يمكن أن يحدث لأيّ منكما» تمتم تاو شيين. رفعت حفيدتها بين ذراعيها وقرّبتها من الجدّ كي يستطيع أن يودّع أحدهما الآخر. رأت الصغيرة ذلك الوجه المتورِّمَ فانكمشت مذعورة، لكنّها عند ذلك اكتشفت البؤبؤين الأسودين اللذين كانا ينظران إليها بالحب الأكيد ذاته، فعرفته. تشبّثت بكتفي جدّها، وبينما هي تُقبّله وتناديه قانطةً راحت تُبلّله بدموعها الحارّة إلى أن فصلوها عنه شداً، وحملوها إلى الخارج، لتحط بين ذراعي خالها «محظوظ». عادت إليثا سومّرز إلى الغرفة التي عاشت فيها سعيدة مع زوجها، وأغلقت البابَ خلفها بنعومة.

ـ ما الذي جرى عندئذ، يا *وي ـ بو*؟ ـ سألتُها.

ـ قمتُ بما كان عليَّ أن أقومَ به، يا *لاي ـ مينغ*. استلقيتُ على الفور إلى جانب تاو وقبّلته طويلاً. نفسه الأخير بقي معي...

خاتمة

لولا جدّتي إليثا، التي جاءت من بعيد لتنير الزوايا المظلمة من ماضيّ، ولولا الآلاف من الصور التي تتراكم في بيتي، كيف كنتُ سأستطيع أن أروي هذه القصّة؟ كان عليّ إذاً أن أشكّلها من المخيلة، دون أيّة مادّة أخرى غير الخيوط الفرورة لكثير من الحيوات الغريبة وبعض الذكريات الكاذبة. الذاكرة خيال. نختار أكثر ما فيها بريقاً وأكثر مافيها ظلمة، متجاهلين ما يُخجِلنا، وهكذا نحيك سجّادة حياتنا العريضة. ومن خلال الصورة والكلمة المكتوبة أُحاول أن أنتصر لشرط حياتي الزائلة، أن أمسك باللحظات قبل أن تتلاشى، وأقشع غموض ماضيَّ. كلّ لحظة تختفي في نفخة وتتحوّل حالاً إلى ماضٍ، فالواقع فرور، ومحض حنين. بهذه الصور وهذه الصفحات أبقي على الذكريات حيّةً، إنّها مقبض الحقيقة الهاربة، لكنّها في جميع الأحوال حقيقة، هي تبرهن على أنّ هذه الأحداث قد وقعت. وهؤلاء الأشخاص مرّوا في قدري. بفضلها أستطيع أن أبعث أميّ، التي ماتت حين ولِدتُ، جدَّتيَّ المجرَّبتين، وجدّي الصيني الحكيم، وأبي المسكين وحلقاتٍ أخرى من سلسلة أسرتي الطويلة، وجميعهم من ذوي الدماء المختلطة والحارة. أكتبُ كي أوضِّح أسرارَ طفولتي القديمة، أحدّد هويّتي، أخلق أسطورتي الخاصّة بي. ففي النهاية الشيء الوحيد الذي نملكه تماماً هو الذاكرة التي نسجناها. كلّ واحد يختار درجة اللون كي يحكي قصّته

الخاصة؛ وبودّي أن أختار الوضوح الدائم لصورة مطبوعة بالبلاتين، لكن ما من شيء في قدري يملك هذه الخاصية المضيئة. أعيش بين صبغات باهتة، وألغاز مخفية، وعدم يقين؛ واللون المناسب لرواية حياتي ينطبق أكثر مع لون صورة حائلة، صورة بالسِبيا.





عرّفت إيزابيل الليندي عملها الجديد «صورة عتيقة» بأنه «نوع من الرحلة الخرافية، ترمز إلينا نحن النساء عندما نخرج من أحزمة العفة كي نصبح ذكوراً، ثم نعود لاحقاً بدون هذه المشدات والأحزمة لنرتدي ملابسنا النسائية».

وكما في روايتها السابقة «ابنة الحظ»، ورواياتها عامةً، فإن النساء يشكلن محور ونواة التاريخ. فهي تتابع سيرة إليثا سومرز، الشخصية الرئيسية في «ابنة الحظ»، عبر حفيدتها أورورا دل باليه، المصورة الفوتوغرافية، التي تقرر العودة إلى موطنها الأصلي، حيث ولدت، لتتصالح مع طفولتها المفعمة بالحنين، وذلك بعد أن عاشت طفولتها في تشيلي، ومراهقتها في كاليفورنيا بالولايات المتحدة. حيث كانت هناك برفقة جدتها من أبيها باولينا دل باليه التي ربّتها، والتي لها ظهور مهم ومؤثر في «ابنة الحظ». فهي امرأة أسست لمشاريع اقتصادية مريحة ومربحة بفضل ذكائها وموهبتها التجارية. هناك في تشيلي، تدخل أورورا في علاقة مباشرة مع حقيقتها السياسية الاجتماعية والقاسية، في محاولة لتشكيل وإنشاء رؤية أكثر تقدمية وأكثر قدرة على تحويل المجتمع.

في «صورة عتيقة» تركز إيزابيل الليندي على إشكالية المرأة في نهايات القرن التاسع عشر بإمكانياتها الشحيحة في التطور، إضافة إلى ولادة المعارك التحررية بما فيها معركة أورورا نفسها، التي تفضي إلى ظهور وميض صغير من النور في بلد محكوم بالرجال ومن أجل الرجال. كل ذلك عبر تناولها التواريخ المتحولة من جيل إلى جيل والفياضة بالعواطف والعلاقات الخفية، لكأنها تؤكد جزءاً من تقليد الكتابة لديها يكتمل ويكمل حلقة نسوتها المناضلات اللواتي عشنا معهن في هذه الرواية، وفي رائعتيها «ابنة الحظ» و«بيت الأرواح»، فهي بهذه الروايات الثلاث تحديداً، تؤرخ روائياً لما يزيد عن قرن من تاريخ تشيلي. وهي تؤكد ذلك عندما تقول «المهم في أي كاتب هو قبول سحر الانفعالات والتقاليد غير المرئية التي تؤثر في الحياة اليومية لأي منا».

لاشك أننا أمام عمل ساحر ومدهش، لكاتبة قدمت لها دار ورد غالبية كتبها، بترجمات متفوقة وأمينة، حافظت فيها على أسلوب الكاتبة وعلى روح النص وحيويته.

الناشر